جــذوع وفــروع

جُذُوع وفُرُوع

تأليف

عبدالرحمن بن زيد السويداء

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

الرياض ص.ب ٨٤٩٢ الرياض ١١٤٨٢
هاتف ٤٧٦٩١٠٦



القصة رقم (١١)

الشجاعة الأدبية

لم تكد البلد القابعة في أحضان ذلك الحماد أن تنعم بسكون الليل وهدوئه حتى دوى صوت المنادي مخترقا سدف الظلام السميكة يطلب من الرجال الحضور حالاً باشارة صوتية يعرفونها تشبه نداء الجيوش وقوة الاحتياط في الوقت الراهن المسمى «بالشفرة» ولم يمض طويل وقت حتى غصت الممرات الضيقة والشوارع المتعرجة بمناكب الرجال المدججين بالسلاح متجهين إلى مصدر النداء، وعندما تكامل الرجال في تلك الساحة التي غصت بهم قال أحدهم:

: لقد جاءنا رسول من الأمير فلان يطلب منكم المدد.

-: المدد!!

: نعم وهذا رسوله واقف أمامكم يتحدث إليكم.

-: بأي شيء نمده.

: يطلب المدد بالمال والرجال.

-: بالمال والرجال معاً؟

: نعم.

-: نستطيع الآن أن نمده بأحدهما.

: ولماذا لا يكون المدد بكليهما؟ هكذا قال المندوب.

-: لقد طلب منا الأمير فلان أن نمده بالرجال لمواصلة صراعه مع خصومه.

: مالنا ولفلان؟

-: إن هناك التزاماً يربطنا به ولا بد أن نسعفه بعدد من الرجال ليساعدوه على

مقارعه خصمه.

: وهذا ؟ هكذا تكلم ممثل أمير البلد.

-: هذا نستطيع أن نمده بالمال على الأقل في الوقت الراهن حتى يعود رجالنا من مهمتهم التي سيذهبون من أجلها.

: لماذا لا نمده بقوة رمزية من الرجال مع بعض المال ليسكت عنا ونكتفي شره.

-: لماذا؟

: ليس عندنا من الرجال ما يكفي.

-: ماذا تقول؟ هكذا قال مندوب الأمير القادم لطلب النجدة.

: ألا تعلم أن بلدتنا بحاجة هي الأخرى لحماية مسلحة تصد عنها غارات الطامعين وأهواء العابثين؟

-: البلد فيها ما يكفيها من الرجال.

: لم يبق فيها غير شيخ كبير أنهكه حمل السلاح وارهقه العمل مع مرور السنين، أو غلام صغير لا يستطيع حمل السلاح ولا يتكل عليه في حماية محارمنا وأموالنا.

-: أعتقد أن في الموجود بركة.

: نرجو أن يعذرنا الأمير ويقدر الوضع الذي نحن فيه.

-: إنه بحاجة إلى مساعدتكم.

: نحن على أتم استعداد الآن وسنمده بالمال والمؤن، وبعد أيام قلائل سنمده بالرجال.

-: المال لا يكفي الآن.

: بودنا لو جاءنا مندوبه قبل أن يأتي إلينا رسول فلان، لأمددناه بما يريد، لكنه سُبِقَ إلى ذلك ونحن سنمده بما نستطيع من المال.

-: المال لا يكفي، فالأمير في موقف حرج يريد مالاً ويريد رجالاً.

: لا نستطيع ذلك.

-: أعطونا نصف الرجال الذين سترسلونهم إلى فلان ونكتفي بنصف ما تمدوننا به من مال.

: أوه، هم عدد من الرجال أخبرنا الأمير بعددهم وأسمائهم ولا نستطيع

تخفيض العدد عما اتفقنا عليه.

-: وهذا الحشد الكبير من الرجال المسلمين؟

: جزء من هؤلاء من ستوكل إليهم المهمة.

-: والجزء الباقي؟

: سيبقون لحماية البلد.

-: إنكم تتذرعون بالحجج، وإلا فإن لديكم من الرجال ما يكفي لامداد الاثنين معاً.

: هذا غير صحيح، ونحن أعلم بأنفسنا وأخبر باعدادنا.

-: أتتركون الأمير يحتاج إلى الرجل الواحد وأنتم بهذا العدد الوفير؟

: كما أخبرناك، فإن لدينا التزاماً أدبياً مع الأمير فلان وسنمده بالعدد الذي اتفقنا عليه أما المتبقي بعد ذلك فسوف يبقى لحماية محارمنا والذود عن حمى ديرتنا.

-: لا خوف عليكم من أحد.

: وما يدريك؟

أَلْمِبَانِيْ تْهَاوِيْ كِلْ مِنْ جَاهَا　　　مَايِفِكْ أَلْمِبَانِيْ غَيْرَ أَهَالِيْهَا

-: أعلم ذلك جيداً.

: أتريدنا أن نرسل رجالنا هنا وهناك فيأتي عائل مستكبر أو طامع عنيد ويعبث بممتلكاتنا أو يجوف بيوتنا لا يجد من يرده على أعقابه ويردعه عما يريد أن يفعله؟

-: هذه حجج لم أقتنع بها ولن يقتنع بها من أرسلني.

: هذا الواقع والوضع الراهن الذي نعيشه.

-: إنكم تخبئون عني الكثير من الأمور.

: لم نكتمك سراً قط، فهذا واقعنا، فلو جئت إلينا قبل ثلاثة أيام لأمددنا الأمير بما يطلب من الرجال والمال.

-: كيف تريدونني أن أعود؟

: كما أخبرناك.

-: بالمئونة فقط؟

: هذا ما نستطيعه الآن؟

-: ليس لي وجه أواجه به الأمير؟

: أنت مندوب، والمندوب لا يقطع له رأس كما يقول المثل.

-: آه، ليتني لم آت إلى هنا.

: هناك رأي آخر.

-: ما هو؟

: لماذا لا يؤجل الأمير تقدمه نحو خصمه لفترة معينة حتى يعود رجالنا من مهمتهم لينضموا إليه؟

-: أوه، إنه يعد العدة لمباغتة خصمه قبل أن يأخذ استعداده، أما إذا علم الطرف الثاني فإنه سيأخذ حيطته ومن الصعب الانتصار عليه.

: النصر من عند الله، لا يهم فيه التقديم والتأخير.

-: وإن يكن.

: ما دام الأمر كذلك فـإبلغه منا السلام وأوصله هـذه الأحمال من المؤن وهـذا المبلغ من الجنيهات الذهبية والريالات الفضية «الفرنسية» ليتدبر بها أمره.

-: هاه!! إنني أخشى ألا يقبلها؟

: نرجو أن تعتذر لنا منه.

-: مال وطعام ماذا يعملان لرجل يتأهب لمباغتة خصمه؟

: أوه، المال عصب الحياة، يمكن أن يحصل بالمال بدلاً من رجالنا عن كل عشرة رجال عشرين رجلاً.

-: صحيح ولكن من أشرت إليهم قد يكونون أقل إخلاصاً وأقل فاعلية من رجالكم.

: مع الإغراء يزيد تأثيرهم.

-: حتى لو توفر هذا العدد فمن أين لهم السلاح؟

: المال يأتي بالسلاح أيضاً.

-: لقد جعلتم من هذا المال كل شيء!!

: نعم، إنه الركيزة التي يمكن أن تستند إليها.

-: ترى متى يعود رجالكم من مهمتهم؟

: لا ندري، إن الأمير فلان يقارع خصومه منذ أكثر من شهرين وهو الآن على وشك أن يكسر شوكتهم.

-: يعني إن وقته غير بعيد؟

: لا نعلم عن ذلك بالضبط، فكما تعرف الصراع قائم وكل يتوقع أن يهزم خصمه بين اليوم والآخر ولا ندري من ستدور عليه الدائرة.

-: هذا كلام مطاط، لم أمسك منه شيئاً.

: لو كان عندنا شيء من علم الغيب لأخبرناك، ولكن الغيب عند علام الغيوب.

-: ما هو الوقت الذي تتوقعون أن يعود رجالكم فيه؟

: الله أعلم، قد يكون بعد أسبوع وقد يمتد إلى شهر أو شهرين وقد يأتينا مندوب منه الآن يخبرنا بعدم حاجته للرجال فلا يذهبون معه ونوجههم معك.

-: آه، ياليت!!

: ونحن نقول ليت هذه المنازعات تنتهي وتذهب إلى غير رجعة.

-: وينتصر أميرنا.

: لينتصر من ينتصر، ونعيش في اطمئنان وأمان.

-: لماذا أراك قد تضايقت من كلامي؟

: ليس من كلامك أنت، بل من الوضع الذي نعيشه.

-: أي وضع تعني؟

: أعني تكاثر القلاقل والمنازعات والشغاشغ وكل واحد يستنجد بنا فلا ندري من نرضى ممن حولنا فكما يقول المثل «يَالْعِرْضيْ مِنْ تِرْضيْ»!؟

-: إذا تعدون الأمير أن تمده بالرجال مستقبلاً؟

: إن شاء الله، إذا يسر الله ذلك.

-: إيه، يكفيني الآن المؤن والمال.

: إنها جاهزة الآن فانطلق بها مع حماية مسلحة يسيرون معك حتى تقترب من «مَعْزَبَكْ».

وغادر هذا المندوب بأحمال من المؤن وصرة من الجنيهات والريالات الفضية قبل أن ينبلج نور الفجر.

ولم يمض غير أيام قلائل حتى جاء مندوب من أمير ثالث يطلب العون والنجدة، فما كان من أمير البلد إلا أن جميع الأهالي في فناء داره وحولها، وطلب منهم أن يساهموا في مساعدة هذا المندوب الجديد بما يستطيعون قائلاً:

: هذا مندوب الأمير فلان وهم كما تعرفون من البادية المحيطين بنا حيث أن مواطن هذه القبيلة حول بلدنا وهم ينافحون اليوم عن مواشيهم وبيوتهم.

-: وماذا يريدون منا؟ هكذا قال الناطق باسم الحضور.

: يريدون منكم المساعدة.

-: كما تعلم أيها الأمير أن مساعدتنا لهم غير ممكنة.

: أنا معكم، إن ذلك غير ممكن بالرجال وقد اقتنع بذلك، واكتفى بأن تكون المساعدة مادية، بالمال والمؤن.

-: بالمال والمؤن!!

: نعم فالمال هو عصب الظهر.

-: وحتى المال والطعام فإن ذخيرتنا منه محدودة ويكاد أن ينفذ ما بأيدينا.

: لديكم البركة.

-: البركة من عند الله ثم مما نجمع من هذه المواد.

: تدبروا أنفسكم.

-: لقد كثرت علينا هذه الأمور، فوالله لو كنا نأخذ من عروق هذه النفود لنفدت كثبانه.

: المهم، تدبروا أمركم، وسأذهب معه لتناول القهوة عند فلان ثم أعود إليكم لأجدكم قد تداولتم الرأي فيما بينكم ووصلتم إلى حل.

-: حاضر.

: وبعد أن أوصل المندوب إلى الرجل الذي دعاهم لشرب القهوة عاد مسرعاً إلى رفاقه دون أن يشعر المندوب بذلك وقال لهم: ليس بخاف علي ما تضجرون منه، وذلك من كثرة الطلبات التي ترد إليكم من أمراء هذه

النزاعات المحيطة بنا، ولكن هـذا المندوب بـالذات لا نستـطيع رده كغيـره، ذلك أن أفراد هذه القبيلة كما تعلمـون محيطون بنـا إحاطـة السوار بـالمعصم، ويعرفون كل صغيرة وكبيرة عنا، ولذلك يجب أن نساهم في مساعـدتهم بقدر ما نستطيع.

-: كل واحد يجيء تقول لنا نفس الكلام.

: أبداً، فلقد رددت عنكم عدداً من المندوبـين وثنيت دونكم عن الذين لا أرى فيهم خطراً عليكم.

-: خطر علينا!! وهل نحن مقيمون هنا لصد الأخطار بما لنا وقوت عيالنا؟

: ألا تعلمون أن مسارح أغنامنا ومواشينا في متناول إيدي أفراد هذه القبيلة؟

-: بلى!! ولكن ممتلكاتنا نذود عنها ونحميها بسلاحنا.

: إلى جانب ذلك يجب أن تأمن ظهورنا من تحرشات أقرب القبائل إلينا.

-: ليس عندنا لهم غير «مَا طَرَقْ اَلْحَدَّادْ».

: أوه، هـذا لا غنى لنا ولا لغيـرنا عنـه، ولكن لنكسب صداقـة أقرب النـاس إلينا.

-: كيف نكسبها؟

: بقليل من المال والمئونة.

-: قليل مع قليل يساوي الكثير، بل الكثير المرهق لكواهلنا.

: لنفرض أن الواحد منكم جاءه ضيف وقدم هذا الطعام له.

-: ما ألذّ ما يقدمه المرء بنفس طيبة.

: المهم، تدبروا الأمر واجمعوا لهم ما يسد أفواهم.

-: ليس كلنا من يستطيع أن يقدم شيئاً.

: كل حسب استطاعته، وسأعود إليه الآن. وبعد أن ننتهي من القهوة سنجـد لديكم كل شيء وقد تم تجهيزه.

-: أبشر، ولو أنهم لا يستأهلون.

: المهم هؤلاء لا نستطيع الصدود عنهم.

-: أخوفاً منهم؟

: لا، ولكن كما يقول المثل «لِحْيَةٌ يُرْضِيهَا صَاعُ شَعِيرٍ لاَتُغْضِبْهَا»!!

-: ياما من صاع وصاع، ولحية ولحية!!

: المهم، جهزوا كل شيء قبل أن نخرج.

-: حاضر، حاضر.

: وعـاد الأمير إلى رفيقـه عنـد مضيفهم بعـد غيـاب فتـرة قصيـرة حيث سـألـه المضيف.

-: أين ذهبت يا أبا فلان؟

: ذهبت لأطل على الفلاحة وأطمئن على سياق السواني.

-: تشغل نفسك في كثير من الأمور التي يقوم بها العمال «والصبيان»؟

: إنني لا أصبر حتى أطمئن على كل شيء، بل على كل صغيرة وكبيرة فأرى كل شيء يسير في الحقل المخصص له.

-: هناك من يكفيك مثل هذه الأمور.

: ولكنني لا أصبر.

-: لو لم يكن كذلك لما صار أميراً. هكذا نطق المندوب.

: ستر الله الحال يابن الأجواد.

-: ترى ماذا تم في الموضوع الذي جئت من أجله؟

: سيتيسر أمرك إن شاء الله.

-: أترى رفاقك سيبقون على تضجرهم من عملية الدفع؟

: هؤلاء رفاقي ولن يعصوا لي أمراً.

-: إذا أرجـوك أن تأمرهم بالاكثار من الطعام وخاصة التمر.

: ستجد عندنا ما يسمح خاطرك.

-: أطـال الله عمركم، لأن النـاس لدينـا جيـاع، ونحن في البـاديـة نحب أكـل التمر.

: التمر!! ومن منا لا يحب أكله؟

-: أنتم أحسن منا حالاً، فالتمر لديكم كثيراً جداً.

: ليس دائماً.

-: إيه!! أليس الحضر هم الذين يكتزون التمر؟

: أوه، ليس كلهم، فالبعض منهم لا يذوقه الا في موسمه فقط.

-: هذا غير معقول!! إنني لا أتصوره.

: معقول جداً، ففي سكان الحضر أسر فقيرة لا تكاد الأسرة تكسب قوت يومها، ولا تتوفر لديها كثير من المواد الغذائية إلا في مواسمها.

-: وهل هذا صحيح؟

: ألا يوجد في سكان البادية أسر لا يتوفر لديهم الأقط والسمن إلا في موسم الربيع؟

-: بلى، بلى،

: وكذلك الحال بالنسبة لسكان الحضر.

-: لقد حسبت قبل الآن أن سكان الحضر كلهم أغنياء، ويوجد لديكم كميات هائلة من التمور والحبوب.

: أبداً يا بني، مثلهم مثل أقرانهم في البادية.

-: إذا، كيف سيجمعون لي ما طلبت منهم من الطعام؟

: سيجمعون لك ما يستطيعون جمعه، وذلك مما حرموا منه أنفسهم وعيالهم، وهو جزء من قوت يومهم.

-: إذا، فالكمية التوقعة غير كثيرة.

: سنجمع لك ما نستطيع جمعه، هذه المرة كمساعدة لكم، باعتباركم إخوانا لنا، وهذه الكمية من المثونة ستساعد مقاتليكم في الذود عن مواشيهم ومحارمهم.

-: إنك مع حق، إننا إخوان منذ وقت بعيد، ونعتبركم جزء منا حيث أننا معاً يداً واحدة.

: لا شك في ذلك.

-: والله إننا نعتبر سوار حكم جزء من قطعاننا التي ندافع عنها ضد الأعداء.

: هذا معروف منذ القدم، والآن دعنا نعود لنرى ما فعل الرفاق.

-: هيا بنا.

: آه، لقد أكملوا كل شيء.

-: الله!! كل هذه الأحمال لنا؟

: نعم، كلها لكم، وهل يبخل أخ على أخيه في وقت محنته؟

-: رفع الله عنا وعنكم شر عوادي الأيام.

: آمين، بلغ سلامي للأمير فلان، واعتذر لي منه، وقل له إن رفاقنا الحضر قد اقتطعوا من قوت عيالهم هذه الكمية من المئونة لتستعينوا بها على خصومكم.

-: كثر الله خيركم، لم تأتوا بقليل يستحق الاعتذار عنه، إنها كمية كبيرة تساوي عندنا الشيء الكثير.

: ولكن هذه المرة فقط.

-: هذه المرة!!

: نعم، إن البيوت الآن تكاد أن تخلوا من مادة التمر إلا ما قد مناه لكم.

-: لماذ؟

: لأن الموسم قد انتهى منذ فترة طويلة، وسينتظر الحي منا حلول الموسم القادم.

-: لكم ولنا خير في ذلك الوقت.

: بعد أن تنتهي المشكلة.

-: إن شاء الله، سنعوضكم عن هذه الأحمال بأحمال من الأقط والسمن.

: لا، كثر الله خيركم يقول ذلك وهو يتمتم بصوت غير واضح قائلاً:

يَا لَيْتْ بَقْعَاء خَيْرِهَا لَدِمْ شَرَّهْ وْعَسَى حَلاَوِيْهَا تْكَافِيْ مْرُورَهْ

-: إذا، أتوكل على الله.

: نعم، ومع السلامة، وسلامي للأمير.

وتعاقبت الأيام ومعها يتكرر وصول مندوبوا الأمراء الذين يتصارعون فيما بينهم في مناوشات داخلية، ومنازعات لاتكاد تنتهي من نقطة حتى تبدأ في نقطة أخرى في هذا الخضم العائم شعر أهل المدن والقرى بشدة وطأته أكثر من سكان البادية، وذلك لما يتعرضون له من المضايقات لأهم مقومات حياتهم وهي التجارة وقوافل التموين بالاضافة إلى مواشيهم وسوارحهم ومزارعهم من نهب وسلب، وذات ليلة استدعى الأمير سكان بلدته ولما أجتمعوا إليه قال لهم.

-: لقد جمعتكم لخير.

: خير إن شاء الله، ولكن الخير في هذه الأيام قليل، هكذا نطق المتكلم باسم الحضور بنغمة مجرورة

-: لماذا تتكلم هكذا؟

: لأنني منهك القوى، فقد أتيت من مزرعتي الآن بعد أن أخذ مني التعب مأخذه، وإذا برسولك يستدعيني للحضور.

-: لست لوحدك في هذا الحال فلماذا التضجر؟

: بالفعل لست لوحدي فأكثر من حضر معنا في هذا المكان لديهم نفس المتاعب، فمن آت من مزرعته وقادم من حانوت تجارته، أو قد راح لتوه مع مواشيه.

-: أعان الله الجميع، وحتى لا نخرج عن الموضوع فقد جمعتكم لأمر مهم.

: أمر مهم!!

-: نعم، إن رفيقنا الأمير فلان في الرمق الأخير ويطلب منكم النجدة والعون.

: بماذا تريدنا أن ننجده؟

-: إنه يطلب النجدة بالمؤن.

: ومن أين لنا ذلك؟ فلقد نفد ما عندنا.

-: تدبروا الأمر.

: لم يبق لدينا سوى شيء من قوت أبنائنا.

-: ليكن منه.

: البعض منا لا يستطيع دفع أي شيء.

-: هؤلاء نسبتهم قليلة، أما الكثير منكم فإن لديهم ما يقوم بأود هذا المستغيث وينقذه من الموقف الذي هو فيه.

: لقد أصبح الكثير من هؤلاء الذين يحاولون إيجاد أمارات لهم منهوكي القوى، يطلبون العون ممن يعرفون وممن لا يعرفون.

-: هذا الأمير لن نخذله أو نتقاعس عن مساعدته.

: هكذا تقول لنا في كل مرة.

-: إنه الأمر الواقع الذي نعيشه، ولم يكن باختيارنا أن نعيش في هذه البلبلة.

: نحن الذين فتحنا على أنفسنا هذا الباب المغلق.

-: أوه، هكذا تظن، ألا تدري أنه لو لم نفتحه بأنفسنا ونضع في فم كل منهم لقمة يلوكها ويتلهى بها لجاءوا إلينا وسلبوا ما في أيدينا؟.

: أنفعل كل هذا خوفا منهم؟

-: ليت هذه الجملة جاءت من غيرك يا أخا فلانـة!! إنك ممن لا تخفـاهم بواطن الأمور، عموماً لم يكن هـذا الأمر ناتجاً عن الخوف بقـدر ما هـو مترتب عـلي المجاملة والمدارات، نظراً لما يربطنا بالكثير منهم من وشائج وروابط مختلفة.

: أوه، قد يتدبر الأمر بعضا منا، فما بالك بالبعض الآخر؟

-: ماذا تقول؟

: آه، ما هي المؤن التي يمكن أن توفروها لهم؟

-: مثلك عليم بذلك، إنها تتكون من الحبوب بأنواعها.

: فالبعض منكم يؤمن مما عنده من حبوب ولو كانت من قوت عياله ومن لم يجد شيئـاً، فيعطي كميـة من هذه الحبـوب تطحنهـا نساؤه وتجهـزهـا أكيـاسـاً من الدقيق، أو الجريش.

-: أوه، أيريدون طحينا وجريشاً؟

: نعم، فكيف يجهزونه للأكل إذاً؟ «مَا بَالْبَرْ طَحَّانَاتْ» كما يقول المثل.

-: هم يجهزونه بأنفسهم.

: ليسوا متفرغين لمثل هذا العمل.

-: وهل نحن مكلفون بهم؟

: إنهم رفاقنا.

-: وبئس الرفاق الثقلاء.

: لابد من المشاركة والتكاتف والتعاضد.

-: المشاركة!!

: نعم، فمن لـديه المقـدرة منكم فالتكن مسـاهمته بـالمئـونـة ومن لم يستـطع في المساهمة العينية من الأسر الفقيرة فاليشارك بالمجهود الجسماني بواسطة نسائه.

-: هذه والله المشكلة.

: ليس في الأمر إشكال، يوكل لكل إمرأة من الأسر الفقيرة أن تطحن كمية من الحب تتناسب وقوتها أو ضعفها.

-: هذا والله القهر والسخرة أيها الأمير.

: ليس في الأمـر سخرة، فمن يستـطيع زوجهـا أن يدفـع عنهـا شيئـاً تعفى من

ذلك، ومن لم يستطع فعليها أن تقوم بمجهود يساوي قيمة ما سيدفعه زوجها.

-: ألا ترى ذلك أجحافا علينا؟

: أنت تتكلم وكأن الأمر يخصك لوحدك؟

-: إن كلامي بلسان الجميع.

: إذا عليكم أن تنفذوا ما أقوله لكم، ولن تغرب شمس يوم غد إلا وكل شيء قد تم على ما أخبرتكم به.

-: إنه وقت قصير.

: كم يكفيكم؟

-: بالنسبة للتجميع يكفي يوم واحد، لكن عملية التجهيز كالطحن والهرس والجرش يحتاج إلى يومين أو ثلاثة.

: إذا، لكم مهلة ثلاثة أيام، تكون الكميات المطلوبة جاهزة.

-: أبشر، ولكن..

: ولكن ماذا؟ لقد أطلت الكلام!!

-: متى ننتهي من هذه السلسلة المتواصلة الحلقات التي لا نكاد ننتهي من حلقة منها إلا وبدأنا بالحلقة الثانية؟

: آه سينتهي وقتها عن قريب أن شاء الله.

-: نرجو ذلك.

وخب القوم بتجميع ما طلب منهم فأسرعت النساء اللواتي طلب منهن تجهيز كميات من الحبوب بطحنها أو جرشها إلى عمل ذلك، ودارت كل رحى على قطبها لمدة أربع وعشرين ساعة تتعاقبها ألف السيدات والفتيات والعجائز لا فرق في ذلك، فكل واحدة منهن تحاول طحن مالديها من حبوب لتسلمها دقيقا ناعماً للجهة التي تستلمها، ولم يمض يومان إلا وقد تم تجهيز المطلوب، بعد أن أدرك الضجر والملل كثير من النفوس المرهقة بمتاعب الحياة الأخرى وفي تجمعات النساء في البيوت التي توجد بها الرِّحِيُّ تدور مختلف الأحاديث والتعبيرات، فحينما تجد تينك السيدتين يطوحان بصوتيهما مغنيتين على الرحي بصوت شجي مطرب يسلب لب من يستمع إليه، تجد غيرهما تلك الفئة من النساء اللواتى يتخذن من الغناء على الرحى تنفيسا لآ لامهن.

إلى جانب هؤلاء وأولئك تجد مجموعات من النساء يتحلقن لتجاذب أطراف الحديث حتى يأتي دورهن في الطحن، وقد يجذبهن حديث متكلمة بارعة، ذات نبرة صوتية جذابة فيلتففن حولها وتتطرق أحاديثهن لمختلف شئون الحياة، سيما ما كلفن به من عمل مرهق إضافة إلى أعمالهن اليومية المعتادة. وأمام تلك السيدة الفاضلة تجمع عدد من النساء للاستمتاع بحديثها العذب، حيث أبدت إحدى السيدات تذمراً من هذا المجهود العضلي الاضافي قائلة:

-: أف، أف، لا بارك الله في هذه الساعة.

: فردت عليها تلك السيدة البارزة: ولماذا هذا التأفف؟

-: أما ترين؟ من هذا العمل المرهق المستمر.

: لست لوحدك.

-: هذا ما يضايقني.

: أبداً يا أخية لا يضايقك ذلك.

-: لا يضايقني!! «واغربالي».

: نعم، فالموت مع الجماعة رحمة كما يقولون.

-: إنني أعبر عن رأي الكثير من النساء.

: التعبير بالرأي لا يجدي شيئاً في الوقت الحاضر.

-: لماذا؟

: إننا أمام أمر واقع لا مفر لنا منه.

-: وهل نحن ملزمون بذلك؟

: نعم، إنه بالرغم عن أنوفنا.

-: من الذي يجبرنا على ذلك؟

: الوضع السائد من حولنا.

-: لم أفهم.

: كما ترين بعد تضعضع أمارة آل فلان، كثرت الزعامات الصغيرة فكل شيخ قبيلة أصبح يدعي الأمارة ظلماً، ومع كثرة هذه الاستغاثات التي تصل إلى أميرنا أصبحنا ملزمين بمثل هذا الوضع.

-: الاستغاثات!!

: نعم، فكل واحد منهم يدخل باب الزعامة ويخوض ميدان المعركة بدون مقومات ولاسلاح حتى إذا تبين للناس لايريد أن يختفي حتى يحقق هدفه.

-: إذا، هذا الذي جعلنا منذ أكثر من سنة وشغلنا الشاغل هو تجهيز المؤن لأولئك الأمراء.

: أوه، المؤن والرجال والأموال.

-: ألا يوجد من هؤلاء الأمراء من يخضعهم لأمره ويلفهم تحت لوائه ويريحنا منهم.

: قد يكون المؤهل لهذه المهمة هو الأمير فلان لكنه بعيد عنهم.

-: بعيد!! ليس على الأطماع بعيد.

: لواقع أنه بعد تردي الوضع، واختلاف الكلمة في أمارة آل فلان التي استمرت علينا مدة طويلة منذ ذلك الوقت لم نر يوماً هادئاً.

-: آه، ومن مثل آل فلان؟

: وأنا أقول ذلك، فقد لا نجد أحداً مثلهم.

-: ولا حتى ذاك الأمير القوى الذي أشرت إليه.

: ولا هذا، فالواقع أن الرجل لم نجربه ولم نعرفه ولذلك لانستطيع الحكم عليه، غير أنني متأكدة أنه لن يكون مثل أمرائنا المشار إليهم بأي حال من الأحوال.

-: إيه، قد يكون مثلهم أو أحسن منهم، لاندرى؟

: لا أظن ذلك، لقد عشنا زمنا طويلاً ونحن ننعم بالرخاء والاطمئنان حينما كانت أمارتهم قوية.

-: وما يدريك لو يكون ذلك القادم أقوى منهم؟

: ليست المسألة بالقوة وحدها، فأحيانا تكون القوة الصارمة قهراً وجبروتا.

-: وإن يكن فالقوة ضرورية.

: إذا صاحبها العدل والمساواة، والا أصبحت قهراً كما ذكرت.

-: أراك تتكلمين باندفاع زائد!؟

: نعم، فلن يكون ذلك الأمير القادم من بعيد أو غيره أكثر عدلاً، وأشمل طمأنينة من أمرائنا.

-: ومن يدري؟

: أدري «وسومها بخشومها»، فلقد ظللتنا أمارتهم مدة طويلة بالأمن والرخاء والطمأنينة.

-: عندما كانوا أقوياء.

: نعم، وعندما كانت كلمتهم مجتمعة.

-: إيه، «لكل شيء إذا ما تم نقصان».

: لعل الله أن يعيد إليهم قوتهم من جديد.

-: ذاك كان بالأمس، أما اليوم فكما يقال عنهم أشلاء ممزقة كل واحد منهم قد التف عليه مجموعة من رجاله وبدأ يصارع رفيقه.

: إذا تفرقت الكلمة فقد حلت الكارثة.

-: عسى الله أن يجمع شملهم.

: لا يأس من رحمة الله، لكنهم الآن قد أصبحوا في وضع سيء لا يحسدون عليه.

-: هذا ما يخيفني، وقد يجعلهم لقمة سائغة لأعدائهم.

: إيه، ما لنا ولهذا الأمر؟

-: ألسنا طرفا في الموضوع!

: أبداً، «من خذا أمي فهو عمي» كما يقول المثل.

-: أراك تعبرين عن وجهة نظر اللامبالي؟

: لم أزد عليك شيئاً.

-: إنني أعبر عن وجهة نظري.

: ولكن بأسلوب المندفع المتفاني في هذا الشأن.

-: ولماذا لا أندفع؟

: ما الذي يحفزك لهذا التطرف؟

-: حبي لظلال حكمهم.

: إلى هذا الحد؟

-: نعم، وأكثر من ذلك.

: لا أدري أن هناك مجالاً للزيادة لديك.

-: بل هناك المزيد.
: ماذا ستفعلين؟ هل ستقاتلين معهم؟ هل ستمدينهم بالسلاح؟
-: سأقدم لهم الغالي والرخيص، ولو أتيحت لي الفرصة لقاتلت معهم ولو قفت إلى جانبهم.
-: أراك تتكلمين وكأن الأمر سيتحقق هذه اللحظة؟
: إنني أتمنى ذلك من كل قلبي.
-: من كل قلبك!؟
: نعم، وأود أن يعود حكمهم في هذه الليلة قبل طلوع الفجر
-: الله!! لو حدث ذلك ماذا ستفعلين؟
: والله لو عاد حكم آل سعود لرميت بغدفتي ورقصت وسط الشارع فارعة «دارعة».
-: إلى هذا الحد وصل بك الاندفاع!! تفرعين وتنزلين إلى وسط الشارع لترقصين فيه؟
: نعم وبكل تأكيد.
-: من أجل ماذا؟
: عيداً لله وتعبيراً عن فرحتي بهذا الحدث السعيد.
-: تضاحكت النساء الحاضرات وتقدمت إحداهن فأخذت السيدة المندفعة بعد أن رأت آثار الانفعال عليها مخافة أن يحدث منها تصرف أعنف نحو نظيرتها وهي تقول لها: هوني عليك ياأخية، هذه الأمور تجري بيد خالق الكون ومدبر الأحوال ولا تصرف للمخلوق إلا من زاوية ضيقة.
: لكن هذه المعاندة كانت السبب. تقول ذلك بغضب.
-: هوني عليك فمثل هذه الأمور تجري وفق تدبير الله.
: لكن حكم تلك الأسرة قد ظللنا وقتا طويلاً لم نرمنه سوى الخير.
-: وهل تفضلينهم لهذا الحد؟
: نعم، أقولها من أعماق قلبي، نعم إنى أو يدهم بكل جوارحي فقد غاص حب حكمهم في قطرات دمي.
-: الواقع أننا كلنا نحبهم ونؤيدهم ولكن..

: ولكنكن لا تستطعن التعبير عن ذلك.

-: أو يحول أمر دون أمر؟

: ماذا تعنين؟

-: قد يأتي عدو لهم يقتل كل من والاهم متى عرف ذلك.

: لا يهمني مثل هذا.

-: لا يهمك!!

: نعم، سأعبر له عن رأيي مهما كان.

-: المهم يا أخية، دعينا من هذا، وعليك الالتزام بالهدوء وما قدر الله فهو كائن.

: لا شك في ذلك، ولكن بعض النساء يحلو لهن استثارة الأخريات في محفل من النساء.

-: لا تعيرى هذا الأمر اهتمامك ودعينا نخرج من هنا.

: كما تريدين.

وشارع الحديث الذي دار بين هاتين السيدتين في جميع النساء وتناقلته أفواه الرواة بعد أن أضاف إليه البعض شيئا من الاضافات والحواشي، واستمرت هذه الصراعات بين تلك الأطراف المتكافئة والناس ترزح تحت ضغوطها المختلفة دون أن يظهر في الأفق بوادر انتصار فئة على أخرى من هذه الفئات، حتى أتى ذلك الأمير القوى الذي اغتنم هذه السانحة التي لا تعوض فألوى بخصومه الواحد تلو الآخر وبعد أن استتب له الأمر مبدئيا، شعر بالراحة المشوبة بالحذر الشديد، مخافة أن يظهر عليه أحد خصومه أو أنصارهم، وفي إحدى الجلسات في مجلسه اللخاص قال له مستشاره:

-: كيف ترى نفسك الآن «يا طويل العمر»؟

: بخير والحمد لله، فلقد أعاننا الله في القضاء على أعدائنا.

-: آه، يبدو لك ذلك!!

: وهل هناك شيء لا أعلمه؟

-: كلا، كلا، ولكن قد يوجد تحت الرماد وميض نار.

: ماذا تعني؟

- : أعني أنه قد يوجد لأعدائك أنصار يعدون العدة في الخفاء.

: يعدون العدة؟

- : أقول ربما يكون ذلك.

: وهل لديك معلومات جديدة؟

- : لا يوجد لدى أية معلومات ولكن أقول هذا من باب الافتراض وذلك لاتخاذ الحيطة الضرورية.

: ألا ترى «يا محفوظ» أنه من الأولى أن نتعقب آثار أعدائنا؟

- : لم يبق منهم أحد الآن سوى من هم في أيدينا وتحت تصرفنا.

: أرجو أن تتذكر!!

- : لا أذكر سوى أناس ضعفاء ليسوا في مستوى التفكير بهم.

: ألا تذكر أيها الأمير أن النار من مستصغر الشرر؟

- : صحيح، لكن هذه الشرارة يجب أن تخمد في مكانها.

- : هذا ما أعنيه.

: أراك تتحدث وكأن بين إذنيك خبر!؟

- : ليس بهذا المعنى بالضبط ولكنه قريب منه.

: أوضح ذلك.

- : هناك مجموعة من المؤيدين لخصومنا يجب القضاء عليهم.

: ما نوع هذا التأييد؟

- : يظهر باشكال مختلفة.

: إذا كان تأييداً فعليا فيجب القضاء عليه.

- : أوه، وحتى التأييد بالكلام.

: بالكلام!!

- : نعم، فالكلام هو بداية التأييد.

: ما كان الكلام في يوم من الأيام ليبني بيتا أو يهدمه إن لم يصاحبه فعل.

- : وما يدريك أن وراء الأكمة ما وراءها؟

: لم يظهر شيئاً ينبىء عما تتكلم فيه.

-: نريد أن نبادره قبل أن يظهر.

: ما هو الحل في نظرك؟

-: الحل أن تقطع ألسنة من يسمع منهم كلمة تأييد لأي واحد من خصومنا.

: أتريدنا أن نكمم أفواه الناس؟

-: ليس تكميما، وإنما هو قطع دابر هذا الكلام.

: آه، لا تنسى أن الناس حديثي عهد بأمراء كان لهم بسببهم مصلحة معينة أو يسيرون في معيتهم لغرض في نفوسهم ولا يمكن أن ينسوهم في يوم وليلة.

-: لكن مثل هؤلاء إذا تركنا لهم الحبل على الغارب فقد يؤثرون بغيرهم وعند ذلك يتسع الخرق على الراقع.

: قد تجد من هؤلاء من يرمي بالكلمة دون تفكير.

-: آه، لكنه يجد من يتلقفها فيولد منها كلمات وكلمات حتى تنمو وتصبح حديثا طويلاً.

: ماذا تعني؟

-: أعني أن تغاضيكم عن مثل هذه الأمور قد يحدث ما هو أسوأ منها.

: لا أظن ذلك، فربما كان عدم المبالات بها قتلاً لها.

-: لا يخفاكم أن بداية التفاهم بالكلام ثم يتجسد بالفعل.

: هاه، ما العمل إذا؟

-: الوضع يتطلب بث العيون والآذان وتجميع المعلومات عن جميع أعدائنا ومؤيديهم.

: هه، وبعد ذلك؟

-: أي إنسان يسمع منه أو يروى عنه كلام غير لائق نتصرف معه التصرف المناسب.

: آه، وإن أنكر!؟

-: لا نستمع إلى إنكاره.

: لا أحبذ ظلم أحد من الناس.

-: وإن كان ضدك؟.

: إلا إذا ثبت عليه الحق فله اعتبار آخر.

-: لا يتبلور الحق إلا بعد تمحيص دقيق.
: المشكلة أن الكثير من الناس إذا سئل عن قول نسب إليه أو كلام سمع منه أنكر ذلك و«مسكنا طويق».
-: المهم، هذه نصيحة خالصة لك.
: وماذا ترى أن نفعل؟
-: أرى أن يكون الأمر في غاية الحذر، فأي بادرة تظهر من أي إنسان يجب أن يوقف عند حده.
: لن نترك أحداً يعبث بالأمن مرة أخرى بعد الآن.
-: وحتى أولئك الذين كانت لهم سوابق في الماضي يجب أن يوقفوا عند حدهم.
: سوابق!! من تعني؟
-: أعني أولئك الذين كانوا يؤيدون فلانا أو علانا من الأمراء السابقين.
: أوه، أولئك كان واقعهم في ذلك الوقت.
-: والآن قد تجد من لا يزال يلهج لسانه باطرائهم ويتأوه كلما مر ذكرهم على ألسنة الناس.
: يتأوه ولهاً عليهم!؟.
-: نعم، وربما جاهروا في ذلك.
: ماذا تقول؟ يجاهرون!!
-: نعم وربما أمامك «ياطويل العمر».
: لو جاهر أحد من هؤلاء أمامي لكتمت أنفاسه. يقولها بغضب.
-: عفواً «يا محفوظ» لم أقصد تعكير صفوك.
: ولكنك أتيت بحديث لم أتصور حدوثه.
-: قد يحدث، فلا زال الناس بين مؤيد ومعارض لكم.
: من عارضنا بالفعل فليس عندنا له غير ما جرى لرفاقه.
-: وحتى بالقول.
: والقول أيضاً، لقد أخضعنا تلك الرقاب بذباب هذا السيف لحفظ أمن الناس وطمأنينتهم، ولن نسمح لأحد أن يكدر هذا الصفو.
-: هذا ما أريده من وراء كلامي.

: وهو ما نحرص عليه أيضاً.

-: إذا رأيتم أن يسند أمر مثل هؤلاء الشاذين إلى أحد رجالكم الـذين تثقون بهم ليتولى البت في مثل هذه الأمور.

: ولماذا أحد رجالي؟

-: يكفيك عناء مثل هذه الأمور الجانبية.

: هذه أمور ليست جانبية، وإنما هي أساسية.

-: صحيح إنها من الأمور الهامة.

: سأتولى بنفسي مثل هذه الأمور.

-: ولم لا تتركها لغيرك؟

: أخشى ظلم الغير للآخرين باسمي وعلى مسئوليتي.

-: ولكنه عمل شاق قد يضيع عليك الكثير من وقتك وجهدك.

: لابأس في ذلك مادام يجلب علي الطمأنينة.

-: اذا كان هذا رأيك فعلي بركة الله.

: أبداً من الآن فصاعداً فأي إنسان يبدر منه بادرة سوء أو ترون عليه «خَمْلَهْ» فأتوا به إلي وسوف أحقق معه بنفسي.

-: أعانك الله على ما في وجهك، إنها مهمة ثقيلة.

: ثقيلة «أنا أخو نورة» لم تكن أثقل من القضاء على الرجال.

-: عفوا، عفواً لم أقصد ذلك، استأذنك، تصبح على خير.

: وأنت من أهله.

أوى الأمير إلى فراشه تلك الليلة وكلام مستشاره يشد تفكيره فتارة يسبح في بحر عميق الأغوار، وأخرى يطل به على صفحة الواقع الملموس وحينا يصل به إلى حد التوجس مما حوله وظل ذلك حتى غلبه سلطان النوم، وما إن أصبح حتى اتخذ قراراً سريا أو عزبه إلى الخاصة من رجاله بأن عليهم اتخاذ الحيطة واليقظة ممن حولهم وإذا شك أحدمنهم بأي أمر من الأمور فإنه يتوجب عليه أن يخبر الأمير بذلك، ومن هذه النقطة بدأت الوشوشة تنسج أوتارها الناعمة حول أسماع الأمير، من أن فلانا يقول كذا، وعلانا يفعل كذا، حتى إذا تقصى الأمير شيئاً من

ذلك بنفسه لم يجد ما يؤيد الكلام الذي نقل عنـه، وغالبـا ما ينكـر المتهم ما نسب إليـه، مما جعـل الأمير يـأنف عن تتبع الكثير من هذه الحـالات، ويكاد أن يلغي قراره لولا مـا يذكـره به مستشـاره بين الحـين والآخر من ضـرورة الاستمرار بهـذا النهج والتزام جـانب الحذر، ولـما توطن الأمـر للأمـير في حاضـرة من سبقوه أراد العودة إلى حاضرة أمارته وصار يمر على قواعد الأقاليم التي ضمها إلى إمارته وذلك لتفقد أحوالها والاطمئنان على سير الأمور فيها وكلما وصـل إلى بلد تسابق إليـه فئة من الناس تطوعوا لتسقط زلات الآخرين، ليـأتوا بهـا خبراً جـديداً يصب في أذن الأمير، أو تحفة نادرة توضع بين يـديه، وقبيـل وصولـه إلى قاعـدة أحد الأقـاليم، تلقفه أحد المتطوعين لمثل هذا الشأن وقال له:

-: أيسمح لي الأمير لأخبره بما لدي؟

: نعم، تفضل هات ما عندك.

-: أريدك على انفراد «ياطويل العمر».

: تكلم «إنها محفوفة».

-: وإن يكن، إنني أريد أن أكلمكم بدون حضور أحد.

: ماذا تقول؟

-: إنني أريد أن أكلمكم بدون حضور أحد.

: ماذا تقول؟ أهناك خطورة في الأمر؟

-: أيسمح لي «المحفوظ» للتحدث معه في مجلس «المختصر».

: نعم، نعم، تفضل إلى المختصر.

-: خذ راحتك في الجلوس أطال الله عمرك.

: هاه، ما عندك؟

-: لدي أمر مهم.

: مهم!! ما هو؟

-: أتعرف هذا البلد الذي أنت مقبل عليه؟

: نعم، أعرفه تمام المعرفة، ماذا فيه؟

-: إن أهله على غير ظاهرهم المنظور.

: على غير ظاهرهم!!

-: نعم.

: ماذا عنهم؟

-: لقد سمعت منهم حكايات وحكايات وكلها تدل على عدم ولائهم لأمارتكم.

: أفصح، ماذا سمعت؟

-: سمعت الكثير مما لا يتسع المجال لسرده كله الآن.

: لقد أطلت على الكلام، أخبرني بموجز ما سمعت.

: أرجو أن يمنحني الأمير بعض الهدوء لأستطيع سرد ما سمعت منهم على سماعه.

-: هاه، أعطني ما عندك.

: يا الله!! كيف أبدأ، أبكلام الرجال أم بكلام النساء؟

-: وحتى النساء صرن يتكلمن في مثل هذه الأمور؟

: وحتى النساء، فلقد صرن أشد من الرجال وأطول ألسنة.

-: وهل أنت صادق فيما تقول؟

: ومخلص لك كل الاخلاص.

-: دعنا من كلام النساء، فكلامهن لا يعني بمثل هذه الأمور شيئاً.

: مالي أرى «طويل العمر» وكأنه لا يأبه بكلام النساء؟

-: لأن كلامهن في هذا الجانب لا يعني شيئاً.

: لايعني شيئاً!!

-: نعم، وبكل تأكيد.

: إنني متأكد أن «طويل العمر» يعلم علم اليقين أن كلام النساء قد يعني جزء من «منضوح» الرجال.

-: هاه!! ماذا تعنى؟

: أعني أن نضح كلام الرجال قد ينعكس على منطق النساء إلا أن بعض الرجال لا يبينون ما في صدورهم بخلاف بعض النساء اللواتي تشبه الواحدة منهن القربة الشنة التي تنضح ما بجحوفها من الماء في قطرات متتابعة حتى تنضب.

-: أراك تحاول تكبير الموضوع؟

: على العكس «يا محفوظ» ولكن أردت إيضاحه بايجاز.

-: بايجاز!! وماذا عن تفاصيله إذا؟

: تفصيله لربما تعرفه بنفسك عندما تتقصى الأمر.

-: إذا كان هذا التهويل حول كلمة قالتها إمرأة فكيف إذا عن كلام الرجال؟

: المرأة مرآة فكر الرجل في بعض الأحيان، . وما تقوله بلسانها قد يعني بالتأكيد ما يفكر فيه زوجها أو أبوها أو أخوتها.

-: هات ما عندك.

: أبشر، أتريدها مفصلة أم موجزة؟

-: هاتها موجزة، إنني أعرف الأمر بالاشارة «يَاكَوْبَانْ».

: إذاً مادام الأمر كذلك، فإليك الخبر، أتعرف آل فلان؟

-: نعم أعرفهم واحداً واحداً.

: وكيف موقفهم بالنسبة لكم؟

-: موقفهم الحالي معنا، أما في السابق فمع الآخرين.

: هذا ما كنت أخشاه.

-: تخشاه!!

: نعم فلقد ظهر حديثاً يدل على عدم ولائهم لكم.

-: ما هو الكلام ومن هو المتكلم؟

: الواقع أن الكلام لم يظهر منهم مباشرة وإنما جاء على لسان أمهم.

-: أمهم!! ماذا قالت؟

: لقد قالت في مجمع من النساء تضاحكن من كلامها وكأنهن مسرورات بما قالت.

-: ماذا قالت؟ ويلك!!

: لقد حلفت وآلت على نفسها لئن عاد حكم أمراء آل سعود إليهم لتحسر عن رأسها وتنقض شعرها وترقص طرباً بوسط الشارع العام.

-: بوسط الشارع العام؟

: هي تقول أنه حمداً لله وشكراً على عودة حكم أمرائهم السابقين؟

-: إذا لا يزال تحت الرماد وميض نار؟

: أوه، ليست ناراً واحدة، بل نيران.

-: هاه، من أخبرك بهذا الخبر؟

: لا يحتاج إلى مخبر «ياطويل العمر».

-: كيف؟

: لقد أصبحت كل البلد تتحدث فيه وترويه.

-: كل البلدة!؟

: نعم، بل ويتفكهون بهذه الأحدوثة في مجالسهم ومنتدباتهم.

-: يعني أنها شاعت في البلد؟

: كسريان النار في الهشيم.

-: أخشى أن تكون أكذوبة؟

: لست من رواة الأكاذيب «يا محفوظ».

-: هاه!! كسريان النار في الهشيم؟ يقول الأمير ذلك بعد أن وجم مطأطئا رأسه واضعا إبهام يده اليسرى على ثنيته العليا. ثم قطع تفكيره قائلاً: هل أنت متأكد من أن أم آل فلان قالت هذا الكلام؟

: كل التأكيد أيها الأمير.

-: وإن أنكرت ذلك؟

: هذا مالا أملكه، غير أن المشهور عنها ذلك، ولو سألت أي واحد من أهل البلد لروى لك ما نقلت إليك.

-: هاه، وماذا عندك غير ذلك؟

: لدي أخبار كثيرة لكني أراكم وقد تعكر صفوكم من أهونها ولذلك فمن الأفضل أن أرويها لكم على دفعات بعد أن يبرد خاطركم من كل خبر.

-: وهل كلها من نفس النمط؟

: نعم، ولها بعض التشعبات.

-: إذا احتفظ بها حتى أطلبك.

: حاضر «يا طويل العمر».

-: علي بهذه المرأة علي بها.

: الا فضل أن تقطع لسانها.

-: سأتصرف معها بما أراه مناسباً.

ومع وصول الأمير إلى البلد عسكر برجاله خارجها وفي اليوم التالي طلب إحضار المرأة إليه، فذهب إليها الرسول قائلاً.

: هل أنت فلانة أم آل فلان؟

-: نعم، وماذا تريد؟

: أنا لا أريد شيئاً، لكن الأمير يريد حضورك الآن.

-: حضوري أنا؟

: نعم أنت.

-: ماذا يريد مني؟

: لا أعلم، لكنه أمرني بألا أحضر إلا وأنت معي.

-: حسنا، إسبقني إليه وسوف الحق بك.

: لا أستطيع ذلك، إنني مأمور أن أحضرك معي.

-: سآتي وراءك.

: لا، بل يجب أن تكوني أمامي.

-: «عَطاكْ» الضربة سوف أحضر بعدك بقليل.

: لكني أخشى على نفسي.

-: ممن تخشى؟

: ممن أرسلني إذا عدت إليه ولم تكوني معي، فإنني قد ألقى أشد العقاب.

-: أشد العقاب؟

: نعم، نعم لقد كلفت بهذه المهمة وارجو ألا تكوني سببا في إيذائي.

-: هاه!! إذا دعني ألبس عباءتي.

: أنا في انتظارك.

وتجمعت النساء مرة ثانية عند باب هذه السيدة فقالت إحداهن هامسة.

: من يكون هذا الرجل المسلح الواقف علي باب آل فلان؟

-: إنه خادم من الأمير الجديد.

: خادم!! وماذا يريد من أم آل فلان؟

-: لقد طلب حضورها إلى الأمير.

: إلى الأمير!! وماذا يريد منها؟

-: لا ندري.

: وامصيبتها!!.

-: «وَاقْرِدْ حَظَّهَا»!!

: ماذا فعلت حتى يطلبها الأمير؟

-: إنها لم تفعل شيئاً.

: آه، لكنها تكلمت!!

-: تكلمت!!

: نعم لقد تكلمت جملتها المشهورة ألا تعلمين بها؟

-: أوه، كلام يطير به الهواء.

: لا يأخية، الكلام لا يطير به الهواء بل يجد من ينمقه ويزينه ويضع عليه من الحواشي والإضافات، وتعديل بعض الرتوش ثم يصبه في أذن الأمير فيغضبه.

-: يالله، ما أتعس حظها.

: حقاً، إنها سيئة الطالع فالأمير مشهور بالصلف وشدة البأس.

-: ربما بطش بها.

: أترينه يقتلها؟

-: ربما، الله أعلم، فقد لا ترجع من ذهابها هذا.

: رحمك الله يا أم فلان فقد لا تعود إلا جثة هامدة.

-: إنني أرى أن الأمير لن يقتلها.

: وما يدريك؟

-: أتوقع أنه إذا أراد عقابها فقد يهددها ويتوعدها.

: أترا هنيى أنه سيقطع لسانها؟

-: يقطع لسانها!!

: خاصة إذا استشاط غضباً عليها.

-: هاه!! من هذا اللعين الذي أوصل كلامها للأمير؟

: وتسألين من أوصل كلامهـا؟ فأشـرار الناس كثيـرون ومن يتسقطون عشـرات الناس ليتباهى بها عند أمير أو غيره.

-: قاتلهم الله، أن هذا الصنف من الناس هم المرجفون بالمدينة.

: ها هي خرجت، وقد تقنعت بعباءتها.

-: إيه، أعانها الله على ما في وجهها.

-: ها هم أولادها قد ظهروا متسلحين وذهبوا معها.

: إيه، عسى الله أن يستر عليها.

-: أنظري إليها فقد لا نرى زولها بعد الآن.

: لن يصيبها أذى إن صدق ظني.

-: وما يدريك فقد تصادف غضب الأمير وينتقم منها.

: إذا أنكرت ما نسب إليها فقد تسلم.

-: لا أتوقع أنها تنكر.

: لماذا؟

-: إنها ثابتة الجأش، ألم ترى أنها لم تتأثر حين أخبرها الخادم؟

: «وَلَوْ» الحاكم له هيبته ليس كالخادم.

-: لم تكن كبقية النساء.

: لو كنت في ثيابها لأنكرت و«مسكتهم طويق».

-: ولكنك تختلفين عنها وهي تختلف عن غيرها من النساء.

وعندمـا وصلت السيـدة إلى معسكـر الأمـير، سبقهـا الخـادم وأخـبر الأمـير بحضورها ومعها أولادها، فأمر الأمير أن تدخل عليه لوحدها قائلاً:

: أدخلها لوحدها، وليبق أبناؤها خارج الخيمة.

-: حاضر.

: إدخلي أيتها السيدة لوحدك.

-: وأبنائي؟

: ليبقوا خارج الصالون.

-: أليس في المجلس رجال؟

: بلى، فيه الأمير وبعض رجاله.

-: إنني أستحى أن أخل على الرجال لوحدي.

: مادمت متلفعه بكسائك فلن يرى أحد منك شيئاً.

-: إسبقني إلى المجلس.

: إدخلى.

-: السلام عليكم.

: وعليك السلام.

-: لقد حضرت أيها الأمير فماذا تريد مني؟

: آه، ماذا أريد منك!؟

-: نعم،

: ألست فلانة أم الفلان؟

-: بلى.

: يبدو أن لسانك قد طال هذه الأيام وقد يحتاج إلى قطع؟

-: إن كان بالحق فلا جزع من ذلك.

: هل أنت القائلة: والله لئن عاد حكم آل سعود إلينا لأرقص في وسط شارع البلد حاسرة عن راسي؟

-: نعم، لقد قلته.

: قلتيه!!

-: نعم أيها الأمير ولا أزال أقوله حتى الآن.

: وترددين كلامك على مسمعي بكل صفاقة؟

-: بل بكل وضوح.

: هذا يعني أنك تؤيدينهم؟

-: نعم وبالتأكيد.

: يطرق الأمير برهة ثم يسألها: لماذا هذا التأييد المطلق؟

-: آه، هذا التأييد لما لقيناه منهم من العدل والمساواة والأمن والأمان.

: العدل، والمساواة، والأمن والأمان!! يردد الأمير بينه وبين نفسه في صوت منخفض ثم يقول: هذا معناه أنك لا تودين حكمنا؟

-: لم يكن هذا بالضبط.

: وماذا يعني إذا غير ذلك.

-: إنكم أناس جدد علينا ولم نجربكم حتى الآن.

: تجربينا!!.

-: نعم، لم نجربكم، أما هم فقد عشنا تحت كنفهم مدة طويلة لم نر على وجوههم غير الخير.

: يطرق الأمير برهة ثم يقول: أبشري بالخير، أبشري بالخير سترين ويرى غيرك ما يسر خاطره، من العدل والمساواة والأمن والأمان ما دام هذا الرأس تطرقه الرياح «وانا اخو نورة».

-: أطال الله عمركم.

: خذوها وأعطوها هبة مني، تلك الصرة من الجنيهات مع كسوة لها من أفخر مالديكم من الملابس وذلك جزاء لها على شجاعتها وإقرارها بما قالت وما عبرت به عن رأيها وعدم ترددها أو تملصها مثلما يفعل البعض.

-: أطال الله عمر الأمير، لم أكن مستحقة لمثل ما أمرت به.

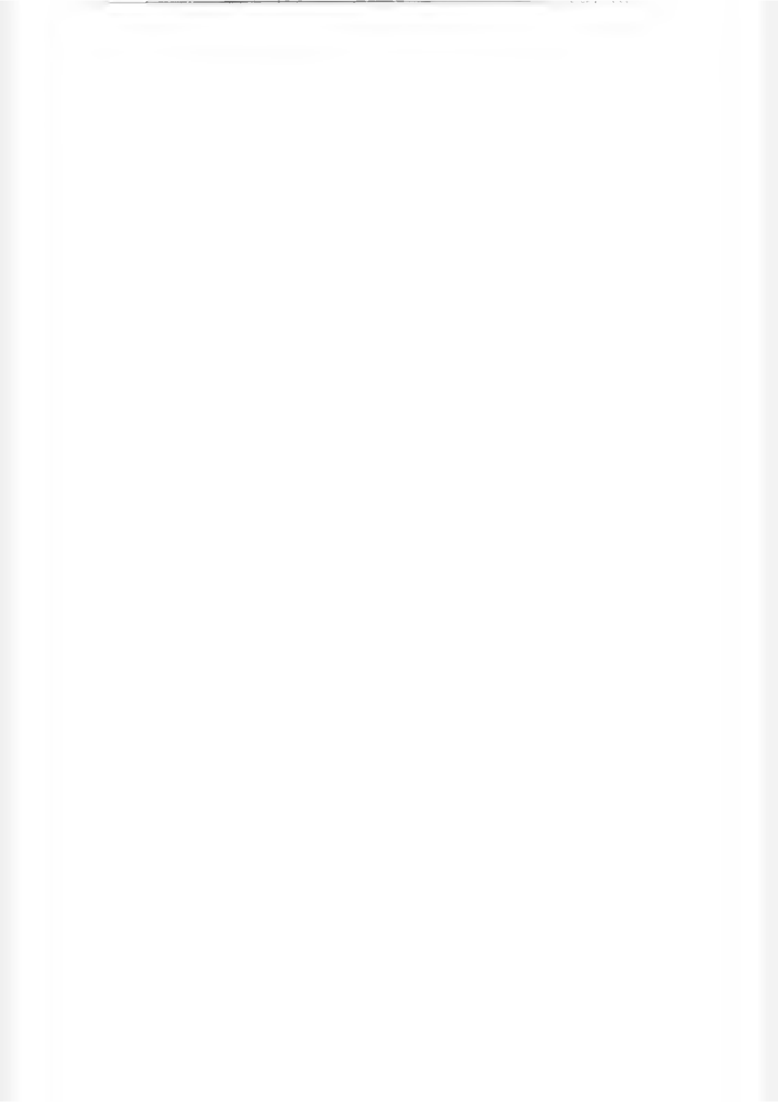
: تستأهلين يا أم فلان، وقد ترقصين طربا عندما يتوفر لكم ولكل البقاع التي انضوت تحت رايتنا الأمان والطمأنينة.

-: أتأذن لي بالانصراف؟

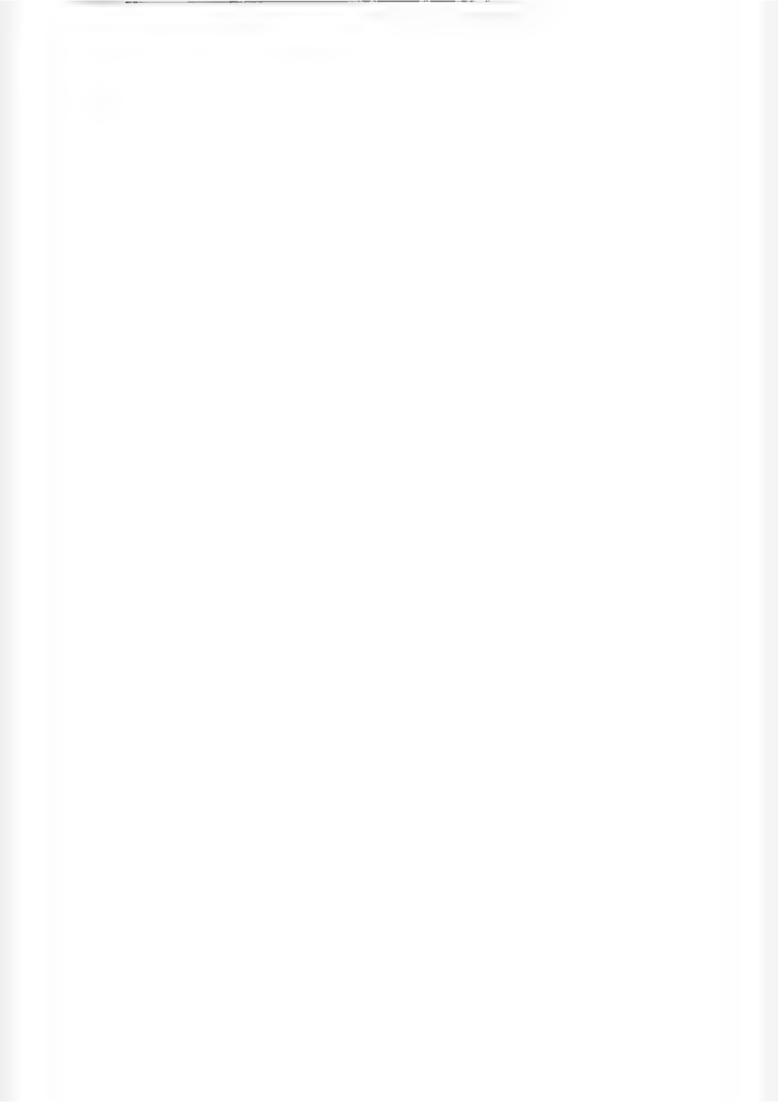
: تفضلي، واحملوا معها ما أمرت به لها.

-: أستودعك الله.

: مع السلامة.



القصة رقم (١٢)



الـراويـة

لم يكد بدر إحدى الليالي البيض يضفي ثوبه على الكون حتى تجمع الرجال على بطحاء ذلك الوادي التي غلسها سيل الربيع فأصبحت ناعمة نظيفة طيبة الرائحة، وجلسوا عليها بدون فراش فهي فراشهم المفضل حيث جثى كل واحد منهم كومة من البطحاء الناعمة واتكأ عليها وهي بمثابة وسادة الريش، ومع انسياب ضوء القمر الشفاف تجاذب الرجال أطراف الحديث، وبدأوها باستعراض ما دار في حياتهم اليومية من أحداث، حتى أصبح الحديث ذا شجون فقال أحدهم لصاحبه:

-: أسمعنا مما تحفظ من الأشعار.

: أنا؟

-: نعم، ومن نعني غيرك!!

: إن محفوظاتي من القصائد قليلة، ولكن عليكم بفلان فهو الذي يحفظ أكثر مني، أليس كذلك؟

-: بلى، بلى، ولكن عليك أن تفتتح الجلسة أنت.

: إذا استمعوا إلى هذه القصيدة. فأتى عليها.

-: صَح لسانك، . هكذا نطقها الجميع.

: هاه، جاء دورك يا أبا محمد.

-: دوري أنا؟

: لقد وقع عليك الاختيار قبل ذلك، ولكن أجلنا دورك حتى يفرغ رفيقك.

-: إن القصائد كثيرة فأيها تريدون؟

: نريد أقربها إلى قلبك.

-: أتريدون قصيدة عبيد؟

: هاتها.

٨٠ قِلْ هَيْه يَا لِلِّي لَهْ مَعْ النَّاسْ وِدَّادْ ... مَا تَرْحَمُونَ الْحَالْ يَا عِزْوِتِي لِيْهْ

٨١ مَا تَرْحَمُونَ اللِّي غَدَا دَمْعَهْ ابْدَادْ ... ذَالَهْ زِمَانْ وْحَرِّقْ الدَّمْعْ خَدِّيْهْ

٨٢ مِنْ شَوْفِتِي لِلتِّرْفْ مْزَبُّورْ الأَنْهَادْ ... مِتْهَنْفِلٍ يَمْشِيْ عَلَى قِدِمْ رِجْلَيْهْ

٨٣ وَالشَّوْكْ مَالَهْ عِنْ مِوَاطِيْهِ رَدَّادْ ... آلاَّ وَلاَ سِبْبِتٍ مِتِينْ يُوَقِّيْهْ

٨٤ جِبَّهْ سَقَاكْ مْنَ أَوَّلَ الْوِسِمْ رَعَّادْ ... مَا طَالَعَتْ خَشْمْ أمْ سِلْمَانْ بِسْقِيْهْ

٨٥ حَيْثْ إِنَّهَا لِلْمِنْهَزِمْ دَارْ مِيْعَادْ ... وْمِنْ لاَذْ بَهْ كِنَّ الْحَرَمْ لاَيِذٍ بِيْهْ

٨٦ إِبْنْ رِخِيْصْ اللِّي نِزَلْ حَدَّ الأَجْرَادْ ... قَالْ إِسْكِنُوا وَانْتَمْ هَلْ الدَّارْ يَاهَيْهْ

٨٧ وْجِيْنَا قِلِيْبْ غَاطِيسٍ وَسْطَ الأَنْفَادْ ... بَالْخَمسْ مَعْ نِصْفَ الثَّمَانِينْ نِدْلِيْهْ

٨٨ عِيْسَى يِقُولَ الْحَرْبْ لِلْمَالْ نَفَّادْ ... اَلْمَالْ لِمِنْ هَبَّتْ نِسَانِيسْ ذَارِيْهْ

٨٩ عِيْسَى يِقُولَ الْحَرْبْ مَا بَهَ لَنَا أَزْوَادْ ... إِنْشِدْ مْسَوِّي السَّيْفَ هُولَيْهْ حَانِيْهْ

٩٠ إِنْ كَانْ مَا تِرْوِيهْ مِنْ دَامْ الأَضْدَادْ ... وَدِّيهِ يَمْ الْعَرْفِجِيَّهْ تْرَوِّيْهْ

٩١ وإِنْ كَانْ مَا مِرَّ يْزَغْرِتْ بِالأَكْبَادْ ... تَرَى الْمُوصَى يِدْهَلْ اللِّيْ يُوَصِّيْهْ

....

٩٢ وَالله لَوْ إِنِّي مِنْ وَرَا جِسْرٍ بِغْدَادْ ... إِنِّي لِكَمْ مِثْلَ الْعَمَلْ عِنْدِ رَاعِيْهْ

-: صح لسانك. هكذا أطلقها السامعون

: مهلاً يا أبا محمد.

-: هاه، ماذا عندك؟

: البيت الأخير ليس مع القصيدة.

-: إنه من ضمنها.

: أبداً، أبداً، ليس فيها، هناك بيت مشابه له إنما ليس الذي قلت.

-: إن هذا البيت من صلب القصيدة.

: أتراهنني؟

-: على أي شيء أراهنك؟

: على هذا البيت.

-: وما أدراك بالقصيد حتى تراهنني؟

: إنني أعلم منك فيه.

-: إذا كنت أعلم مني فهات البيت البديل عنه.

: إنه لم يحضرني الآن.

-: أرأيت أنك تحاول المغالطة على غير هدى؟

: إنني على حق ومتأكد تماماً فقد سبق أن سمعته من راوية ثقة.

-: أوه «وَاللهِ مَا عِنْدَكْ مَا عِنْد جِدَّتِيْ».

: أنا!؟

-: نعم، أنت ولا غيرك.

: إذا راهني.

-: أراهنك!!

: نعم مد يمينك.

-: ومن يفرق ما بيننا بالحكم المرضى؟

: هناك من يفرق بيننا.

-: أمن هؤلاء الحاضرين؟

: بالطبع لا.

-: من هو إذا؟

: إذا راهنتني أخبرتك وسترضى به حكماً.

-: إذا، هذه يميني، ما هو. الحق؟

: الحق، عدد من الذبائح يفرضها الحضور.

-: ونطق أحد الحضور يكفينا ذبيحتان.

: إذا، تم الرهان على ذبيحتين.

-: ومن هو الحكم بهذه القضية؟

: إنه الراوية المشهور، ألا تعرفه؟

-: لا أعرف راوية حولنا غير أبا عبدالعزيز.

: إنه هو بالضبط.

-: لنذهب إليه ليحكم بيننا.

: لو ذهبنا إليه، فسوف يعتبرنا ضيوفا عنده ويكلف نفسه بتجهيز عشاء لنا.

-: وهل نحن «أجناب»؟

: إن لم نكن كذلك فسجية الكرم فيه لن تسمح لـه بأن نجلس لـديه بـدون أن يكرمنا.

-: إذا، ماهو الحل؟

: الحل أن نأتي بأحدى الذبيحتين الآن ونبدأ بتجهيزهـا ويذهب إثنـان منا ليـدعوه حتى إذا جاء إلى هنا شاركنا فيما أعددنا.

-: وعلى من تكون الذبيحة؟

: على من يثبت عليه الحق في الرهان ويكمل الثانية في الليلة التالية.

-: إذا، هذا هو الترتيب الجيد.

: ولكن أخشى ألا يأتي باعتباره الأمير في أعلى البلد.

-: لا، إنـه رجـل كـريم الخلق، لـين المعشر، خفيف النفس، ومتى علم أن الموضوع فيه اجتماع «زْقِرتْ»فلن يتأخر سيما وأننا غير بعيدين عنه.

: وذهب الرسولان إلى الراوية وبعد أن سلما عليه ورحب بهما قال أحدهما: إننا بحاجة إليك يا أبا عبدالعزيز.

-: بحاجة إليّ!! أهلاً وسهلاً وأبرك الساعات، تفضلا أولاً.

: إننا في عجلة من أمرنا.

-: في عجلة!! لن تذهبا قبل أن تشربا القهوة، «فِنْجَالٍ وَالِمْ، وَالِمْ».

-: سلمك الله، لكن هناك من ينتظرنا الآن ونود العودة إليه.

:. ما هي حاجتكما؟

-: حاجتنا أن تصاحبنا إلى رفاقنا، فقد أرسلونا إليك لدعوتك، فهم في انتظارك في مفرش الوادي.

: دعوة خير إن شاء الله!؟

-: إنها دعـوة خير، فلقـد اجتمع عـدد من «اَلزْقِـرْتْ» وتسامـروا في هـذه الليلة المقمرة وارادوا الاستمتاع بوجودك معهم.

: أبرك الساعات!! ولكن ألا يوجد هناك مشكلة لا سمح الله.

-: أبداً، أبداً، فكلما في الأمر أن فلانا وفلانا قد اختلفا على بيت من الشعر ورضياك حكما بينهما.

: عسى أن يكون فيه رهان؟

-: نعم، فيه رهان و«دَسْمَةْ شِوَارِبْ».

: حسنا، أنا معكما، فاصبرا لي بعض الوقت.

ولم يمض طويل وقت حتى عاد الراوية وفي معيته الرسولين ولما وصلوا إلى مجمع السمر تبودلت التحية، وأخذ كل واحد مجلسه فقال الراوية:

-: ما هي نقطة الخلاف يا أبنائي؟

: أجابه المعترض: إن فلانا يروي هذا البيت لعبيد بن رشيد ضمن قصيدته التي مطلعها.

قل هيه ياللي له مع الناس وداد   ما ترحمون الحال ياعزوتي ليه

إلى أن قال:

-: نعم، والقصيدة من أساسها ليست لعبيد وإنما هي لأخيه عبدالله، وفي القصيدة بيت آخر يقول:

٩٣ هَـوِيـتْ لِيْ سُـوقٍ وِرَاجِيرْ بِغْـدَادْ   يِضِيعْ عَقْلَ ٱلْمَصْطِحِيْ وِإنْ هَوَىَ فِيـهْ

٩٤ هَـذَا يِهِلّ النَّطْوِ مِنْ فَوْقِ الأَوْتَـادْ   وْهَـذَا يْبَارِيْ لَـهْ وْهَـذَا يْسَـذْوِنْـهْ

٩٥ وْهَـذَاتْ نَـجَّـارٍ وْهَـذَاتْ حَـدَّادْ   وْكِـلٍّ بْشِغْلَهْ وَالْ الأَقْـدَارْ مِشْقِيْـهْ

: هاه!! إذا لمن يكون ذلك البيت؟

-: ذلك البيت يا ولدي للشاعر مخلف بن هديرس من قصيدة يقول فيها:

٩٦ الضَّيْغَمِيْ مِنْ حَـايِلٍ عَضْ الانْجَادْ   دَزَّ السُّبُـورْ وْقَـامْ يَجْمَـعْ نُـوَاحِيْـهْ

٩٧ قَـالُوا لِمِنْ يَـا مِيرْ كَـزَّيْتَ الاوْعَادْ   قَـالَ الـذُّوَيْبِيْ حَـالِفٍ مَـا نْخَلِّيْـهْ

٩٨ وْحَلَفْ يِمِيْنٍ بْصِلْبَ الآبَاءْ ولأجْـدَادْ   مَـادَامْ يَـا بَيْتَ الـذُّوَيْبِي نْفَـاجِيْـهْ

٩٩ لَـوْ هُوْ وَرَاطِفْ الْبَحَـرْ عَنْـهْ مِنْ غَـادْ   يِلْزَمْ عَـلَى بَيْتٍ تِشَتَّـتْ ضُـوَارِيْـهْ

١٠٠ وَالـظَّاهِرِيْ تَبْوِيْشَـهْ الْبِيَـهْ مَا فَـادْ   أَقْفَى كِـمَا كَلْبٍ حَـدَا الـرِّمِيْ رَاعِيْـهْ

١٠١ وْمَنْجُوبْ بِـامُـهْ عَقْبَ النَّيْرِ مِنْ غَـادْ   وْسِبِيْ مَـطْعُـوْمَ النَّشَـامَى يْبَـارِيْـهْ

١٠٢ وَالله لَـوْ إِنُّـهْ مِـنْ وَرَاجِيرْ بِـغْـدَادْ   إِنُّـهْ لَكِمْ مِثْلَ الْعَمَـلْ عِنْدْ رَاعِيْـهْ

١٠٣ أَبُــو طَـلَالْ الــلِّي لِيَــا صَــادْ مَــارَادْ   مَـا هُوْ مْمَسَّـحْ صَيْـدِتَـهْ خَـابْ رَاجِيْـهْ

إلى آخر القصيدة.

-: صح لسانك يا أبا عبدالعزيز؛ هكذا قالها جميع الحضور باعجاب.

: إذا، عليك أن «تْزَوْزِيْ بَالْحَقْ» هكذا قال المعترض على القصيدة.

-: أبشروا، أبشروا.

: إذا في الموضوع حق!؟

-: نعم إن إحدى الذبائح تطبخ على النار.

: أغناكم الله.

-: مادام الأمر كذلك فدعوني أحدثكم عن قصة كل قصيدة.

وساق الشيخ الراوية قصة لكل قصيدة وأتي بها كشاهد على صحتها حتى نهاية السهرة وتفرق المجتمعون كل إلى أهله.

ولم تكد شمس الأصيل تنساب إلى مغربها حتى تحركت السيارة التي تحمل مجموعة من الرجال هم «السِّفَارَةْ» الذين يشاركون العريس في حضور حفلة الزواج من بلدة روضة رمان متجهين إلى بلدة العظيم مروراً ببلدة سميراء، حيث وصلت السيارة إلى سميراء قبيل أذان العشاء الآخر، وبات المجموعة في ضيافة إبي عبدالعزيز حيث كان يصاحبهم من نقطة إنطلاقهم والزواج لابن أخيه سليمان بن محمد حتى إذا تناولوا طعام الإفطار في اليوم الثاني خرجوا بسيارتهم متجهين إلى هدفهم، وعلى رأس هذه المجموعة من الرجال شيخان لهما مكانتهما الاجتماعية والأدبية فأحدهما صاحب هذه القصة وثانيهما صاحب قصة «النظير» وما إن ارتفعت الشمس في صدر السماء حتى وصلت السيارة إلى ذلك الوادي المكتظ بشجر الطلح، وتحت ظل تلك الدوحة الظليلة وقفت السيارة ونزل عنها ركابها ليستريحوا ذلك اليوم حتى قرب صلاة العصر، بينما ذهبت السيارة مع عدد من الرجال إلى أهل العروس ليوصلوا ما معهم من جهاز العروس وليخبروهم أن «السفارة» سوف يصلُّون معهم صلاة العصر، وما إن مدت الفرش تحت ظل تلك الدوحة وعلى رمل ذلك الوادي الناعم والبارد في نفس الوقت حتى تقابل الشيخان وتجاذبا أطراف الحديث، وكانت أحاديثهما ذات شجون تطرقت لمختلف نواحي

الحياة، وأثناء ذلك كانت تدار فناجين القهوة وكئوس الشاي بين الحين والآخر، وكان أحد الشيخين مختصاً بعلم الأنساب والثاني بارزاً في الرواية ومما دار في هذا المجلس سؤال من أحد الحضور قال فيه:

-: يا أبا عبدالعزيز لمن هذه الأبيات؟

من طاوع الثنتين يصبر على اللوم	يصبر على فرقى الأهل والعمامي
أبكى على الخلان ماني بمليوم	واظن من يبكي هله ما يلامي
أقفوا كما طيز قلب راسه الحوم	غربية ما ينـدرى وين حامي

: ابتسم الشيخ ابتسامة عريضة وهو يقول: هذه الأبيات لثلاثة شعراء يا بني.

-: لثلاثة شعراء!!

: نعم، لقد أخذت من كل قصيدة بيتاً واحداً.

-: هاه!! أليست كلها لمولى ابن هذال؟

: لا يا بني، ليس له منها غير البيت الأخير.

-: والآخران؟

: الآخران واحد منهما لصايد الزعيري الشمري، والثاني لبصري الوضيحي الشمري من قصيدتين لهما.

-: إنهما على قافية واحدة.

: كثير من القصائد تتشابه في القافية يا أبنائي.

-: إذا، نرجوك يا أبا عبدالعزيز أن تسمعنا كل واحدة منها على حدة.

: ماذا تقول يا أبا سالم؟ يوجه كلامه للشيخ الثاني.

-: أقول فارس وفي ميدانه، لا أحد يعترض عليك.

: واعتدل جالساً، ثم تنحنح وقال: كان بصري الوضيحي قد تزوج إمرأة في منتصف عمرها وبيدها ثروة من المال، والثروة آنذاك هي الأغنام والإبل، وكانت ثروتها من الغنم، وبعد أن تزوجها رحل معها بحثا عن مرعى للأغنام وأبعد عن المرابع التي اعتاد أن يعيش فيها بكنف آل الجربا مما لم يكن قد تعوده من قبل، ولما طال به الوقت أرسل هذه القصيدة يخاطب بها الشيخ صفوق الجربا حيث يقول:

١٠٤ يَا صْفُوْقْ عَيْنِيْ حَارِبَتْ لَذَّةْ النَّوْمْ | مِنْ عِقْبِكَمْ يَا صْفُوْقْ عَيَّتْ تَنَامِيْ
١٠٥ وَالْكَبِدْ صَامَتْ بَالْهَوَاجِيْس اوِ غْمُوْمْ | عَيَّتْ عَنْ الْمَطْعُومْ صَابَهْ هْيَامِيْ
١٠٦ الزَّادْكِنَّهْ مْرَوَّكِ سُمْ زَقُّومْ | سَافَتْ وْعَافَتْ بُهْ لِذَيْذَ الطَّعَامِيْ
١٠٧ أَبْكِيْ عَلَى الخِلاَّنْ مَا بَهْ عَلَيْ لَوْمْ | وَاظِنْ مِنْ يَبْكِيْ هَلَهْ مَا يْلاَمِيْ
١٠٨ غَدِيْتْ مِثْلَ اللِّيْ عَنْ الدِّيْد مَفْطُومْ | وْقَعَدِتْ أَوَقِّفْ عِنْد فِرْقَ الْغَنَامِيْ
١٠٩ مْحَذَا مِطَبْ ابْيُوْتَهُمْ صَارْ مَوْسُوْمْ | وْمَرْكَى الدِّلاَلْ الْمِتْعَبَاتْ السَّوَامِيْ
١١٠ عِلْمِيْ بَهُمْ هَلَّةْ شَهَرْ ثَانِيْ التَّوْمْ | تْعَاوَدَ الْمِعْبَارْ وَالشَّطْ زَامِيْ
١١١ أَدْنَى مَنَازِلْهُمْ شِثَاثَا وْلِمْلُوْمْ | وَأَقْصَى مَنَازِلْهُمْ قْرَيْزَ النِّعَامِيْ
١١٢ وِاخْلاَفْ ذَايَا رَاكِبِيْنْ عَلَى كُوْمْ | مِنْ فَوْقْ طَوْعَاتٍ هْجَافٍ هْمَامِيْ
١١٣ وِلْيَا لِفَيْتُوْا دِيْرَةْ أَصْحَابْ مِن قَوْمْ | إِحْكُوْا تَرَى خْمَصَ الرِّجَالْ الْعَلاَمِيْ
١١٤ عِلْمَ اَلْفَرَحْ بِنْقَادْلُهْ كِلْ مَهْمُوْمْ | وْبَنْ بْكَاسْ الْهِنْدْ يِغْدَى الصَّيَامِيْ
١١٥ سَنْدْ بَهَمْ جِرْ عَلَى الصِّيْدْ صَارُوْمْ | مَالِ لْحَقَاتْ الظَّعَايِنْ خَزَامِيْ
١١٦ يَتْلِنَّهْ الاَ ظَعَانْ مَعْ كِلْ زِهْمُوْمْ | بْقَبْرَ الْفَرَسْ بِذْكَرْ وَرْدْلُهْ جَهَامِيْ

إلى آخر القصيدة.

-: صح لسانك يا أبا عبد العزيز.

: وعندما سمع القصيدة الشاعر صايد الزعيري أجابه بقصيدة أخرى على نفس القافية يقول فيها:

١١٧ يَا رَاكِبٍ مِنْ عِنْدَنَا فَوْقْ لِمْلُوْمْ | وَارْبَعْ ضْلاَفٍ لِفَفَنْ بَالْحِزَامِيْ
١١٨ نَابِيَ الْكَرَى وانْ قَاطَعْ الدَّرْب عِلْكُومْ | عَلَيْه مِنْ يِدِّيَ الْوَضِيْحِيْ كَلاَمِيْ
١١٩ بِطْيَكْ عَنَ الوِضْحَانْ يَومَين مَعْ يومْ | وَارْبَعْ لِيَالٍ عِدْهِنْ بَالتَّمَامِيْ
١٢٠ يَا بَصْرِيْ الوِضْحَانْ هَيِّدْ عَنَ الصَّوْمْ | وِشْ مُوْجِبٍ عَيَّتْ عْيُونَكْ تَنَامِيْ
١٢١ مِنْ طَاوَعْ الثِّنْتَيْنْ يَصْبِرْ عَلَى اللَّوْمْ | يَصْبِرْ عَلَى فُرْقَى الأَهَلْ وَالْعَمَامِيْ
١٢٢ وِيَنْشِدْ عَنَ الْمِطْفِلْ عَلَى دَوْرٍ أَوْ تَوْمْ | وِيْلاَعْبَهْ يَا جَا لِيَالْ الفِطَامِيْ
١٢٣ وِانْ سَلَتْ عَنَّا يَا لْوَضَيْحِيْ بْتَعْلُومْ | حِنَّا نْصَالِيْ ضِدْنَا بَالْجَهَامِيْ
١٢٤ مَعْ عَمْرٍو الْمِذْلاَةْ مِقْعِدْ صَغَى الْقَوْمْ | وْنَمْشِيْ بْظِلْ صْفُوقْ فَرْخَ الْقِطَامِيْ
١٢٥ وْمِنْ دُوْنَنَا مَا يِتْلِفْ الذِّيْبْ وَالْكَوْمْ | وْحِنَّا نْثَرِّيْ ضِدْنَا بَالزِّحَامِيْ

١٢٦ وَادْ المَـرَا يِـذْكَـرْبُـهْ العِشِبْ كِيْهُـومْ يَــرْعَنُّهْ القِـطْعَـانْ وَالكَبُـو حَـامِيْ
١٢٧ مَعْ صَيْرِمٍ يَـذْوِيْ عَلَى القَـوْم صَارُوْمْ كَمْ هَجْمِـةٍ نُـوْدِعْ عَلَيْهـا قِتَـامِي

هذا ما أحفظ من أبيات القصيدة وهي أطول من ذلك.

-: أحسنت، احسنت، لا فض فوك.

: أما مولى ابن هذال فله قصيدة على نفس القافيـة أيضاً، ومن لا يعـرف هذه القصائد ويميزها يخلط بينها.

-: أسمعنا القصيدة الثالثة أطال الله عمرك.

: يقول مسعود مولى بن هذال:

١٢٨ أَمْسَ الضَّحَى نَطَّيْتَ أَنَا رَاسْ مَـزْمُومْ تَلْعَبْ بُـهْ الأَرْيَـاحْ شَـرْقٍ وشَـامِيْ
نَـطَّيْتَ رِجْمٍ مَـا رِقَى رَاسَـهْ البُـوْمْ غَـيْرَ العِقَـابْ الصَّيْـرِمِيْ وَالقِـطَامِيْ
١٢٩ غَـدِيْتْ مِثْلَ اللِّيْ عَلَى الـوَجْـهْ مَلْطُومْ عِقِبْ مْـرَوْيَنَ النُّمَشْ بَـالـزُّحَـامِيْ
١٣٠ أَقْفَـوْا وْخَلُّوْنِيْ عَـلَى الـدَّارْ مَـوْسُـومْ مِثْـلَ السَّجِـيْنَ اللِّيْ بْحَبْسَ الـظُّلاَمِيْ
١٣١ مْحَـذَا مِكَـانَّ البَيْتْ وَالحَـفِـرْ مَثْـلُومْ وْمَـرْكَى الـدَّلاَلْ المِتْعَبَـاتْ الشَّـوَامِيْ
١٣٢ زَاعَتْ جَهَـامَتْهُمْ عَنَ الـوَادْ ابُـودَومْ مِسْتَجْنِبِـيْنَ مْـطَيْـرَاتْ العَسَـامِيْ
١٣٣ أَقْفَـوْا كِـمَا طَـيْرٍ قَلَبْ رَاسُـهْ الحَـومْ غَـرْبِيَّـةٍ مَـا يِنْـدَرَى وَيْـنْ حَـامِيْ
١٣٤ وِاخْـلاَفْ ذَايَـا رَاكِبٍ فَـوْقْ مَنْسـومْ يَقْطَعْ قَـرَارِيْصَ الـرَّسَنْ وَالْخَطامِيْ
١٣٥ تَلْفِي لْعَمِّيْ نَـاقِـلْ الكِـبِرْ وَالـزُّومْ شَيْخ وَلَـدْ شَيْـخٍ يْقَدِّى الجَهَـامِيْ
١٣٦ عَـلَى رِكَـايَـا الـرِّسْ تَلْقَـاهْ مَلْزُومْ عَـلَى رِكَـايَـا الـرَّسْ يَبْنِي الخَيَـامِيْ
١٣٧ وِانْ سَـايَلَكْ عَنِّي فَـانَـا اليَومْ مَهْمُـوم مِنْ عِقْبِكُمْ يَـا عَمْ صَـابَنْ هَيَـامِـيْ
١٣٨ أَجْلَدِتْ بْـوَادْ الـدُّوْمْ كِنِّي بْمَنْجُـومْ وْغَـدِيْتْ مِثْـل اللي غَشَـاهْ النَّجَـامِيْ
١٣٩ إِحِنْ مْنَ الـوَجْـلَى حَنِيْنَ امْ خُـرْطُـومْ وْبَـاللَّيْـل اَسَـاهِـرْ نَـايِحَاتْ الحَمَـامِيْ

هذا ما أحفظ من القصيدة.

-: أحسنت أحسنت، هكذا هتف من بالمجلس.

: هذه القصائد وأمثالها يا أبنائي يكثر الخلط فيها بين الرواة ولا يميز بينهـا سوى من لديه معرفة بالقصائد كلها.

-: حقاً إنها تشبه بعضها.

: في الظاهر.

-: والباطن.

: لا، لا، فموضوع كل واحدة يختلف عن الأخرى وإن تشابهت القافية وتقاربت بعض الأبيات في المعنى.

-: إنه أعلم منكم بمثل هذه الأمور. هكذا نطق الشيخ الثاني.

: دعهم يتكلمون يا أبا ابراهيم.

-: لا، إنما أقول، أعط القوس باريها، ولكن قل لي يا أبا عبد العزيز، كيف استطعت أن تحفظ كل هذه القصائد وتميز بينها؟ فما من قصيدة تقال إلا ويكون لديك علم فيها.

: مثلك من يعلم يا أبا سالم فالذي جعلك تعرف أصول وفروع وأفراد سكان قرى الجبل وأماكنهم وأملاكهم وتميز بينها جعلني أعرف هذه القصائد وأميز بينها.

-: أوه، لكن هذه أسهل وأهون.

: ليس هناك كبير فرق، فإنها أهون عليك ولكنني أجد فيها صعوبة مثلما تجد صعوبة في حفظ الشعر.

-: إيه، كل ميسر لما خلق له.

: نعم، «كل بشغله وال الاقدار مشقيه» ولكن حدثنا يا أبا سالم عن الأسرة الفلانية إلى أي قبيلة ينتمون؟

-: أتريد القريبين منهم أم البعيدين؟

: أريد كلا الأثنين.

-: كما تعلم يا أبا عبد العزيز والكلام للجميع الظروف التي كانت سائدة بالجزيرة العربية قبل عهد الاستقرار الذي نحن فيه أدامه الله علينا.

: ما هي الظروف التي تذكر؟ يطرح الشيخ هذا السؤال وكأنه لا يعلم، والغرض من ذلك ليجعل الشيخ الثاني يشرح هذه الظروف ليفهمها الحاضرون.

-: هناك يا أبنائي ناحية الأمن والظروف الاجتماعية وما يترتب عليها من الثارات، بالإضافة إلى الظروف المعاشية، فأحياناً الفقر يلزم أفراد من قبيلة

أو أرومة معينة إلى البحث عن لقمة العيش في طرق مختلفة قد لا تناسبهم إجتماعياً، وعند ذلك لا يبينون اسم قبيلتهم أو أرومتهم مخافة العار فيصبحون مجهولي النسب، وأحياناً يكون هناك ثارات ودماء مسفوكة في أوقات الشغاشغ كفى الله شرها، فيخشى مثل هذا الفرد أن يبين انتماءه الصحيح مخافة أن يناله خصمه بسوء، وهكذا فإن جد تلك الأسرة حينما جاء من وسط نجد وجلس مدة طويلة لا يعرف من أي قبيلة أو أرومة، ولم يفصح عن إسمه ونسبه إلا بعد أن تيقن من زوال الخطر الذي يخاف منه.

: إذاً هم يعودون إلى جذور عربية.

-: «بَالْحَيْلْ» هذا شيء مؤكد فأسرته وأقاربه موجودون في البلد الفلاني حتى الآن.

: أحسنت، أحسنت. هكذا نطق الحضور.

-: لقد جاء دورك يا أبا عبد العزيز.

: آه، ماذا تريدون مني؟

-: نريد أن تخبرنا عن قائل هذه الأبيات.

رفيقك الداني ليا شفت حاله	إحمل عليك من المعاليق ما شال
واصبر كما تصبر رواسي جباله	ما تنهزع من وطى حافر ونعال
تر ربع يوم مقعدك بالشكاله	يسوى حلال عايشين به انذال

: أوه، لقد خلطت يا بني، أنت مثل رفيقك.

-: مثل رفيقي!!

: نعم «مَا هَذَا السَّنْعْ»!! لا تلعبوا يا أبنائي بميراث الأجواد وتراثهم.

-: هل أخطأت؟

: «بَالْحَيْلْ»!! فالبيت الأول والأخير لشاعر والبيت الأوسط لشاعر آخر ومن قصيدة أخرى.

-: هاه!! لقد سمعتها هكذا.

: إذاً من نقل إليك فقد أخطأ.

-: أعطنا الصواب جزاك الله خيراً يا أبا عبد العزيز.

: البيت الأول والأخير من قصيدة لخلف أبو زويد الشمري من قصيدة يوصي فيها ابنه دخيل يقول فيها:

١٤٠ دِخِيّلْ خِذْ مِنْ وَالْدَكْ لَكْ مِسَالَهْ … مِسَالِةٍ مَا يِفْهَمَهْ كِلْ رَجَّالْ
١٤١ إِحْشِمْ خَوِيِّكْ عِنْ دْرُوْبَ الرّزَالَهْ … تَرَى الْخَوِيْ عِنْدَ الإِجَاوِيْدْ لَهْ حَالْ
١٤٢ وَالْمَرْجِلَهْ بَالَكْ تَرَخِيْ حْبَالَهْ … حَذْرَاً تِمِيْلِ وْلَا تَرَاخَى لِمَنْ عَالْ
١٤٣ إِنْ كَانْ مَا تِدْعَى عَلَى كِلْ قَالَهْ … تَرَاكْ مِنْ جِسْبَهْ هَدُوْمٍ لَهْ أَزْوَالْ
١٤٤ وِانْ كَانْ دَلْوَكْ مَا تِمُوْجَهْ شِمَالَهْ … تَرَى النّشَامَى يِنْسِفُوْنَهْ عَلَى الْجَالْ
١٤٥ رِفِيْقَكْ الدَّانِي لْيَا شِفْتْ حَالَهْ … إِحْمِلْ عَلَيْك مْنَ الْمَعَالِيْقْ مَا شَالْ
١٤٦ يَا عَلْ رَجْلٍ شَوُفْتَهْ قَدْ حَالَهْ … عَسَى تْدَوِّرْ زَوْجَتَهْ فِيْهِ الابْدَالْ
١٤٧ الْحُمْرَهْ تِدْرِكْ مِعِيْشَهْ عْيَالَهْ … لَا عَادْ مَا يِبْغَى مْنَهْ بَاقِ الأَحْوَالْ
١٤٨ وِانْ صَارْ لَكْ مِنْ غُوصَ الأنْضَارْ مَالَهْ … حْمَرَا تُوَرِّدْ بَكْ لْيَا صَنْقَرِ اللّالْ
١٤٩ تِمْرِسْ كِمَا تِمْرِسْ خَطَاةْ الْمَحَالَهْ … مَعْ سِهْلِةٍ عَمَّالْ مِنْ جَامْعَهْ ذَالْ
١٥٠ خَلّهْ مَعْ الدّيَّانْ تِمْشِي لْحَالَهْ … يَا صَارِمَا انْت لِلْمْسَهْ الْخَشِمْ حَمَّالْ
١٥١ تَرْبِيعْ يَوْمٍ مْجِلْسَكْ بَالشّكَالَهْ … بِسْوَى حَلَالٍ عَايْشِيْنٍ بَهْ انْذَالْ

-: سلم لسانك يا أبا عبد العزيز.

: أما القصيدة الثانية فهي لعبد الله بن علي الرشيد وقد وجهها للإمام فيصل بن تركي آل سعود ومطلعها:

١٥٢ الْحَمْد لَلْبَارِيْ فِرَزْ مِنْ شِكَالَهْ … وَالْحَمْد لَهْ ثَانِيْ عَلَى كِلْ الأَحْوَالْ
١٥٣ وَالْحَمد لَهْ ثَالِثْ بِقَدْرَهْ فِعَالَهْ … حَمْدٍ كِثِيْرٍ عِدْ مَا قَايِلٍ قَالْ
١٥٤ أَوْعِدْ مَا فَوْقَ الوِطَا مِنْ رْمَالَهْ … أَوْسَاحْ ظِلّ بَالْعَوَالِيْ وَالاَسْهَالْ
١٥٥ أَوْ عِدْ مَا تَرْمِيْ لِوَاقِحْ خْيَالَهْ … سَحْ وْتِسْكَابٍ وْدِيْمٍ وْهَمَّالْ
١٥٦ كِلْ الثَّنَا وَالشّكِرْ لَهْ وَالْجَلَا لَهْ … سِبْحَانْ مِنْ هُوْ كِلْ مَا رَادْ فَعَّالْ
١٥٧ رَبْ السَّمَا رِزْقَ الْمَلَامِنْ نِوَالَهْ … مِحْيَ الْهَشِيْمَ الْمَيّتَ الدَّارِسْ الْبَالْ
١٥٨ مَوْلَايْ عَازِلْ شَمْسَهَا عِنْ ظَلَالَهْ … سِيْدِيْ وِمِسْنَادِيْ لْيَا ضَكْنْ الْجَالْ
١٥٩ وْمِنْ قَالْ ذَا فِعْلِيْ فَهُوْ مِنْ هْبَالَهْ … هَذَاتْ فِعْلَ اللِّيْ لْيَا أَرَادْ فَعَّالْ
١٦٠ وِاخْلَافْ ذَايَا مِنْ يْوَدِّيْ الرّسَالَهْ … فِي صَفِحْ مَصْقُوْلٍ عَلَيْهَ الْقَلَمْ سَالْ

١٦١ سَـلاَمْ مِنْ مِنُّهْ عَـلَى الشُّوفْ وَآلَـهْ   وِمْشَـاهَـدْ الـلِّي لَلِثْقِيـلاَت حَمَّـالْ
١٦٢ سَلِّمْ عَلَيْـهْ وَلاَ تـقِـلْ لَـهْ مِقَـالَـهْ   إِلاَّ إِنْ كَـانْ إِنُّـهْ عَنِي نَشْـدْ وَسَـالْ
١٦٣ وْقَالْ اَخبَرنْ عِنْ صَاحِبِيْ كَيْفُ حَالَـهْ   نْعَطُهْ الجْوَابْ الَلِّي كِتَبْنَا وَالاَمْثَـالْ
١٦٤ قِـلْ لَهْ يِقُـلْ لَكْ يَـا خَلَفْ مِنْ غَدَالَهْ   مْنَ الحَيْ وَالْمَيِّتْ مْـنَ الْعَـمْ وَالخَـالْ

إلى أن قال:

١٦٥ حَقٍّ عَلَيْـنَـا الضَّـيْف نَـرْقَى حَمَـالَـهْ   وْنَفْـزَعْ لِمَنْ جَـانَـا مْن الضَّيْم دَخَّالْ
١٦٦ وِلِلضَّيفْ نِقْـرِيْ حِيِنْ تَبْـرِكْ رِحَـالَـهْ   وْمِنْ غَـيْر مِنُّهْ الْمِحْتِـرِيْ مَا نَهجْ خَـالْ
١٦٧ فَـانْ جَـا صِـدِيْق مِنْ عَـدوٍّ صْيَـالَـهْ   رِفِيْقَنَـا يِـرْخِصْ لَـهْ الحَـالْ وَالمَـالْ
١٦٨ وْيَـا مَنْ بَنَا سَـرْحَـهْ وْضَـايعْ حَـلاَلَـهْ   وْلاَ بَـاتْ فِي قَلْبَهْ مْنَ الخَـوْفْ وِلْـوَالْ
١٦٩ وْمِنْ جَـا يْرِيْـدَ الزِّيْن يِعْـطَى سُـوَالَهْ   وْعِنْ عَـانِيَ الله مَا قِـطَعْنَـاهْ الاَوْصَـالْ
١٧٠ وَالشَّرْ نَـدْفَـعْ جَـانْبَـهْ بَـالسَّهَـالَـهْ   وْلاَنِيْ لَتَقْـرِيْـبَـهْ مْنَ النَّـاسْ قَبَّـالْ
١٧١ فَـانْ كَانْ هُوْ رِكْبَ الرَّشَـا لَلْمَحَـالَـهْ   وِاسْتَثْقَلَتْ مَـانِيْ مْنَ الحَـرْبْ مَـلاَّلْ
١٧٢ أَصْـبِرْ كَـما تَصْـبِرْ رُوَاسِيْ جْبَـالَـهْ   مَـا يِنْهِزِعْ مِنْ وَطِيْ حَـافِـرْ وْنَعَـالْ
١٧٣ يِمْنَـايْ مَـا تَـرْضَى زِوَايِـدْ شِمَـالَـهْ   وِعْطِي الحُقُوقْ أَهْـلَ المَعَالِي وَالاَرْذَالْ
١٧٤ شْهُـوْدِيْ بْجِلْدِيْ وَالْعَـدُوْيَـهْ مْثَالَـهْ   وَالنَّاسْ تَدْرِيْ بَالجْدَايِـدْ وَالاَسْمَالْ[1]

هذا ما أعرف منها.

- : صح لسانك يا أبا عبد العزيز، إنها قصيدة رائعة.
: هاه!! لقد زال ظلال هذه الشجرة وأصبح بعضنا بالشمس دون أن نشعر بذلك.
- : نعم، لقد انسجمنا مع هذه القصائد الممتعة.
: دعونا نسحب الفراش إلى فيء الشجرة.
- : آه، لقد حان موعد أذان الظهر فالنؤدي الصلاة أولاً.
: كيف استطعت يا أبا عبدالعزيز أن تفرق بين هاتين القصيدتين؟
- : الفرق واضح، فكل واحدة تتحدث عن موضوع يختلف عن الثاني.
: ثم إن البيت الذي جئت به على أساس الأمر «وإصبر» ليس هكذا، وإنما هو

(١) نبذة تاريخية عن نجد ص ٩٥ ـ ١٠١

للاخبار والافتخار «وأصْبِرْ» وتعلمون يا عيالي أنه لا يجوز للإنسان أن يعبث بقصائد الآخرين أو يحرفها، ألا تعلمون أن القصيدة بالنسبة للشاعر تمثل إحدى ممتلكاته الغالية، وربما ساوت لديه أحد أبنائه أو إحدى بنياته فلا يسمح لأحد أن يمسها بسوء.

-: إنك على حق، ولكن قد تكون عدم معرفة الإنسان للقصيدة كاملة مما يجعله يخلطها مع قصيدة أخرى خاصة إذا كانت القافية متشابهة.

: قد يجد الراوي عذراً عندما لا يعرف كامل القصيدة، أو حذف منها بيتا أو أبياتاً تمشيا مع مقتضى الحال والوضع الذي هو فيه، ولكن ذلك لا يعطيه المبرر بالعبث بميراث الآخرين.

-: ميراث!!

: نعم، إنها أشبه بميراث الإنسان من الممتلكات والأموال إلا أن تلك الممتلكات خاصة بابنائه وعصبته، أما القصائد فهي ملك له متداول بين الناس، يستفيدون منها، يتذوقونها يتغنون بها، يستمتعون بها في مجالسهم ومسامراتهم بشرط أن يحموها من العبث أو التشويه والتحريف أو نسبتها إلى غير صاحبها.

-: كيف؟

: كأن يروي قصيدة لزيد من الناس يرويها لعبيد، وهذا نوع من السلب والنهب.

-: سلب ونهب حتى في القصائد!؟

: ولماذا العجب يا بني؟ إنك إذا نسبت قصيدة لفلان لشخص آخر، كأنك سلبت ممتلكاته وأعطيتها لذلك الإنسان وربما جاءت أكبر من ذلك.

-: أكبر من سلب الممتلكات!!

: بالتأكيد، لأن هذه الممتلكات يا بني أشياء مادية تنفد وتنتهي بعد سنة أو سنتين أو أكثر، لكن هذه ميراث هذا الإنسان الباقي يذكر به في كثير من الأحيان على مر السنين، فهناك قصائد قد مر عليها مئات، بل آلاف السنين ولا تزال تحي ذكر أصحابها في كل مجلس من المجالس.

-: صحيح معك حق، ولكن مثل من؟

: مثل قصائد المهلهل وكليب وبني هلال وغيرهم كثير.

-: على ذكر قصائد بني هلال، نرجو أن تسمعنا شيئا منها.

: أوه، لو أتيت بقصيدة واحدة فستغيب الشمس قبل أن تنتهي وهي تحتاج إلى جلسات وجلسات، دعنا نصلي فها هو الإمام سيشرع في إقامة الصلاة.

-: ولو القصيدة التي منها.

١٧٥ خَـذَاكْ اَللهُ مَـا تِـسْـوَىٰ كْـلَيْـبْ	وَلَا تِسْـوَىٰ خْنَيْصِـرَهْ الصْغَيْـرَا
١٧٦ وَلَا تِسْـوَىٰ مْنَ الجِشْـوَانْ خَـامِشِيْ	كَبِيرَ الْبَـطْنْ مَـدْعُـوْلٍ صِغِيـرَا
١٧٧ أَنَـا أْقُـولْ لَـكْ لَا تِـغْـتِـرِضْـنِي	لْيَـا شِفْـتَ الأَشْقَـرْ بِيْ مـغِيْـرَا
١٧٨ كِـنْ اذْنَـيْـهْ بْـفَـاعُـوْسْ رَاسُـهْ	أَقْـلَامْ قِـصْـبِ خَـاذِيْهِـنْ بِـصِيْـرَا
١٧٩ يَـالَيْتَ الـقَـبِرْ يَبْلَعْ عِنْ كْـلَيْـبْ	يْشُـوْفَ الـطَّرْدِ بِـوَادِيْ سِـمِيْـرَا
١٨٠ مِـنْ ذْرَيِّـعْ بِـسَـارْ وَارْدَاتْ	بِـوَادْ الـدُّوْحْ تَسْمَـعْ لَـهْ زِحِيْـرَا

: لقد قلت لك إنها قصائد طوال وتحتاج إلى وقت آخر. دعنا نصلي يا بني.

-: توكلنا على الله.

وبعد الصلاة تناول الجميع طعام الغداء وعاد البعض منهم إلى فيء الشجرة بينما تفرق الآخرون في أظلة الأشجار الأخرى، حيث دار الحديث بين هذين الرجلين حين قال أحدهما:

: يا الله، ما أمتعها من جلسة مع هذين الشيخين؟

-: حقا، إن أبا عبدالعزيز قد أمتعنا بهذه القصائد التي هَذَّها علينا بصوته الرّنان.

: إنها قصائد ممتازة، وذات معان عميقة فكيف يستطيع حفظها؟

-: أتحسب عقله مثل عقلي أو عقلك؟

: قد تكون أحسن مني، أما أنا فلا استطيع حفظ ثلاثة أبيات متتابعة فضلاً عن أن أقوِّم قصيدة طويلة.

-: صدقني أنه يحفظ قصائد تزيد على مئة بيت.

: مائة بيت!! «حَيْ وَاللّهْ هَا الذِّهِنْ»!؟

-: قل ما شاء الله.

: ما شاء الله، ولا إله إلا الله ألف مرة، ولكن حفظ قصيدة تزيد على مائة بيت مع قصتها شيء لا يستطيع حفظه غير عبقري.

-: أوه، ليست قصيدة واحدة، بل هناك مئات القصائد من هذا النوع.

: ما شاء الله.

-: لم يشتهر بالحفظ فقط وإنما اشتهر بعذوبة الصوت وحسن الإلقاء للقصيدة.

: لكنه يسرع في إلقائها أحيانا حتى لا نكاد نميز بين أبياتها.

-: أوه، إذا أمرس ببعض القصائد فلا تكاد تسمع غير دندنة صوته الندي بالمجلس.

: كيف جمع كل هذه المعلومات والقصائد.

-: الرجل إذا حرص على علوم الرجال وألقى باله منها، وكان عنده الاستعداد اللازم فإنه سيحفظها.

: والله لو جلست طول حياتي لم أحفظ جزء بسيط مما معه.

-: وهل يتساوى الرجال؟

: بالطبع لا .

-: وهناك لديه ما هو أهم من القصائد في بعض الأحيان.

: أهم من القصائد!!

-: نعم، إنه الكرم والمروءة.

: الله ربنا وربه!!

-: ألا تعلم أنه قد ارتكى لضيوف أعلى بلده؟

: كثر الله خيره، وأكثر من أمثاله.

-: إن مضيفه لا يكاد يخلو من الضيوف في كل ليلة.

: كل ليلة!!

-: كثير من الليال، وأحيانا يأتي إليه الركبان بالعشر ركائب وخمسة عشر مطية.

: يا الله، أعانه الله، ومن سيضيّف ركاب خمسة عشر ذلولاً في السنوات العسيرة؟

-: أما سمعت قول الشاعر فرج بن خربوش الأسلمي من قصيدة له:

: هاه، ماذا قال؟

-: قال:

١٨١ وَاللِّي قِضَبْ غَيْبَاتْ كِلْ الجَلاَعِيْدْ	فَوْقِي سِمِيْرَا فِرْجِتَهْ مِنْ يِسِدَّهْ
١٨٢ سْعُودٍ لْيَاجِيْتَهْ يِزَوِّدْكْ تَزْوِيْدْ	بِمْنَاهْ حَفْنَاتْ الرِّدَى مَا تِمِدَّهْ
١٨٣ مَلْفَى لْفِيَّاضٍ وْمَلْفَى مِسَانِيْدْ	كِنَّهْ مَنَا سَيْفٍ مْنَ الجَوْ مَدَّهْ
١٨٤ وْمِنْ عَذْرِبَكْ يَا سْعُوْد مَالَهْ مِجَاوِيدْ	مَنْجُومْ لَيْلٍ مَا لَقَى مِنْ يِرده

: لقد أجاد الوصف، أما أنا فأحفظ فيه بيتا واحداً لا أعرف قائله هو:

١٨٥ يَا سْعُوْدْ مَا انْتْ سْعُوْدْ وِسْعُوْدْ مَا هُو أَنْتْ	يَعَلْ مَنْتْ سْعُوْدْ رَاعِيْ سِمِيْرَا

-: أوه، لو تطرقنا لما قيل فيه لطال بنا الحديث، فمثلا قصيدة الشاعر مبارك بن غريِّس التي منها:

١٨٦ يَا رَاكِبَهْ كَانْ إِنْتْ تَبْغَى المِشَاكِيْلْ	وْنَاصٍ سِمِيْرَا طِبْ عَالِيْ قْصُوْرَهْ
١٨٧ تَلْفِي سْعُودَ الْمِرْتِكِي حَامِلْ الشِّيْلْ	مَا هُوْ وَلَدْ نَذْلٍ يْحَسِّبْ كْسُوْرَهْ
١٨٨ قَرْمٍ يِكِبْ الْبِنْ وِابْهَارَهَا هَيْلْ	مَعْ مِنْسِفٍ يِسْحَبْ لِمَنْ جَا يِدُوْرَهْ
١٨٩ تِعْلِلَّهْ يَا مَا يِفُوتَ أَوَّلَ اللَّيْلْ	يْجَلِيْ عَنَ الْقَلْبَ الْمِشَقَّى وْسُوْرَهْ

: وهل تحفظ فيه قصائد أخرى.

-: لا يحضرني الآن غير بيتين لأخيه سلطان حيث يقول:

١٩٠ يِرْدِنْ ابُو جِلْعُودْ مَلْفَي عْلُوْمِيْ	رِيْفَ الرِّكَايِبْ يَا لِفَنَّهْ مْسَيَّانْ
١٩١ يْهَلِّيْ بِهِنْ يَا شَافْ أَهْلَهِنْ لِزْوْمِيْ	يَضْحَكْ حْجَاجْهْ دَايِمٍ تِقِلْ فَرْحَانْ

: ما أجمل الذكر الحسن للرجال؟ يبقي لهم أبد الدهر.

-: الرجل الكريم يبقى الثناء عليه جيلاً بعد جيل.

: بلا شك، فهناك الكثير من الأجواد على مر الأزمنة بقيت أذكارهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

-: المشكلة يا أخي أن الكريم في بعض الأحيان يلاقي صعوبة بالغة خاصة في سنوات الشدة.

: صحيح أنه يلاقي مصاعب، ولكن الله يساعده ويبارك له فيما بين يديه

بحيث تجده يقدم لضيوفه كل ليلة وكأنه يأخذ من جبل أو جال نفود.

-: الله يبارك لهم في رزقهم، وييسر لهم أمرهم، ومصداقا لقولك، فإن صاحبنا هذا جرت عليه حادثة قد فزع له الله فيها وساعده على إقراء ضيوفه بما يحب أن يقدمه لهم.

: بعد ظهر ذات يوم من الأيام أناخ عند قصره أهل خمسة عشر ذلولاً، وتلفت الرجل فلم يجد ذبيحة يذبحها لهم فلا يملك من الأغنام شيئا وعاد إلى ما عنده من المال فلم يجد غير ريال «فرانسي» واحد، فأخذه وهرع إلى أهل أغنام يسقون أغنامهم من بئره وطلب منهم أن يبيعوه شاة يذبحها لضيوفه بذلك الريال، فاعتذروا له، لأن هذا الريال لا يساوي قيمة الواحد من قراقير البهم، فما بالك بكبار الضأن فطلب منهم أن يدينوه بقية القيمة إلى أجل، فاعتذروا له بحجة أن مواطنهم بعيدة عن بلده، وهم يمرون في طريقهم إلى مواطنهم ولن يعودوا مرة أخرى من أجل استيفاء بقية الثمن، فاحتار الرجل في أمره، وهم بالعودة إلى قصره ليطرق بابا آخراً لقضاء حاجته، وبينما هو كذلك إذ بغمت تلك النعجة الضخمة الحائل التي تراكم الشحم في ظهرها وإليتها بعد أن بغرها الماء، فأسرع إليها الرعيان فوجدوها على آخر رمق، وبالكاد تمكنوا من تذكيتها، عند ذلك عاد إليه الأمل فساوم الرعيان عليها بنفس الريال الذي معه، فأخبروه أن صاحبتها عجوز مع الحي، وعندما علمت العجوز بالأمر أسرعت إلى مورد الماء لترى نعجتها، عند ذلك ساومها النعجة واشتراها منها بنفس الريال بعد أن استثنت جلد النعجة فوافقها وأتى بالذبيحة وجهزها وقدمها لضيوفه مع ما تحتها من الزاد الميسور.

-: يا الله!! بالفعل إنه تيسير من الله.

: إذا علم الله بحال عبد كفاها.

-: لقد سمعت قصة مماثلة ولكن لا أذكر صاحبها.

: أوه، ما أكثر القصص التي تحدث للكرماء لأن الظروف الصعبة في بعض السنين تجبرهم على الحاجة الماسة.

-: نعم ولكن الله قد بارك لهم في رزقهم، وإلا إذا رأيت ما يقدمونه للآخرين لقلت لو كانوا على رمال الدهناء لنفدت.

: ما داموا يقدمون ما يقدمون لضيوفهم بدافع من سجية الكرم ويأمل الأجر والثواب من الله، فإن الله سيبارك لهم في مسعاهم وييسر لهم أمورهم.

-: ألم تسمع الحديث الشريف أو الكلام المأثور القائل، إنه في صباح كل يوم ينادي منادمن من ملائكة السماء قائلاً: اللهم أعط كل منفق خلفاً وأعط كل ممسك تلفا؟

: نعم لقد سمعت ولكن مثل هذه الفئة من الناس قد يقعون في إحراج أمام الوافدين إليهم حيث تعسرهم الأمور ولا يجدون ما يقدمون لضيوفهم.

-: ليسوا مجبرين على ذلك، فهم كما يقول المثل الجود من الموجود.

: أوه، إنهم لا يسلمون من السنة بعض الناس رغم بذلهم وسخائهم.

-: من يسب أو يلمز مثل هؤلاء الأجواد الكرماء فليس له معلقات بربه عز وجل.

: أنت تعرف أن البعض منالا يعجبه العجب.

-: إيه، هذا سلاح العاجز، فالذي لا يستطيع أن يعمل شيئاً تجده يلقلق بلسانه.

: كنت أتمنى أن أضع أي شخص ينتقد أحداً من الناس في مكانه لأرى كيف يمكنه أن يتصرف مع الآخرين.

-: أبداً، إنه لن يفعل شيئاً فجودته بالكلام فقط.

: المفروض أن يقطع لسانه.

-: «عوافي» بدون قطع لسان قل عسى الله أن يستر.

: هيا قم، إنني أرى رفاقنا يتجهزون للرحيل.

وحينما اكتظ المجلس بالرجال في مقهى أحد الكرماء ودار الحديث حول أسماء بعض الأمكنة وكان المتكلم شيخا مهيباً قد جاب معظم أراضي شبه الجزيرة العربية القريبة، وبينما هو يتحدث ومن في المجلس منصتون لحديثه سأل سائل:

-: لمن بيت الشعر القائل؟

هو حماه من العليم إلى العظيم   لحد سلمى والجبل واللي وراه.

: أجابه الشيخ: إنني يا بني لا أعرف قائله.

: ألديك كل هذه المعلومات الوافرة عن الأماكن ولا تعرف قائل هذا البيت؟

-: نعم يابني، إنني أعرف الأماكن شبراً شبراً وأحفظ بعض الشواهد من الشعر والأمثال ولكن حتى هذه الشواهد والأمثال لا أعرف بعض قائليها.

: عجبا!!

-: ولم العجب يابني؟

: أعجب من قولك إنني لا أعرف.

: ليس في ذلك عيب،أو مثلب على الرجل إذا كان لايعرف شيئاً أن يقول الحقيقة

-: ولكنى لا أتوقع من شيخ مثلك ملم بكثير من دقائق الأمور أن يتفوه بكلمة لا أعرف.

: ألا تعلم يابني أن كلمة لا أعرف يعتبرها البعض نصف المعرفة؟

-: كيف؟

: إذا كان المرء لايعرف أمراً من الأمور فخير له أن يقول لا أعلم من أن يقحم نفسه في إجابة إما أن تكون خطأ فيبني عليها الأخرون مستندين إلى إجابته، أو أن يكون مضمونها كاذباً فتؤخذ عليه هفوة تحط من قيمته بين قومه.

-: لم أفهم ما تقول؟

: دعني أوضح لك، إفرض أني نسبت هذا البيت إلى فلان من الناس دون أن يكون له، ففي هذه الحالة أكون قد سلبت صاحب الحق حقه وأعطيته إلى غيره، وأنتم من هذا المجلس ستنقلون عني ما نسبت، حتى إذا حضر شخص يعرف قائل هذا البيت الحقيقي فإنكم ستكونون بين أمرين، إما أن تصدقون ذلك الرجل وتكذبونني ولن تثقوا بكلامي مستقبلاً، وإما أن تصدقوني وتنطمس الحقيقة.

-: آه، لقد فهمت، يعني إذا كنت لا أعرف الحقيقة عن أي شيء فعلى أن أقول لا أدري.

: نعم يابني، والكلام موجه للجميع، فإياكم أن تنطقوا بكلام وأنتم غير متأكدين من صحته، فإذا كان الواحد منكم لا يعرف أمراً من الأمور فعليه أن يقول لا أعلم وذلك خيراً له من أن يجازف بشيء لا يعرفه.

-: إذا فالسائل عن هذا البيت يمكن أن يسأل عنه أحد رواة الشعر المشهورين.

: هاه!! من هذا الذي تنحنح مقبلاً؟

- : إنه أبو عبدالعزيز.
: أبشر أيها السائل «يَا مْهَنَّا جَاكْ مَاتِمَنَّا».
- : هذا الذي سيخبرك عما تسأل عنه.
: كنت على طرف لساني يا أبا عبدالعزيز، وكما يقول المثل: «أَطِرْ اَلْحِصَـانْ وْوَلِّمْ الْعِنَانْ» هكذا تكلم الشيخ.
- : خير إن شاء الله، لعلي أن أكون من المذكورين بالخير.
: دائماً ذكرك عطر يا أبا عبدالعزيز، فقد سألني أحد الأخوان عن بيت من الشعر فلم أعرف قائله، وكنت على وشك ذكرك للسائل، وإذا بصوتك يدندن مقبلاً علينا.
- : «غَالِيْ وَالطَّلَبْ رِخِيْصْ»!! يا أبا فلان.
: أعد سؤالك مرة أخرى.
- : آه، هذا البيت لرجل اسمه «دَنْدَنْ الْفِهِيمْ» من أهالي قفار البلد المعروف قرب حائل من قصيدة يمدح فيها مطلق الجربا عندما كانوا متواجدين في هذه الديار قبل أكثر من ثلاثمائة وسبعين سنة.
: أوه، إنها قصيدة قديمة.
- : نعم إنها قديمة ولكنها تحتفظ بمعان جيدة واطراء للممدوح.
: أتحفنا بسماعها يا أبا عبدالعزيز.

١٩٢ إِبْـتِـدِيْ وَاقُـوْلْ فِي ذِكْـرَ الإِلَـهْ ... جَـلْ رِفَـاعْ الـسَّـمَا بَـاسِطْ وِطَـاهْ
١٩٣ الْـفِهِـيْم اخْـتَـارْ زَيْـنَـاتْ الـبِـيُـوتْ ... الْـغَـرَايِـبْ كِـلْ مَـا دَارَهْ لِـقَـاهْ
١٩٤ جَـاكْ قِيْـلٍ مِثْـلْ هَيْضَـاتْ الْجَـرَادْ ... وَالْجَـرَادْ مْـطَوِّحٍ يَـتْـلِيْ رْحَـاهْ
١٩٥ هَـاضْ مَـا كُنِّيْتْ مِنْ رَمْـزَ الْجَـوَابْ ... حِلِوْ مَلْفُـوظْ الـنِّـبَـا حِـلْوٍ نِـبَـاهْ
١٩٦ خْـلَافْ ذَا يَـا رَاكِـبٍ فُـوْدَاهْمِـيـمْ ... فُـوْقْ كُـوْرَهْ سَـافِـرٍ حِـلْوٍ سَـرَاهْ
١٩٧ رِيْـضَـهْ يَـا رَاكِبَـهْ وِفْـقَـتْ خَـيْـرْ ... يَـا رِكِـبْـنَـا حِـطْنِي عَـالِيْ قَـرَاهْ
١٩٨ رَاكِـبَـهْ هَـدَاكْ رَبِّي لِـلْرَشَـادْ ... طَـالِبَكْ حِلْوَ الـوُفُـوْقْ مِن لْايِـلَاهْ
١٩٩ إِنْ مِشَتْ بَـكْ مَـعْ قِـفَـارٍ لَا تِمِيْـلْ ... لَـيْنْ تِجِي الْعِيطْ تِـرْهُـوْ مِنْتَـهَـاهْ
٢٠٠ يَمْ أُخُـو جَـوْزَاْ وْهُـو سِقْم الْحَرِيبْ ... يَـا نِـدِيْـبِيْ وَاهْـنِيْ مِـنْ هُـوْ وِتَـاهْ
٢٠١ ثُمْ أَصِيْـح بْمِعْتَـلَى صَـوْتِي وِاقُـوْلْ ... لَا بِنْ مَـانِعْ يَـا حِمِي مِنْ هُـوْ لِجَـاهْ

٢٠٢ يا عمود اظعاننا مرو السيوف ... يا فتى حوش المراجل وختضاه

٢٠٣ يا نقي العرض من طرق التلوس ... يا الذي عرضك نظيف من خناه

٢٠٤ يا نفاد الزاد في جدب السنين ... يوم ولد اللاش ما يدرك عشاه

يا الذي مدني لسرجه بالطراد ... من سلايل نجد بامواله شراه

٢٠٥ ساق به ست معه عشر وثمان ... والعبيه بنتها والليّ تلاه

٢٠٦ ساقها با شمرة قبّا قحوم ... مثل خيد الزمل مزبر قفاه

٢٠٧ شاريه باغ ليا ثار العسام ... مثل وصف الليل ما حوله غشاه

٢٠٨ أمطرت بالليل لقمها العنان ... ثم أخو جوزا تحيزم واعتلاه

٢٠٩ صك تالي الربع مقدمهم يصيح ... مع ركون القوم طير من غشاه

٢١٠ كن ضرب السيف في قب الطياس ... ضرب بيطار يخلص ما وراه

٢١١ والسبايا بالوطا صرعى قتال ... والصبايا دلّع تذهل حياه

٢١٢ يا نخن الشيخ بالصوت الرفيع ... يا حمى تالي ظعننا يا حماه

٢١٣ جاك أخو جوزا على الشقرا الطوال ... وردة حوض المنية من نخاه

٢١٤ عاش من عدل مصاعيب الرجال ... في خداد المهند طوّع من وتاه

٢١٥ عاش من خلّى خبط دون العدام ... مثل سدح الجذع في سيفه حماه

٢١٦ عاش من تفرس بجرته السباع ... والذبابه مع نسوره مع حداه

٢١٧ والجنايز عقبهم لازم تشوف ... به نسور بالمعارة مذبحاه

٢١٨ والجنايز كنها وصف الهشيم ... مثل غثو يجنب الوادي نفاه

٢١٩ هو حماه من العليم إلى العظيم ... لحد سلمى والجبل والليّ وراه

٢٢٠ ومن شفا تيما إلى واد القصيم ... كلها بالسيف أخو جوزا حماه

٢٢١ وأنا عدّي يا عباد الله أشوف ... جلد خيل الضد يوم العيط جاه

٢٢٢ مثل جلد المزن غضبان الرعود ... جاه عاصوف من الغربي حداه

٢٢٣ فاض مثل الليل يضرب بالعيال ... وارتكم مثل الجبال وهل ماه

٢٢٤ هل وبله من قطي الخيل دم ... من يمين العيط لا شلت يداه

٢٢٥ هو عذاب الخيل يا جاها وصاح ... والسيافا مرد مين من وراه

٢٢٦ حاضبينه مثل أفراخ الحرار ... لازم يرمون للعرجا عشاه

٢٢٧ وهو مثل هداج من ورده يزود ... كل ما كثرت وروده زاد ماه

٢٢٨ وَالـطَّنَـايَـا لآبِـةٍ يَـتْـلُوْنَ شَـيْـخْ هَـمْ عَمَى عَـيْنَ الْمَعَـادِيْ هَـمْ دْوَاهْ
٢٢٩ لَا اشْلَهَبَّ الْوَقْتْ فِي جِـدْبَ السِّنِينْ مَـشْـرِع للضَّيْف وَالـعَـانِيْ عَـطَاهْ
٢٣٠ كِنْ ضَيُـوفَـهْ لَا تْحَلَنْ غِـبْرِ اللّيَـالْ وَالْقَـرىَ مَـا عَـادْ يُـوحَـدْ مِشْتَـرَاهْ
٢٣١ مِثِـلْ وِرْدَ البَـدْوْفِي طَلْعَـةْ سْهَيْـل وِانْ تَـعَـاطَـوْا مَنْهَـل جِلْوِ جِبَـاهْ
٢٣٢ ذَاتْ قَـوْلِيْ وَالْمَـلَالِيْ يَـشْـهَـدُونْ كِـلْ أَنَـا مَـا قَـولْ فِي حَقُّـهْ عَـطَاهْ
٢٣٣ ذَاوْ صَـلَّى الله عَـلَى سِيِّـدْ قْـرَيْش مَـا اعْتَـلَى القِـطْرِيْ فِي عَـالِيْ سِمَـاهْ

: صح لسانك يا أبا عبدالعزيز، هكذا دوى المجلس بهذه الجملة.
-: إذا، وجدت البيت أيها السائل؟
: نعم، لقد وجدت البيت ومعه أبيات.
-: إن القصيدة تحتوي على عدد من الأماكن.
: اعـذروني أيها الإخـوان فالقصيـدة قد لا تكـون كاملة فهنـاك بعض الأبيات غابت عن ذهني الآن.
-: أوه، لقد سمعنا فيها ما شنف آذاننا.
: يوجد في القصيـدة تحديـد للأمـاكن التي امتد إليهـا نفوذ آل الجـربا في ذلـك الوقت.
-: نعم، لقـد كانـوا في منطقـة الجبلين وما جـاورها فمن العليم الـواقع جنـوب الجـوف شمالاً إلى العـظيم الواقـع إلى الشـرق من سميـراء شـرقـا ومنـه إلى مشارف تيماء غربا.
: إيه يا بني، هكذا يروي الأخبار أربابها.
-: إنها لجلسة مباركة استفدنا منها.

وحينما اكتض مجلس الملك عبدالعزيز رحمه الله الخاص بعد مغرب تلك الليلة بالكثير من رجـالاته الـذين لهم مكانتهم المـرموقـة من بينهم أمراء المنـاطق وشيوخ القبائل ورؤساء العشائر ودار الحديث حول بيت من قصيدة، والبيت هو.

جينـاك مثـل السيـل طمـام الاوعـار يمـا غـدت عنـا القبـايـل شعـائـير

فاختلف في قائله، وكان هناك فريق على رأسهم الملك يقول إن هذا البيت للشيخ مشعان بن هذال، وآخرون يعارضون هذا الـرأي بنسبته إلى شعـراء آخرون

فقال الملك:

-: إنني متأكد أنني سمعته في قصيدة للشيخ مشعان بن هذال.

: قد يكون الراوي أخطأ في نسبة القصيدة إليه، أطال الله عمرك.

-: أبداً، إن من سمعتها منه لا يتصف بهذه الصفة التي ذكرتها فهو من الرواة الثقاة.

: إنها أطال الله عمرك من رواية الشاعر فلان.

-: ليس هذا من كلام ذلك الشاعر، إنه بيت جزل.

: إن لفلان أبيات جزلة أيضاً.

-: هات لنا القصيدة التي منها هذا البيت.

: لا أذكرها الآن، ولو أعطيتموني فرصة لأحضر من يحفظها.

-: لا بأس، ولكنني متأكد من أن هذا البيت من قصيدة ابن هذال، ألا يوجد بهذا المجلس من يحفظ القصيدة؟

: بعد فترة قصيرة من الصمت التفت الملك إلى شيوخ من قبيلة الشاعر وكأنه ينتظر منهم جوابا فقال أحدهم إننا أطال الله عمركم نحفظ للشيخ قصائد ليست على هذه القافية.

-: أنا أريد من يحفظ هذا القصيدة بالذات.

: وقف الشيخ مشارى قائلاً: إنني أعرف من يحفظ هذه القصيدة.

-: أهو في هذا المجلس؟ هكذا سأل الملك.

: لا، أطال الله عمركم وإنما هو موجود بالبلد.

-: في أي مكان؟

: في مخيم الوفود القادمة للسلام على جلالتكم.

-: ومن هو؟

: إنه فلان.

-: ونعم، إبعثوا أحد الخدم يستدعيه حالاً.

: حاضر.

-: وذهب الخادم ينادي بأعلى صوته في معسكر الوفود بأسم الرجل المطلوب

ويسأل عنه كل إنسان حتى اهتدى إليه في خيمته فسلم عليه وقال له: إن الإمام يريد حضورك الآن.

: حضوري أنا!؟

-: نعم، ألست فلانا؟

: بلى، بلى، وماذا يريد بي؟

-: لا أعلم، ولكنه يريد حضورك الآن.

: أبشر، اللهم اجعلها دعوة خير.

-: خير، إن شاء الله.

: من عند الإمام في المجلس؟

-: لديه أعداد كبيرة من الرجال.

: من منهم؟

-: لا أحصي لهم عدداً، ولكن معظمهم من شيوخ القبائل ووجهاء القوم وهم في المجلس الخاص.

: خير أن شاء الله.

-: وعندما وصلا إلى المكان قال الخادم سأتأخر بعدك.

: السلام عليكم يا أبا تركي.

-: وعليكم السلام، تفضل يابن جلعود.

: أطال الله عمركم، لقد استدعاني خادمكم وأخبرني رغبتكم في حضوري هذا الليلة.

-: نعم، لقد استدعيناك لخير.

: كلكم خير يا أبا تركي.

-: ماذا تحفظ من قصائد ابن هذال.

: قصائده كثيرة حفظكم الله فأيها تريدون؟

-: نريد أن تسمعنا أحسنها.

: كل قصائده رحمه الله ممتازة وأحسنها القصيدة التي تسمى «الشيخة».

-: أسمعنا إياها.

: ولكني لا أحفظها بالكامل.

-: هات ما تحفظ منها.

: حاضر لقد قال مشعان بن هذال رحمه هذه القصيدة التي منها:

٢٣٥ يَــاللهُ يَــامْــدَبِّــرَ الهَبَــايِبْ وَالأَدْوَارْ شَانَكْ عَسَى مَكْتُـوبْ شَانَـكْ لَنَا خَيرْ
٢٣٦ تْـدِيْـر جِيْـلاَتٍ بَـالأَرْيَـا وَالأَفْكَـارْ وْنَـطْلِبْ مْنَ ٱلموليَ عَسَـاهَـا مِسَـافِيْرْ
٢٣٧ ظَعَـايِنٍ حَـطَّنْ مْلُوكٍ بْسِنْجَـارْ وْتَنْ عَـلَى الخَـابُـوْر زَيْنَ الـدْوَاوِيْـرْ
٢٣٨ نْـزَلَنْ عَـلَى الحَـورَا وْدَاسَنْ الأَشْـوَارْ وَجَـانَـا كِتَـابٍ مِنْ زِبُـونَ ٱلْمقَـاصِـيْرْ
٢٣٩ مِنْ مَـاجِـدٍ بْن عْـرَيْعِـرٍ جِـرَّ الأَوْكَـارْ يِـقُـولْ وِلْيَـتْ دَارِكَـمْ يَـالْمَنَـاعِـيْرْ
٢٤٠ قِلْنَـا بخَـيْرٍ وَالـذِّيْ غْيِّـرْنَـا جَـارْ وْجِنَـا عَلَيْهَـا نْحِجِيْ الجَـارْ وِنْجِـيرْ
٢٤١ بْهُوْم هَـوْمَـاتٍ بْـعِيـدَاتْ وِغْـسَـارْ بَـاطْـرَافْ عَجْـلاَتٍ تْقَـدِّيْ ٱلْمظَاهِـيْرْ
٢٤٢ جِيْنَـاكْ مِثْـلَ السَّيْـل طَمَّامْ الأَوْعَـارْ يَـا مَـا غَـدَتْ عِنَّـا القِبَـايِـلْ شْعَـايِـرْ

وعندما جاء هذا البيت تبلج الملك والتفت إلى من حوله وكأنه يقول لهم: ألم أقل لكم أنني لا قول الكلام جزافا، ثم قال:

أكمل:

٢٤٣ غَـدَا عَـلَى وَادْ الـدِّجَـانِيْ لْهَبْ نَـارْ وْغَـدَوْ بِهَـا ٱلْوِيْـلاَنْ مِثْـلَ الـدْوَاوِيْـر
٢٤٤ وَرْدَنْ عَـلَى السِّلْمَانْ حَـزَّاتْ الإِفْـطَارْ وْحَـطَّنْ خَضْـرًا هِيْ وْلِيْنَـةْ مصَـادِيْـر
٢٤٥ وْمَـرَّنْ شِثَـاثَـا وَاقْحَطَنْ بَـهْ بَـالأَسْعَـارْ وْوَطِـنْ لْملُومَ المِـسَـمَّـى عَـادِيـر
٢٤٦ وَاقْفَنْ يِـطَيْـرْنَ الخَـطَـايِطْ بَـالأَقْفَـارْ بِطِيْـرنْ جِنْشَـانْ الحَبَـارِى المَخَـامِيْرْ
٢٤٧ عِلْمِيْ بَهَمْ بَـالنِّبْكْ عَـجَّ الـرِّمَـكْ ثَـارْ يَـاحِلُوْهَـا كَـالْيَومْ خَـزَّ المَغَـاتِـيْرْ
٢٤٨ مِنَ أَبَـا ذْرَاعْ أَصْبَحْ مْقِيْمٍ عَـلَى الـدَّارْ قِـطَعْ حَـلاَلْ المِمْحِـلَةْ وَالْمَسَـايِـيْرْ

وبعد أإن انتهى الراوية من القاء القصيدة أخذ مجلسه، ودار الحديث حول جو القصيدة وأحداثها إلى أن حان موعد صلاة العشاء الآخر فأدى الجمع الصلاة جماعة ثم انفض المجلس، وعندما هم الراوية بالانصراف ناداه أحد رجال الحاشية.

-: يا أبا عبدالعزيز.

: نعم، من المنادي؟

-: أنا، هلم إلي.

: خيراً.

-: لقد أمر لكم جلالة الملك بهذه النقود «خَرْجِيَّة».

: أطال الله عمره.

-: وأمر لكم كذلك بهذه الكسوة والعباءة المطرزة «البِشْت».

: حفظه الله وأبقاه ذخراً للاسلام والمسلمين.

-: ويقول لكم إنه يأسف لازعاكم بدعوتكم بهذه الطريقة التي ربما تفزع بعض الناس.

: لا، أبداً يابني إنها لم تفزعني، إنني واثق أنها دعوة خير من ملك خيّر.

-: وعند ذلك لحق به الشيخ مشارى وقال له: إسمح لي يا أبا عبدالغزيز إنني قد أخبرت الملك بأنك تحفظ القصيدة، ولم أحسب أنه سيستدعيك في الحال، فإذا حصل لك إزعاج بسببي أثناء استدعائك فأرجو المعذرة.

: أبداً، يا أخي مشارى فلم ينلني بسببك إلا الخير، أما ترى هذه الكساوى والنقود التي صرفت لي جائزة بسببك فتفضل خذ منها ما شئت.

-: بارك الله لك فيها، لكن بعض الناس إذا استدعوا بهذا الشكل قد يفزعهم ذلك.

: كن مطمئنا يا أخي مادام الانسان لم يرتكب خطأ فلن يناله من هؤلاء الحكام إلا كل خير.

-: هذا شيء مسلم به، ومعروف لدى الجميع، لكن الدعوة بهذا الشكل ينادي المنادي في وسط هذا التجمع من الناس، قد يقول قائل إنه لم يناد باسم هذا الرجل إلا لأمر مهم قد يتوقف عليه حياته أو موته.

: على العكس يا أخي فهو مجال للشهرة مهما نال المنادي من خيرا وشر.

-: إذا لم يكن بخاطرك علي شيء؟

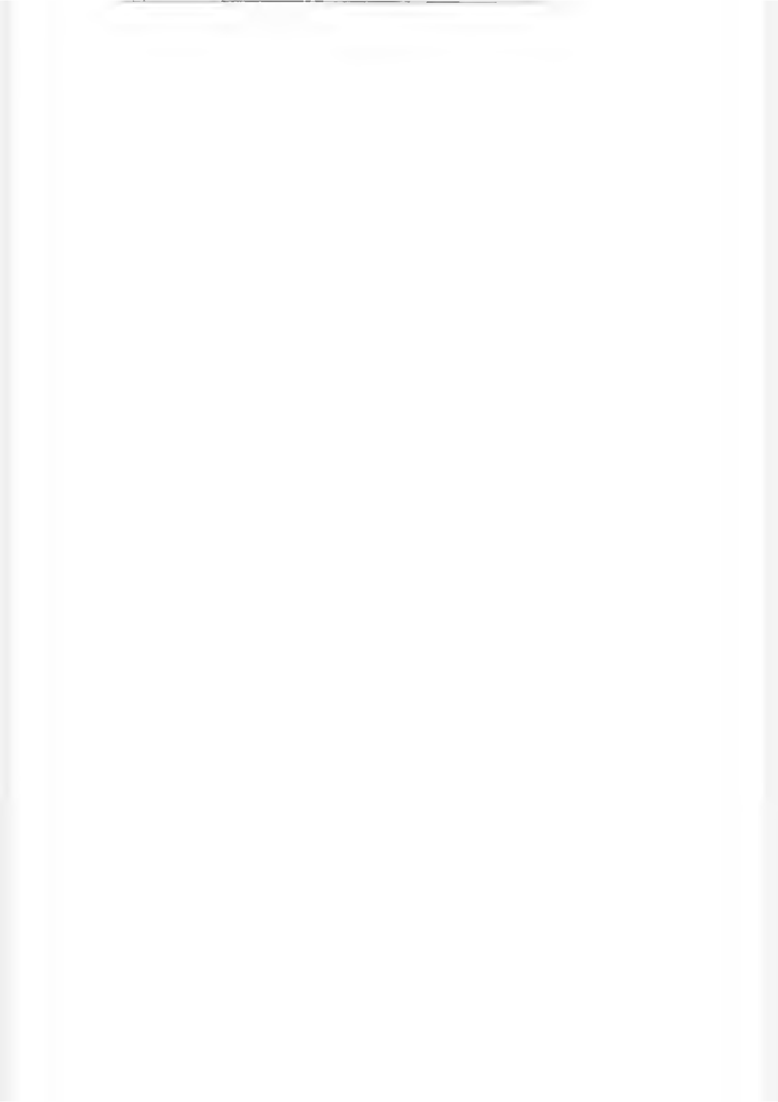
: أبداً، وليتك كل ليلة تخبر بي ويحصل لي مثلما حصل هذه الليلة.

-: إذا وفقك الله وستر عليك.

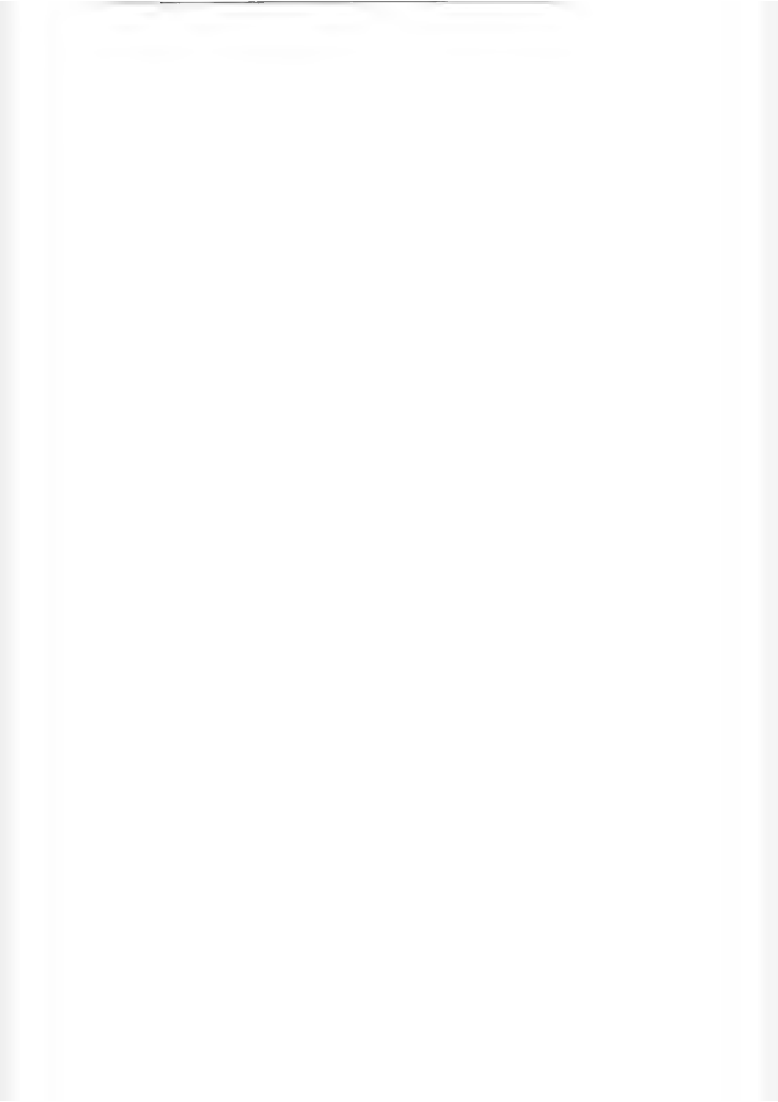
: آمين وساعدك في أمور دينك ودنياك.

-: تصبح على خير،

: وأنت من أهله.



القصة رقم (١٣)



جمـرة وتمـــرة

حينـما لبست الشمس ثوبهـا الذهبي وبـدأت تجمع أطـرافه المتنـاثرة من عـلى شعاف السحاب وذرى الجبال حتى أسرع «وَتَيْـدْ» لتجميع شجيـرات الرمث التي حفر عن جذوعها واقتلعها من أسـاسها ليكـون منها حـزمته اليـومية التي يأتي بها إلى البيت بالاضافة إلى رعيه للغنم طول يومه وعندما فرغ من حـزمها بتلك المريرة أمسكها بيديه لرفعها فوق رأسه، ولما لم يستـطع ذلك فقـد تنكب لها باحدى رجليه لمساعدة يديه وهـو جالس عـلى الأرض وحينما استـوت فوق رأسه قام بها معتدلاً ثم قاد رعية غنمه عائـداً إلى بيته يجـر رجليه وئيـد الخطى مع تلك الأرض اللينة التي تغوص فيها قـدماه لا من التعب والإرهـاق الذي يعاني منه طول يومه فحسب بل ومن حـزمة الحـطب التي يحملها عـلى رأسه، ومـا إن اكتسح الـظلام ضوء الشمس وألقى بـه من خلف الأفق الغربي حتى وصل وتيد بقطيعه إلى بيته المنزوي في أحد أحياء قومه وألقى بحـزمة الحـطب جانبا وكـأنه يلقي بهمـوم يومـه كاملة، لكنـه في الواقـع لم يأت عـلى نصفها، فأمامه الكثير الـذي عليه أن يعمله، قبـل أن يلامس خـده وسادة المنـام، ولما ألقى بالحزمة قال:

-: آه، جعلك الله حياة «مَالِكْ وَالِيْ».

: فردت عليه زوجته: مالي أراك الليلة تتأوه على غير عادتك؟

-: هاه، هاه!! لم أقل شيئاً.

: لقد سمعتك بأذنيّ هاتين، لا تحاول أن تتخلص أو تتهرب مما قلت.

-: نعم، لقد كنت متعباً هذا اليوم.

: هذا الكلام لن يعفيك من قيامك بعملك اليومي.

-: هاه، عملي!!

: نعم إنظر إلى «السَّحَلَةْ» هناك واحلب غنمك.

-: سأفعل.

: إياك أن تضع الحليب على ما في المروب من اللبن.

-: ألا يزال فيه اللبن؟

: ومن تريد أن يفرغه؟

-: هاه، لا أدري يا أُخَيَّه.

: عليك أن تفرغ اللبن الرائب في الصميل وتحلب الغنم وتضع حليبها في المروب.

-: إنني أعرف ذلك جيداً.

: إنني أراك اليوم وكأنك نسيت بعض عملك؟

-: يا بنة الأجواد هذا العمل أقوم به منذ بضع سنين خلت وأتقنه تماماً.

: إسمع ما أقوله لك، وبعد أن تنتهي من حلب الغنم أرضع البهم وأعد ربطه في الربق مرة أخرى.

-: أوه، كأنني لا أعرف.

: إنك تنسى أو تتناسى أحيانا.

-: بالعكس، فهذه المعلومات قد انحفرت في عقلي من كثرة ترديدها على مسامعي ومن كثرة ما أقوم بها.

: ألقني بالك، بعد أن تربط البهم عليك بمخض اللبن، وإياك أن تسرع فيه حتى لا تظهر الزبدة صغيرة مثلما تفعل في بعض الليالي عندما أكون غافلة عنك.

-: أنت لا تنظرين إلا إلى الزبدة الصغيرة التي تأتي مرة في الشهر أما المرات التي تكون فيها كبيرة فلا تنظرين إليها.

: دعنا من كلامك الرخيص، واسمع ما أقوله لك.

-: وماذا بقي أيضا من تعليماتك.

: بقى المهم.

-: المهم!!

: نعم، ألست جائعاً؟

-: بلى، بلى.

: إذاً بعد أن تنتهي من أعمالك تلك عليك أن تجرش لنا من هذا الحب، وتطبخ لنا عشاءاً.

-: يعنى الليلة نطبخ العشاء من الجريش؟

: وماذا في ذلك؟

-: إنه بطيء النضج، لماذا لا يكون العشاء عصيدة؟

: عصيدة!!

-: نعم، ونضع لها أداما من الزبد.

: أوه، إنك تريد الأسهل.

-: بل أريد الأسرع.

: ولكني في هذه الليلة قد إشتهيت الجريش.

-: آه، من أجل شهوتك!!

: الله!! لقد طال لسانك، إسمع ما أقول لك ونفذ ما آمرك به.

-: حاضر، حاضر، تعالي يا أخية تعالي.

: وماذا تريد مني؟

-: لقد هرب البهم ولم أستطع الإمساك به.

: أرجل، بطولك وعرضك، وتقول إنك عجزت عن إعادة البهم إلى ربقه؟

-: لقد تفرق مني.

: آه، وتقول بأنك رجل!!

-: دعينا من هذا الكلام وتعالي ساعديني.

: عليك أن تعيده إلى مكانه سخلا سخلاً حتى تنتهي.

-: أعيده واحداً واحداً؟

: أجل، أتريدني أن أقوم من قرب النار وأقطع حالة الدفء التي أنا فيها من أجل مساعدتك على ربط هذه الجفار؟

-: أمري إلى الله،

: لقد ربطتها كلها، وهذه آخر عناق أودعتها في الربق.

-: إيه، هذا لا يهم، المهم أكمل عملك إنني أشعر بالجوع.

: إين الحب الذي آخذ منه؟!

-: هل أنهيت المخض؟

: نعم، ولقد خرجت منه زبدة بحجم رأس النعجة.

-: يعني بحجم رأسك؟

: أنا لست نعجة.

-: إيه، ولكنك أخـاها، ألا تعـرف القمح الـذي يجرش ذاك الـذي «بِالْعِـدْلَةْ» الربداء.

: آه، لقد فهمت.

-: عليك أن تتقن جرشه؛

: وهل مرت عليك ساعة لم أتقن فيها عملي؟

-: أحيانا.

: مثل ماذا؟

-: أقربها أنك عجزت عن أيواء البهم وربطه في ربقه، وثانيهـا هذه الحـزمة التي جئت بها اليوم، فإنك لم تحضر من جذوع الرمث اليابسة بل أتيت به أخضـراً لا يصلح للوقود قبل أن يمضي عليه أسبوع حتى ييبس.

: إنني اليوم لم أجد حطباً يابساً.

-: أخشى أن يكوم الطبخ الليلة مثل حزمة الحطب.

: سأتقن طبخه جيداً.

-: أخاف!!

: لا تخافي والله لتأكلي يدك من ورائه.

-: آكل يدي!! يا ساتر؟

: سترين.

-: عليك أن تطبخه باللبن.

: كما تريدين، باللبن أو الحليب أيهما تريدين.

-: بل باللبن ليكون فيه نكهة اللبن وحموضته.

: كما تريدين.

-: وعليك بالعجلة، إنني أشعر بالجوع.

: لست أحر من النار، إنه الآن على النار.

-: وماذا استفعل أثناء الطبخ؟

: سأغسل يدي وأتدفأ على النار.

-: بل عليك أن تقوم بنفض الفراش وفرشه.

: لقد أكملت كل شيء.

-: عليك أن تقرب لنا كمية من الحطب اليابس من طرف العنّة.

: أبشري هذه رائحة العشاء وقد نضج.

-: قربه إلي.

: ها هو بين يديك، عليك أن تذوقيه ألم يكن لذيذا؟

-: ليس بفضل «حَوْفِكْ» وإنما مما وضع فيه من اللبن الذي أمرت عليك أن تطبخه فيه.

: إيه، إنني كما قال المثل «الشِّعِيرْ المَأْكُولْ المَذْمُومْ».

-: دع عنك هذا، وعليك بتقطيب البيت كيلا يدخل علينا البرد.

: أبشري.

وظل وتيد على هذا النمط من الحياة وذات مساء راح بقطيعه فوجد زوجته مريضة مرضا شديداً لم تفد معه الأدوية التي أحضرها لها من عجائز الحي، كما لم يفد الكي الذي عاجلتها فيه تلك العجوز المتمرسة في هذا النوع من الطب فلازمت الفراش طول يومها وليلتها مما أضطر وتيد أن يحيى ليله ساهراً على راحتها طول الليل غير أنها أسلمت نفسها في المزيع الأخير من الليل ومن شدة فزعه صاح بأعلى صوته عدة مرات سمعه سكان الحي فأسرعوا إليه، وعندما عرفوا الخبر واسوه في مصابه ثم أوعزوا إلى النساء لغسلها وتجهيزها حيث أدوا عليها صلاة الفجر ثم واروها في مثواها الأخير، وبقي زوجها في ذلك اليوم كئيباً حزيناً وتعاقب المعزون عليه والمواسون له وبعد مضي ثلاثة أيام على الحادث استمر في حالة يرثى لها، ولما كانت يد الرجل ثرية نسبيا فإن النساء لا تمانع إحداهم

لو خطبها زوجة له، ولما رأي أبناء غمه حالته الرثة أشاروا عليه بأن يتزوج إحـدى النساء، وذلك لانتشاله مما هو فيه، وبالفعل خطبوا له إحدى فتيات الحي المجـاور وتزوجها في الليلة الثانية على أبسط الطرق وانتقلت إلى بيته في ليلتها، وأصبح ليلة زواجه سارحاً بغنمه كـالعادة وعنـد المساء أحضر كعـادته حـزمة الحـطب، وما إن رمي بها إلى الأرض في طرف عنـة البيت حتى أسرع ليشـرع في حلب الغنم ويقوم ببقية العمل الذي اعتاد أن يقوم به فقالت له:

-: ما هذه الحزمة التي أتيت بها؟

: هذه حزمتي اليومية، ووالله يـا أخيه لقـد أحضرتـه اليوم من الحـطب اليابس جداً.

-: الحزمة اليومية!!

: نعم، إنني في كل يوم أحضر معي حزمة من الحطب.

-: هاه!!، إحضار الحطب من إختصاص صاحبة البيت، وليس من إختصـاص الرجل، فكيف تأتي به أنت؟

: إنني آتي بها كل ليلة.

-: من كلفك بهذا؟

: زوجتي السابقة.

-: زوجتك!!

: نعم.

-: هذا غريب!!

: وتؤكد علي أن آتي لها بأجزل الحطب وأيبسه.

-: هاه، غير متوقع!! الرجل يحضر الحطب على رأسه؟

: وماذا تريد بهذه «الطَّاسَةْ»؟

-: أريد أن أحلب بها الغنم.

: أنت تحلب الغنم؟

-: نعم، أحلب الغنم وأرضع البهم.

: وماذا بعد؟

-: وأمخض اللبن، وأطحن الحب وأطبخ العشاء.

: الله!! لم يبق عليك غير أن تفرش الفراش!!

-: وأفرش الفراش وأنظف البيت.

: «هَذِيْ اللِّيْ مَا طَارْ طَيْرَهْ»!!

-: لماذا الإستغراب؟

: ولماذا لا أستغرب؟ فكل هذه الأعمال من إختصاص المرأة.

-: هاه!! ماذا تقولين؟

: أقول إن عمل الرجل هو رعي مواشيه وسقيها والدفاع عنها وعن محارمه، وتقديم العون للآخرين وقت الحاجة، أما أعمال البيت كإحضار الحطب والماء وكافة الأعمال البيتية الأخرى فهي من إختصاصي أنا.

-: هاه!!

: ضع الطاسة من يدك، وعليك أن تغتسل وتصلى، وهذا العشاء جاهر لنتناوله معاً.

-: ماذا تقولين؟

: أقول إذا فرغت من العشاء فانظر إلى الرجال وقد تجمعوا في بيت فلان فاذهب إليهم وإجلس معهم واستمع إلى أحاديثهم وبادلهم الآراء حتى إذا أردت أن تنام فهلم إلى البيت.

-: يا الله!! هل أنا حالم في هذه الأمسية؟

: لست حالماً، وإنما أنت على أرض الواقع الجديد.

-: أحقيقة ما تقولين؟

: كل الحقيقة يا حليلي.

-: وأذهب إلى الرجال كل ليلة!؟

: نعم في كل ليلة، وإذا وجدت لك راعيا يرعى غنمك فيمكن أن تختلط بهم بالليل والنهار.

-: يا الله!! ولا أقوم بأي عمل بالبيت؟

: لا تحرك عوداً من مكانه، فما في داخل البيت عملى وواجب علي القيام به على الوجه الأكمل.

-: من أين أتيت يا أخية؟

: من قبيلتك وبني عمك.
-: لا، لا، بالتأكيد أنت نزلت عليَّ من السماء.
: صدقني إنني إحدى بنات عمك.
-: أبداً، أنت من حور الجنة التي نسمع بها.
: أوه، إنني آدمية مثلك.
-: لم أر مثلك أبداً.
: كل النساء مثلي يقمن بأعمالهن البيتية.
-: أحقا كل النساء هكذا؟
: نعم، ومنهن من تقوم بأكثر من ذلك.
-: أكثر من ذلك!؟
: نعم، يخطن ملابس أزواجهن وينظفنها ويقدمن لهم أفضل وسائل الراحة، وأحياناً يقمن بالأعمال التي يقومون بها أثناء غيابهم أو إنشغالهم.
-: لم أصدق ما تسمعه أذناي.
: ستصدق مع الأيام وسترى ذلك واقعاً ملموساً، فعليك أن تغتسل، وتقترب فالعشاء قد برد بصحنه وسأكمل لك الحديث على العشاء.
-: وهل بقي لديك ما تقولينه؟
: نعم، لقد بقي لدى الخطوة الثانية.
-: وما هي؟
: بقي عليك أن تغير مكان البيت.
-: مكان البيت!! ولماذا نغيره؟
: إن مكانه غير مناسب.
-: هاه، غير مناسب!!
: نعم، فهو منزو في مؤخرة البيوت، ومثل هذا الموضع لا ينزل فيه سوى العجائز من النساء أو الذين لا يحبون أن يظهروا من الرجال.
-: حتى مكان البيت ستغيرينه؟
: نعَم، وسأجعل فيه جزءاً خاصاً بالرجال «رُفَّة».
-: سيكون لبيتنا «رُفَّة»!؟

: بالتأكيد وعليك أن تشتري الدلال وتوابعها وتدعو الرجال لتناول القهوة في بيتك.

-: يعنى سيكون بيتي مثل بيت فلان مقراً للرجال؟

: بدون شك إن شاء الله.

-: سيجتمع الرجال في بيتي!؟

: نعم.

-: أي سأكون رجلاً مثلهم!!

: بالتأكيد.

-: إنني أكاد أطير من شدة الفرح، لقد عزفت كبدي عن الطعام.

: تناول عشاءك.

-: أين أنا وأين الطعام؟ لقد أحسست وكأنه يكاد أن ينبت لي جناحان فأطير بها وأرفرف فوق الناس.

: عليك أن تلزم الهدوء، وكل شيء سيتحقق إن شاء الله.

-: سأذهب إلى الرجال الآن.

: بعد أن تلبس ملابس نظيفة.

وبعد أن وصل وتيد إلى مجلس الرجال بملابسه النظيفة إستقبلوه بالترحيب وباركوا له بالزواج الجديد الذي قدم على أثره إلى منتداهم لأول مرة، وبعد أن أخذ مكانه بين الحضور دار الحديث بمختلف شئون الحياة المحيطة بهم وشعر الرجل بحقيقة ما هدفت إليه زوجته من ضرورة اختلاطه بالرجال والاستماع إلى ما يدور في مجالسهم عندها أحس وكأنه ولد لتوه، ودخل إلى حياة جديدة يتمثل فيها كيانه المغمور فيما مضى من عمره، وعندما تفرق الرجال عاد إلى بيته وقال لزوجته.

-: آه، لقد شعرت الآن أنني عدت إلى الحياة.

: عدت إلى الحياة!! وهل كنت ميتا؟

-: نعم، لقد كنت حياً ميتاً.

: لم أفهم.

-: إنك تعرفين معنى كلامي وربما تتغابين عنه.

: أبداً، أوضح لي ما تقول.

-: إنني أعني بالموت، تلك العزلة التي ضربت عليّ جداراً فولاذياً طيلة ما مضى من عمري.

: ماذا تقول؟

-: نعم فوا أسفا على ما مضى.

: لا تنظر إلى الماضي يا أخي، ووجه نظرك إلى المستقبل.

-: إنني أطل عليه بكل أسى وحسرة.

: أوه، دع هذا الحديث.

-: هذا الشيء الذي يحز في نفسي.

: أنت عريس الآن ولا يجب عليك التحدث بمثل هذا الحديث.

-: وا أسفا على تلك الأيام والشهور والسنين التي قضيتها مع تلك اللعينة.

: إيهْ!! من تعني؟

-: أعنى تلك المرأة الظالمة القاسية المستبدة.

: لقد قدمت إلى ما قدّمت رحمها الله.

-: لا، لا رحمها الله وجعل مقرها قعر جهنم.

: إستعذ بالله من الشيطان الرجيم، لقد ماتت المرأة ولا يصح أن تنالها بسوء بعد مماتها.

-: بل سأدعو عليها كلما ذر شارق الشمس.

: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

-: أجل!! إنني على حق فلقد استعبدتني بضع سنوات عجاف وكسرت شوكتي وخيبت آمالي.

: لماذا تضع اللوم عليها لوحدها؟

-: هي التي كسرت أجنحتي.

: لقد كنت تطيعها في كل ما تريد، أليس كذلك؟

-: بلى، بلى، لقد كنت أطيعها في بعض الأمور ثم أصبحت تلزمني باطاعتها حتى صارت تجبرني إجباراً.

: أوه، نحن معشر النساء قد يحلو للبعض منا أن تفرض سيطرتها على زوجها وتجعله يمشي وفق هواها ورهن إشارتها، وينطبق عليها بيت الشاعرة التي تقول:

يَـامَا تِحِـطَّكْ مْعِيْدِ مِنْـوَةْ السَّـانِيْ تْنِيفْ عَلَيْـكَ الشّـدَيْـدْ وَأَوَّلْـهْ بَـرْمَـهْ

-: تلك المرأة على رأس هذا الصنف.

: أبداً يا أخي فكثير من النساء لسن قليلات شر، ولسن بأقل منها شأنا لو تيسر لهن ذلك.

-: بعد أن جربت لا أصدق.

: صدقني أن بعضهن أشد منها.

-: أبداً، لا أصدق، لقد كانت مسيطرة عليَّ في كل كبيرة وصغيرة.

: أوه، هذا الصنف من النساء تبدأ بجس نبض زوجها في الأمور الصغيرة ومتى رأت منه ليونة بدأت بأمور أكبر منها، حتى إذا رأته تساهل عنها إستولت عليه في الأمور الكبيرة وينطبق عليها البيت السابق.

-: لقد سارت اللعينة على نفس المنوال.

: كيف؟

-: عمل البيت مثلاً، أول ما أرادتني أن أخدمها صارت تتمارض فكلما أعود من الرعي أجدها وقد عصبت رأسها واضطجعت على الفراش تئن.

: أتئن من غير مرض؟

-: لقد كانت تقول إن الصالب يصك رأسها مع مغرب كل يوم بحيث تشعر إن رأسها يكاد أن ينفضخ ولا تستطيع القيام بأي عمل.

: آه، وهل كنت تحبها؟

-: حبي لها هو الذي جعلني أعطف عليها وأتفانى في العمل من أجل راحتها، أحضر لها الحطب، أجهز لها اللبن أطبخ لها الأكل كما تشتهي ومتى اشتهت.

: لقد استغلت عطفك عليها أسوأ استغلال.

-: وبعد ذلك صارت تأمرني أن أقوم بنفس العمل دون أن تدعي المرض.

: إيه، لقد لوحت على غاربك، وتمكنت من كاهلك.

-: أوه، بعد ذلك صارت تأطرني أطراً وكأنني عبد مملوك لها.

: ماذا كانت تعمل طول يومها؟

-: لا أدري، إلا أنها كانت تحكي على في كل ليلة قصصاً وحكايات سمعتها عند جاراتها.

: آه، تلك من مجمعات الكلام.

-: وأحيانا تقص علي بعض الأحلام التي رأتها عندما كانت نائمة ضحى ذلك اليوم أو بعد الظهر منه.

: أوه، ونؤم أيضاً!!

-: ألا تغزل الصوف وتنسج شقائق بيتها؟

: أوه، لو تعلمين أن هذا البيت قد اشتريته وصلة وصلة ودفعت أجرة من يخيطه بينها أصواف أغنامنا تعمتها الرياح وتطيرها في الهواء.

-: كيف صبرت عليها؟

: لقد صبرت، لأنني لا أعرف ما عليه الناس.

-: هل كانت «تَفْشَخْ» عندما يأتي على لسانك ذكر إمرأة غيرها من النساء؟

: إمرأة!! مرة واحدة ذكرت لها أنني أسقيت غنم إحدى نساء الحي أتدرين ماذا حدث؟

-: لا.

: لقد أقامت القيامة فوق رأسي ولم تتركنى أنام تلك اليلة، وبقيت ثلاثة أيام لا تكلمني حتى عاهدتها الا أعود لمثل هذا العمل مرة أخرى.

-: آه، إنها تغار عليك، ولا تريد أن تختلط في أحد من النساء مخافة إفساد حبكتها التي أحكمتها حولك.

: بعد ذلك لم أتحدث إلى أي إمرأة.

-: الواقع أن الذنب ليس ذنبها لوحدها.

: لم أفهم.

-: أعني أنك قد اشتركت معها في الإثم.

: أنا!!

-: نعم أنت، فكما أن المرأة لها حقوق وعليها اجبات فكذلك الرجل له حقوق وعليه واجبات.

: ما هذا الذي تقولينه؟

-: أقول إنك قد ساعدتها في الركوب على كتفيك حين طأطأت رأسك لها ونفذت لها جميع طلباتها.

: كان ذلك من باب المَرْبِعيَّة لها.

-: ولكن هذا النوع لا يربع لأحد.

: حقا إنها لا تربع لأحد، والزوج أهون عليها من «طُوَيْر ذَوْبَهْ» تلك الفراشة البيضاء التي تحوم حول ضوء النار.

-: لأنه أهان نفسه ووقع على نارها فأحرقته.

: والآن، أتدرين ماذا قررت؟

-: هاه، ما عندك؟

: لقد قررت قراراً لن أعلنه الآن.

-: ومتى تبوح به إذا؟

: بعد بضعة أيام.

-: بضعة أيام!!

: نعم، ولن أصرح به إلا في ظلمة الليل وعلى ملأ من الناس.

-: قرار في ظلمة الليل!! وعلى ملأ من الناس؟

: ما هو يا أخي؟

-: ستعلمين به في حينه.

: ألا يمكنني معرفته الآن؟

-: لا، لا، إتركي الأمر إلى وقته.

وأصبح الصباح فسرح وتيد كعادته بقطيعه وعند عودته أحضر حزمة من الحطب وعرج إلى قبر زوجته السابقة المتنحى بعيداً عن الحي ورمي بالحزمة عند القبر، واستمر يحضر في كل يوم حزمة من الحطب وذلك بعدد السنوات التي عاشتها معه، وظن من رآه يضع الحطب حول القبر أنه يريد التظليل عليه وحمايته من السباع، وعندما أحضر آخر حزمة انتظر عند القبر حتى ختم الليل على الأفق فنضد جميع حزم الحطب الذي أحضره قريبا من القبر وأشعل فيه النار فهرع

سكان الحي مسرعين إلى المكان ليجدوا صاحبهم وقد انتحى جانبا عن النار، فقال أول من وصل إليه:

-: سلامات، سلامات، ما هذا يا وتيد؟

: هذه نار كما تراها.

-: أعرف أنها نار موقدة فمن أشعلها؟

: أنا الذي أشعلتها.

-: أنت!!

: نعم أنا بيديَّ هاتين.

-: آمنا بالله!! آمنا بالله، تشعل النار بقرب قبر زوجتك؟

: لقد قصدت ذلك.

-: أتضع النار بقرب قبر زوجتك وتقر بما فعلت؟

: آه، لقد تمالكت نفسي التي تراودني أحيانا أن أضع النار على جثوة قبرها.

-: لماذا يا أخي، أليست زوجتك؟

: بلى، وهذا ما جعلني أفعل ذلك.

-: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

: حتى أنا أردد ما تقول.

-: إنها إمرأة مسلمة وحرام وضع النار بقرب قبرها.

: إنها لم تطبق تعاليم الإسلام فيما يختص بزوجها.

-: بزوجها!! يعني أنت؟

: نعم، فلقد أساءت إليَّ كثيراً وأهانتني أكثر مما ينبغي.

-: وإن يكن يا أخي، فلا يعذب بالنار إلا خالق النار.

: لم أعذبها، وإنما هذه محاولة لتبريد غليلي منها.

-: إذا كانت قد أساءت إليك فإن لهارب يحاسبها.

: لا شك في ذلك، وسنلتقي عند من لا يظلم مثقال ذرة.

-: مادام الأمر كذلك فلماذا أشعلت النار بقرب قبرها؟

: آه، لأحرق فيها ذكريات بضع من السنين العجاف التي مررت بها.

-: هؤلاء القوم قد فزعوا بِقِرَبِ الماء لإطفاء النار.

: إطفاء النار!!

-: نعم، دعهم يطفؤها.

: ولله لن ترش عليها قطرة واحدة وأنا على قيد الحياة.

-: هاه، ماذا تقول؟

: أقـول إن ناراً أشعلتهـا بنفسي لن يطفئهـا أحد حتى تخمـد من حالهـا بعد أن تلتهم كل هذا الحطب الذي أحضرته لها.

-: هل أنت مصمم على ذلك؟

: وبكل إصرار.

-: لماذا؟

: دعها تلتهم بقايا ذكريـات الحياة الـزوجية التعيسـة التي قضيتها معهـا، دعها تحيل إلى رماد ذكريات تلك العلاقة الجنسية التي مارستها معها طيلة بضع من السنين.

-: استعذ بالله من الشيطان الرجيم.

: أعوذ بالله منه ومن حضرته ولولا أنني قد استعذت منه لرأيت غير ما ترى.

-: وماذا تريد أن تفعل؟

: لولا الخوف من الله لوضعت النار على قبرها.

-: ما الذي جعلك تفعل هكذا؟

: آه، مما يجيش في نفسي من لواعج الألم ونوازع الانتقام.

-: أتنتقم من جدث تحت رمسه؟

: هذا الذي يجعلني أتراجع.

-: والآن لقد برد ما في نفسك عليها، فدعنا نسكب ما في هـذه القرب عـلى بقية النار ونعود إلى البيوت.

: لقد آليت على نفسي ألا تطفأ هذه النار إلا حينـما تقضي على كـل ما فيهـا من الحطب.

-: يكفي يا أخي لقد شهرت بها بما فيه الكفاية بإيقادك النار بالقرب من قبرها.

: آه، دع هـذه الألسنة من النـار تتلظى على جهـد تلك السنوات النكـدة التي قضيتها معها.

- : لقد ذهبت السنون بحلاوتها ومرارتها.

: آه، ليس فيها من الحلاوة مثقال ذرة وإنما كلها مرة كالعلقم، فاليتوهج هذا الجمر علّه يقطع تلك المرارة الشاحطة التي أحسها في حلقي.

- : لو أن كل إنسان يحصل له ما حصل لك يفعل فعلتك لوجدت حوالي القبور عدداً من المواقد.

: لم يلاق أحد ما لاقيت.

- : وما يدريك؟

: أعلم ذلك جيداً، وقد فعلت ذلك عبرة لمن يعتبر.

- : كثير من الرجال يجدون من زوجاتهم مثلما وجدت وربما أكثر، كما أن كثيراً من النساء يجدن من أزواجهن أضعاف ما حدث ومع ذلك لم يشهر أحد بقرينه مثل ما فعلت فكل من فارق زوجه دعى له بالمغفرة والرضوان.

: أوه، لم يجر لأحد ما جرى عليَّ.

- : قد يكون ذلك، ولكن الصبر يمتص جميع المآسي.

: أبداً، أبداً، لا أوافقك على رأيك، ألا تعلم أنني أكدح من أذان الفجر وحتى منتصف الليل الثاني؟

- : هاه!!

: أقوم من النوم مع أذان الفجر، وبعد الصلاة أحلب الغنم وأرضع البهم ثم أجهز اللبن وأمخضه، ثم آخذ عصائي مع طلوع الشمس سارحاً بغنمي إلى غروب الشمس وحين أروح بها أرغم على حمل حزمة من الحطب، وبعد وصولي أقوم بكامل أعمال المرأة في المنزل إلى قرب منتصف الليل حيث أرمي بنفسي وقد «**تَفَلْتُ العَافِيَةْ**»؟

- : آه، من متى؟

: طيلة حياتي معها.

- : لم نعرف عنك هذا؟

: آه، لم يعلم بحالي إلا الله.

- : لماذا تفعل كل هذا؟

: مجبر أخاك لا بطل.

-: ومن يجبرك؟

: هي.

-: وهل تطيعها؟

: لقد أطعتها حيث لم أعرف أن هناك نساء على غير هذا النمط.

-: ومتى عرفت؟

: عندما فزع الله لي وأنقذني منها.

-: أنقذك منها!!

: نعم، عندما ماتت.

-: إيه، عليك أن تنسى ما فات، وتدعو لها بالمغفرة والرحمة.

: هذا ما لا أستطيعه.

-: حاول أن تسيطر على نفسك.

: آه، اللهم إذا كان ذلك بعد حين.

-: هيا بنا، لقد عاد الناس بقرب الماء دون أن يريقوا منها قطرة واحدة.

: لن أعود الآن.

-: لقد انطفأت النار بعد أن التهمت كل الحطب.

: لن أترك هذا المكان مادمت أرى بصيص جمرة واحدة في هذا الموضع.

-: لم أحسبك هكذا يا أخي، عهدي بك هادىء رزين.

: لأنني كنت تحت كابوس الكبت.

-: والآن؟

: لقد انتزع عني الكابوس وذهب إلى غير رجعة ومن الآن فصاعداً لن تراني على ما عهدتني عليه.

-: ما الذي حدث لك؟ وما الذي فجر طاقتك الكامنة؟

: آه، هي.

-: من تعنى؟

: أعنى هذه المرأة الجديدة التي تزوجتها مؤخراً

-: بارك الله لك فيها.

: آه، صدق والله من قال:

٢٤٩ مِنْهِنْ مِنْ تِسْوَى ثِمَانِينْ بَكْرَةْ　　وِمِنْهِنْ مَا تِسْوَي عْقَالْ قِعُودْ
٢٥٠ وْمِنْهِنْ جَنَّات تِدَاعَجْ نْهُورَهْ　　وْمِنْهِنْ نِيْرَانٍ بَلَيَّا وِ قُودْ
٢٥١ وْمِنْهِنْ هِرَّةٍ مِكْفِهِرَّةْ　　تِجِذْ الْخَيْرْ عَنَكْ بْعَمُودْ

-: إيه، دعنا نكمل الحديث في الطريق، إنهض فقد خمدت النار.

: حقا إنها كما ذكرت.

وكان لما حدث تلك الليلة أثر كبير في نفوس الناس، فظل حديث الحي عدة أيام، أما وتيد فمنذ الصباح التالي بدأ بالبحث عن راع يرعى غنمه ولما أدركه توجه مع من توجه إلى المدينة حيث اشترى دلالاً للقهوة مع بقية مستلزماتها بعد أن خصصت زوجته مكانا للرجال في جزء من البيت فصار يدعو الرجال لارتياد بيته وذلك لشرب القهوة بين الحين والآخر، وهكذا شيئاً فشيئاً حتى شعر بأنه إستعاد ما فقده طيلة الفترة الماضية من حياته وذات ليلة عاد إلى زوجته ليخبرها على ما عزم عليه حيث ناداها:

-: صِيْتَه!! ألا تعلمين بما عزمت عليه؟

: هاه!! لا والله، على ماذا عزمت؟

-: عزمت أن أغزو مع الغزو.

: تغزو مع الغزو!؟

-: نعم.

: كيف؟

-: أغزو مع أولئك الرجال الذين يذهبون ويكسبون.

: الحمدلله يا أُخَيَّ، لقد رزقنا الله من فضله دون حاجة أن نطمع بما في أيدي الناس.

-: «وَلَوْ».

: إنني أحب الغزو لولا ما يترتب عليه، من القتل والنهب والسلب لأموال الناس بغير وجه حق.

-: إنني أريد أن اغزو مع الرجال ألست رجلاً مثلهم؟

: بلى، بلى، ولكن..

-: ولكن ماذا؟

: لكنني خائفة عليك.

-: أوه، وهل أنا طفل صغير حتى تخافين عليّ؟

: لا، أبداً، إنما للغزو رجاله.

-: وأنا منهم، سأكون في مقدمتهم و«أنا أخو عليا». يقول ذلك بنبرة حادة.

: أعانك الله على ما في وجهك، ولكن كثيراً ممن يغزون لا يعودون.

-: ماذا تعنين؟

: أعني إنهم قد يقتلون من أجل أطماع الدنيا.

-: أوه، الطمع في الحصول على الإبل والغنائم الأخرى هو الذي يدفع بالرجال إلى الغزو.

: آه، يضحى الرجل بشبابه، وييتم أولاده ويرمل نساءه من أجل عصعص بعير قد يكسبه؟

-: أوه، هذا البعير الذي يكسبه يساوي عنده جميع أمواله.

: هكذا يتوهم أو يزين له إبليس.

-: دعينا من هذا.

: إنني أحب أن أبين لك مساويء هذا العمل الذي ستقوم به.

-: أوه، إنني غازي، غازي حتى لو خسرت.

: ما الذي جعلك تندفع بهذا الشكل؟

-: آه، ياصيته، لو تسمعين حديث الرجال عن الغزو والمكاسب التي ظفروا بها في غزواتهم.

: لا تصدق كل ما يقولون، إنهم أحيانا يبالغون.

-: يبالغون، لم أفهم معنى هذه الكلمة.

: نعم، قد يركب الواحد منهم خياله ويزين الأفعال التي عملها وربما زاد على الأعمال التي جرت له بالفعل أضعافا مضاعفة أي يجعل «الطّاقْ مَطْبُوقْ».

-: هكذا يخيل لك.

: بل هذا هو الواقع، فتراه يجعل من تلك الغارة البسيطة مغامرة مليئة بالأهوال، تحيط بها المهالك من كل جانب حتى يشد السامعين إليه لمتابعة

حديثه.

-: آه، ثم آه!!

: مالك تتأوه؟

-: لو رأيت فلانا وسمعت حديثه حينما كان متكئا على هذا الشداد يصف غارة قام بها مع رفاقه وكان عقيدهم، كم جابهوا من المخاطر في ملاقات أعدائهم، وكيف حبكو الحيل، ودبروا المفاجـآت ثم اختاروا المسالك الوعرة والملتوية للالتفاف على أعدائهم والايقاع بهم، لو رأيتيه يتحدث بكل جوارحه والأنظار مشدودة إليه؟

: آه، هذا الذي جعلك تحب الغزو.

-: نعم، فلقد تمنيت لو أنني بثيابه.

: قد يكون الرجل مبالغ فيما يقول؟

-: أبداً، إنه صادق، فقد كان يتحدث من أعماق قلبه.

: هل كان حاضر بالمجلس من رفاقه أحداً بتلك الغزوة؟

-: هاه، لا أدري.

: إيه، قد يحلو للبعض أن يروي مغامراته حينما لا يكون عنده من رفاقه أحد قد يصحح له بعض المعلومات التي يرويها.

-: لم يكن هذا لوحده، ألا تعلمين أنه إذا جاءت سيرة الغزو في المجلس أدلى كل واحد بدلوه، وكل يروي ما جرى له أو عليه من خير وشر.

: إيه، قد لا يقول أكثرهم الحقيقة.

-: أتكذبين حديث الرجال؟

: لم أقصد هذا بالضبط، وإنما أردت أن أقول بأن الواحد منهم إذا كسب بعيراً قال إنني كسبت عشرة، وإذا كسب عشرة جعلها مئة.

-: لا، لا، لا أوافقك على هذا فلديهم شهود على كلامهم.

: إيه، «قَالْ مَنْ شَاهْدَكْ يَا أَبَا الحُصَينْ قَالْ ذُنَيْبِيْ»!!

-: أراك بدأت تتحاملين على الرجال؟

: هاه!!

-: أدري أن سبب تحاملك هذا، لا تريدنني أن أذهب للغزو معهم.

: لم يكن هذا هدفي.

-: إذا ما هو قصدك من هذا اللت والعجن؟

: أوه، لقد فهمت كلامي خطأ.

-: بل فهمته على الوجه المطلوب، ألا تعلمين أنني أصبحت أفهم «الكلمة الطائرة»؟

: وسع الله فهمك وبارك لك فيه.

-: ألا تعلمين أنني لا أزال أشعر بنقص أمام الرجال؟

: نقص!! بماذا؟

-: آه، يتحدث الرجال في تجمعاتهم ومنتدياتهم عن مغامراتهم وغزواتهم، فإذا جاءني الدور طأطأت رأسي وسكت.

: أوه، هذا هو الذي دفعك إلى الرغبة في الغزو!!

-: نعم، أريد إذا تحدث الرجال عن الغزو، أن أدلى بدلو معهم.

: وإن كانت الدلو لا ماء فيها.

-: حتى لو كانت يا بسة، أولا يوجد بها غير الحمأة والطين.

: آه، يعني كما يقول المثل «تِشَيِّعِيْ لَوْبِقَاحِهْ».

-: أف، لقد شطح بك لسانك. يقول ذلك بنبرة حادة.

: كفاك الله شرما اندفعت من أجله.

-: الله الساتر، فكل يوم يغزو الرجال ويعودون سالمين.

: ويسقط الكثير منهم في ميادين القتال.

-: لن يموت أحد قبل يومه.

: إنني واثقة من ذلك.

-: إذا لماذا الاعتراض.

: لم أعترض عليك، ولكنني أحببت أن أعطيك وجهة نظري في هذا الأمر لأنني..

-: لأنك ماذا؟

: أبداً، أبداً، لأنني حريصة على سلامتك.

-: وأنا حريص كذلك على مكانتي بين الرجال.

: زادك الله رفعة وسمواً.

-: إيه، هذه الدعوات هي التي ترفع من معنويتي.

: وهل سبق وأن ثبطت عزمك؟

-: حاشا عليك يا أخت فلان، إنك خير عون لي، وأول من أنقذني مما كنت فيه.

: إذا، مع من تغزو؟

-: مع عقيد القوم.

: مع الفرسان أم مع الهجانة؟

-: مع الفرسان.

: ولكنك ستحتاج إلى جواد أصيل.

-: ما أسهل الحصول عليه!!

: ماذا تقول؟

-: أقول نبيع مجموعة من هذه الإبل ونشتري بثمنها حصانا أصيلاً.

: أصائل الخيل لا يبيعها أصحابها.

-: إلا عندما يكون هناك قيمة مغرية.

: الأصيل من الخيل لا يبيعه صاحبه مهما دفعت فيه من ثمن.

-: إذا كيف الحصول عليه؟

: يحصل الفرسان على أصائل الخيل في ميادين القتال، وربما حصلوا عليها عن طريق الاقتناء للسلالات الممتازة.

-: أوه، متى سنربي السلالات؟

: هذا يعني أنك على عجلة من أمرك؟

-: أجل، أجل!!

: إنني أخشى أن تشتري حصانا هجينا يكون هلاكك على ظهره لا سمح الله.

-: هجين!! ولماذا اشتريه أصلاً!؟

: لقد قلت لك لا يباع من الخيل غير رديئها.

-: سأبيع كل إبلي وأشتري لي حصانا أصيلاً.

: عسى أن يكون خيراً، ولكن.

- : دعينا من لكن هذه، إن وراءها ما وراها.
: سأعطيك رأيي، وأنت حر بعد ذلك.
- : أنت الآن ستعمد إلى إبلك الموجودة بحوزتك ثم تبيعها لتشتري بثمنها حصانا تغزو عليه مع رفاقك وتكسب عليه إبلا أخرى؟
: نعم، نعم، سأكسب إبلاً كثيرة، وسأعوض مراح إبلي كل ما بعته منه، ويكون الحصان مكسبا لنا.
- : إيه، كفاك الله شر ما فرحت به.
: ماذا تقولين يا إمرأة!؟
- : أقول وفقك الله، ولكنك لم تتركني أكمل حديثي.
: هاه، أكملي.
- : أنت الآن ستبيع إبلاً بيدك، وتحاول كسب إبلاً أخرى فينطبق عليك المثل القائل يفلت جرادة بيده ويطرد جرادة في الهواء.
: أوه، أنا لا يعجبني هذا الكلام.
- : هكذا المندفع لا يعجبه العجب.
: هل انتهيت من الكلام؟
- : لا.
: وماذا بقى عندك؟
- : بقى عندي أنه حسب ظني أنك لن تكسب في غزواتك إبلاً تساوي إبلنا الموجودة في مراحنا الآن.
: إذكري ربك يا إمرأة، سترين فعلى، ولعينيك سأذهب مع أول غزوة يقوم بها رفاقي.
- : هون عليك، هون عليك، لم أقصد حشرك، أو الزج بك في معركة لأول مرة قد لا تخرج منها.
: بلا شك أنك لن تقتنعى بالكلام وحده حتى ترى ما سأقوم به من فعل.
- : وفقك الله، وأنني أتمنى لك من كل قلبي أن تصبح بين عشية وضحاها عقيداً لقومك.

: إيه، هذا الكلام الذي ينعش القلب ويرطب الفؤاد.

-: وفقك الله.

: سأذهب في الصباح الباكر إلى فلان، لقد ذكروا أن عنده خيلاً للبيع، وسأشترى منها جواداً أصيلاً.

-: إذا رأيت أن يصاحبك أحد الفرسان الذين تمرسوا في ركوب الخيل، وعرفوا أسرارها المتوافرة في سماتها الظاهرة على أجسامها، والسليمة من الشارات الخلقية التي قد تؤثر في جريها أو تتعبها أثناء الكر والفر، وغير ذلك من الأمور التي لا يعرفها غير أولي التجربة والمراس.

: يبدو أنك غير مقتنعة برأيي!؟

-: أبداً، يا أخيَّ، ولكن المثل يقول عليك باستشارة من سبقك إلى ذلك الطريق بيوم واحد، فما بالك بمن عرف أسراراً لم تعرفها ولم تخطر ببالك؟

: إنني أعرف كل شيء.

-: مالي أراك متعصبا لرأيك؟

: إنني رجل مثل غيري ورأى الآخرين لن يزيد عن رأيي شيئاً.

-: إن مشورتك من هو أعلم منك لا تنقص من رأيك.

: هه، لا تنقص!!

-: نعم، إنها تزيد رأيك بلورة، وتعطي رؤيتك وضوحاً، ثم لا تنسى أن الخيل لها طبائع كطبائع البشر، لا يعرفها سوى من ساسوها وتقلبوا على ظهورها.

: الخيل بالتدريب والترويض يستطيع الرجل مثلى أن يغير جميع طبائعها، ويكسبها طبائع جديدة على ما يريد هو.

-: بلا شك أن للترويض أثر كبير، ولكن بعضها جفول بطبيعته، نزق في تصرفاته، وإذا أردت أن تقتلع هذا الطبع منه فقد يحتاج إلى تدريب مضني ووقت طويل، وقد يزول هذا الطبع وقد لا يزول.

: مادامت الهمة موجودة فكل شيء يكون.

-: على بركة الله، إذا لن يصطحبك أحد.

: سأذهب لوحدي.

-: مادمت كذلك، فأجعل شرائك مرهونا بالاستشارة ليوم أو يومين.

: الإستشارة!!

-: نعم، حتى تحضره إلى هنا وتجربه وسوف يجتمع عليك الرجال ليروا جوادك وقد يؤيدون رأيك وقد ينصحونك بشيء معين.

: هاه، إيه، ولكن المهم ألا يعكسوا رأيي مثلك.

-: إيه، هذا الأمر بيدهم ولا أملك منه شيئاً.

: ألا تعلمين أن الرجل الذي سيعكس رأيي لم تلده أمه بعد؟

-: آمنا بالله، كفاك الله شر هذا التصلب.

: تصلب!!

-: نعم، وإن اشتريت غداً إكديشا وجئت به على أساس أنه حصان أصيل؟

: وهل أنا مغفل حتى أشتري إكديشاً؟

-: ولكن من الأفضل أن تأخذ من آراء الآخرين.

: وأترك رأيي!!

-: سترين غداً، ما سأنتقيه من الخيل، عندها ستقولين إن زوجي كان محقا فيما ذهب إليه عندما أصر على رأيه.

: «كُنْبَهْ» عساني أرى صحة ما تقول.

-: عليك أن تجهزي المعرقة والسرج.

: لا تنقل هماً لمثل هذه الأمور، فأنا كفيلة بها، إن لديَّ من الصوف والوبر والجلود الناعمة ما سأصنع لك ما تريد.

-: سلمت يداك.

: إيه، «مَارْ الْبَلَى يَا وْتَيْدْ مَا يَخْفِيْ الغَيْبْ»!!

-: ماذا تقولين؟

: لم أقل شيئاً.

وفي اليوم التالي أحضر وتيد ذلك الجواد الذي انتقاه من بين مجموعة من الخيل وقال لزوجته.

-: هاه، ماذا تقولين في هذا الغوج؟

: إنه حصان جميل.

-: ألم أقل لك أنني على علم بالخيل وإن لم أتمرس في ركوبها؟
: إيه، طرح الله في ناصيته البركة، وأعطاك من خيره وكفاك شره.
-: لم تخبرني عن رأيك فيه.
: لقد قلت لك إنه حصان جميل المظهر، ويبدو أنه غضٌّ على الركوب والتدريب العنيف.
-: نعم، إنه على أوله، وسوف أدربه بنفسي وأداري عليه.
: أعانك الله على ما في وجهك.
-: سترين يا أخت فلان، أن زوجك ليس كما تظنين.
: إنني أتوسم فيك الخير، وأتوقع منك الأفعال الحميدة.
-: على ناصية هذا الجواد.
: سيحتاج ذلك إلى وقت طويل.
-: وقت طويل!!
: نعم، لكي تدربه، وتروضه، فلديك خبر الحصان العسيف.
-: صحيح، ولكن تدريب الخيل، وعسافها أهون من الإبل وغيرها من الدواب.
: من قال لك ذلك؟
-: لقد أخبرني أحد أصحابي.
: قد يكون يحاول إيهامك.
-: إيهامي!!
: بالتأكيد، والا فالخيل صعبة المراس، صلبة الأعنة، حتى يسوسها فارسها ويعرف قيادها ثم تصبح سهلة القيادة.
-: لقد أخبرني رفيقي أنه قد درب جواده بفترة قصيرة، بعدها صاحب الغزو الذين ذهبوا من قومه.
: لا بأس عند الركوب فقط، ولكن الأمر لا يتعلق بتدريب فرسه على الركوب فقط ولكن على أمور وصيحات معينة يطلقها عند الكر والفر، فتستجيب لمثل هذه الصيحات.

-: يعني مثل «عَلَيْهِمْ، عَلَيْهَمْ، أَوْ عِنْهَمْ، عِنْهَمْ»؟

: إيه،- هذا وما أشبهه من الأمور التي يعرفها الفرسان.

-: أبشري، سترين مني ما يعجبك.

: وفقك الله، لكن ألا عرفت من جلسائك الخطط التي يسيرون عليها.

-: مثل ماذا؟

: الطرق التي يتبعونها في الإغارة على الغنيمة، والاستيلاء عليها.

-: ما عرفته أن من أمسك شيئاً فهو له.

: لا أظن هذه الطريقة.

-: إذا ما هي الطريقة؟

: أعتقد أن الغزو حينما يحوزون الغنيمة يختار عقيد القوم من خيارها ثم يوزع الباقي على رفاقه بالسوية.

-: إنني أعرف هذه الطريقة، بعد أن يتخزز الأمير أحسنها ويأخذ خزيزته يقسم الباقي على رفاقه، وقد يُنَفِّلُ أحد الفرسان الذي أبلى بلاءاً حسناً في المعركة على رفاقه.

: ليتني أراك ذاك الفارس الذي ينفل على على رفاقه.

-: سأكون أحدهم إن شاء الله.

: هل عملت من رفاقك عن كيفية الاغارة على الغنيمة واحتوائها؟

-: هذا لا يحتاج إلى تعلم، فإذا رأى الغزو ذوداً أو أذواداً من الإبل ترعى في مفلاها، إستاقوها مع راعيها إذا سار معهم، أو يقتلونه إذا عارضهم ثم يذهبون بإبله.

: وإن كان أصحابها غير بعيدين عنها؟

-: إنها ترعى في البرية ليس عندها أحد.

: آه، في علمي أن الإبل لا تترك بدون رقيب يسير معها.

-: رقيب!! إنه رجل واحد، ماذا سيفعل أمام مجموعة من الرجال؟

: قد لا يقاومهم بنفسه، ولكنه يعود إلى الحي فيفزعهم بصريخه وصياحه، فتأتي الأفزاع على ظهور الخيل لتفك الإبل ممن سلبوها.

-: أوه، لا يذهب الرقيب وتأتي الأفزاع إلا وقد ذهب القوم بالابل وأبعدوا بها.

: هذا التوقع ليس دائماً.

-: وإذا جاءت الأفزاع، فمتى يخلصون الإبل؟

: لا تقل هذا، فقد يكون من بينهم فارس شجاع يلوي برقاب القوم ويجند لهم عن خيولهم فيستعيد إبله منهم.

-: ومن يكون ذلك الفارس حتى لو كان عنترة بن شداد أو أبو زيد الهلالي.

: لا تخلو الأرض من أمثالهم.

-: لقد إنتهى ذلك الجيل من الفرسان.

: لا يا ابن أخي، فالعود من هذه الشجرة.

-: ماذا تعنين؟

: أعني أن أولئك الفرسان الذين تقول أنه انتهى وقتهم وأمثالهم من فرسان هذا اليوم كلهم يعودون إلى أصل واحد ومنبع واحد.

-: هاه، لم أفهم!!

: سأفهمك، إن هذه الأرومة العربية التي برز من فروعها أولئك الأبطال الشجعان لا تزال باقية تجود بين الحين والآخر بدفعات جديدة من الفرسان المغاوير والأفذاذ في كل ميدان.

-: أوه، لقد حاولت أن تكحليها فأعميتها، الآن طمس الله على قلبي عما تقولين.

: أوه، أعنى أن الأبطال الذين ذكرتهم بالأمس لا يزال لهم أمثال في هذا اليوم وغداً وبعد غد.

-: يعنى سيظهر عنترة مرة ثانية.

: لا، ولكن سيبرز مثيل له وربما زاد عليه.

-: لا أظن ذلك.

: إيه، إنك لم تصدق شيئاً ومع ذلك فأنت مصر على الغزو والمغامرة.

-: أجل، أجل، سأكون في مقدمة الكوكبة التي تتصدر الغزو.

: وفقك الله، ولكني سأسوق لك هذه الوصية إذا ذهبت مع الغزو.

-: وصية!!

: نعم، في أبيات قلائل تتذكرها وأنت على ظهر جوادك

-: هاتي،

٢٥٢ يَا وْتَيْدْ حَذْ رَاعِنْ كِثِيْرَاتْ الاطْمَاعْ — اللِّي بْهَا الدِّبْدُوْبْ لَوْهِيْ وَحَدْهَا

٢٥٣ يَا تِيْكْ رَاعِيْهَا مْنَ الجَوْ فَزَّاعْ — حَلِيْل بِنْتٍ تَوْزَمَةْ نَهْدَهَا

٢٥٤ تَلْقى بْجَامِحْ فِلْوِتِهْ سَبْعَةْ أَبْوَاعْ — خَطْرٍ عَلى غَوْجَكْ يِقِطْهْ بَيْدَهَا

٢٥٥ بَالْوَسِيطْ شِبْرِيِّهْ وْبَالْكَفْ لَمَّاعْ — يَقْطَعْ ظِمَاكْ وْهِيْ بْحَامِي جَهَدْهَا

: هاه، ماذا تقولين؟

-: أقول هذه الأبيات، إحفظها ولتكن معك خير ذخيرة وتجنب ما تضمنته.

: ولكن تلك الناقة ذات «الدِّبْدُوْبْ» هي التي يحرص كل واحد على حيازتها.

-: نعم، ولكن دونها الموت الأحمر.

: الموت الأحمر!!

-: إن صاحبها سيستميت عندها فلا يتركها مهما كان الثمن فحذار أن تقربها.

: وماذا أكسب إذا؟

-: كل شيء عداها.

: إيه. «مَا عِنْدِكْ سَالْفَةْ»!!

-: ستري صحة قولي.

وفي اليوم المحدد لانطلاقة الغزو كان وتيد قد درب جواده على فنون القتال بالمستوى الذي اقتنع فيه حسب إدراكه، واستمرت مسيرة الغزو ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع في باكورة أيام الصيف عندما صدرت أذواد الإبل من الماء وأبعدت ما فيه الكفاية عن النزل كان هؤلاء الغزو قد كمنوا لها في مضيق ذلك الوادي، حتى إذا تأكدوا أن راعيها لم يكن معها أحاطوا بها واستاقوها أمامهم لكن الراعي لم يمهلهم أن يذهبوا بها بعيداً، وإنما صاح للأفزاع فأسرع الفرسان على صهوات خيولهم ليفكوا إبهم ممن إعتدى عليها، وسرعان ما لحقت الخيل، واشتبكت القنا ولمعت السيوف بين المهاجمين والمدافعين، وتبعثر القوم في مطاردة عنيفة، وتشتتت الإبل على إثر ذلك، وهرب بعض الغزاة بجلودهم والبعض الآخر لايزالون يصاولون ويحاولن المدافعين، أما وتيد فكان في المؤخرة وعندما انزاحت عنه الخيل بفرسانها وجد تلك الناقة الحمراء، العوصاء، الشناح، البدينة التي ليس لها مثيل في الإبل التي رآها، مع تلك الأذواد، وعندما اقترب منها وجد الجرس

«والدبدوب» معلق برقبتها وهي تتهادى بمشيتها وكأنها الخدلجة الحيية، فأخذت عليه شغاف قلبه، وقال في نفسه هذه الناقة لو لم أكسب في حياتي غيرها لكفتني هاه، إنها لوحدها قد انفردت من الإبل، دعني أستاقها على حصاني لأعود بها في يمة أهلنا وأكون في طريق أصحابي إذا عادوا إلى أهلهم وهذه أولى بركات هذا الغوج، فحرفها، واتجه بها يمة أهله، وسرعان ما تبادر إلى ذهنه أبيات إمراته التي تقول منها:

يا وتيد حذرا عن كثيرات الاطماع اللى بها الدبدوب لو هي وحدها

إيه، تلك إمرأة مهبولة تتنبأ بما في علم الغيب، ولو رأت هذه الناقة لختم على لسانها فلا تستطيع أن تتكلم فضلا عن أن توجهني بشعرها، دعني أعود بها لأثبت لها أن كلامها واعتراضها عليَّ في غير محله، فلعلى أجد أحداً من رفاقي وقد كسب ناقة مثلها، لا، لا، لا يوجد مثلها في كل تلك الإبل التي رأيت، ومهما يحضر أحدهم من الإبل فلن تكون مثل هذه قد يحضر أحدهم مجموعة من الإبل ولكن هذه بالتأكيد ستكون أحسنها، وعند ذلك سيتحدث القوم في المجالس أن أول كسب كسبه وتيد من نوادر الإبل وكرائمها، آه ما أسعدني تلك اللحظة عندما أضوي فيها على صيته وأريها ما كسبت لأملأ عينها واسكتها عن كثرة النصائح والاعتراضات.

وبينما كان يحدث نفسه بهذه الأحاسيس رأى من بعيد عجاجة منقادة في الجو، وكأنها الإعصار المترنح في صحن البيداء، وشيئاً فشيئاً صار هذا الاعصار يقترب منه، وما هي غير فترة وجيزة حتى انبلج ذلك الإعصار عن فارس ملثم مدجج بالسلاح، لم يتمكن من كبح جماح فرسه إلا بعد أن دار حول وتيد والناقة مرتين ثم وقف بعيداً عنه وقال:

-: قف، من أنت أيها الفارس؟

: فارس مثلك.

-: وماذا تريد بهذه الناقة؟

: هذه ناقتي.

-: ناقتك!!

: نعم، فلقد كسبتها من هذه الغارة.

-: كسبتها!! «أَنَا رَاعْ الْعَلْيَا»!!

: هذه مكسبي.

-: هيه، أنت «يَاللُّحْيَةْ الغَايِمَةْ».

: نعم، وماذا تريد مني.

-: الأفضل لك أن تعيد الناقة إلى أهلها.

: لست ممن يقرقع عليه بالشنان حتى تقول لي هذا الكلام.

-: «خَيَّالْ الْخَيْلْ» يقول ذلك وهو يلوي عنان جواده لتأخذ شوطاً مناسباً ينقض فيه على من أراد أن يسلب منه هذه الناقة.

: وعند ما رأى وتيد أن الفارس قد أدبر عنه ثم أقبل منصلتاً كأنه السهم يريد انتزاع رأسه من بين كتفيه، بدأ يضحك بصوت مسموع.

-: لما رآه الفارس بهذه الصورة قال في نفسه، مال لهذا الرجل بدأ يضحك ثم قال: أتضحك علي يا وقح؟

: لا والله، يا ابن الأجواد.

-: أتستهزيء بي؟

: حلمك أيها الفارس.

-: ما الذي دهاك؟

: لا شيء، لا شيء، يقول ذلك وهو مغرق في الضحك.

-: هاه، لا تحاول خداعي أيها الوغد.

: لم يكن الخداع من طبعي.

-: إذا ماذا بك؟ هل أنت خبل؟

: حاشا أن أكون كما ذكرت.

-: أتدري، إنه حرام قتل مثلك هيا، عليك أن تعود بالناقة إلى البيوت.

: إلى البيوت!!

-: نعم ، وإياك أن تحاول الفرار من هنا أو هناك إنني معك وغير بعيد عنك.

: أبشر، أبشر.

-: توجه بالناقة إلى ذلك البيت الكبير ثم أعقلها عنده وسوف أعود إليك الآن.

: حاضر؛ يقول ذلك وهو يحـدث نفسه، هـاه!! هذه الصـورة التي رسمتها لي زوجتى الناقة ذات «الدبدوب» يأتي صاحبهـا من الجو فـازعاً، هـذه الثانيـة، بقي الثالثة وهي زوجتـه الجميلة هذه لم أرهـا بعد، أمـا الرابعـة فهي مجامـح فلوته التي تساوي سبعة أبواع فهذا ما رأيته بأم عيني، أوه وما جوادي عنـدها أما الخامسة فهي سلاح الـرجل فقـد تحزّم بخنجـر قاطـع وبيده سيف بـاتر، بامكانه أن يقتطف رأسي كما يقتطف رأس الفطر، هاه، «إهْبَيْ» يـاصيته والله لكأنها ترى هذه الصورة قبل أن تحدث.

-: مالك، أراك تراخيت عما أمرتك به؟

: هاه، هاه، لم أنتبه.

-: هذا البيت، عليك أن تعقل الناقة عنده.

: ابشر، أبشر.

-: أعطيه العقـال يا فـلانة هكـذا ينادي الفـارس زوجته. وخـرجت تلك الفتاة الرائعة الجمال من البيت ومعها مجموعة من العقـل ورمت بها إلى وتيـد ليعقل الناقة بشيء منها.

: عنـد ذلك قـال وتيد: لقـد صدقت هـذه الثانيـة. وأغرق في الضحـك مـرة أخرى.

-: فاقترب منه الفارس ونهره قائلاً: من هي التي صدقت؟ وما هي الثانية؟

: أوه، لم يتما لك نفسه ليكمل حديثه من شدة الضحك.

-: ما الذي يضحكك يا رجل؟

: لا شيء، لا شيء.

-: أرأيت منا ما يضحكك؟

: لا والله.

-: إذا ما بالك تضحك؟

: لأمر ما.

-: ما هو هذا الأمر؟

: شيء خاص بيني وبين نفسي.

-: والله لئن لم تخبرني به «لأَزَنْحُ» رأسك بهذا السيف.

: أوصل الأمر بك إلى هذا الحد؟

-: نعم، أجل تضحك علينا بدون سبب؟

: إنني لا أضحك عليكم.

-: إنك لتهزأ منا وتضحك علينا، فإما أن تخبرني ما الذي يضحكك أو سأقتلك حالاً.

: مادام الأجر كذلك فإليك السبب. وقص عليه قصة زوجته ونصيحتها له والأشياء التي ذكرتها له بالأبيات قبل أن تراها بحيث شاهدها ولمسها كما رسمتها له، وهذا الذي جعله يضحك.

-: عند ذلك قال له الفارس، مادام الأمر كما ذكرت فسأعطيك من عندي خمساً من الإبل، تقديراً لزوجتك ومكافأة لها على توجيهها لك التوجيه السليم حسبما تراه فيك.

: خمساً من الإبل دفعة واحدة؟

-: نعم، هي خمس بالكمال والتمام، ولكن حذار من أن تغزو مرة أخرى فتقع بيد من لا يتمهل أو يتريث في قتلك دون أن يسمع منك كلمة واحدة.

: إيه، هذه الخمس نعمة، ونرى ما لا نكره.

-: إذا لم تسمع كلامي فستقع في المهالك هذه الإبل وخذها مع قبول نصيحتي.

: مع السلامة.



القصة رقم (١٤)



مات قهراً

مع إطلالة أمزان الوسم على صفحة الأفق بدأت العيون ترقبه، وتستخيل بارقة لترى على أية بقعة يتوقع سقوط مطره، وعلى ذروة تلك الأكمة صعد الرجلان ليراقبا البرق عند حلول الظلام ثم يعودان إلى مجلس الرجال ليخبراهم بموقع السحاب التقريبي من صفحة السماء.

وعندما حل الظلام، بدأ البارق ينوض من بين ثنايا السحاب المتراكم في خد الأفق، فقال أحدهما لصاحبه:

-: إنظر، إلى البارق، «عَزَّكْ يَا مَالِكْ المُلْكْ».

: الله، ما أجمل البرق بين أقفاف السحاب.

-: ترى أين تتوقع مساقطه؟

: إنه على ديار آل فلان.

-: لست مصيباً في رأيك.

: لماذا؟

-: إنه أقرب من ذلك، فهو لا يتعدى الجبل الفلاني.

: إنني معك لو كنا في غير هذا الوقت.

-: في غير هذا الوقت!!

: نعم، لو كنا في فصل «الصيف» الذي هو آخر الربيع لوافقتك.

-: والآن؟

: أما الآن فنحن في فصل الوسم.

-: وما الفرق بينهما؟

: الفرق شاسع يا أخي.

-: كيف؟

: السحاب في مثل هذا الفصل يكون مرتفعاً.

-: مرتفع!!

: نعم، يرتفع السحاب بقدرة الله في عنان السماء، ومهما تخيلته قريباً، فهو أبعد مما تتخيل بضعف المسافة.

-: هاه!! لم أفهم.

: دعني أوضح لك، إذا كنت في «مثل هذا الفصل» آخر فصل الخريف وتخيلت المخيلة على موضع على بعد مسافة يوم للمطية فإنك لن تجد مطره إلا على بعد مسافة يومين.

وفي «الصيف» آخر فصل الربيع فإنك ستجد مطره على نفس الموضع وربما أقرب منه قليلاً.

-: لم ألاحظ ذلك.

: ربما لقصر تجربتك في هذا المجال.

-: سبحان الله، ترى ما هو السبب؟

: السبب، كما ذكرت أن السحاب بقدرة الله في مثل هذا الفصل، يكون مرتفعاً، وفي ذلك الفصل يكون منخفضاً.

-: كيف عرفت ذلك؟

: من واقع التجربة ومتابعة السحب في كل عام.

-: يعني أنك تتوقع هذا البارق على ديار آل فلان.

: نعم، إنه عليها إن صدق حدسي، وربما على أدناها، ولكنه سيضفنها.

-: ليته على غير تلك الديار.

: لماذا؟

-: إن أهل تلك الديار لا يريدون أحداً أن يرعى من كلأ ديارهم.

: هل أنت جاد فيما تقول؟

-: نعم، إنني جاد كل الجد.

: على العكس يا أخي، فهم كرماء بمالهم الخاص فضلاً عما أنزله الله وأنبتـه من ماء السماء.
-: لا شك في ذلك.
: أجل لماذا تتمنى أن يخطىء الغيث ديارهم.
-: لأنهم يطردون الآخرين عنها.
: صحيح إنهم يطردون من أراد رعي كلئها عنوة.
-: إيه، أيريدون كل من أراد الرعي في أرضهم أن يستأذنهم؟
: بالطبع.
-: أوه، هذا أمر صعب.
: وما هي الصعوبة فيه؟
-: أن تستأذن قوماً لترعى في أرضهم.
: أجل تريد أن تدخل بيتاً دون أن تستأذن أهله؟
-: إنه ليس بيتاً ولكنه بر الله.
: وإن يكن فهو بحكم البيت.
-: أوه، إنني أرى في الأمر ثقلاً.
: أما أنا فإنني أخالفـك، فهؤلاء رجال لهم حمـاهم في منطقتهم مثلما لغيـرهم، ولا ضير على من أراد أن يرتع في أرضهم أن يستأذنهم، ويبقى معهم، وكأنـه الضيف العزيز حتى إذا انتهت فترة الرعي عاد إلى دياره إن هو أراد ذلك.
-: قدير حلونه رغم إرادته.
: ليس ما ذكرت من عـاداتهم، فهم يحرصـون على جـارهم أشد من حـرصهم على أنفسهم.
-: حتى في الماء؟
: حتى في الماء، لقد رأيت البعض منهم على موارد المياه يقدم مواشي جاره عـلى مواشيه.
-: متى رأيت ذلك؟
: في العام الماضي.
-: ألا يكون هذا الكلام قد نقل إليك؟

: أقول لك لقد رأيته بعيني، إنهم رجال أهل كرم ومروءة.

-: أوه، يبدو أنك منحاز لهم.

: ولماذا أنحاز معهم؟ فليسوا من قبيلتي ولا يربطني بهم أي صلة قربى.

-: لماذا تدافع دونهم إذاً؟

: إنني أقول الحق، وهل في قول الحق انحياز لأحد؟

-: أما سمعت ما فعلوا بفلان؟

: فلان يعتبر معتدياً عليهم.

-: معتدياً!!

: نعم، فلقد اجتاز حدودهم ونزل بوسط قطعانهم دون إذنهم.

-: وماذا في ذلك؟ إنها أرض الله ينزل بها من أراد.

: لا شك أنها أرض الله، ولكن كل قطعة من الأرض قد اعتبرتها قبيلة من القبائل موطناً لها وضمن مرابعها مثلما نعتبر نحن المكان الفلاني أرضنا ومنازلنا.

-: ولكننا لم نرد عنه أحد.

: لأنه لا يأتيه أحد.

-: لماذا؟

: لأنه لا ماء ولا مرعى فيه.

-: أوه، لقد ضيقت صدري بحديثك.

: أنت الذي نبشت عن هذه الأمور.

-: لو كنت في مكان فلان لما استطاعوا أن يزحزحوني عن مكاني.

: فلان أطيب منك، وأكثر رجالاً ومع ذلك فقد طردوه عن أرضهم ورحل من وسط الربيع.

-: آه، وتقول إنهم رجال ذوو مروءة!؟

: لو أنه جاء الرجال من وجوههم لأدرك منهم مرامه ولكنه جاءهم محاولاً فرض نفسه عليهم ولذلك طردوه.

-: لقد طلبهم بالمعروف.

: ولكن بعد أن استفزهم واستثار غضبهم.

-: المفروض أن يصفحوا عنه.

: ألا تعلم أن الرجال كالقدر المملوء بالماء إذا أوحشت النار تحته حتى بدأ يغلي فمن الصعب تبريده في فترة قصيرة.

-: القدر الفائر يصب عليه الماء البارد فيخمد.

: هكذا تفكر أنت!! ولكن من يصب الماء؟

-: إيه، إنني أراك تدافع عنهم وكأنك واحد منهم؟

: إنني مع كلمة الحق.

-: لقد ضيقت صدري، جئنا هنا لنستخيل البرق فحولت حديثنا إلى نقاش طويل.

: أنت الذي بدأت هذا النقاش.

-: أنا!!

: نعم، حينما تمنيت لو لم يصب هذا الغيث أوطان أولئك الأجواد.

-: وماذا تريدني أن أقول إذاً؟

: قل اللهم عم به جميع أوطان المسلمين.

-: هاه!! أحسنت، اللهم آمين.

وعاد الرجلان يرويان لمن بالمجلس ما شاهدا من ثنايا السحاب من لوامع البرق، واختلطت الآراء بين مبعد ومقرب له، وفي غمرة هذا النقاش أناخ صاحب مطية قد ضوى لتوه، وما إن أخذ مجلسه وشرب ثلاثة فناجين من القهوة حتى سأله أحدهم:

-: من أين أتيت «يَا للّحْيَةْ الْغَانِمَةْ»؟

: من هذه الديار إلى الشمال عنكم.

-: هاه، بشر ماذا رأيت في طريقك؟

: عم تسألون؟

-: عن أخبار الأمطار تلك هي الأخبار التي يبشر بها في مثل هذا الوقت.

: لم أر في طريقي أثراً للمطر.

-: إن هناك مخيلة الآن على هذه الجهة التي أتيت منها.

: هذه المخيلة لم تنشأ إلا بعد ظهر هذا اليوم وقد عقبتني على ما قدمت منه.

-: وماذا رأيت في طريقك؟

: لم أر شيئاً يستحق الذكر.

-: إذاً ما هي أخبارك؟

: إيه، إنها أخبار لا تسر، وللأسف الشديد.

-: لا تسر!!

: نعم، كفانا الله الشر، ما هي أخبارك؟

-: قتل ومقاتل.

: إيْ!! بين مَنْ وَمَنْ؟

-: بين آل فلان وقبيلة آل فلان.

: آمنا بالله!! ومن المعتدي؟

-: لقد اختلطت الأقوال، وكل يتهم خصمه بالاعتداء.

: متى كان ذلك؟

-: منذ ثلاثة أيام.

: في أي مكان.

-: قرب المورد الفلاني.

: آه، بديار آل فلان؟

-: نعم.

: ما هو السبب؟

-: ليس هناك سبب مباشر سوى الاختلاف حول الماء.

: أوه، الماء، الماء، هو نقطة الخلاف في كثير من المنازعات القبلية.

-: ولكن الماء يمكن حل مشكلته.

: كيف؟

-: بالسقي بالتناوب.

: هذا صحيح، إذا كان الناس قد اتفقوا على شيء معين.

-: أما من هذه الناحية فأنا معك.

: كيف حصل الخلاف بينهم؟

-: أخبرني أحد الرعيان أن أفراداً من القبيلة الوافدة أرادوا سقيا مواشيهم قبل أهل المورد أنفسهم وحصلت المناوشة الأولى قبل بضعة أيام، مما جعل أصحاب المورد يتشددون ويحرصون على الحصول على حصتهم من الماء أولاً وقبل جيرانهم.

: أوه، معهم حق، أكما يقول المثل «خَاطِرْ وْهَيُوْجْ»!!

-: إيه، هذا ما حصل.

: أنظر يا أخي، رِمَّة تتسبب على أمة.

-: تباً للتصرف الطائش.

: بلا شك، هذا تصرف شباب متهور، وإلا لو طلبوهم بالمعروف والمفاهمة لما قصروا في إرواء مواشيهم.

-: بلا شك إن أصحاب المورد أجود من الوافدين.

: الله ربنا وربهم، إن لديهم من المروءة والكرم والإيثار على النفس ما يجعلهم يقدمون مواشي ضيوفهم على مواشيهم.

-: لكنهم لم يأتوهم بالطريقة السليمة.

: إذاً هذا جزاءهم.

-: يستأهلون.

: أريتك لمن كانت الغلبة؟

-: بالطبع لأهل الماء.

: أوه، إن شيخهم عزيز الجانب قوى الشكيمة.

-: أجل، لقد أبعد عن أراضيه كل وافد إليها.

: إلا من جاء بإذنه، فإنه يعزه ويكرمه.

-: ليس هذا بكثير منه.

: نعم، فهو من محتد طيب، والرجال الطيبون في الغالب ينجبون أبناء طيبين مثلهم.

-: إيه، وهكذا «من يشابه أبه فما ظلم».

: ستر الله علينا وعلى الأجواد، فكل إنسان دون حقه.

-: عسى ألا يكون هناك مضرة كبيرة؟

: كما أخبرني الراعي فقد قتل من أفراد القبيلة الوافدة إثنان، أما الكسور والشجاج والرضوض فهي كثيرة.

-: هذا يدل على أن المسألة هوشة.

: أول ما بدأت مضاربة بالعصى، و«القِنِيْ» وأعمدة البيوت ثم استعملت البنادق بعد ذلك.

-: ما نوع بنادقهم.

: أوه، إنها ذات الفتيل الجديدة القوية.

-: ونعم السلاح إذا أمسك بها رام ماهر.

: وكانت ذخيرتها من ملح البارود الحر.

-: متى توقفت المعركة حسب قولهم؟

: لم تتوقف حتى هرب القوم على ظهور خيلهم.

-: هربوا!!

: نعم واقتفى أولئك أثرهم، حتى تعدوا حدودهم.

-: الواقع أن كل الطرفين على غير حق.

: هاه!! لماذا؟

-: المفروض أن يشربوا من الماء جميعاً.

: وهل يتركهم الشيطان كذلك.

-: الشيطان دواؤه الاستعاذة منه.

: إيه، إن النفس لأمارة بالسوء.

في هذه اللحظة إعتدل أحد الرجلين الذين كانا على رأس الأكمة وهو الذي كان يحبذ ألا ينزل المطر على أرض أولئك القوم، فوجدها فرصة ليعبر عما يكنه في صدره حيث قال:

-: ألا تعلمون ماذا قال لي فلان عندما تمنيت ألا ينزل المطر على أرض أولئك القوم؟

: هاه، وماذا قال لك؟

-: حاول أن يخنقني من تلابيب حلقي.

: يخنقك؟

-: إي والله.

: هل أنت صادق فيما تقول أمن التمني؟

-: إي والله.

: لماذا؟

-: لأنهم قوم معتدون.

: كيف؟

-: نعم، ألم تسمع أخبارهم يرويها هذا الرجل؟

: ليست أخبار اعتداء من قبلهم.

-: أجل من قبل مَنْ؟

: أما سمعت سياق الخبر، إنهم المعتدى عليهم.

-: وإن يكن.

: أوه، إنهم يدافعون دون حقوقهم.

-: أية حقوق تعني يا رجل؟

: أليسوا هم أصحاب الماء؟

-: بلى.

: إذاً، هم أصحاب الورد أولاً.

-: أوه، أتنتظر من الآخرين أن يبقوا حتى يحين وقت وردهم في صكة أم عمي!؟

: لا هذا ولا ذاك.

-: كيف؟

: يتفاهموا ويتعاملوا بالمعروف.

-: إنهم قوم لا يفيد فيهم المعروف.

: لقد ظلمت حظك في هذه النقطة.

-: ظلمت حظي!!

: نعم، فهم أهل للمعروف ولكن جاءهم من لا يريد المعروف وإنما يريد الحيف عليهم وهم أناس لا يرضون بالحيف أبداً.

-: إنك تشايعهم.

: إنني أقول الحق يا ابن أخي، والحق لا غبار عليه فعليك أن تتوقف عن الكلام الذي لا طائل منه.

-: تفضل يا ضيفنا للطعام.

: إيه، الحمد لله قطع الكلام بما هو خير منه.

وما إن بدأت الشمس في ارتداء حلتها الذهبية في أصيل ذلك اليوم الشاتي حتى توقف الظعن عن المسير وبدأت ربات البيوت ينصبن على عجل صغار البيوت، وربما شق من البيت، ليستذري به أهل بيتها ليلتهم تلك عن الصقيع وليكون طيه سهلاً في الصباح الباكر، وبعد أن فرغن من ذلك أسرعن لتجميع شيء من الحطب من تلك الأرض المكتسية بشجيرات الرمث الهامد، ولم يضف الليل ستاره على الكون إلا وقد شبت النيران أمام كل بيت أو خُصٍّ، وكان لبريق تلك النيران وبصيصها ورائحة دخانها وقع كبير في نفس ذلك الرجل المسافر على على قدميه متجشماً تلك المسالك الوعرة، قاصداً بلداً آخر على بعد مراحل من بلده، وما إن شم رائحة الدخان حتى اطمأنت نفسه إلى وجود الدفء والعشاء تلك الليلة عند أحد أصحاب هذه البيوت التي بدأت تتبالص نيران أصحابها جوف ظلمة الأفق الحالكة، ولما اقترب منها تشابهت عليه النيران فقال في نفسه، ما هذه النيران الكثيرة المتقاربة في أماكنها وارتفاع سناها؟ ترى أيها نار أمير القوم؟ هاه!! عادة تكون نار أمير القوم أو عقيدهم أكبر النيران، ويكون بيته بارزاً عن بقية البيوت، أما هؤلاء فإن بيوتهم متقاربة، وكأنها نيران من يصيدون الجراد، ولولا أنني أسمع بنباح الكلاب وثغاء الشاء، وحنين الإبل ورغاها لقلت إن هذه نيران خيل إليّ بوجودها. إيه، قد يكونون أناس قد جاءوا لتوهم ونزلوا في وقت متأخر لم يتمكنوا من تشييد بيوتهم كما ينبغي، وقد يكون هذا فريق من العرب الذين لم يتعودوا على ترتيب حيهم كما اعتدنا نحن، إيه، مالي ولكل هذا، المهم أنني أجد الليلة من يؤويني ويذريني عن هذه الهبوب الشمالية القارسية، وأنال عنده وجبة من الطعام كائن من كان، وسأكون ضيفاً على أقرب بيت أصل

إليه من هذا النزل، ها أنا قد وصلته، ولكن الكلاب قد أسرعت نحوي، أتراهم قد أشلوها علي ؟ أوه قد يكـون من بينها عقـوراً يؤذيني في الوقت الـذي ليس معي غير هذا العصى المحـروق رأسه أدافـع به عن نفسي، إيـه، سيعين الله، ولكن من عادة العرب الكرماء ألا تكون كلابهم هرارة للإنسان القادم إلى حيهم، ولا يـوجد الكلب العقور سوى عند الناس البخلاء، أو بعض العجائز الحريصـات، سيعين الله، وسأحل ضيفاً على أهل هذا البيت.

- : السلام عليكم.
: وعليكم السلام، من الطارق في هذا الليل الدامس؟
- : ضيف من ضيوف الله.
: أهلاً وسهلاً بالضيف، تفضل، تفضل.
- : أزادكم الله من فضله.
: تفضل في هذا الخص الصغير.
- : فيه البركة.
: معذرة أيها الضيف الكـريم فنحن قطين عـلى جناح سفـر نزلنـا لتونـا لنمرح ليلتنا هذه ثم نستأنف سفرنا غداً.
- : على بركة الله.
: تفضل اغتبق من هذا اللبن.
- : أغناكم الله من فضله.

وأخذ صاحب البيت طبخة من القهوة وبهـارها من الهيـل وصر كل صنف في طرف من أطراف أردان ثوبه ثم قال:

: حياك الله معي يا ضيف نشـرب القهوة في بيت جـارنا فـإن «المَعَامِيْـل عِنْدُهْ». بينها يجهز عشاءك.
- : أغناك الله، وهل بعد اللبن قهوة؟
: أوه، لا ينتهي تجهيز القهوة إلا وقد انتهت لذة طعم اللبن.
- : أرح ملائكتك يا أخي ودعنا نجلس هنا.
: لا، سنذهب إلى هناك ونجتمع عند عقيدنا مع بقية الرجال.

-: ما دام الأمر كذلك فتوكل على الله.

: وبعد أن أخذ الرجال أماكنهم قال المضيف: هذا ضيفي وقد قدم لتوه من الأرض التي سنذهب إليها.

-: هاه!! من نفس الأرض؟ هكذا قال عقيد القوم.

: نعم، لقد جاء من الأرض التي نريدها، ونود منه أن يسمعنا أخباره.

-: من أين أتيت أيها الضيف الكريم؟

: من الأرض الفلانية.

-: ماذا رأيت في طريقك؟

: عن أي شيء تسألون؟

-: نسأل عن أخبار الأمطار وأعشاب الربيع.

: أوه، الأمطار كثيرة ولله الحمد، والأعشاب قد نبتت بشكل كثيف.

-: بشرك الله بالخير، زدنا تفصيلاً.

: منذ أن مشيت من أهلي وحتى ظهر هذا اليوم وأنا أسير على أرض معشبة وريانة.

-: أي لا يبعد عنا سوى مرحلة بسيطة.

: نعم، لقد وصلتموه.

-: بالفعل في مثل هذا الوقت من يوم غد إن شاء الله سنكون في وسطه.

: عسى الله ألا يعوقكم بشر.

-: وإياك، ولكن أين أطيب مكان مررت عليه؟

: أرض آل فلان.

-: وهل لهم أرض خاصة بهم؟

: نعم، إنها مواطنهم ومراتع أنعامهم.

-: من متى؟

: أوه، منذ زمن بعيد.

-: غريب!!

: لماذا تستغرب؟

-: الذي أعرفه أن الأرض لله.

: لا شك في ذلك، ولكن كما تعلم فإن لكل قبيلة مواطن من الأرض وجدت فيها وربت في جنباتها وامتلكت مناهلها ومواردها وتعتبر في العرف القبلي من أراضيها، ومثلك لا يجهل هذه الأمور.

-: صحيح، ولكن هذا مجرد اعتبار.

: قد يكون هذا عند بعض القبائل، أما هؤلاء فإنهم يختلفون عما تعرف.

-: يختلفون!!

: نعم، وإن أردتم نصيحتي التي أسوقها لكم بالمجان.

-: نعم، نريدها ماذا عندك؟

: أنتم مقبلون على أرض قوم شديدي المراس، لا يقبلون الميل من أحد مهما كانت مكانته، وهم طيبون في نفس الوقت إلى أبعد حد تتصورونه، وربما يزيد عن تصوركم.

-: ما داموا طيبين كما تذكر فيكفينا ذلك منهم.

: طيبون وقت الطيب.

-: وهل للطيب وقت؟

: نعم، إذا أتيت الرجال من وجوههم بالمعروف.

-: كيف؟

: لا أتصور أنك تجهل ذلك، وإنني أرى أن يركب منكم مجموعة من الرجال برئاسة عقيد القوم ويحلون ضيوفاً على رئيسهم ليستأذنوا لكم في الرعي من أرضهم، وبمجرد كلمة واحدة أو إيماءة بسيطة تصدر عنه سترعون في أرضهم كما تريدون مع الالتزام بأحكام الجوار.

-: وإن لم نستأذن منهم؟

: إن لم تستأذنوا منهم ستتعبون.

-: نتعب!! ومن الذي سيتعبنا؟

: ستعرضون لما تعرض له غيركم.

-: ماذا حصل لهم؟

: أوه، لقد ذاقوا الأمرين.

-: الأمرين!؟

: نعم، إلى جانب القتل والطرد.

-: وهل يصل الأمر إلى هذا الحد؟

: وماذا تريد أكثر منه؟

-: أظنك تهول في كلامك؟

: ليس فيه من التهويل شيء، وإنما هو الواقع.

-: لم أسمع قبل ذلك عما تذكر.

: وما يدريكم، فلقد قدمت من أقصى غرب الجزيرة، وإذا لم تصدق كلامي، فعليك أن تسأل غيري، ولكن قبل أن تدخل في أرضهم.

-: لا تكبر الأمر يا رجل.

: لقد قلت لك، عليك أن تذهب من يوم غد مع مجموعة من وجوه قومك وتستأذنوا منهم لتحلوا بجانبهم جيراناً معززين مكرمين ترعى مواشيكم ما ترعى مواشيهم، وهذا لن يكلفكم شيئاً.

-: ولكنه يكلفنا كرامتنا.

: هذا الاعتبار جائز لو كنتم في مواطنكم، أما إذا حللتم في أرض قوم فلا تعتبر إهانة لكم إذا استأذنتم منهم بل على العكس فإن هذا الأمر مما يرفع مقامكم عندهم.

-: يرفع مقامنا!!

: نعم، وينظرون إليكم «بِالْعَيْنْ الْجَلِيْلَهْ».

-: هاه!! أترون ما يقوله ضيفنا حقاً، أيها الرفاق؟ هكذا يوجه العقيد الكلام لرفاقه.

: إن وجهة نظره سليمة من حيث المبدأ أما التفاصيل فتحتاج إلى تداول الرأي فيها على انفراد.

-: يعني أنكم موافقون على هذا الأمر؟

: من حيث المبدأ فهو رأي صائب يدور في إطار العادات والتقاليد العربية.

-: إذا كنتم ترون ذلك فسوف نتبادل الرأي فيه مع الصباح.

: على بركة الله، وموعدنا الغد.

-: عليكم ألا تتهاونوا في هذا الأمر. هكذا عقب الضيف.

: جزاك الله خيراً، فلقد أرشدتنا إلى أمر كنا نجهله قبل أن تهدي علينا رأيك.

-: لا يستغني الإنسان المسلم عن رأي أخيه العربي المسلم فيما يعود بالمصلحة للجميع.

: أحسن الله إليك.

وفي الصباح تم تداول الموضوع ومناقشته من رجال القبيلة حيث قال رئيسهم:

-: ماذا ترون في حديث ضيفنا البارحة؟

: إنه حديث مبالغ فيه.

-: هذا رأيك الخاص يا فلان، وأنت دائماً تتعجل في إبداء رأيك.

: لقد سألتني عن رأيي فأعطيتك إياه.

-: نعم، سألتك الرأي، وهو ضمن آراء هذه المجموعة من الرجال.

: صحيح.

-: ماذا تقولون وليتحدث فلان.

: الواقع أن ما قاله الضيف لا يخلو من الصواب.

-: ما وجهة الصواب فيه؟

: ما يتعلق بالأمور المنطقية.

-: ماذا تقول يا فلان؟

: أقول إنه الصواب بعينه.

-: كيف تقول ذلك؟ هكذا اعترض أول المتحدثين.

: نعم، إنه الصواب فكما يعرف الجميع أن لكل قبيلة نصيبها من هذه الأرض، وهي بمثابة البيت أو المنزل، والله سبحانه وتعالى قال ﴿يا أيها اللذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ وقال: ﴿ولا تدخلوا بيوتاً حتى يؤذن لكم﴾.

-: إيه، ولكن هذه ليست بيوتاً، وإنما هي براري وقفار.

: لكنها بحكم البيوت.

-: إذا كانوا أحاطوها بسور فلا بأس من ذلك.

: لقد أحاطوها بما يشبه السور.

-: هاه!! بماذا؟

: بالشيء المتعارف عليه بين القبائل.

-: إنك على حق يا فلان، هكذا نطق رئيس القوم.

: لم أقل إلا الواقع، إفرض أنهم أتونا في ديارنا ألا يجب أن يستأذنونا قبل أن يحلو بأرضنا؟ أو يشربوا من مواردنا؟

-: بلى، إذاً، فالعاقل خصم نفسه.

: أنكون أذلاء بين الناس؟ هكذا همهم الرجل المعارض بصوته.

-: لا، يا أخي، ليس هذا من باب الذل.

: وماذا تسمونه إذاً؟

-: هذا من باب معرفة الرجل ما له وما عليه من الأمور.

: أوه، لا أدري من أين تأتون بهذه المسميات؟

-: لم نبتدعها من جنونينا، إنما الرجل العاقل إذا اشتبه عليه أمر من الأمور فمن الأولى به أن يضع نفسه مكان خصمه وكيف يتصرف.

: أنا لا أناصر هذا الرأي.

-: إيه، أنت محراث نار.

: أنا محراث نار!! سامحك الله يا أبا فلان.

-: دعنا من هذا، وعليكم أن يتجهز معي إثنان منكم لنذهب إلى الرجال في صبيحة الغد، ونسلم عليهم ثم نتعرف عليهم ونستأذنهم.

: إفرض أنهم لن يسمحوا لكم بالرعي من أراضيهم فماذا أنتم فاعلون؟

-: أنت دائماً تنظر للأمور بمنظار قاتم، وتتوقع الشر قبل الخير.

: لو رفضوا دخولكم في أراضيهم؟

-: لدينا من الحلول ما يجعلنا نصل إلى الهدف الذي نريد.

: إيه، ستعودون مثلما ذهبتم.

-: «إقْطَعْ وإخْسْ» ولا ترد كلمة واحدة.

وفي اليوم الثاني تحرك رئيس القوم، ومعه إثنان من كبار فريقه متجهين إلى

هدفهم، وعندما وصلوا إلى رئيس القوم، أناخوا مطيهم عند بيته، فاستقبلهم بالبشاشة والترحيب كضيوف عاديين قبل أن يعرفهم، وعندما عرفوه بأنفسهم زاد في عبارات الترحيب وبالغ في الاستعداد لإكرامهم، وعندما أخذ كل مجلسه في «رُفَّةِ الْبَيْت» قال الضيف:

-: لقد أتيناكم يا أبا فلان للسلام عليكم نظراً لما تقتضيه عادات حسن الجوار.

: الجوار!!

-: نعم، لقد أصبحنا جيراناً لكم وغير بعيدين عنكم.

: أهلاً وسهلاً، بكم بعدد خطى مطيكم إلينا.

-: بارك الله فيكم.

: متى أصبحتم جيراناً لنا؟

-: كما تعرف يا أبا فلان أن ديارنا بعيدة بعض الشيء عنكم ولكنه قد تأخر عنها المطر وتأثر حلالنا، فانحدرنا إليكم مفيضين هذا الوادي حتى أصبحنا غير بعيدين عنكم.

: أهلاً، ومرحباً بكم، أين نزلتم؟

-: لقد نزلنا في أعلى هذا الشعيب، وعندما علمنا بوجودكم هنا رغبنا في السلام عليكم.

: حياكم الله إخوة أعزاء، وهل نستحق من يشد الركاب إلينا؟

-: أوه، تستحقون أكثر من ذلك، فلقد سمعنا بأخباركم التي يتناقلها الركبان منذ زمن ليس بالقريب.

: ستر الله الحال يا ابن الأجواد.

-: لن يذيع صيت أحد إلا بفعل يظهر للعيان، من شجاعة وكرم ومروءة ونجدة ونخوة وبذل للمعروف تذكره الرجال للرجال.

: يالله سترك، وأستار من خلقك.

-: ولما جئنا بجواركم أحب جيرانكم أن يستأذنوكم في الجوار، إذ ربما سرحت قطعانهم في أطراف أراضيكم، لا مزاحمة لمواشيكم وإنما للإستفادة من خضرة هذا الربيع.

: أهلاً وسهلاً بكم، ضيوفاً أعزاء، حتى لو رعت قطعانكم بوسط أراضينا وبين قطعاننا، ولكم علينا حق الجوار الكامل من هذا المجلس.

-: كثر الله خيركم، وقد يمتد بنا الوقت حتى فصل الصيف فنحتاج إلى إيراد مواشينا من مناهلكم ومياهكم.

: على الرحب والسعة، وستشربون مثلما نشرب.

-: هذه هي «المَقْوَة» فيكم.

: وستجدون إن شاء الله فوق ما توقعتم.

-: كثر الله خيركم وشكر فضلكم.

: الفضل لله منشي السحاب وكاسي هذه الأراضي بالخضرة بعد الإجداب.

-: له الفضل والثناء.

: ألا تعلم يا أبا فلان أن هذه الأرض كانت قبل شهر أرضاً حمراء لا يوجد فيها غير الشجيرات الصيفية والآن كما تراها وكأنها مغطاة بثوب من السندس الأخضر.

-: هذه أعطيات من ربنا الجواد الكريم.

: جل شأنه المعطي المانع.

-: قبل سنتين حدث في أرضنا جدب وكاد أن يذهب بالخف والضلف لولا أن الله لطف بعباده ورحمهم بمِدَّةٍ من مداته الجزلة.

: هاه، كيف حدث ذلك؟

-: لقد وصل الناس إلى قرب ترك مواشيهم في البراري يائسين من حياتها، ولكن ربي جل شأنه ليس من رحمته يأس فبين عشية وضحاها توالت الأمطار لمدة أسبوع كامل لم تطلع الشمس فيه إلا وقد أعشبت الأرض وأورق الشجر ورجعت الحياة إلى الناس وانتعشت مواشيهم.

: فرج الله قريب يا ابن أخي.

-: نستأذنكم في العودة إلى أهلنا.

: لا بأس من ذلك، ولكن بعد أن تأكلوا «ذبائحكم».

-: هاه!! وهل أعددتم لنا غداء؟

: هذا جزء بسيط من واجبكم علينا سوف نستكمله عندما تجاوروننا بالفعل إن

شاء الله.

-: كثر الله خيركم، ففي النهار ووقت الربيع بالذات يكتفي الضيف باللبن.

: هذا زيادة على اللبن.

-: خلف الله عليكم.

: إنني أرى ألا تتأخروا في مسيركم، وعليكم بالنزول في الفيضة الفلانية، لقد ذكروها لنا أنها من أطيب المراعي.

-: لا حرمنا الله وجودكم.

وما كاد هؤلاء الركب يغادرون الحي حتى جاء النذير من مكان آخر مخبراً أن هناك عدد من فروع إحدى القبائل، قادمون للنزول داخل أرض هؤلاء القوم دون إذن منهم، وبعد التأكد من الخبر، نادى المنادى في الحي وتجمع الرجال وعند استماعهم للخبر وتداول الرأي فيما بينهم أمرهم عقيدهم بالاستعداد لملاقات تلك الجموع، وللتأكد من الأمر سأل العقيد ذلك الذي نقل الخبر قائلاً:

-: من هم أولئك القوم القادمون؟

: هي قبيلة آل فلان بفروعها الستة.

-: ماذا سمعت من أخبارهم.

: لقد كنت في بيت الرئيس الذي «يَكُفُّهُمْ» جميعاً وهو ابن فلان وذلك قبل ليلتين، وكل ما سمعت منهم أنهم عازمون على النزول في أرضنا.

-: ألم تسمع منهم أنهم سيستأذنون منا؟

: لم يطرق مسمعي كلام من هذا القبيل غير أن العزاوي والنخاوي هي التي ترد على ألسنتهم.

-: هاه!! نخاوي وعزاوي على مَنْ؟

: كل يعتزي بأخته وابنه وأبيه، وينتخي بأفعاله.

-: أوه، ليبحثوا عن غيرنا، لسنا ممن يقرقع عليهم بالشنان.

: ألا ترى يا أبا فلان أن نرسل لهم من ينذرهم؟

-: أبداً، سوف نصبحهم غداً ما داموا في أرضنا، فلو كانوا من الرجال الذين يفهمون ويقدرون مواقف الرجال لأرسلوا من يستأذن لهم مثل الآخرين.

: قد يكونون على جهل بالأمر.

-: الجاهل يعلمه هذا السيف.

: وللعقل مكانه يا أبا فلان!!

-: لمن يعقل فقط، أما مثل هؤلاء فليس لهم غير ما طرق الحداد.

: وهل دخلوا أرضنا؟

-: نعم، لقد دخلوها، أخبرهم يا فلان.

: لقد انتشرت أنعامهم يوم أمس في بطين الجبل الفلاني وانصبت على الفيضة الفلانية.

-: وتريدنا أن نسكت؟

: لم أقل هذا.

-: أجل عليكم أن تتجهزوا من الآن ونسري هذه الليلة، حيث نصلي صلاة الصبح في الوادي الفلاني ونصبحهم قبل طلوع الشمس.

: هذا هو الرأي.

-: لا يبق أحد من الفرسان إلا وسار من الآن، أما الزماميل فاليلحقوا بنا حالما يجهزوا أحمالهم.

: إننا حاضرون ومستعدون.

وسار المدافعون من ليلتهم فوصلوا إلى النقطة المتفق عليها، وبعد صلاة الصبح أغارت الخيل مباغتة أحياء تلك القبيلة الواحد تلو الآخر، وعبث الفرسان المغيرون بالنزل على حين غرة منهم، ولم يتمكن فرسان هذه القبيلة المهاجمة من صد غارات المغيرين، ودبت الفوضى في المواشي من الإبل والأغنام، فأحدثت إرباكاً للمدافعين، حيث سقط في هذه الغارة عدد من القتلى وعلى رأسهم شيخ القبيلة وعدد من فرسانهم، وتمكن المغيرون من طرد فروع تلك القبيلة إلى خارج ما يعتبرونه أراضيهم بعد أن عبثوا في مواشيهم ونهبوا أمتعتهم وعاد أصحاب الأرض بغنائم ممن اعتبروهم معتدين على أرضهم، وبعد أن تجمع شمل المنهزمين على مسافة بعيدة عن مكان الحادث التم الرجال في بيت أميرهم ليختاروا من بينهم خلفاً لزعيمهم الذي قتل يوم أمس، ثم ليعيدوا الكرة على خصومهم، للثأر

لأنفسهم، فقال من اختاروه عقيداً لهم:

-: والله لن تذهب هذه الغارة باردة مبردة.

: فانبرى أحدهم قائلاً: والله لن نسكت على الضيم.

-: عليكم بإعداد العدة من الآن وسوف نطاردهم في عقر دارهم حتى ننتزع ما أخذوه منا بالأمس.

: لن نكتفي بذلك، والله لسوف نكيل لهم الصاع صاعين، ولن نرضى بأقل من ذلك.

-: من يرضى بأقل من هذا فليس منا.

: أجل، أجل أيها الأمير.

-: ماذا بقي لديكم من الخيل، ومن بقي من الفرسان؟

: أوه، لدينا من الخيل أعداداً كبيرة أما الخيالة فإنهم كثر كذلك.

-: إذاً عليكم بتجهيزهم، وليكن ذلك في أسرع وقت ممكن.

: متى تريدهم؟

-: بعد يومين أو ثلاثة.

: ألا ترى أن نصبر حتى تبرأ جروح بعض الفرسان؟

-: سنباغتهم مثلما فاجأونا بغارتهم.

: ما هي المدة التي تراها كافية.

-: خمسة أيام على أكثر تقدير.

وبينما هذا النقاش الحماسي الجامح يدور إذ بأحد الشيوخ ساهماً يخطط الأرض بعصاه فقال:

-: على رسلكم على هونكم أيها الرجال.

: ماذا عندك يا أبا فلان؟

-: هذا الأمر الذي تتحدثون عنه.

: ماذا به؟

-: لا شيء، لا شيء، غير أن لي وجهة نظر فيه.

: ما هي؟

-: لا أستطيع أن أفصح عنها وأنت في هذا الاندفاع.

: ماذا ترى أن نفعل؟ إننا محرورون.

-: إنني أشعر بذلك، ولكن ألا ترون أن تتريثوا حتى يبدأ المكلوم من فرسانكم.

: أوه، لماذا؟

-: حتى تبرد الحديدة!!

: ماذا تعني يا أبا فلان؟

-: أعني أن عدداً من فرسانكم الآن يعانون من آلام الجراح، ولن يستطيعوا مشاركتكم.

: إن لدينا من الفرسان من يسدون ثغرتهم.

-: لا أظن ذلك، بدون انتقاص في حقهم.

: فيهم البركة.

-: تقول ذلك بحماس الزعيم الجديد الذي يريد أن يثبت وجوده في أبناء عشيرته.

: أوه، يا أبا فلان، ألست أهلاً لذلك.

-: بلى، بلى، يابني ولكني أريدك أن تتريث ولا تكن كسلفك رحمه الله إذا ركب رأسه وصمم على أمر لا يثنيه أحد عما عزم عليه وإن كان خطأً.

: وهل ارتكب فلان خطأً؟

-: نعم، وكان آخر أخطائه ما لقي حتفه فيه.

: ماذا تقول؟

-: أقول إن نزولنا في المكان الذي حدث لنا فيه ما حدث هو من جملة أخطائه، وإلا لكنا في غنى عما حدث لنا ولكن الحمد لله على ماقدر.

: أتعتقد أن نزولنا في هذا الجزء من البر خطأ؟

-: نعم، لم يكن اعتقاداً مني بذلك فقط، فقد صحت عليه «بْقُبَّةْ» راسي.

: هل سبق أن نصحته؟

-: لقد طلبت إليه ألا نحل بأرض أولئك القوم حتى نستأذنهم بحكم العادات والتقاليد العربية.

: وماذا قال لك؟

-: لقد رفض رأيي واستهزأ بمنطقي.

: وماذا فعلت إذاً؟

-: لقد حذرته من مغبة ركوبه رأسه وتوقعت ما حدث بالضبط، والآن تريد إعادة الكرة مرة أخرى لتضيف إلى من قتل من فرسانكم أعداداً جديدة وتزيد من عدد الجرحى الذين يعالجون في البيوت الآن؟

: هاه!!

-: نعم، أقول من الأفضل أن تتريثوا بعض الوقت حتى نرى ما لا نكره، أو يفرجها الله من عنده، بإنزال الغيث على أماكن أخرى لنذهب إليها.

: نذهب إليها!!

-: نعم، ولماذا الاستغراب؟

: نذهب ونترك ثاراتنا!!

-: أنتم المعتدون.

: هاه!! ليت هذه الكلمة سمعتها من غيرك.

-: لو كانت من غيري لسمعت أشنع منها.

: كيف نرحل ونترك ثاراتنا؟

-: لا أقول تتركونها بالمرة، ولكن تؤجلونها إلى وقت آخر.

: أوه، إن نفسك طويل يا عم، لا أفضل من الشيء بحرته.

-: إيه، إن نَفَسَكَ في رأس حنجرتك!! لا لوم عليك في ذلك لأنك حديث عهد بقيادة الرجال.

: لقد سمعت منك كلمات جرحت شعوري.

-: إيه، جرح الشعور أخف من جرح الصدور.

: ماذا تعني؟

-: أعني أن كلمة أو رأي قد يخدش كرامتك من رجل يحس بما تحس به أهون عليك من فقد عدد كبير من فرسانك، وقد يصل الأمر إلى نفسك.

: ألا تعلم أنني لا أهاب الموت؟

-: أدري، أدري يا بني!!

: لماذا تعترض عليَّ؟

-: لأنني ضنين بك، سيما وأنك ستناطح جبلاً؟

: ماذا تقصد؟

-: أعني إنكم ستغيرون على أناس قد ترسوا لكم في بيوتهم المبنية على أرضهم، وستكونون طعماً لسيوف فرسانهم التي ستنقض عليكم سِرَباً متتالية من كل حدب وصوب.

: سيلاقي الفرسان فرسان مثلهم وربما أفضل منهم.

-: كل واحد يرى في نفسه ما يرى لكن هناك فرق بين المدافعين والمهاجمين سيما إذا كان المدافعون قد أخذوا الحيطة والحذر وحسبوا لكل شيء حسابه.

: ومن قال إنهم سيأخذون حذرهم.

-: أوه، الرجال لا يحتقرون يا بني.

: ليس في الأمر احتقار.

-: إنني أعني أنهم الآن برغم هزيمتهم لكم فإنهم يرصدون حركاتكم وسكناتكم.

: إيه، العاجز مثلك يدعي علم الغيب!!

-: لا تتهمني بالعجز يا بني، وإنما هي الحقيقة فوالله لو أمعنت النظر لوجدت عيونهم في هذه الجبال التي ترعى بها سوارحكم وربما اندست من بين الضيوف الذين يفدون إليكم كل ليلة.

: هاه!!

-: إذا تريدون رأيي فعليكم بالتريث بعض الوقت أو تطلبون الصلح معهم.

: الصلح!!

-: نعم، وماذا في ذلك؟

: صلح مع أعدائنا!!

-: أما الأصدقاء فلا يحتاجون إلى ذلك.

: ومن هم حتى نطلب الصلح منهم؟

-: ليكونوا من يكونوا!! ألا تعرف أن هذا فائز بن هذيل الذي لا يتجرأ أحد أن يطأ بحقه من الأرض إلا بإذنه؟

: مهما يكن، فنحن نرى في أنفسنا ما يراه في نفسه.

-: أوه، هناك فرق بين الرؤية والواقع يا بني.

: لا تحدثني عن هذا الرجل.

-: سأحدثك بملء فمي كما حدثت سلفك، وليشهد على حديثنا هؤلاء الصفوة من رجال قبيلتنا.

: هات ما عندك!! يقولها بجرورة ثقيلة.

-: لقد تناقلت الأخبار الشيء الكثير عن منعة هذا الرجل وصرامته، وقوة شكيمته، وسماحته ونداه.

: لقد جمع بين الضدين معاً!!

-: نعم، فإذا أُتِيَ من الوجه الصحيح فهو طيب وكريم، أما إذا جيء إليه في غير ذلك فيمكن أن يلاقي الأمرين.

: أوه، لقد أعطيته أكثر مما يستحق.

-: ومن قال لك وذلك.

: إنني أعرفه.

-: بل قل أجهله!! ألا تعلم أنه لا أحد يطأ بأرضه إلا بإذنه؟

: والله لو كان كليب وائل!!

-: كل إنسان كليب وائل في أرضه، ولكن من الأفضل ألا تستعجلوا في أمركم هذا حتى تتدبروا الوضع على غير ما عزمتم عليه، ولن يندم من تريث، وإلا . . .

: وإلا ماذا؟

-: وإلا فإنني محذركم من نكسة قد يكون ضحيتها صفوة فرسانكم هؤلاء وتبقون ضعفاء أذلاء بين أحياء العرب من أجل تحقيق نزوة متسرعة، هذا رأيي وتصبحون على خير.

وعاد المجلس إلى الحديث فقال أحدهم:

: ماذا تقولون برأي هذا العود؟

-: إنه محق ببعض ما يقول.

: بل بكثير مما ذكر.

-: وأنا أقول إنه محق بكل كلامه وإن كان لا يعجب الأمير.

: إذاً نتريث بعض الوقت حتى نرى ما لا نكره بهذه الكلمات.

أنهى الأمير الجلسة.

وهكذا استمر موطن هذا الفرع من القبيلة المشهورة بعيد المنال على من أراده عنوة، ردحاً من الزمن، وذلك بفضل الله ثم بقوة الرجال، وصرامة رئيسهم وعدم تهاونه بأية صغيرة فضلاً عن أن يترك الكبيرة، لكن الأيام لا تدوم على حال لكائن من كان وذلك بعد أن دب الخلاف بينه وبين بعض رجال قبيلته مما حدا به أن يتجه إلى شبه الجزيرة الفراتية في غيبة قد تكون احتجاجاً منه على بعض تصرفاتهم التي لم ترضه، وامتدت غيبته هناك ما زاد على بضعة أشهر فندم بعض رجال عشيرته على فقده بينهم، كما ارتاح الطرف المعارض له، مما يعتبرونه كابوساً ضاغطاً عليهم أثناء تواجده بينهم، لكن النادمين كانوا أكثر من المرتاحين، ولا سيما بعد أن رأوا بعض القبائل تحيط بأرضهم وهم من القبائل الضعيفة الذين لم يكونوا يفكرون في يوم من الأيام بالاقتراب منها، عندما كان الشيخ فائز بينهم، ولذلك تجمّعوا لتداول الرأي فيما بينهم، وقرروا أن يتجه إليه وفد منهم يطلب منه العودة إلى أهله، وزيارة قبيلته، وعندما سار الركب متوجهين إلى هدفهم وعلى مقربة من البيوت استوقفتهم تلك المرأة ذات القوام المشوق وهي تقول:

-: أيها الركب، إن لدي وصية للشيخ فائز فمن منكم سيوصلها له؟

: فتسابقت الأفواه، وكل واحد يقول أنا أوصلها فما هي؟

-: إنها وصية ثمينة وتحتاج إلى من يعتني بها.

: أوصينا بما تريدين يا ابنة العم، وسوف نوصلها إليه.

-: إذا جئتم الشيخ فأبلغوه السلام وقولوا له هذه الأبيات:

٢٥٦ قَالَتْ مْرِيفَةْ يَا مَلَالَيْه مَا شِيْبْ ... وَالشَّيْبَ أَنَا اشُوْفَهْ عَلَى جِذْلِتِي لَاحْ

٢٥٧ يَا فَايِزْ بْنَ هْذَيْلٍ يَا غَيْبَةْ الذِّيْبْ ... وَالطَّيْرِ يَا وَكْرْ عَلَى مَرْقِبٍ طَاحْ

٢٥٨ يَنْخَاكْ سَقْفٍ يَا نْحَازْا لَا جَانِيْبْ ... وَرْدْ عَلَيْهَ مْنَ الشُّعَبْ كِلْ مِصْلَاحْ

: أبشري بمن يوصل إليه وصيتك، فهل هناك غيرها؟

-: أبداً، إذا أوصلتم هذه إليه فهو ما أريده.

: ستصله إن شاء الله.

-: هل حفظتموها جيداً؟

: لقد حفظها كل منا.

-: إذاً، سهل الله دربكم وساعدكم على مسافة الطريق.

: يا لها من إمرأة تحس بما نحس به!!

-: قد يكون إحساسها أقوى من إحساس بعضنا.

: ليت ما في قلبها من الإحساس يوزع على بعض قومنا، الذين يعدون غيبته عنا غنيمة لهم وراحة لأنفسهم.

-: إيه، أولئك القوم الذين لا يسدون فرجته.

: لم يسدوا مكانه ولم يسلم الناس من شرهم، ألم تسمع كلامهم يوم أمس في الجلسة، لولا أن فلاناً لدمهم حتى سكتوا؟

-: إيه، مثل هؤلاء ينطبق عليهم المثل القائل «يْقَاقِيْ وَلا يْلَاقِيْ».

: ولكن ألا ترون أن الأبيات رغم قلتها فهي قوية المعنى.

-: وشديدة التأثير.

: وفيها استثارة لحميته.

-: إنها تريده أن يأتي على جناح طائر.

: أوه، إنه لا يحتاج لهذه الدرجة من الاستنهاض.

-: بالفعل إنه سيأتي بأقل إشارة.

: قد لا يحدث ذلك منه.

-: لماذا؟

: لو كان كما ذكرت لم يمكث كل هذه المدة.

-: لا تنسى أن في نفسه ما فيها على أولئك الفئة من قومنا ولم يرد أن يرجع حتى يأتيه من يدعوه إلى العودة.

: ها نحن قد أتينا إليه.

-: لم نصل إليه بعد، ولم يعلم بقدومنا.

: بل إنه لم يعلم لما جرى لأراضي قومه من بعده، وإلا لعاد بأسرع من لمح البرق.

-: وما يدريك، أيرضى بوجاهتنا أم لا؟
: لن يردنا خائبين.
-: نعم، هذا أبا فلان، ألا تعرفه؟
: بلى، بلى، ولكن يا مقلب القلوب والأبصار.
-: ذاك الرجل لا يمكن أن يتغير.
: وما يدريك؟
-: إنني جازم أن قلبه وتفكيره وإحساسه موجود بين هذه الهضاب الحمر والجبال والحزوم السمر.
: أوه، ذلك كان بالأمس أما اليوم فقد امتلأت أضلاعه من خيرات الجزيرة الفراتية، ومن أرزاق الشطوط ولم يفكر في هذه الجبال وغثاها.
-: إن أبا فلان ليس من هذا الصنف الذي تذكر، ليس ممن إذا شبع نسي ما وراءه، إنه كالحر النادر من الصقور، يقتنع بملء منقاره مما يصيد في مخلبه على أن ينزل على رؤس شماريخ الجبال.
: حقاً ما يقوله فلان إنه لا يهتم إلا بالمكانة المرموقة يتصدر مجلس الرجال وله الكلمة الأولى والأخيرة فيه.
-: هذه الخصلة هي التي أوغرت عليه بعض الصدور، وتكالب البعض ضده.
: في الواقع أنه حاد الطبع عصبي المزاج، إذا قال قولاً فلا أحد يستطيع معارضته.
-: ولكن من حسن حظه أن آراءه تأتي صائبة في الغالب.
: وفيه خصلة حميدة أيضاً، وهي سرعته الخارقة في إغاثة المستجير به، ونداء الملهوف الطالب لمساعدته.
-: إنه يرمي بنفسه حتى لو كان بالنار.
: هذا ما يجعلني أفكر في هذا الأمر.
-: أي أمر تقصد؟
: أمر هذه القصيدة التي معنا.
-: تعني الأبيات!!
: نعم، إنها مليئة بالصرخات.

-: وصادرة عن إمرأة!!

: كيف سنوصلها إليه؟

-: ماذا تتوقع أن يفعل بعد أن يسمعها؟

: إن لم يتغير الرجل فسيقوم من مجلسه ويعد العدة للعودة إلى وطنه في الحال.

-: إيه، ولكن متى نصل إليه؟

: لقد قطعنا نصف الطريق بعد مضي خمسة عشر ليلة.

-: لقد بلغنا الجزء الخطر من الطريق.

: خطر!!

-: نعم، إنه مليء بقطاع الطرق.

: وماذا يريدون منا؟

-: ماذا يريدون!! الا ترى أن هذه الركائب مغرية لبعض ضعاف النفوس؟

: لا أظن ذلك.

-: عليكم بالانتباه التام والاحتراز من أولئك المجرمين.

: سيعين الله على من جاءنا عادياً.

-: لو كان الأمر وجهاً لوجه لما همنا أمرهم.

: هاه!!

-: إنني أخشى أن يكمنوا لنا في أحد مثاني الطريق ثم نؤخذ على حين غرة.

: أنؤخذ والسلاح بأيدينا؟

-: لا تقل هذا واطلب من الله الستر والعافية.

: إيـه، الحمد لله لقـد قطعنـا جزءاً كبيـراً من المسافـة وها نحن عـلى شط النهر سنعبره إن شاء الله هذه الليلة ولن يبقى بيننا وبينه بعد ذلك سوى يومين.

-: ولكن الخوف ممن وراء النهر.

: إن الذي ستر علينا طول هـذه المسافـة، نرجـوه أن يستر علينـا حتى نصل إلى هدفنا.

-: إيه، الحمد لله، لقد قطعنا النهر وهذه ركابنا معنا.

: ما دمنا قد وصلنا إلى هنا، دعونـا نستريـح الليلة، حتى يصبح الصبـاح لنرى طريقنا، إننا لا نعرف هذه الأرض.

ونام الركب بانتظار الصباح، وحدث ما كانـوا متخوفـين منه، حيث داهمتهم مجموعة من قطاع الطرق وهم نيام وسلبوهم ركابهم، وعندما أرادوا استردادها من أولئك اللصوص قتـل إثنان منهم وأصيب الثـالث بإصـابات بـالغـة بعـد أن لاذ مرتكبوا الجريمة بالفرار ومعهم الـركاب والأسلحـة تاركـين جثث القتلى والمصـاب يتخبط بدمه لا يستطيع حراكاً، حتى مر ركب طلب منهم أن يدفنـوا صحبه ففعلوا ونقلوه معهم إلى أهلهم، وبـدأ أحدهم بعـلاجه لكن الجـراح قد تمكنت منـه، ولم يمض وقت طويل حتى لحق بصحبه، وقبل أن ينتقل إلى جوار ربه قال لمن مرضه.

-: أيها المضياف الكريم، إن لدي وصية أريد أن توصلها إلى صاحبها.

: وصية!!

-: نعم، إنها وصية بسيطة وهي أمانة في عنقي.

: ما هي وصيتك، ومن صاحبها؟

-: وصيتي هذه الأبيات أريد منك أن توصلها إلى فائز بن هذيل.

: أين يوجد؟

-: يوجد في المكان المسمى بنقرة أيوب.

: أعرفها.

-: إذاً هـذه المقطوعـة أرجو أن تـوصلها إليه وهي أمانـة من عنقي إلى عنقك، وتخبره بمجيئنا إليه أنا وصاحباي فلان وفلان وما حدث لنا.

: أبشر، أبشر.

-: وأرجوك أن تنقلها إليه عندما يكون هادئاً.

: هادئاً!!

-: نعم إنه شيخ قبيلته وحاد الطبع.

: طيب، طيب.

-: وإياك إن سألك عن أمر من الأمور أن تعارضه في الرأي.

: هاه، وماذ سيفعل بي؟

-: قد يقسو عليك، فكل شيء يسألك عنـه حاول اجتنـاب كلمة لا في حـديثك معه.

: أبشر، ولو أنه رجل خطر في هذه الحالة.

-: خطورته عند من يعاكسه، أما أنت فعليك أن توصل هذه الأبيات إليه وتتصرف من عنده.

: من أجل خاطرك، ووفاء بحقك علينا كمريض عندنا وضيف علينا سوف أوصله رسالتك.

-: جزاك الله خير الجزاء.

: هذا حق وواجب علينا قضاؤه.

-: أستودعك الله. وفاضت روحه.

: إنها لمهمة صعبة أن أذهب بنفسي للبحث عن رجل قد يكون حتفي على يده!!

إيه ولكنها الأمانة التي تحملتها على عاتقي سأفي بها حتى ولو كان ثمنها حياتي ما دام الرجل قد وضعها في عنقي.

ويسرع الرجل في اليوم الثاني باحثاً عن صاحب الأمانة ويصل إليه بعد ثلاثة أيام، حيث وجده متكئاً على شداد مطيته في «رفة» بيته، وحوله مجموعة من الرجال في أصيل ذلك اليوم الربيعي، وبعد أن سلم عليهم أخذ القادم مجلسه لتناول فنجاناً من القهوة ثم قال:

-: هل جنابكم الشيخ فايز؟

: نعم!! إنه أنا على الخير والشر.

-: خيراً إن شا الله أيها الشيخ.

: هاه، ماذا عندك؟

-: لقد حملت وصية لك وجئت لأبلغك إياها.

: وصية!! مِمَّنْ؟

-: من رجل هو ثالث ثلاثة وجدناه يعاني من جراحه بعد أن قتل صاحبيه وسلب ما معهم، وهم قادمون من نجد وأسماؤهم فلان وفلان وفلان.

: ومن سلبهم وقتلهم؟

-: لا ندري، قد يكونون قطاع طرق.

: قطاع طرق!! وأين الناجي.

-: لقد فارق الحياة هو الآخر.

: متى؟

-: منذ ثلاثة أيام.

: وهل أنت متأكد من أنهم من نجد وبنفس الأسماء؟

-: هذا ما نقله إليّ الجريح منهم وكانوا مرسلين لكم من رفاقكم.

: هاه!! لا بد أن هناك في الأمر شيء؟

-: قد يكون، وإليك الوصية.

: هات ما عندك بسرعة.

-: لقد حملني هذه الأبيات وأتى بها.

: هاه!! أعدها علي.

-: هذه هي.

: «أنا أخو فلانه»!! لا بد أن يكون قد أصابهم أمر جلل أثناء غيابي، وأطرق واضعاً غزالة الشداد بين حاجبيه لفترة وجيزة ثم رفع رأسه وقال:

٢٥٩ وِشْ هَقْوتَكْ مَدَّادْ مِنْ نِقْرَةْ أَيُّوبْ   يَا لـرَّبِعْ مَا يِمْسِيْ حَـوَالْ الغَـزَالَـةْ

فأطبق الصمت على من بالمجلس عدا هذا الضيف الذي تكلم انطلاقاً مما فهم بقوله:

-: بلى، بلى، أيها الأمير ستمسي في ذلك المكان.

ورشقته أسهم الإستنكار والاستغراب من عيون من يعرفون الطريق وبعده عن هذا المكان دون أن ينبس أحد منهم بكلمة واحدة.

عاود الضيف الكلام مرة أخرى موجهاً سؤاله للشيخ:

-: وما هي مطيتك؟

: آه..

٢٦٠ فَوْقَ أَشْقِرٍ سَمْحَ الذِّرَاعَيْنْ مَرْغُوبْ   أَسْـرَعْ مْنَ الشَّيْهَانْ مِعْلِفْ غَيَالَـةْ

-: أوه، ستصل إلى هدفك بلا شك.

سرح الشيخ نظره في وجوه الحاضرين ليرى مختلف التعبيرات المتضاربة على وجوههم، بينما هو يعرف المسافة تماماً ولكنه أراد معرفة ما يدور بخلدهم لذلك

وجه السؤال إليهم بعد أن سمع كلمات الأمل المبنية على الخيال فقال:

: أترونه صادقاً فيما يقول؟

-: رد عليه أحدهم قائلاً «لَا وَابْعَيْنِيْ» يا أبا فلان.

: هاه!!

-: نعم، يا ما دونها من الزيازي والقفار البعيدة.

: إيه، ثم وضع رأسه على الشداد مرة ثانية وكأنه يريد أن يكمل القصيدة، وطال وضعه لرأسه أكثر من المرة السابقة وعندما اقترب منه أصحابه وجدوه قد فارق الحياة.

-: يا للهول!! لقد مات الشيخ، لقد مات!!

: أسرعوا، أسرعوا، أسرعوا أعطونا ماءاً بارداً لنرشه عليه.

-: لقد فارق الحياة.

: لا يوجد فيه أي نبض.

-: رشوه بالماء البارد.

: لقد سبحناه فيه فقد سكبنا عليه كامل القربة، ولكن ليست القضية قضية ماء، لقد مات.

-: مات!! رحمك الله يا أبا فلان.

: لو علمت أن هذه الوصية ستقتله لما جئت بها.

-: لقد قتلته بقصيدتك.

: ليست قصيدة لي أيها الرفاق، إنها قصيدة لواحدة من نسائكم قد حملتها مع أحد رجالكم الذي تركها عندي وصية ووضعها أمانة في عنقي أن أوصلها إلى صاحبها ووفاء بالعهد فقد أوصلت الرسالة.

-: لو احتفظت بها بعض الوقت حتى يأتي الظرف المناسب لإبلاغها له.

: لم أعلم أنه سيحدث له ما حدث.

-: إيه، إنك لا تعرف طباعه.

: لا والله!!

-: ألا تعرف إنه من فئة من الرجال لها وضعها الخاص.

: وضعها الخاص!!

-: نعم، إنهم لا يتحملون الضيم.

: لقد ألمح لي صاحبكم عن بعض هذه الخلائق.

-: أما سمعت شاعرهم؟

: ماذا قال؟

-: لقد قال:

٢٦١ أَنَـا شَـمَّـرِيْ مِـنْ عِـقْـبَـانْ ذَيْـم   نِـقَـازٍ مَـا يْـدَانُـوْنَ الْـهُـضُـوْمْ

٢٦٢ لْـيَـارِكِبْنَـا نْـسَـمِّيْ بَـالـرَّجِـيْـمْ   لِـمِـيـعْ اطْـيَـا سَـنَـا مِـثْـلَ الـنُّـجُـومْ

: لا والله لم أسمع بمثل هذا الكلام.

-: إيه، الحمد لله على ما قدر من السراء والضراء، ولولا أنـك رسول وصـاحب أمانة، وضيف علينا لقتلناك.

: تقتلونني!!

-: نعم، لقد قتلت شيخنا.

: إنني لم أقتله، وإنما قتلته أبيات تلك المرأة التي استنجدت به ولم يستطع تحقيق مطلبها.

-: ولكنك كنت السبب المباشر.

: لو علمت بما سيحدث لما جئت إلى هنا.

-: ونحن لو علمنا بما لديك لما سمحنا لك بإبلاغه إياه إلا في وقت مناسب.

ولكن قدر الله وما شاء فعل، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

القصة رقم (١٥)



رأي ثاقب

مع جلية أنعام الفريق بين ثغاء الشاء، وحنين ورغاء الابل قبيل طلوع الشمس بقليل، دوى صوت البشير الذي زف إلى أهل الحي خبر انتصار أمير القوم ورفاقه في غزوتهم على خصومهم وفوزهم بغنيمة كبيرة من الإبل والخيل، وكان لهذا الخبر وقعه الكبير في النفوس مما جعل الصبايا يتراقصن وكل واحدة منهن تطري أباها أو أخاها ببيت من القصيد أو عزوة محببة إلى نفسه وهو يعتزى بها دائماً، بينما أنظار النساء ترمق حافة الأفق التي جاء منها البشير وهي تتمنى في نفسها أن ترى زوجها، وما حصل عليه من تلك الغنيمة، مفضلة أن يكون من بينها إما جملاً أو ضحاً أو ناقة حمراء عله يهب لها ذلك الجمل كهدية من غزوته تلك، أما الرجال فقد التفوا حول البشير، وعيونهم محدقة فيه، يسألونه بنهم وحرص عن تفاصيل ما حدث بين أميرهم ومن معه في المعركة مع خصومهم، ولما كان البشير لا يريد الاجابة على جميع أسئلة الحضور، لكثرتها ولتجانسها فقد قال:

-: أهم شيء أنقله إليكم هي البشارة، أما تفاصيل ما حدث فيمكنكم أن تسألون فيه الأمير عند عودته.

: أخبرنا بذلك قبل أن يحضر الأمير.

-: دعوه يرويها لكم، إنها من فمه أشد وقعاً وكثر جاذبية.

: أوه، متى يأتي الأمير؟

-: لم يبق على وصوله غير وقت قليل.

: قليل!!

-: نعم فلو يوجد من بيننا رجل حاد البصر لرأي البيرق يلوح في مقدمة جهامة

الجيش.

: إذا هم غير بعيد عنا؟

-: لو أرقب أحدكم من على هذا الحزم لرأي جهامة الجيش.

: إذاء على هذه الحالة هو في المكان الفلاني.

-: نعم، لقد تواعدوا البارحة أن يمرحوا فيه، فإذا أصبح الصباح أتوكم قادمين، ولذلك فقد أرسلني الأمير لأزف البشارة.

: لم تكن المسافة تستأهل الإمراح في هذا المكان القريب.

-: كان بامكاننا أن نضوى عليكم بالليل.

: إيه، ولكن الأمير لم يوافق على ذلك.

-: بالفعل لم يوافق.

: أوه، لماذا لم تأتوا بالليل؟

-: آه، ما أهبلك من سائل؟

: إنا!؟

-: نعم، لم يرد الأمير أن تكون نتيجة انتصاره مدفونة تحت ستار الليل.

: لم أفهم؟

-: أعرف ذلك!! ليكن في علمك أنه لو جاء الأمير ليلاً فإن سكان الحي لن يستطيعوا رؤية أذواد الإبل التي غنموها ولن تكتحل أعنيهم بأسراب الخيل التي جندلوا عنها فرسانها، وجاءت تتهادى بأعنتها.

: آه، فهمت القصد ولكن الأمر سيان.

-: في نظرك.

: وفي نظر الآخرين.

-: لا أوافقك، فالأمير ورفاقه وكل الرجال العارفين يحبون أن يرى الآخرون نتيجة عملهم لترتفع معنوياتهم وليدخلوا الغبطة والبهجة إلى قلوب الرجال قبل النساء، والصبية والصبايا.

: أوه، سيرون هذه الغنيمة عاجلاً أم آجلاً.

-: إيه، فالله سبحانه وتعالى الذي أعطاك هذا الجزء من الادراك والفهم للأمور، لا مغير لما وهبه لك.

: ماذا تعني؟

-: أعني أنـك لم تفهم ما يعنيـه مثل هـذا الظهـور وعـلائم النصر تـرفـرف عـلي العائدين بالغنيمة وما يصاحب ذلك من شعورهم بالزهو والفخر، وكل واحد منهم يعزل نصيبه من هذه الإبل، ويعقلهـا أمام بيتـه، أو يقتاد تلك الفـرس ويربطها بجانب مربط مهره.

: هذا تحصيل حاصل.

-: أوه، أنت لا تدرك شعور زوجة الفارس عنـدما تـرى زوجها العـائد بحصتـه من هذه الغنيمة ومدى افتخارها فيه ومكانته عنـدها، ومـا تعده لـه من فنون الاستقبال، وما تغمره به من كلمات وجمل الترحيب في تلك الليله.

: إيه، هذه زوجته ولا يستكثر منها ذلك حتى لو لم يعد بشيء.

-: ليس دائماً، وأولاده وأخواته إن كان له أخوات لم تتصور فرحتهم عندما يرون أباهم أو أخاهم وقد انساب الحديث عنه في النوادى والمجالس، وقـد أضاف إلى ثروتهم حصيلة جزلة.

: إنهم صغار لا حكم لهم.

-: إذا لم يـدخل في إدراكـك هذا، فـلا يكفيه أن ينظر إليه رفـاقـه نـظرة إكبـار وتقـدير، عـلى مواقفـه التي أبلى فيهـا البلاء الحسن، وأن ينصت الـرجال إذا تكلم أو أدلى برأيه.

: إيه، أنت تصور الأمور وتكبرها أكبر من حجمها.

-: لأننى أدكها وأفهمها.

: وهل تتهمني بقلة الفهم؟

-: حاشا على غيرك يا ابن العم.

: «أشوى»!! إذا ما ميزة مجيىء الغزو في الصباح؟

-: آه، ألا تعرف معنى صباح الخير؟

: بلى، أعرفه تماماً.

-: لو كنت تعرفه لما سألتني هذا السؤال.

: لكنني أرغب في إيضاح أكثر.

-: إن كل خير يأتي بالصبـاح، فهو من الخـير المرجـو قدومـه، وهؤلاء العائـدون

بالنصر والغنيمة يعتبر قد ومهم في الصباح من الخير المرتجى.

: آه، يعني أنهم لو كانوا منهزمين لما أتوا في الصباح؟

-: بالفعل، لو كانوا منهزمين لاسمح الله لاندسوا تحت جنح الليل ولاذوا ببيوتهم.

: الآن فهمت.

-: الحمد لله الذي فتح على قلبك.

: والآن!!

-: دعنا من كلامك، فهذه طلائع الجيش قد ظهرت للعيان وذلك هو البيرق يرفرف على تلك الناقة الحمراء الجسيمة.

: يا الله!! ذلك هو الأمير يتقدم الجيش.

-: هاه!! ما هذا؟

: أوه، هذه الصبايا قد استقبلن الجيش بالزغاريد.

-: وأين الصبيان؟

: إنظر إليهم وقد انطلقوا يسابقون الريح لاعتناق الجيش.

-: عسى ألا يجفلوا الإبل فتهرب وتؤذي أصحابها.

: لعل الله أن يستر.

-: لينطلق أحد هؤلاء الفتيان فيرد الصبية والصبايا.

: أوه، دعهم يفرحون ويمرحون، فليس كل أيام الدنيا أفراحاً.

-: ولكن فرحهم قد ينقلب إلى ترح؟

: كفانا الله الشر.

-: ليسرع أحد هؤلاء الفتية ويصدهم.

: أبداً، دعهم على رسلهم يواصلون فرحتهم، وكل واحد منهم قد فرح بعودة أبيه أو أخيه أو خاله أو عمه أو قريبه.

-: لا بأس من ذلك، لولا الخوف من أن تجفل الإبل من ركضهم وأصواتهم.

: إنها لا تجفل بسبب كثرتها، وربما أكثرها ركائب وهذه بطبيعة الحال قليل جفلها.

-: هاه، لقد أقبل الأمير إلى هنا يتمخطر به جواده.

: وألف نعم، «حَيْ وَالله هَا الْحِجَاجْ»!!

-: إنه حجاج مبتسم دائماً، إنظر إليه وقد بلج ثغره.

: وفي وقت الفرح مثل هذا الوقت.

-: حياكم الله، حياكم الله، يا أبا فلان، حللت أهلاً ووطئت سهلاً.

: أبقاكم الله.

-: إترك لي عنان الجواد «يا محفوظ».

: خذه معك.

-: الحمد لله على سلامة السفر وهنيئاً لكم بالنصر المؤزر.

: سلمك الله.

وأخذ الأمير مجلسه في صدر المجلس، وتبودلت كلمات الترحيب والتهنئة، ثم دنف إلى داخل البيت ليغير ملابسه ثم عاد إلى مكانه حيث أديرت القهوة العربية وأمر الشيخ بأن تدار القهوة أولاً بالتخصيص على أولئك الفرسان الذين كان لهم اليد الطولى في تلك المعارك ثم من يليهم بالفعل وقوة البأس، ثم من يليهم إلى آخر ذلك ثم تعمم القهوة، ومع فناجين القهوة دار الحديث عن الغزوة، فقال أحد الشيوخ المسنين:

-: حدثنا «يا محفوظ» عن هذا الانتصار الذي أحرز تموه.

: ألم يحدثكم عنه البشير؟

-: لقد ترك الحديث لك، فنريد أن نسمعه من لسانك لافض فوك،

: أوه الحديث عن هذه الغزوة ذو شجون يا أبا فلان.

-: نحن نريد أن نلم ببعض هذه الشجون.

: منذ أن سرنا من هنا ونحن نترصد لخصمنا، وذلك ببث العيون في طريقنا على مسافة ثلاثة أيام.

-: هذا خيار ما فعلتم.

: لقد أخبرنا السبور الذين أرسلناهم أن خصمنا قد أناخ على المنهل الفلاني، فلم نرد الذهاب إليه على المنهل للأسباب التي تعرفها.

-: حسنا، إنني أعرف ما تشير إليه، لكن هناك من لا يعرف ذلك وهؤلاء يحتاجون إلي توضيح.

: معك حق، فلو ذهبنا إليه علي المورد، فإن ذلك يعتبر من المغامرات التي لا تؤمن عواقبها، إذ لربما حال بيننا وبين الماء فوقعنا بين نارين وهو الظمأ وسيوفُ خصومنا.

-: آه، حسناً، ماذا فعلتم!؟.

: كما تعلم أن خصمنا ينظر للأمور بنفس المنظار، ولذلك استدرجنا خصمنا إلى مكان آخر يكون فيه الخيار لنا.

-: كيف استدرجتموه؟

: مررنا من مكان تدركنا فيه عيونه وأرصاده، دون أن يتمكن هو من مباغتتنا برجاله حيث نزحنا إلى الهدف الذي أردنا استدراجه إليه.

-: آه، أين ذهبتم؟

: ذهبنا إلى المورد الفلاني.

-: أوه، ذاك المورد عذب ماؤه.

: ولهذا السبب وقع اختيارنا عليه.

-: ولا تبعد عنه كثيراً الموارد الفلانية، لكن ماءها مالح.

: نعم، لهذا السبب اخترناه شرابا لخصومنا إن هم جاءوا إلينا.

-: ألم يسابقوكم إلى الموارد العذبة؟

: بلى، ولكننا لم نترك لهم الفرصة.

: يعني أنكم سبقتموهم؟

-: ليس بهذا بالضبط، ولكننا استدرجناهم مرحلة مرحلة حتى اقتربنا منه فنزعنا إليه نزعة واحدة ونزلنا عليه تاركين لخصمنا ذلك الملح الأجاج يتجرعه ومن معه رغما عن أنوفهم.

: لا يتوقع أن يصبروا على ذلك فقد يندفعون إليكم أكثر فأكثر متى رأو أنفسهم مضطرين إلى ورود الماء العذب.

-: هذا ما حصل بالفعل لكننا إرتكينا لهم وصددناهم عن الورود.

: هذا والله الهلاك لهم.

-: بالفعل، والله إن خيولهم لا تكاد تكمل الشوط حتى تلهث ظامئة لاتستطيع الجرى.

: إذا كانت هذه الخيول، فكيف الابل؟

-: أما الابل فقد بغرها الماء المالح وامتلأت بطونها منه ولم تستطع حراكا.

: هاه، وكيف كان جو المعركة؟

-: لقد أبلى رجالنا فيها بلاءاً حسنا، ولم يتركوا فرصة للخصوم أن يردوا الماء.

: وكيف كانت حالة خصومكم؟

-: لا تسل عنهم لقد استماتوا استماتة لانظير لها لورود الماء، ولكن هيهات، فلقد أحكمنا الطوق عليهم تماماً ولم يستطيعوا التقدم شبراً واحداً.

: يالها من خطة حكيمة!!

-: لقد وفقنى الله إلى رسمها، وساق الله خصمي إلى اتباع ما رسمت.

: إيه، هذه إرادة الله.

-: بلا شك، وإلا كان بامكانه أن يتركنا وشأننا ويتجنب هذا الطريق كله.

: قد تكون غرته عيونه ورصده.

-: لا أدرى، ولكن الرجل من الصعب خداعه ومن الصعب استدراجه.

: إيه، لكل جواد كبوة يا أبا فلان.

-: بل قل لكل مفكر فرصة في النجاح.

: لا شك في ذلك، وماذا جرى بعد؟

-: لقد كثر القتل في فرسانهم منذ بداية المعركة.

: منذ بدايتها؟

-: نعم.

: في العادة لا يكثر القتل إلا في نهايتها.

-: لأنهم استهدفوا ورود الماء منذ البداية، ولذلك فقد لاقينا منهم ضغطا شديداً راح فيه عدد من فرساننا، ولكننا ترسنا لهم.

: إذا كانوا في الصباح الباكر قد سقط منهم الكثير فكيف حالهم عندما حميت الشمس عليهم.

-: أوه، لا تسل عن حالهم، لقد استحر القتل بيننا وبينهم قبيل الظهر مما حدابهم إلى أن يهرب منهم من كتبت له النجاة.

: وأميرهم ألم يصبه شيء؟

-: لقد سلم من طلقـة قد صوبتهـا إليه بعـد أن رماني يمثلهـا زن صوتهـا من عند أذني هذه وأنجاني الله منها.

: الحمد لله على السلامة.

-: سلمك الله.

: أما حاولت أن تطارده؟

-: خشيت أن أكون طعما لبنادق أصحابه، فتلافيت مثل هذا المـوقف، ولنا معـه صولات وجولات قادمة.

: كيف نجا من طلقتك؟

-: يبـدو أنه لمـا رأى الهزيمـة على رجـاله فضـل الانسحاب ببطء حتى لا تنصب خيلنا عليه.

: بالانسحاب البطيء!!

-: نعم، فقد كانوا يكرون علينا حينا وينسحبون أحيانا حتى اكتمل انسحابهم.

: يا ترى كيف سلم بقيتهم؟

-: أوه، إنهم جموع لا تحصى، وهذا الـذي جاءنـا منهم لا يساوي ربـع عددهم لكننا دحرناهم.

: أما خطر لكم أن تلاحقوهم وتكسروا شوكتهم؟

-: من الصعب ذلك، لكثرة عدد جموعهم الهائلة بالنسبة لأعدادنا.

: ولكنهم لا ماء لديهم؟

-: كنت أخشى أن يجرونا عن الماء، ليقوموا بخطة التفاف سريعة نقع بعدها بين فكي الكماشة كما يقولون.

: هاه، ما هي الكماشة؟

-: كلاب الحداد التي يمسك بها الحديدة الحامية لطرقها على النار.

: آه، لقد شردت عن ذهني.

-: الشيء الثاني الذي خطر ببالي أن يكون قد جاءه مدد من المـاء من الموارد التي تركها بالأمس، وبذلك تركته على الإنسحاب حيث ذهب إلى المكان الفلاني، بعيداً عن طريق عودتنا إلى أهلنا.

: إيه، الحمد لله على السلامة، وماذا فعلتم بعد ذلك؟

-: صلينا على موتانا وموتاهم ودفناهم ثم أبنا بهذه الغنائم التي تراها يا أبا فلان.

: الحمد لله، عسى أن يكون «غِبّ هَذَا النَّصْرُ فَايِتْ».

-: إن شاء الله، وإن سولت له نفسه بعد ذلك فليس عندنا له غير النار والبارود.

: ستر الله الحال «يامحفوظ» ومن ذهب من فرسانكم؟

-: لقد قتل في هذه الغزوة عدد من الفرسان ومن خيرتهم فلان وفلان وفلان رحمهم الله جميعاً.

: إيه، جبر الله عزاءنا وعزاء أهلهم وذويهم.

-: لقد خصصنا لهم حصة جزلة من الغنيمة.

: أوه، لو يعطون أهلهم ملء الأرض ذهبا وفضة ما عدلت حياة مفقوديهم ساعة واحدة.

-: هذا ما أراد الله لهم، فقد قضوا نصيبهم من الحياة.

: ألا ترى أن نذهب لنواسي أهلهم؟

-: هذا عين الصواب.

وما كادت الأمور تهدأ في هذا الحي حتى عاد الأمير الخصم كرته مرة أخرى،، فزحف بجموعه الكثيفة على خصومه يلوى بالضعيف منهم ويتصدى له القوي مثل زعيم هذا الحي الذي ما إن علم بتواجده متجها نحوه حتى استفز بقية فروع قبيلته الكثيرة وتكونت عنده أعداداً هائلة توازي مالدى خصمه أن لم يفقه بكثرتهم وذات ليلة جلس بين رجاله يستمع إلى أخبار أحد الرصد الذين ندبهم لتقصى أخبار خصمه وتتبع حركاتهم حيث قال:

-: آه، ما عندك من الأخبار؟

: لدي ما استطعت جمعه.

-: عسى أن تكون المعلومات دسمة؟

: كما تشتهي «ياطويل العمر».

-: كيف؟

: لقد تمكنت من الدخول إلى وسط المعسكر، وأندسيت بين المحاربين

وسمعت أشياء كثيرة عن أخبارهم.

-: ألم يعرفوا لهجتك؟

: كنت أتصنع لهجة القبيلة الفلانية الذين يعتبر أفرادها في صف الأمير.

-: حسناً فعلت، ولكن ألم يعثروا لك على زلة لسان؟

: أبداً، والله لو سمعت كلامي لحسبتني واحداً من أفراد القبيلة المذكورة.

-: هاه!! ماذا سمعت من أخبارهم؟

: لقد سمعت أخباراً كثيرة يتناقلها المقاتلون عن الامدادات التي انضوت إلى جيش الأمير.

-: إمدادات!! ممن؟

: لا يزعجك الخبر «يا محفوظ» إنها امدادات متفرقة.

-: كيف؟

: نعم، إنهم ليسوا على قلب رجل واحد.

-: آه، يعني قد تفرقت شوفتهم؟

: نعم، لقد جاءوا من قبائل عدة، ومن دوافع مجيئهم حب الكسب، وحوز الغنيمة ممن يلوى بهم ذلك الجيش.

-: إيه، ماداموا طلاب غنيمة فلا تأثيرلهم.

: لا يهمك أمرهم.

-: إذا تأكد أن هدفهم هو الكسب والاسترزاق فقط.

: لقد سمعت من بعضهم أنهم سينصرفون بمجرد حصولهم على جزء من الغنيمة المقبلة.

-: إيه، الغنيمة!!، الغنيمة!! يقول ذلك وهو يمسك بلحيته ساهماً.

: وإن لم يحصل لهم ذلك، فسوف ينكفون على وجوههم بمجرد ظهور بوادر الهزيمة.

-: لن يفرحوا بها إن شاء الله، وماذا غير ذلك؟

: لقد وجدت أن هناك تنافر بين الأفراد.

-: كيف؟

: كما تعلمون أن كل مجموعة من قبيلة معينة، وقد يكون هنالك حزازات بين

هـذه القبائـل يظهـر أثر هـذه الحزازات عـلى أولئك الأفـراد ويؤثر في عملهم القتالي.

-: لا شك في ذلك، وماذا بعد؟

: هناك نقص في المؤن لديهم.

-: كيف عرفت ذلك؟

: لقد عرفته من أفواه المحاربين حيث لم يخصص لكل مجموعة «عزبة» غير كمية قليلة من التمر وقدر قليل من الطحين يصرف لهم مرة واحدة كل ثلاثة أيام.

-: ما دام لديهم التمر والطعام فلا خوف عليهم.

: ولكن كميته قليلة بالنسبة لكل مجمـوعة، وفي بعض الأيـام تنقطع عنهم المؤن فيكتفون بالحليب.

-: أنعم، وأكرم بالحليب، وماذا بعد ذلك؟

: لقد لاحظت الملل على وجوه بعض النـاس الذين مكثـوا في هذا الجيش مـدة طويلة بعيدين عن أهلهم وذويهم.

-: آه، هـذا الشيء يحدث لكثـير من الناس لكنـه يزول بمجـرد تجديـد المكان أو تغيير الوضع.

: لكنك تراه واضح عليهم.

-: حسناً، لقد أتيت بالأخبار السيئة، فما هي بقية الأخبار من الجانب الآخر؟

: لقـد سمعت أن الأمير في إجتمـاع دائم بقادة الألـوية وعقـداء الفرق ونقبـاء السرايا يتبادلون الآراء ويضعون الخطط.

-: ماذا سمعت عن خططهم؟

: لم أسمع إلا ما يختص بمنزلهم الجديد.

-: أي منزل؟

: سمعت أنهم سيردون على الآبار الفلانية.

-: إيه، إنها مشاش لا ترويهم!! متى سمعت أنهم سينزلون عليها؟

: لا أعلم، ولكنها ستكون منزلهم الثاني.

-: أخشى أن يكون هناك شيء من التمويه عليك؟

: لم يشعروا بي حتى يمو هوا علي.

-: قـد يكون ذلـك حتى على رفـاقهم، وإلا فإن ميـاه تلك الابار لا تكـاد تكفي لنصف عددهم ساعة واحدة، ومن الصعب التصديق بأن جيشـا بهذا العـدد سينزل على ضحاح الماء المذكور.

: هذا ما سمعت.

-: لكن المرء يا ولدي لا يصدق كل ما يسمع، وماذا بعد؟

: سمعت بأن الأمير قد جاءته هدية من الأمير فلان.

-: ما نوع الهدية؟

: إنها أحمال من التمر الرطب الشهي.

-: إيه، هذه وأمثالها مما يقوى ظهره.

: الحمد لله، إنها لم تكن سلاحاً.

-: أوه، هذه تشد صلب حملة السلاح، وماذا بعد؟

: لم يعد في جعبتي من الاخبار شيء.

-: لقد أحضرت معك أخباراً سارة، نعمت حالك يابني، وعليك بالـذهاب إلى فلان ليعطيك هبتك عن هذه المهمة وزاد للمهمة القادمة.

: أطال الله عمر الأمير.

-: إيه، الحمد لله فقد أعددنا العدة ولـدينا جمـوع كثيرة نستـطيع بهـا بمشيئة الله التصدى لذلك الخصم، بل ومهاجمته في مكانه، وربما هزمناه مرة أخرى.

: وتحدث أحد مستشاريه قائلاً: لكنه قد أخذ درساً من المـرة السابقـة فلم يعد ينخدع بما أعددنا له.

-: نحن لا نريد خداعه، ولكننا نريد ملاقاته على «وَاضِـحْ النَقَا» وجها لوجه.

: ألا ترون أن المجابهة في مثل هذا الظرف غير محببة؟

-: لماذا؟

: يوجد مع كل من الفريقين أعداداً كبيرة من الناس الذين قـد يذهب أكثـرهم ضحية مثل هذه المواجهة.

-: لابد من التضحية.

: ولكن ألا ترى أن المناوشة والمجاولة السريعة مع إظهار القوة خلفها قد يكون له أثر كبير على معنويات الخصم.

-: أوه، أنـا أعرف خصمي تمـاماً، إنـه لا تؤثر فيـه المنـاوشـات ولا تخيـل عليـه الجموع.

: لقد أدلى خادمكم قبل قليل بمعلومات جيدة عن معنويات جيش الخصم.

-: أوه، إنه خصم عنيد لاتؤثر فيه سوى قاصمة الظهر، وما عـداها فلن يتعـدى سطح جلده.

: إذا ماذا ترى؟

-: أرى أن نعد العدة لملاقاته في الزمـان والمكان الـذي نريـد نحن لا ما يـريده هو.

: وأين ترى هذا المكان؟

-: بأحد أجزاء ديارنا!!

: قد لا ينقاد معنا هذه المرة.

-: سأعمل له حيلة تجره مرة أخرى، سأضع له الطعم.

: طعم!!

-: نعم، هذا الطعم الذي لن أخبر به أحداً حتى يحين ذلك الوقت.

: إنه لا يوجد في المجلس أحد غريب «إنها محفوفة».

-: إعلم ذلك، ولكن قد يكون للحيطان آذان كما يقولون.

: لا يوجد عندنا حيطان.

-: آه، إنها أروقة الخيمة، فدعوا الأمر لي، وسأخبركم عن ذلك في حينه.

وبصورة سرية أو عز الأمير إلى عدد من رعـاة الإبل، بـأن يعزبـوا بإبلهم إلى المورد الفلاني ثم يتعدوه إلى المـورد الآخر الذي توقع أن تدور المعركة القادمة حوله، ويبقى هو وجيشه في أمـاكنهم في الوقت الـذي أرسل فيـه بخفية لفـروع من قبيلته الكبيرة، بالاستعداد قرب المورد المشار إليه وحمايته، وتم إرسال الإبـل تحت أنظار رقباء خصمه الذين توقع أن ينتشروا بالقرب منه، وما إن سـارت تلك الأذواد التي تشبـه قطع الليـل حتى تسابقت السنـة الرصـد إلي خصمـه تخبـره بهـذه الفـرصـة السانحة الواجب اغتنامها، فقال أحدهم للأمير:

: لقد أتيت «طويل العمر» بخبر مهم.

-: مهم!! ماذا عندك؟

: ودسم جداً.

-: هاه!! ماهو؟

: تلك الهجمات من الابل الحمراء التي تشبه قطع الجوخ الأحمر، تباريها تلك الأذواد الأخرى من الإبل الملح التي تفوق ظلمة الليل سواداً.

-: أين هي؟

: لقد انحدرت مع الوادي الفلاني.

-: أوه، وهذا خبرك!! إبل في مفلاها!!

: لم يكن هذا مفلاها، وإنما انحدرت متجهة بعيداً عن مراعيها السابقة بحماية الجيش.

-: حتى الآن وهي بحماية أصحابها ياولدي.

: إن أصحابها في أماكنهم لم يتزحزحوا شبراً واحداً.

-: ومن قال لك هذا؟

: إنني آخر من جاء منهم، فلم أسمع ما يدل على ذلك.

-: وهل من المعقول أن تسير هذه الابل دون أن يكون معها أو حولها حماية مسلحة، خاصة في هذه الوقت بالذات؟

: لم أر أو أسمع عن أية تجهيزات.

-: لا تعر عقلك غيرك يابني، من المستحيل أن تسير مثل هذه الأذواد، إلا ووراءها ما وراءها.

: بامكان «طويل العمر» أن يرسل من يسبر له الأمر فإن وجد ما يمنع الوصول إليها عاد فأخبرك وإن لم يجد فإنها فرصة ثمينة لا تكاد أن تعوض.

-: إيه، أنت يابني تنظر للأمور بمنظار قريب!!

: بمنظار قريب؟

-: نعم، ألا تعلم أن وراء الأكمة ماوراءها؟

: لم أفهم.

-: أعلم ذلك، ولهذا السبب أريد أن أزيدك ايضاحاً، أن هذه الإبل الكثيرة لا يمكن أن تذهب إلى هناك إلا ومن وراء ذهابها هدف معين.

: أبداً «ياطويل العمر» لربما قل المرعى في هذه الأرض وأرادوا أن يستبدلوا لها مرعى قفراً.

- : إيه، هكذا تفكر يابني، هاه أعطني مالديك من اخبار أخرى.

: لم يكن لدي غير هذا الخبر، وقد أتيتك فيه مسرعاً لأفوز بقصب السبق لديكم.

- : هذا شيء طيب، وتستحق عليه الثناء.

: إنني أرجو أن يغتنم الأمير هذه الفرصة قبل فوات الأوان.

- : فوات الأوان!!

: نعم قبل أن تبعد عنا.

- : إترك هذا الأمر لي، يقول الأمير ذلك وهو يربت على كتفى الرجل ويودعه للانصراف.

وبعد إنصراف هذا الراصد إستدعى الأمير كبار مستشاريه وقال لهم:

: لقد نمى إليّ أن إبل آل فلان فاضت مع الوادي الفلاني.

- : هل هي إفاضة أم معزاب؟

: قيل أنها انحدرت مع الوادي ولا يعلم غرضها.

- : قد تكون سارحة فتعود في رِبْعِهَا أَوْ خِمْسِهَا؟

: الوقت لا يسمح لها بالخمس، فالجو حار كما تعلمون.

- : حقاً، ما يقوله الأمير فالوقت الآن هو طلوع الجوزاء ولا تحتمل الابل الخمس فإن بلغت الربع فهي طيبة، أما سمعت قول الشريف:

مع طلعة الجوزا يستاقد بها الحصى ... تظلل بعضود المطايا جخادبة

: دعونا من هذا فلقد جمعتكم لأمر مهم.

- : لأمر مهم!!

: نعم ماذا ترون في هذه الابل؟

- : من أية ناحية؟

: حول أخذها.

- : أخذها!!

: ولماذا الاستغراب؟

-: لأن أخذها لم يكن بالأمر الهين.

: وهل يصعب علي شيء؟

-: حاشا ولكن لابد من تفكير مسبق لمثل هذه الخطوة.

: هذا ما دعوتكم من أجله.

-: ما دام الأمر كذلك فنحن معك بعقولنا وأيماننا.

: هذا ما أريد.

-: لماذا لا ننتظر بعض الوقت ونبث العيون حولها، فإن عادت للورد في ربعها أو خمسها فمعنى ذلك أنها عازبة وتعود إلى مواردها، وإن لم تكن كذلك فنرى الرأي الصائب.

: أترون أن الابل العازبة لا تؤخذ؟

-: لم يكن هذا القصد، وإنما لوجود أصحابها حولها.

: أصحابها!! أصحابها!! يردد هذه الكلمة وهو مطرق الرأس.

-: لا يخفى الأمير هذه الجموع الكثيرة.

: أعلم ذلك، ولكن كيف الحيلة في الحصول عليها، إنها ثروة غالية.

-: ولكنها باهضة الثمن.

: لم نحسب حسابا لما نلاقيه في سبيلها.

-: مغامرة كهذه غير مأمونة العواقب.

: أنا قائد المغامرات!!

-: لا شك في ذلك، ولكن لماذا أرسلو الإبل بهذا الشكل؟

: هذا ما يحيرني!!

-: لابد أن لإرسالها سبب ما؟

: قد تكون خطة منهم لاستدراجنا.

-: لاستدراجنا؟

: يبدوا أن الملل ملأ نفوسهم وطال انتظارهم لليوم الفاصل بيننا وبينهم بعد مكوث هذه المدة الطويلة، وأرادوا أن تكون هذه الابل بمثابة الشرارة التي تشعل فتيل المعركة، الفاصلة.

-: لا يستبعد ذلك، ولكن لو كان الأمر كذلك لما أرسلوها بعيداً عنهم ولأرسلوا جزءاً منها في الجهة الموالية لنا لما يكفي لاشعال نار الحرب.

: حقا، حقاً، قد يكون ذلك، ولكن يحتمل أنهم فكروا في أن ذوداً أو ذودين من الابل لا يكفي لهذا الغرض.

-: يعني أنهم يرويدونها لقمة دسمة!!

: هذا ما أتوقعه.

-: قد تكون لهم نية ثانية أيها الأمير؟

: ماذا تعني؟

-: أقول ربما أرادوا الإنهزام، فأرسلوا الإبل أمامهم ليخف انتقالهم عن موقعهم هذا؟

: لا أظن ذلك.

-: لماذا لا نرسل من الآن إلى الإبل من يسبر مكانها ويعرف من رعيانها أي ماء يريدون وروده لنكسب الوقت.

: هذا ما أفكر فيه.

-: وعند عودة عيوننا نقرر ما إذا كان بالإمكان أخذ هذه الإبل من عدمه.

: إفرض أن الإبل استمرت في طريقها فماذا ترون؟

-: إذا رأيتم أن نرسل لهم عدداً من المفارز المعززة بعدد من كواكب الخيالة تحت جنح الظلام يأخذون عليهم الطريق ويستاقوا الإبل.

: أتراهم تاركيها بدون حراسة؟

-: لا أعلم ذلك.

: لقد نمى إلى سمعي أنها بدون حراسة، ولكنى أشك في ذلك، إذ من غير المعقول أن تبقي هذه الأعداد الهائلة من الإبل، دون حراسة.

-: وخاصة في جو كهذا تحيط به الأعداء من كل جانب.

: إذا، نرسل الرصد أولاً، ونري بعد ذلك ماذا يكون.

وعادت العيون بعد أن عرفت الوجهة التي قصدتها الإبل وأنها لا حماية منظورة معها عند ذلك إجتمع الأمير مع مستشارية مرة أخرى وقال لهم:

-: لقد عاد الرسل الذين أرسلناهم وأخبرونا أن الإبل لاحماية معها.

: غريب هذا الأمر!!

-: ما وجه الغرابة فيه؟

: أترسل هذه الأذواد الهائلة التي تشبه خشوم الضلعان بدون حماية!!

-: هذا في الواقع ما كنت أفكر به منذ البارحة.

: دعنا ننفذ ما اقترحه فلان من إغتنام هذه الفرصة وكسب هذه الإبلا قبل أن تبتعد عنها.

-: ولكن يجب أن ننظر إلى مدى ردة الفعل هذه.

: ردة الفعل!؟

-: أترون أصحابها سيسكتون عنا؟

: بالطبع لا، فالإبل دونها أهلها.

-: هذا ما يجب أن نستعد له قبل أن نقدم عليه.

: ألا ترى أن نرسل من نرسلهم من خلفنا في غير هذا الاتجاه، حتى إذا أبعدوا عن معسكرنا أخذوا وجهة الإبل حتى يصلوها ويأخذوها.

-: وهل يسلمون من عيون خصومنا؟

: ليسروا تحت جنح الظلام حتى لا يراهم أحد.

-: ألا تدرون أن عيونهم ترى حتى في الليل الخرمس؟

: أجل ماذا ترون أطال الله عمركم؟

-: إنني أرى المواجهة في هذا المكان، فوضعنا أفضل مما لو جرونا إلى مكان يريدونه هم.

: حتى في هذا المكان هم أفضل منا، ولكن تحركنا لهدف إحراز غنيمة أفضل من تحركنا في نفس المكان.

-: ماذا تقول؟ وهل هدفنا الوحيد هو الغنيمة؟

: لا، ولكننا منذ مدة طويلة ونحن في صراع مرير، وهو كذلك لم يشف غله منا، فمن الأفضل أن نذهب إلى هناك لعلنا أن نحصل على الابل لتقوى ظهورنا، فإن لم يكن ذلك فيكون لقتالنا معه مبرر واضح.

-: هل تعرفون طريق الموارد التي قصدتها الإبل تماماً.

: نعرفها تمام المعرفة، ونعرف كل حصاة في الطريق إليها.

-: ما بعد الماء الأخير الذي سترده الإبل عن المورد الأقرب منه؟

: مسافة يومين للمطية وأربعة أيام للسرح.

-: ألا تتوقعون أنهم قد سربوا أعداداً كبيرة من جيشهم إلى ذلك المكان؟

: لم تأتنا الأخبار بعمل كهذا.

-: ألا تعلمون أن تلك المياه هي لفروع من قبيلة خصمنا الذين لا يعصون له أمراً؟

: ماذا تعني «يامحفوظ»؟

-: أعني أنه ربما أوعز إلى تلك الفروع من قبيلته بالتصدى لمن اقترب من الابل.

: أتراها خطة مبيتة؟

-: أتوقع ذلك.

: إذا، ما رأيكم لو أرسلنا إلى تلك الابل من يستفز القوم لعلهم إن يدفعوا ببعض جيشهم المرابط أمامنا بما يتيح لنا فرصة الهجوم عليهم من هذا المكان؟

-: الرأي سليم، ولكن أتراهم يتزحزحون من أماكنهم لهذا السبب؟

: نضخم الأعداد في عيون رقبائه بما يوهمهم أننا بعثنا أعداداً كبيرة من جيشنا.

-: رأي صائب، فعلى بركة الله، وفي نفس الوقت نعد العدة للانقضاض على معسكرهم بمجرد تحرك أي جزء من جيشهم.

وأثناء تنفيذ هذه الخطة نقلت رصد الجانب الثاني أخبار هذه التحركات التي ظهرت لهم أنها كثيفة، وتسابقوا بنقل هذه الأنباء ساعة بعد ساعة، مما جعل الأمير يسهر ليلته تلك لاستقبال مثل هذه الأخبار، وهو يقول في نفسه لقد انطلت خطته على خصومه، وسوف يعد العدة لخوض معركة جديدة قد تكون حاسمة هذه المرة لتريحه من خصم عنيد إمتد الصراع معه سنوات وسنوات، ولكن كثرة الأخبار جعلته يشك في مقدرة من أوعز إليهم من فروع قبيلته بالدفاع عن أذواد الإبل الثمينة والذي يعتبر أخذها لو صح ذلك، وصمة عار في جبينه وجبين قبيلته بينما تعتبر مفخرة لا تنسى لخصمه يذكرها الأول للآخر وربما تناولها الشعراء وسجلوها بقصائدهم، ولذلك فقد إتخذ خطوة وقائية أخرى وهي إرسال جزء من جيشه على

جناح السرعة وتحت ظلمة الليل إلى تلك الأرض مما أتاح لخصمه أن يباغته بهجوم كاسح مع صبيحة اليوم التالي كانت نتيجته مجموعة كبيرة من القتلى وغنائم كثيرة، وزحزحة واضحة عن المواقع التي كانوا يرابطون فيها منذ ما يقارب الثلاثة أشهر، وهكذا رأى هذا الأمير أن الطعم الذي نصبه لخصمه وأراد استدراجه فيه قد وقع هو بفخه إذ غلب عليه خصمه بحيله ومخططاته.

ولذلك بعد أن انتهت المعركة إجتمع برجاله وقال لهم:

-: كيف تغلب علينا هذا الذئب؟

: لم يتغلب علينا حتى الآن.

-: وماذا بعد؟

: إنها جولة كسب فيها، فإذا كان قد كسب هذه الكرة فكم مرة خسر قبل ذلك؟

-: لقد كسب علينا جولات وجولات وفي كل مرة تقولون مثل هذا الكلام.

: وكم كسبنا منه «يا محفوظ»؟ إنكم لا تسألوننا مثل هذا السؤال في حالة الربح وإنما يقع ذلك منكم في وقت الخسارة.

-: المفروض ألا نخسر مرة واحدة، لأن الرجل قد جاء إلينا في أرضنا.

: هون عليك أيها الأمير، وإنما هناك أراضي قبائل أخرى قد داستها حوافر خيله.

-: ولكن قبيلتنا لا تقاس بالقبائل التي أشرتم إليها من حيث العدد والعدة.

: لا بأس، لا بأس، ولكن جولة كهذه لا تجزع أميراً مثلك ولا تهز كيان قبيلة كقبيلتنا.

-: لا أريده بعد الآن أن ينتصر بجولة واحدة.

: النصر من عند الله أيها الأمير.

-: لا شك، لا شك، ولكن بأسباب ومسببات.

: هون عليك الأمر، سوف نسترد كلما أخذوه منا.

-: لقد زاد غضبي أنني وضعت خطة كانت نتائجها عكسية على رأسي.

: إذا أبرمت رأيا وعزمت على أمر، فقد يفتل الرجال الآخرون ما ينقض الأمر الذي أبرمت.

-: أتدرى أن الهاجس الذي ضعضع خطتى هو احتمال أخذه للابل التي أرسلناها.
: لقد فكها الله ولم يأخذها.
-: لو أخذها لبقيت «معياراً» لنا إلى يوم القيامة.
: ولكنه أخذ ماهو أعزمنها.
-: ماذا تعني؟
: أعني هذه الصفوة من فرساننا ورجالنا.
-: إيه، لا تذكرني بهذا الأمر. ولكنها رحى المعركة تلتهم الجميع بدون تفريق.
: والآن ماذا ترون أن نفعل؟
-: وهل يحتاج ذلك إلي سؤال!! سنعيد الكرة تلو الكرة عليه حتى يرحل عن أرضنا.
: عجبا لهذا الرجل، ماذا تراه يريد بهذه المغامرات؟
-: ماذا يريد!!
: نعم، إنه لا يهدف إلى الثراء وجمع الأموال من وراء غاراته.
-: أوه، إنه يريد ما هو أكبر من ذلك وأعز.
: هاه!!
-: يريد إخضاع هذه القبائل لسلطانه ويجعلها تنضوي تحت لوائه.
: أترى أن هذا هدفه؟
-: ولا غير ذلك.
: هذا مطلب صعب التحقيق.
-: لهذا ترانا في صراع مرير معه منذ بضع سنوات.
: ما دام هذا هدفه فلن نلين له أبداً، وسيجدنا أقسى من جلاميد الصخر، فلن نضحى بكرامتنا.
-: هذا الكلام الذي ينعش الروح.
: كن واثقا يا أبا فلان أننا سنكون قلبا وقالبا بمثابة الرجل الواحد.
-: إذا عليكم بتجهيز عدد من الألوية، وإعادة تنظيم الجيش والارسال إلى من خلفنا من فروع قبيلتنا بسرعة إمدادنا بالأعداد الكافية لمثل هذا الهجوم مع

التزام جانب السرية حتى لا يشعر بواسطة عيونه بما نعده له.
: أبشر، أبشر.
-: عليكم بالحيطة والحذر حتى يكون لانقضاضتنا عليه مباغتة تذهب بروعه وتقصم ظهره.
: سيكون ذلك باذن الله.
-: هاه، عليكم بتفقد كافة الأمور، السلاح، الخيل، المواد الغذائية واعطائي خبراً عنها أولاً بأول.
: أوه، كل شيء سيكون على ما يرام، فالسلاح لدنيا ما يكفينا ويسلح أعداداً إضافية تقارب نصف عددنا الآن، وكذا الحال بالنسبة للذخيرة، فلدينا أعداداً كبيرة من صناديق «الجُبْخَانْ» والخيل طيبة وصنيعة ومدربة أحسن تدريب، أما الطعام فلا تسأل عنه، إن لدينا من المدد ما يكفينا لمدة طويلة، فاحمال التمر والأقط والحنطة، و«التُمَنْ» ترتكي لنا لسنوات مع أن المدد مستمر لا ينقطع.
-: إيه، الحمد لله، إذا أنهيتم كل شيء فأعطوني الخبر.
: أبشر.

ولم يمض طويل وقت حتى إستعاد هذا الأمير ترتيب نفسه وشن هجوماً عنيفاً على خصمه في معركة جعلت هذا الخصم يخرج منها منهوك القوى يخيل لمن رآه أنه سيطلب الصلح والمهادنة بين لحظة وأخرى، بينما هو على عكس ذلك، إنما يحتاج إلى بعض الوقت، ليصله المدد ويعزز من مركزه في جولة قادمة، وبعد انتهاء المعركة بقليل وبينما هذا الأمير المنتصر يتصدر المجلس بين رجاله في الخيمة الكبيرة المعدة لهذا الغرض، إذا أقبل عليهم أصحاب ثلاث ركائب، وعلى مسافة غير بعيدة من الخيمة أستوقفهم أحد الرجال وسأل رئيسهم:

-: من أنت أيها الرجل؟
: أنا فلان، مرسل للأمير من الأمير فلان.
-: ماذا تريدون به؟
: معنا له رسالة.

-: إذا كنتم كما ذكرت فأنيخوا مطيكم هنا وسلموا أسلحتكم ثم انتظروا في مكانكم حتى نستأذن لكم الأمير.

: حاضر، لكن بنادقنا لن ندعها، وهي التي سندافع بها عن أنفسنا.

-: لا عليكم في حضرة الأمير، فأنتم بمثابة الرسول، والرسول لايقطع له رأس كما يقول المثل.

: ومن نكون في وجهه؟

-: بالطبع ستكونون في وجه الأمير حتى تبلغوا رسالتكم وتعودوا إلى أميركم، إلا إن ارتكبتهم ما يخالف العرف.

: لم نأت لذلك.

-: إذا عليكم الالتزام بما أقوله لكم.

: حاضر.

-: ويذهب الرجل للأمير ليخبره: هذا رسول يذكر أنه وصحبه مرسل من الأمير فلان.

: وماذا يريد؟

-: يذكر أنه يحمل رسالة لكم.

: رسالة!!

-: نعم هكذا ذكر لي رئيسهم.

: رسالة بعد كل هذا الذي جرى!! إيه ليحضر ونرى ما فيها.

-: حاضر.

: وحضر المندوب ورفاقه ووقف أمام الأمير قائلاً: السلام عليكم.

-: وعليكم السلام، من تكون؟

: أنا فلان، ابن الأمير ورسوله إليكم وهؤلاء رفاقي.

-: ابن الأمير!

: نعم ابنه وهذه رسالة والدي إليكم.

-: تفضل، تفضل، إقرأ يافلان الرسالة.

: تقول الرسالة أن الأمير قد أرسل بها ابنه وفلذة كبده وهو يأمل أن يستعيذ كل منا نحن المتنازعان من الشيطان الرجيم، وأن يقتنع بما لديه، فلقد طال أمد

الحرب بيننا، ونرى أن يكف كل منا عن محاربة أخيه المسلم وذلك حقناً لدماء المسلمين التي تذهب هدراً بدون طائل، وسنعقد صلحاً بيننا بهذا الشأن، وبرهان للصدق المتبادل بيننا أن يحمل إليه ابنك رسالة مماثلة لهذا الرسالة ليتم على ضوء ذلك إبرام الصلح بيننا والسلام.

-: حسنا، هذه بادرة طيبة، وما قاله حق.

: وهو صادق فيما يقول. هكذا نطق الرسول.

-: حسنا، بلغ والدك السلام، وسأرسل له ما طلب.

: أستودعكم الله.

-: مع السلامة.

: وبعد أن غادر الرسول المكان قال الأمير : أتراه صادقا فيما قال ؟

-: لابد أن يكون قد إنكسرت شوكته بعد هذه المعركة، فإن رأيتم أن ننقض عليه ونسحقه نهائياً.

: القضاء على أولئك الأجواد الأبرياء أمر صعب، سيما وأن أميرهم قد طلب منا الصلح.

-: إذا كنتم لا تحبذون ذلك، ويريد أن يذهب عن أرضنا، وديارنا فلا أقل من أن تجيبوه إلى ما طلب.

: الواقع أن هذه الحروب التي ترونها قد ابتلينا بها للدفاع عن أرضنا وديارنا، ولاشك أننا الآن في موقف المنتصر ولا نخاف من أحد، ولكن إذا نظرنا إليها بامعان وجدناها جولات مستمرة في حلقات متصلة يوم لنا ويوم علينا.

-: إنني أرى أيها الأمير، أن ننقض عليه ونقصم ظهره ما دام في هذا الموقف الضعيف.

: ومن قال لك أنه في موقف ضعف؟

-: لو لم يكن كذلك، لما أرسل ابنه بهذه الرسالة.

: أيها الأمير، دعك من رأي فلان، فما دام الرجل سيعقد معكم صلحاً يرتحل عن ديارنا ويعود إلي دياره، فأرى أن تتصرف معه بما يناسب موقفه. هذا رأي أحد مستشاريه.

-: هذا هو الرأي،

: إذا نكتب له رسالة بهذا المعنى.

-: نعم، ولكن لنتمهل إلى الغد

: هل سترسل إبنكم بالرسالة؟

-: إبني!!

: نعم، لقد طلب إليكم أن ترسلوا إبنكم بالرسالة الجوابية.

-: إبني!! هو الوحيد، الذي بقى من أبنائي وهو ساعدى الأيمن.

: ما دام الأمر كذلك فلا داعي لارساله.

-: لا، لا، لن يكون أجرأ مني، سأرسله.

: إنني أخشى عليه.

-: قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا.

: لاشك في ذلك، ولكن الحيطة لازمة.

-: أعد الرسالة الليلة وسنذهب إليه في صبيحة الغد.

: كما تريد، كما تريد، «ياطويل العمر».

ومع الصباح الباكر إمتطى ابن الأمير كور مطيته مع إثنين من رفاقه حاملاً رسالة الرد إلى خصمه، وعندما أقبل عل المعسكر اعترض لهم أحد الرجال ليتأكد من هويتهم ثم يستأذن لهم من الأمير بمقابلته، وكان لهذا الخبر أثره الطيب على نفسية الأمير فأذن لهم ورحب بهم واستقبلهم بالأحضان وأجلسهم بجانبه، وبعد أن قرأ الرسالة وضعها في جيبه، وأمر كاتبه أن يكتب الرد عليها، ويتضمن: أن رسالتكم قد وصلت مع ابنكم فوضعت الرسالة على قلبي، أما ابنكم فسيبقى لدينا معززاً مكرماً حتى تأتوا إلينا في هذه الخيمة للتفاوض على الشروط التي نرغبها، ثم بعد ذلك سنسمح لابنكم بمصاحبتكم والعودة معكم.

وارسل الرسالة إليه في الحال، وفي اليوم الثاني أراد ابن الأمير أن يعود مع رفاقه إلى معسكر والده، ولكنه أخبر أنه سيمكث بعض الوقت بينما يتفرغ الأمير لمحادثته على انفراد.

وبعد أن وصل الرد إلى الأمير الذي احتبس ولده وقع عليه الخبر وقع الصاعقة، وكاد أن يخرج من طوره، فوعد وتهدد وكتب في الحال رسالة غاضبة

لخصمه يهدده ويتوعده فيها على هذا التصرف الذي اعتبره بمثابة الغدر والخيانة، لكن هذا لم يعبأ بالتهديد ورد على رسالته بلهجة مماثلة من أنه إذا حاول أن ينفذ بعض تهديداته فإنه سيفقد ابنه الوحيد، وإذا رضخ لشروطه فسيعود إليه ابنه سالماً. وكان لهذا الرد وقع أكبر من سابقه على نفس الأمير فوقع في حيرة من أمره، وقام من مجلسه ودخل إلى بيته ثم وقف بجانب عمود البيت واتكأ عليه منهمكا في تفكير عميق، ولم يشعر بزوجته الجالسة غير بعيد عنه إلا عندما سألته قائلة:

-: مابك يا أبا فلان؟

: هاه، لا شيء، أنت هنا؟

-: نعم، هذا مكاني قبل أن تدخل، أخبرني ما بك؟

: ليس بي أي شيء.

-: لم أعهدك هكذا من قبل.

: لا شيء، أمر أفكر فيه، إنه مجرد أمر عارض.

-: لم أرك قبل اليوم بهذا الشكل، إنك تتقبل أعقد المشاكل بصدر رحب، وتخرج منها مخرجاً سلبياً.

: إيه، تلك الأمور التي تعودت عليها.

-: وهل استجد عليك شيء؟

: لم يكن جديداً بما تعنيه هذه الكلمة، ولكنه هذه المرة كان له انعكاس سيء في نفسي.

-: لم أفهم ما تعني.

: أعني أثر الخديعة.

-: وهل هذا الأمر جديد عليك، فطالما حاول بعض خصومك خداعك ولكنك كنت تخرج من مصائدهم خروج الشعرة من العجين.

: إلا هذه المرة.

-: ومن يحاول خداعك؟

: لقد خدعني بالفعل.

-: أتعني خصمك الأمير فلان؟

: نعم، هو ولا غيره.

-: بماذا خدعك؟

: بأغلى شيء لدي في هذا الوجود.

-: بأغلى شيء!!

: نعم، بولدنا الوحيد.

-: فلان!!

: نعم، لقد خدعنا فيه.

-: وماذا فعل به؟

: لقد إحتال عليَّ، وأرسل لي ابنه برسالة يطلب فيها المفاوضة معه، وطلب مني أن أكون صادق القول سليم النية وبرهان على ذلك أن أرسل له رسالة مع إبني وهكذا فعلت.

-: آه، وماذ بعد ذلك؟

: لقد أبقى إبننا الوحيد عنده.

-: رهينة!! لماذا؟

: لقد طلب مني أن أخضع للشروط التي يريد إملائها عليَّ وإن لم أرضخ لشروطه فسوف تذهب حياة ابننا.

-: تذهب حياة إبننا!!

: نعم إبننا الوحيد الذي نعقد عليه بعد الله كبير آمالنا.

-: إبني، وفلذة كبدي، ونور مهجتي، يذهب بهذه الطريقة.

: هذا ما حيرني، وجعلني في هذه الدوامة على غير عادتي.

-: آه، بسيطة يا أبا فلان.

: كيف تقولين هذا؟

-: نعم أقولها، ماذا أنت فاعل الآن؟

-: إنني الآن أدور في حلقة مفرغة، لم يهدني تفكيري إلى حل حتى هذه اللحظة، إبني عزيز لا يوازيه شيء في الوجود وسلطتي ومكانتي لا يمكن أن أفرط بها بأي حال من الأحوال.

: الأمر بسيط يا أبا فلان.

-: بسيط!!

: نعم،

-: أتقولين هكذا وأنت الأرق قلبا مني؟

: بلا شك، ولكن عند مثل هذه الأمور قد يضع الإنسان عاطفته جانبا وينظر للأمور بمنظار آخر.

-: بمنظار آخر!! ماذا تعنين؟

: أعني أنك أبا فلان.

-: أعرف ذلك، وماذا بعد؟

: أنت لا تهزك مثل هذه الحادثة، فكم قتل لي ولك من الأبناء وكم مات منهم؟

-: هاه، أكثر من خمسة.

: إنني أرى أن تعد فلانا معهم.

-: آه، أعده معهم وهو وحيدنا!!

: صحيح إنه وحيدنا ومعقد آمالنا بعد الله عليه، ولكن الله سينجيه أو يعوض عنه.

-: أمل أن ينجو من هذا المأزق، أما التعويض عنه فلا أظن ذلك وأنت في هذه السن.

: «أفَا» عليك يا أبا فلان، أتقول مثل هذا الكلام؟ صحيح إنني إمرأة كبيرة ولا أمل لي بالانجاب ولكن..

-: هاه، ولكن ماذا؟

: لكنك لا تزال شابا وبنات قومك كل واحدة تتمنى أن تتزوجها وباشارة طرف منك ستتزوج من تريد، ويأتيك من الأولاد ما يعوض عليك ما فقد منك.

-: ماذا تقولين؟

: أقول إذا أردت رأيي ألا ترضخ لشروط خصمك، فكر امتك ومكانتك بين قومك وقبيلتك أهم عليك من الولد الذي أرجو أن ينجيه الله، فإن إختاره الله بهذه الطريقة فإن النساء كثر وأنت شاب لم تتجاوز الخمسين من العمر ولن تعقم النساء من الإنجاب غيره.

-: هاه!! لقد أوضحت لي كلماتك معالم الطريق الصحيح الذي سوف أسير عليه.

: إياك والتنازل عن عرض موضع شعرة واحدة من حقك مهما كانت تهديدات خصمك، والولد بدلاً منه ولد وليس للمكانة العالية أي تعويض في الوجود.

-: صدق لسانك، صدق لسانك لافضوفوك.

: وثق أن خصمك إذا رآك متشدداً بهذا الشكل سيعيد إليك ولدك، ولن تنطلي عليك أفكاره في المستقبل.

-: أوه، تنطلي!!

وارتفع رأس الأمير وانبسطت أسارير وجهه ثم عاد إلى مجلسه بين الرجال، والصرامة تتجسد في قسمات وجهه حيث طلب من كاتبه أن يكتب له رداً على رسالة خصمه متضمنة أنه لا يريد المصالحة مع خصمه على هذا الأساس حتى ولو راحت حياة إبنه في هذا السبيل، وبين له أن هذا الأسلوب غير منطقي ولا يمكن لأي عربي أبي أن يقبل به، وأن العرب تحكمهم إلى جانب الشريعة الإسلامية السمحة الأعراف والتقاليد المتوارثة جيلاً بعد جيل حتى ولو كانوا في حالة حرب، مع جيرانهم، فأسير الحرب له حقوقه الكاملة فضلاً عن الرسل الذين ينقلون الرسائل بين الطرفين المحاربين. وفي نهاية الرسالة بين له أنه الآن أصبح أقوى تصميا على مواصلة القتال من ذى قبل وبشكل أكثر جدية ثم قال لمندوبه الذي أرسله:

: عليك أن تسلم الرسالة للأمير بنفسه.

-: حاضر، وهل انتظر الرد؟

: سلمها له، وعد إلينا مسرعاً دون أن تنتظر.

-: حاضر.

: وتكلم أحدالحضور قائلاً: أخشى أن يبقى هذا الرسول عنده

-: ليفعل ما بداله، ولكنه لن يفعل.

: أشك في هذا الأمر.

-: لاتخف، سيعود هذا الرسول وسيعود إلينا إبننا إن صدق حدسي.

: إذا كان سيعيده، فلماذا يفعل بنا هكذا؟

-: يحسب أننا ممن يقرقع عليهم بالشنان.

: لا أظن هذا «يا محفوظ».

-: بلى، إن تصرفه هذا بمثابة جس النبض.

: جس نبض!!

-: نعم، إنه مجرد محاولة.

ولما وصل الرد إلى الأمير الخصم، استنكر هذه اللهجة التي كتب بها خصمه رسالته، وأيقن أن هذا الرد وراءه ما وراءه، وتأكد أن صلابة موقف خصمه وعناده قد إتضح بصورة لا لبس فيها حيث لم يؤثر فيه حتى امكانية فقدان ابنه الوحيد بما يجعل هذا الأسلوب عديم الجدوى، فيما لو نفذ ما هدد به، وقد يكون أثره العكسي على وضعه بين رجاله، وهو المشهور عندهم بالوفاء والصدق والعدل والمساوات، فلم يرد أن يشوه هذه الصورة، سيما وأنه لم يعلم أحد غير كاتبه بما جرى في الرسائل المتبادلة، لذلك استدعى بابن الأمير ورحب به وأبلغه رسالة شفوية لوالده يخبره فيها أنه سيبعث إلى والده بالرد في أقرب وقت ممكن، وغادر الأمير الشاب المعسكر مع رفاقه إلى معسكر والده، ولم تدن شمس الأصيل من مغربها حتى كان أهل الركاب الثلاث على مشارف المعسكر وكان الأمير يتهيأ لتجديد الوضوء لصلاة المغرب عندما قدم إليه أحد رجاله مسرعاً وهو يقول:

: أيها الأمير، أبشر بقدوم فلان وصحبه.

-: بشرك الله بالخير والعافية.

: هاهم قادمون، إنهم قد دخلوا حدود المعسكر.

-: حياهم الله، . حياهم الله على أهلهم وذويهم وقومهم، هل أنت متأكد مما تقول.

: نعم، كل التأكيد.

-: هل هم جميعهم؟

: ثلاثتهم «ياطويل العمر» هاهم غير بعيدعنا.

-: حياهم الله، يقول ذلك وهو لا يكاد يصدق عينيه.

: لقد أناخوا مطيهم.

-: حياكم الله، الحمد لله على السلامة.

: وترجل الأمير الابن وأسرع يسلم على والده ويقبل جبينه وهو يقول أرجو ألا أكون قد أبطأت عليكم.

-: الحمد لله، الذي جعل غيبك بهذا القصر.

: يعني أنني لم أبطىء عليكم؟

-: لقد أطلت علينا الغياب، فما الذي عاقك عن العودة؟

: كما تعرف يا أبي، فالضيف بحكم المضيف، وعندما وصلنا إلى معسكرهم وسلمنا الرسالة، استبقانا أميرهم ليرسل معنا الرد، وكان طيلة وقته مشغولاً أو متشاغلاً ولم يأذن لنا بمقابلته سوى هذا اليوم، وفي نفس الوقت لم يحملنا أية رسالة سوى السلام والوعد بأنه سيرسل الرد عن قريب.

-: إيه، الحمد لله يا ولدي الذي لا يحمد على مكروه سواه.

: هاه!! ماذا تقول يا أبي؟

-: لم أقل شيئاً سوى الحمد لله.

: هل كان بالأمر شيء لم أعرفه؟

-: لا، ليس هناك ما يستدعى إزعاجك، وعليك أن تأخذ قسطا من الراحة وستعلم بعد ذلك.

: لن يهنأ لي بال حتى أعرف ماذا جرى؟

-: عليك أن تأخذ راحتك وسأخبرك فيها بعد.

: أرجوك يا أبي أن تخبرني.

-: ليس الآن، بل في صباح الغد.

: كما تريد يابني.

-: ودخل الفتى إلى البيت حيث قابلته أمه بالأحضان وهي تقول: الحمد لله على سلامتك يابني.

: مالي أراكم وكل واحد منكم يحمد الله على سلامتي، ماذا في الأمر؟

-: لاشيء، لاشيء، يابني ألا تريدنا أن نحمد الله على سلامتك وكأنك قادم من سفر؟

: بلى، ولكن اللهجة قد تغيرت، وبالتأكيد فإنكم تخفون على شيئاً؟

-: وما الداعي إلى إخفائه؟

: إن أبي يحدثني بنفس اللهجة.

-: ماذا تعني؟

: أعني أنه يقول لن أخبرك إلا في صبيحة الغد.
وهو عند وعده دائماً فيما يعد.

-: ولكن أخبريني أنت.

: كما تعلم يابني نحن معشر النساء ليس لدينا من أخبار الرجال شيء.

-: أوه، إن عندك الخبر اليقين.

: إيه، يابني، ليس لدي غير «الْعُلُومْ اَلْبَـرْقَـةْ» وعليك أن ترتاح الليلة وفي الصباح يكون الرباح كما يقال.

-: آه، الآن لقد أوجدتم عندي الشك.

: لا تحمل هماً يابني وخذ اغتبق من هذا اللبن الذي قد مخض لتوه.

-: سلمت يداك ياأماه.

: أليس لذيذاً ومُسَكِّراً؟

-: بلى، بلى،

: كيف رأيت معسكر القوم يابني؟

-: إنه معسكر كبير وقوة ضاربة.

: عسى ألا يكون الخوف قد دخل إلى روعك؟

-: الخوف لغيري، أما أنا فلم يساورني أية رهبة بل على العكس زادني قوة وتصميماً.

: عشت ولدي، ومستندي.

-: سوف أذهب إلى مجلس الرجال يا أماه.

: لك ما تريد، ألا تريد أن أستمتع بحديثك قليلاً؟

-: سأعود إليك وأعللك قبل النوم.

وعندما أخذ الفتى مجلسه غير بعيد عن والده أخذ يتحدث للحضور عما شاهده في معسكر الخصوم واستمر الحديث إلى قرب منتصف الليل حيث تفرق الرجال كل إلى مركزه.

وفي الصباح قال الفتى لوالده الأمير.

: لقد وعدتني ياأبي أن تخبرني في الصباح ها هو قد أتى.

-: أوه، ألا يزال عالقا في ذهنك هذا التساؤل؟

: نعم، ولم أكد أستطيع النوم ليلة البارحة.

-: الواقع يابني أن بعض الرجال لا يتركون حيلة إلا طرقوا بابها للوصول إلى أهدافهم.

: ماذا تعني ياأبي؟

-: أزيدك إيضاحاً، بأن سفرتك هذه قد أنجاك الله منها ومن شر عواقبها.

: عواقبها!! كيف؟

-: لقد حاول الرجل الذي بقيت عنده أن يستغل وجودك لديه للمساومة.

: يساوم عليّ!؟

-: لقد حاول الرجل ولكنه لم ينجح.

: ماذا حصل بالضبط؟

-: لقد جاءتني منه رسالة يقول فيها إن لم تخضع للشروط التي سأمليها عليك، فسوف تفقد حياة ابنك.

: «أنا أخو فلانة»!؟

-: هذا ما حصل.

: وبماذا أجبته يا أبي؟

: لقد أجبته بما جعله يتراجع عن خطته تلك ويأذن لك بالعودة إلينا، ولن أنسى فضل أمك في إتخاذ هذه الخطوة الناجحة.

-: إنها كفؤ لذلك، آه، والله لقد خامرني الشك منذ أن وصلت إلى هناك، لتشاغل الرجل عني، ومحاولة تأخير عودتي يوماً بعد يوم بحجج واهية تماماً.

: لقد اعتبر الرجل هذا المقام عنده بمثابة سجن حشمة.

-: وهل يظن أنني سأبقى عنده لو علمت بحقيقة الأمر؟

: ماذا ستفعل؟

: والله لو علمت بحقيقة ما حدث لم أبق لديه ساعة واحدة.

- : أتستطيع ذلك؟

: كيف لا أستطيع وأنا ابنك.

- : ولكن غلبة الرجال تبقى عائقاً في طريقك.

: لا تخف يـا أبي، فـرخ الحـر لا يحط إلا عـلي القمم، بحيث يبقي بعيـداً عن الأشراك.

- : سلمك الله يا بني، وجعل فيك البركة والسؤدد.

: وأبقاك لي سنداً ومتكئاً أطول مدة ممكنة.

- : آمين.

: وماذا فعلت أمي في سبيل اطلاق سراحي؟

- : لقد قشعت برأيهـا الثاقب غمـة كانت جـاثمة عـلى بصيرتي وأنـارت الطريق الذي سلكته وكانت نتيجة ذلك نجاتك.

: لم تكن هذه أولى منافعها، فبنات أفكارها كثيرة ونيرة تضيء طريق السالك في ظلمة الليل.

- : المعدن الطيب يـابني ينفعك في كـل الحالات وخـاصة عنـد المواقف الصعبـة والحرجة، فعليك بالمعدن الأصيل تكن رابحاً.

: سلمها الله.

القصة رقم (١٦)

حاميها حاذيها

كان الرفاق قد أعدوا العدة للغـزو فيما يسمـونه « نَقْضَـةْ اَلْجَزُوْ » . ووقتـه في آخر الربيع وبداية الصيف، إذا اشتهت المواشي الماء وفي مجلس لتداول الرأى إجتمع في بيت عقيد القوم حيث بدأ العقيد بالكلام قائلاً :

-: أيها الرفاق، بماذا تريدون أن نبدأ ؟

: ماذا تعني ؟

-: أقصد بأي هذه الأحياء نبدأ غزوتنا هذه ؟

: وهل يحتاج الأمر إلى مشورة ؟

-: نعم، لنتفق على رأي واحد.

: أيها العقيد، إنني أعارض رأي فلان.

-: لابد أن وراء معارضتك رأياً سديداً فما ذا لديك من جديد ؟

: إنني أرى أن مثل هذه الأحياء الضعيفة تكون غالباً غنيمتها هـزيله لا تساوى ما نبذله في سبيلها من الجهد، وإذا كانت انـطلاقتنا ونشـاطنا إلى أحيـاء كبيرة ذات ثراء ومال، فإن غنيمتنا منها ستكون دسمه.

-: إيه، ولكنها غالية الثمن.

: هذه من صفاة الشيء الثمين.

-: لماذا نذهب إلى الأحياء القوية مادمنا نجد أحياء أضعف منها ؟

: أوه، أنت ياأخي دائماً جهدك منصب على الضعيف.

-: لأنه أسهل من القوى.

: لا نلجأ إلى الضعيف إلا إذا لم نجد من هو أقوى منه أو كنا منهكين.

-: يبدو أنك « فَسْقَانْ » إثر خيرات هذا الربيع.

: أجل تريدنا أن نذهب قوتنا وعنفواننا في كسب عدد قليل من الإبل قد يخص الواحد منا بعيراً واحداً أو لا يخصه شيء ؟

-: وأنت ماذا تريد ؟

: إن لم تكن غنيمة « تَدْسِمْ الشَّارِبْ » فلن نذهب إليها.

-: ماذا تقول أيها العقيد في كلام فلان الذي يريد أن يجشمنا المخاطر والأهوال من أجل أن نحصل على مزيد من الإبل ؟

: إن ماذكره هو عين الصواب.

-: عين الصواب !!

: نعم أتريدنا أن ننتظر ستة أشهر وتكون قمشتنا « مِطْرِسَةْ » بسيطة لا تستأهل من يتحدث عنها.

-: يعني إنك مؤيد لكلامه.

: نعم، ومن رأيي أن تكون غزوتنا للحي الفلاني فهم أهل إبل كثيرة، ولديهم ثروة كبيرة.

-: هذا هو الرأى أيها العقيد.

: ولكن لي وجهة نظر.

-: ماهي ؟

: هؤلاء القوم لاشك أنهم أهل نعمة، وأنعام كثيرة ولكنهم أقوياء، شديدي المراس.

-: أوه، دائماً أنت تتخوف من قوة الرجال.

: ليس رجلاً، من لا يحسب للرجال حسابهم أو يغمط من حقهم.

-: إذا كانت قوتنا وعنفواننا طيلة هذه الأشهر لا تقهر هؤلاء الرجال ونسلب ما في أيديهم فلا بارك الله فيها.

: هذا الكلام جميل لكن ما يفصل في الأمر هو الفعل.

-: أنت دائماً تنظر إلى الأمور نظرة المتشائم.

: بل أنظر إليها بعين العقل.

-: دعنا من كلامك.

: وهناك عقبة قد تحول من دونهم.

-: هاه، ما هي أيضاً ؟

: ألا تعلمون أنهم اذا علموا بقدومكم نزحوا خلف أرض الحماد ؟

-: أوه، والله لن ينجيهم منا حماد ولا حتى جبال.

: لا تتكلم بهذا المنطق الذي لا يخلو من الزيادة.

-: أجل، أتظن الحماد أو غيره سيمنعهم من قبضتنا ؟

: لم أقصد ذلك.

-: وماذ تعني إذاً ؟

: أعنى أن الحماد أرض حثة وخشنة تأكل حوافر الخيل وأخفاف الإبل فتصاب بالحفى الذي يعيقها عن السير فضلاً عن الجرى ومطاردة الأعداء.

-: حقا، حقاً، ولكنا سندركهم قبل أن يجتازوا هذه الأرض،

: إذا، من رأيي إذا كنتم عازمون على غزو أولئك القوم أن ترسلوا إليهم من يسبر مكانهم ويراقب تحركاتهم ليكون ذهابكم إليهم على بصيرة.

-: وهنا أعاد الكرة المتكلم الأول قائلاً : ما لكم ولهذه الأخطار عليكم بالهين القريب، ودعو البعيد الصعب.

: عليك أن تسكت، إن أفكارك رديئة وشوفاتك قريبة.

-: إذا على رسلكم.

: من ترون أن نرسله لهذه المهمة ؟

-: وهل غير فلان أحداً، إنه خريت رفاقه الذي لا يضيعه مسلك ولا تختفى عليه حيلة من الحيل.

: إذا، عليك يافلان أن تتوجه إليهم على مطيتك وتسبر مكانهم فتختار لنا الطريق الذي نصل إليهم من خلاله بأقل عناء.

-: أبشروا، أبشروا، لا تهتموا المثل هذا الأمر.

وبعد بضعة أيام عاد السبر من مهمته وقد جمع معلومات وافية عن هذه القبيلة والموارد التي تردها مواشيهم ومراعي أنعامهم، وبعد أن تجمعت هذه المعلومات عند عقيد القوم أمرهم بأن يخفوا إليهم تحت جنح الظلام في يوم معين

تسبقهم حملة « الزِّمَامِيْلْ » بيومين أو ثلاثة إلى الهدف المنشود، ولم يخطر ببال هؤلاء أن تلك القبيلة المراد غزوها قد أرسلوا أحد عيونهم لمتابعة صاحب تلك المطية عن بعد حتى عاد إلى قومه، ثم حل ضيفا عليهم وسمع بعض طشاش الكلام الذي يدل على أن قوماً من هذه القبيلة سيغزون قبيلتهم فعاد مسرعاً إلى قومه وأنذرهم بحيث إرتحلوا من مكانهم ونزحوا بعيداً عنه تاركين أرض الحماد بينهم وبين من يريدون غزوهم، وفي نفس الوقت أخذوا استعدادهم للقيام بهجوم معاكس ضد هؤلاء المغيرين إذا حاولوا إجتياز الحماد والاقتراب منهم.

وفي الوقت المحدد لهؤلاء الغزو إنطلقوا إلى هدفهم مع ذات الطريق التى إختارها لهم دليلتهم، ولما كانوا على مشارف المنازل التى ترك الدليلة فيها القوم المستهدفين أمرهم عقيدهم بالامراح ليلتهم حتى الصباح، ليروا طريقهم على وضح النهار، ولكنهم فوجئوا أن القبيلة قد نزحت عن منازلها قبل فترة وجيزة قد لا تزيد عن بضعة أيام فقال عقيدهم :

: أين القوم أيها الدليلة ؟

-: لقد تركتهم في مراحهم هذا.

: منذ متى ؟

-: منذ اليوم الفلاني.

: آه، قبل أسبوع !!

-: إذا حسبناها بالأيام ؟

: أين تراهم ذهبوا ؟

-: بامكاننا أن نقص أثرهم.

: أنقصه في هذا الحماد الوعث ؟

-: لا تزال الجوَادُّ حديثه الأثر.

: وهل من المعقول أن نمشي وراءهم هكذا ؟

-: وماذا ترانا فاعلون ؟

: نرسل من يكتشف لنا مكانهم ثم يعود إلينا ونقتفي أثره.

-: أوه، نخشى أن يكون كفلان.

: من الأفضل أن نسير مع الأثر يتقدمنا مجموعة من العيون لتكشف لنا عن مجاهل الطريق.

-: إذا كانوا قد رحلوا منذ أسبوع فإنهم الآن قد اجتازوا الحماد بكامله.

: أتراهم قد علموا بما بيتناه لهم؟

-: لا أعلم، ولكن ربما علموا بذلك، بما أدركوه بقوة حدسهم.

: لسنا الوحيدين الذين نبث العيون للمحافظة على سلامتنا، فكل قبيلة أو حي من الأحياء يبث العيون والأرصاد من حوله للمحافظة على أمنه.

-: إنك محق إيها العقيد.

: يا الله، ما أخشن هذه الأرض؟

-: صحيح إنها خشنة، ولكن لا طريق لنا غيرها.

: لماذا نتجشمها أيها العقيد؟

-: لنصل إلى هدفنا.

: ولكن أنظر، لم يمض علينا فيها سوى يومين وهذه بعض خيولنا بدأت تضلع من الحفى.

-: لم يبق منها غير القليل، أليس كذلك يا فلان؟

: بل لم نقطع منها غير القليل.

-: أنت دائماً تحاول تثبيط عزيمتنا.

: بل أقول الحق، فقد بقي لنا إذا استمر سيرنا على هذا المستوى أربعة أيام حتى نقطعها، أما إذا كان سيرنا أبطأ فيحتاج ذلك إلى وقت أطول.

-: هاه، ماذا تقول؟.

: أنت تجزع من قولي أيها العقيد، وتريد من يصدقك حتى لو كنت على خطأ.

-: لم أرد ذلك، ولكن آراءك على النقيض تماماً.

: إن نظرتي هذه للأمور التي استهجنتها ربما هي التي تنفعك، إذا جاء «حَـزِمْ كَلاَبْ».

-: الواقع أن كثيراً من آرائك لا يجانبها الصواب، ولكني أمازحك في بعض الأحيان يا بن العم، والآن ما هو الرأي؟

: الرأي أن نعود من حيث أتينا.

-: نعود!! أما هذه فلست معك.
: لماذا؟
-: أنعود بعد أن أشرفنا على الغنيمة؟
: ومن قال لك ذلك؟
-: يخبرني بذلك الرسل الذين أرسلناهم.
: إن معلوماتك خاطئة، فهم يسيرون على ضحاح المعلومات.
-: الضحاح!!
: نعم، بماذا أخبروك؟هل رأوا مواشي العرب؟
-: لم يروهم، ولكنهم يرون آثارهم جديدة العهد.
: أوه، هؤلاء الآن خارج الحماد ولن نصلهم إلا بعد أن كنا قد تعبنا وأنهكنا.
-: توكل على الله، ودعنا من نظرتك التشاؤمية هذه.
: سترى أثر كلامي بعد يومين أو ثلاثة.
-: لا داعي لهذا التشاؤم، لا داعي، علينا بالاستمرار في السير.

وفي اليوم الرابع توقفت الخيل عن المسير تماماً فلا تجد فرساً إلا وقد لعب الوجي بحوافره، فأصبح يضلع براكبه تارة، ويكاد أن يكبوا بصاحبه تارة أخرى ولم يجتازوا بعد هذه المنطقة الحثة التي تأكل حوافر الخيل، وبينماهم في هذه الحالة السيئة جاءت إليهم أخبار أسوأ، وهي أن القبيلة التي عزموا على غزوها أصبحت الآن مستعدة لغزوهم والقضاء عليهم وهم في انتظارهم على مشارف الحماد، ولاسيما بعد أن عرفوا ما حصل لخيولهم، عند ذلك التم الرجال على عقيدهم وقال المتحدث باسمهم.

: أصحيح ما سمعناه من أخبار؟
-: نعم، صحيح.
: وماذا ترانا فاعلون؟
-: أشيروا على بما لديكم من آراء.
: الرأي أن نستريح لبعض الوقت قرب هذه الأثماد نرتوى من مائها حتى ترتاح خيولنا وتنمو حوافرها ثم نستأنف مسيرتنا فلم يبق من المسافة إلا أقلها.

-: نخشى أن يهاجمنا أعداءنا في هذا المكان.

: لا أعتقد أنهم يجرءون على مهاجمتنا هنا.

-: ولم لا، ؟ إذا كانت خيولهم محذية فلا يؤثر فيها وعث الحماد وحثالة أرضه.

: لقد أتيت بالفكرة في ثنايا حديثك.

-: ما هي؟

: لماذا لا نحذو خيلنا؟

-: هاه، ومن يقوم بهذا العمل؟

: هاه!! لا أحد، لا أحد.

-: ولم الحيرة؟

: لا أدرى، الواقع أننا لو تمكنا من عمل حذاء لخيولنا لحققنا هدفنا، أو على الأقل لنجونا من عدونا الذي يتربص بنا على مشارف هذا الحماد وربما هاجمنا في مكاننا.

-: هل بيننا أحد يستطيع القيام بهذا العمل

: قد يوجد ولكن..

-: ولكن ماذا؟

: لكنه كما تعلم في عرفنا القبلي عيب.

-: عيب!!

: نعم، لماذا تتجاهل وأنت أول من يعرف ذلك؟

-: ولكننا في هذا الموقف لا تحكمنا الأعراف.

: أجل أنت لا تقر بالعرف القبلي؟

-: كثير من الأعراف واهية ولا أساس لها، ثم إن مثل هذه الأعراف لا يعمل بها في موقف حرج كهذا.

: موقف حرج!!

-: نعم، إنه حرج للغاية، فنحن الآن بين نارين، قسوة الأرض التي نسير عليها فأكلت حوافر خيلنا، وقوة وشراسة أعدائنا الذين ينتظروننا ليفتكوا بنا.

: علينا أن ننتظر قليلاً أو أن نبحث عمن يقوم بهذا العمل.

-: لا مجال للانتظار، والبحث عمن يقوم بهذا العمل يحتاج إلى وقت قد نكون

فقدنا فيه حياتنا، فهل يستطيع منكم أحد القيام بهذه المهمة أيها العقيد؟
: لا أدري، لا أدري، هل بينكم أحد؟ لماذا لا تجيبون؟
-: قد يوجد بيننا ولكنه يخشى العيب من أخوانه وبني عمه.
: أوه، عيب، عيب!! ليس هذا وقته، فالمسألة مسألة حياة أو موت، ثم ماذا فيه من العيب؟
-: إننا نخشى أن يقال لمن يقوم بهذا العمل إنه «صَانِعْ».
: أوه، أنا أقوم به.
-: تقوم به!!
: ولكن أخوانك وبني عمك الأقربين يمنعوك من هذا.
-: لا أحد يستطيع أن يمنعني من إنقاذ حياتكم، وعليك أيها العقيد بأن ترسل إلى أحد القرى لاحضار العدة التي أستطيع بها إتمام العمل.
: جزاك الله خيراً، وأعانك على ما تقوم به، وعليك أن تختار من هؤلاء الرفاق من يحضر لك ما تريد ويساعدك، وهذه النقود اللازمة لشراء تلك الأدوات مع كمية الحديد اللازمة لحذاء خيولنا.

وبعد بضعة أيام عاد الركب ومعهم كافة المستلزمات الضرورية، ولم يمض طويل وقت حتى أكمل هذا الشاب تحذية كامل خيول رفاقة، وأصبحت تتنزى فوق تلك الأرض الخشنة وكأنها على ديباج ناعم واستعاد رفاقه معنويتهم بعد أن كان موضع استهزار بعضهم أثناء عمله بما يرمون على مسامعه من كلمات مثل «الصانع، والحذاء» من بعض صغار الهمم. وبعد أن تغير وضعهم استكملوا مهمتهم حيث باغتوا تلك القبيلة بغير ما كانوا يتوقعون فأخذوا جزءاً من الإبل وعادوا أدراجهم مع طريقهم فلحقت بهم الأفزاع واشتبك الفرسان خلف الإبل واحتدم وطيس المعركة بينهم، فأهل الإبل يريدون استردادها، ومن أخذوها لايفرطون ببعير واحد منها، وفي هذا الخضم المائج فقد أبلى هذا الشاب الذي أنقذ حياة رفاقة بحذي خيولهم بلاءاً حسنا في صد هجمات المغيرين عليهم حينما تولي مؤخرة المعركة، يذب عن مؤخرة أصحابه بسيفه ورمحه، يهمهم تارة، ويزمجر تارة أخرى وهو يقول «حَمَّايَهَا حَذَّايَهَا وَأَنَـا أُخُوْ سِعْدَىَ» هذا دأبه إلى أن إندحر

الخصوم ونجا أصحابه وما معهم من غنميه وعادوا في طريقهم إلى أهلهم، وبعد أن أمنوا في الابتعاد عن طلب أعدائهم أمرحوا في تلك الفيضة ليأخذوا قسطا من الراحة ويتناولوا عشاءهم، وعلى ضوء النار قال عقيدهم:

-: جزاك الله خير يا «جُرَيْ» لقد أنقذتنا من هذا المأزق الذي كدنا أن نهلك فيه.

: لم أعمل إلا ما يتطلبه مني الواجب، نحو إخواني وبني عمي.

-: كثر الله خيرك، فوالله لولا الله ثم ما فعلت لهلكنا عن آخرنا في موت محقق.

: إنه لم يكتف بما فعل للخيل أما رأيت موقفه خلفها؟

-: بلى، لقد رأيته وهو يصول ويجول، يجندل الفارس تلو الفارس وأكثر هذه الخيول التي كسبناها كانت بسببه.

: ارجوكم ألا تكثروا من هذا الحديث لقاء هذه المساهمة البسيطة وهل يستكثر من أحدنا إنقاذ حياة إخوانه وبني عمه ورفاقه؟

-: ومن قال لك أننا أخوانك أو بني عمك؟ هكذا نطق أحدهم بصوت مجرور.

: أجل، إنني منكم وأنتم منى.

-: ذلك كان بالأمس.

: واليوم؟

-: أما اليوم فلا.

: لماذا؟

-: لأنك أصبحت صانعاً.

: أصبحت صانعا!!

-: نعم لقد أهفيت أصلك بعملك هذا.

: عجباً!! وهل من يقوم بانقاذ أخوانه ورفاقه يعتبر قد أهفى أصله؟

-: نعم، لقد أقدمت على عمل يحط من قيمة الرجل.

: يا الله، أظنك تفهم الأمور بعكس مقاييسها.

-: ماذا تعني؟

: أعني أن الرجل إذا استخدم عقله وما يتقنه من أعمال لتحسين وضعه، بل ما

هو أكبر من ذلك وأهم، وهو انقاذ حياته وحياة رفاقه يعتبر أهفى أصله وحط من قيمته بينما المفروض أن يكون العكس بارتفاع قيمته المعنوية عند قومه.

-: لا، نحن إذا امتهن الواحد منا مهنة غير مهنة آبائه وأجداده نعتبره قد خرج عن عرف القبيلة وسقط سهمه من بين أسهمهم، وأنت تعلم ذلك حق العلم وقد نهيناك قبل أن تقدم على ذلك العمل.

: ولكن يا أخي لقد كنا في وضع سيء نبحث عن أي طريق للنجاة بصرف النظر عما يترتب عليه من المحاذير القبلية.

-: كل شيء يهون عند الذي فعلته.

: آه، تقول ذلك الآن عندما انجلت الكربة وزال الخطر أما بالأمس عندما كنت تحت الخطر لم تنبس بكلمة واحدة.

-: لقد حذرك غيري واستهزأ بك أثناء قيامك بعملك.

: لم أبال بأقوالهم آنذاك، لأن حياتنا جميعا كانت أهم عندي وأغلى مما يشبه نقيق الضفادع.

-: المهم إنك خرجت من مهنة آبائنا وأجدادنا.

: وما هي مهنتهم؟

-: أنت أعلم بها.

: بالطبع هي الرعي وربما الزراعة.

-: نعم، هذه المهن المفضلة التي يتقنها الآباء والأجداد.

: لأنهم لا يعرفون غيرها، وماذا يضيرنا إذا أضفنا إليها ثالثة الأثا في وهي الصناعة الا يمكن أن نغني أنفسنا عمن حولنا؟

-: أما الصناعة فلا.

: ما هو السبب؟

-: لا شيء، إلا أنها ليست من مهن آبائنا وأجدادنا.

: ألا تعلم أن أجدادنا الأوائل كانوا يصنعون؟

-: لا تحاول خداعنا لتبرير ما فعلت.

: لم أحاول خداعكم، وإنما أقول الحقيقة.

-: هه!! وأي حقيقة تعنى؟

: أعني أن العرب الأوائل منذ أكثر من ألف سنة وإلى عهد قريب قد برعوا بالصناعة بمختلف فنونها.

-: ومن أخبرك بهذا؟

: لقد حدثني به عدد من كبار السن.

-: قد يكون ذلك قبل أن نرتفع إلى مستوانا الحالي.

: بل قل، كان ذلك قبل أن يطبق علينا الجهل الذي فرضه علينا أعداؤنا، وغرسوا فينا هذه البذرة الخبيثة التي أوهمونا بها أن الصناعة عيب ولا يمتهنها إلا الناس الفقراء والغرباء.

-: إنهم على حق، أما الذين لا يمتهنون هذه المهن فإن لديهم مهن أفضل منها، ألا تعرفها؟

: بلى، أعرفها هي كما أسلفت الرعي والزراعة.

-: والغزو!! أنسيتها؟

: أتعني السلب والنهب الذي نحن بصدده؟

-: نعم، هو ما أعني.

: ألا تعلم أن الغزو أسوأ من الصناعة بكثير؟

-: أسوأ من الصنعة؟

: نعم، فالصنعة إتقان إحدى المهن التي يحتاج إليها الناس في حياتهم وكسب العيش الحلال بعرق الجبين دون المضرة بأحد، بل على العكس نفع الآخرين.

-: إيه، تصنع للناس حاجاتهم وتنتظر منهم دفع الأجرة إليك.

: هذا أفضل من قتل الآخرين وسلب ممتلكاتهم.

-: أوه، هذا الغزو والكسب، ميدان الشجاعة، إنك لا تعرفه.

: بلي، أعرفه تماماً، ومنذ أن أرشدنا أنا وأنت نمتهن هذه المهنة فماذا جنينا منها؟

-: ماذا جنينا منها؟

: نعم.

-: هذه النياق التي تراها.

: ستذهب منا مثلما أتتنا.

-: ماذا تعني أيها الصانع الجبان؟

: إذا جد الجد فالجبان يعرف نفسه، أما الصناعة فليست عيباً.

-: بل هي عيب وعيارة أيضا، أجل تريد أن تكسب إبلاً من ريع الصناعة؟

: نعم، أستطيع أن أكسب من ريعها إبلاً بالشراء لا بالنهب.

-: أتعيرنا بأننا كسبنا هذه الإبل؟

: لم أرد ذلك، وإنما أقول إن هذه الأموال من إبل وغيرها التي نكسبها في هذا السبيل قد نزع الله منها البركة، فإما أن تؤخذ منامرة ثانية أو أن تموت أو تضيع.

-: ليس دائماً.

: بل في أغلب الأحيان، ألا تذكر الأذواد التي أخذناها قبل سنتين، أين ذهبت؟

-: هاه، لقد استردها أصحابها.

: وتلك الإبل التي كسبناها في العام الماضي؟

-: تلك التي قد ضاعت ولا نعلم خبرها حتى اليوم.

: وتلك الناقة الحمراء التي كسبتها قبل ثلاثة أشهر؟

-: أما تلك الناقة فلا يمكن أن أنساها، لقد تحطمت يديها معاً وكادت أن تحرج قبل أن ننحرها.

: كل هذه المجاميع من الإبل قد ذهبت برأس مالها.

-: مهما قلت، ومهما حاولت أن تبرر فعلتك التي فعلت فلن نغضى عنها.

: هذا هو رأيك الخاص، ولا داعي لاطالة الحديث حوله.

-: ورأي هؤلاء المجموعة، بل وأفراد قبيلتنا.

: وهنا تكلم عقيد الركب قائلاً: لقد أطلتم علينا هذا الحديث الذي لا لزوم له.

-: حتى أنت تقول لا لزوم له.

: نعم، إن فلانا على حق في كلامه، وقد فزع لنا وساهم مساهمة رائعة في إنقاذنا من براثن عدونا، لهذا السبب كثر الله خيره، وأكثر من أمثاله

ولا ينبغي أن نجازيه بمثل هذا الكلام الفارغ من أي معنى.

-: يعنى أن كلامي لا قيمة له؟

: إسمع ما أقوله لـك، ففلان أخـونا وابن عمنـا والمطلوب منـا أن نكافئـه على أفعاله الحميدة لا أن نعاتبه ونحط من عزيمته.

-: وماذا قلنا له؟

: لم تترك شيئاً من الكلام الرخيص إلا وقلته له.

-: ألا يزال له قدر عندك؟ يقول ذلك بنغمة مجرورة.

: وما الذي حط من قدره إيها الخبيث؟

-: وفعلته تلك؟

: لم يفعل إلا ما «يَقُودْ وَجْهُهْ» ويرفع رأسه عند إخوانه ورفاقه.

-: إيه، قد يكون هذا في اعتبارك أنت.

: إخسأ، أيها الخسيس، نعم في إعتبـاري واعتبار غيـري من الـرجـال الـذين يقـدرون للآخـرين مواقفهم النبيلة، أمـا أنت ومن على شـاكلتـك من أرذال الناس فإنهم ينظرون إلى الأمور بعين رمداء.

-: أنا الخسيس!!

: نعم أنت، فاغرب عن وجهي.

-: لا يصل بك الأمر إلى هذا الحد إيها العقيد.

: أجل، مثل هذا الرجل يشبه السـوسة النخـرة التي تفسد ولا تصلح، وتهـدم البناء أكثر ممـا تشيده، وإلا فنحن إخـوان وأبناء عم من قبيلة واحـدة وعشيرة واحدة فيأتي مثل هذا «المَقْرُودْ» ويبذر التفرقة والشقاق بين الإخوة والرفاق.

-: معك حق، وكل الحق.

وعنـدما وصـل الغزو إلى أهلهم كـثر الهمس في المجالس حـول هذه الحـادثة واهتم بها سكان الحي أكثر من اهتمامهم بنتائج تلك الغزوة، ثم استمرت الأمـور كالمعتاد إلى أن رغب هذا الشاب في الزواج، فقصد عمـه ليخطب منـه ابنته، فـما كان من هذا العم إلا أن قال له:

-: أتريدني أن أزوجك ابنتي وأنت صانع؟

: صانع!! إنني ابن أخيك.

-: حتى لو كنت كذلك، كنت بالفعل إبن أخي، ولكنك امتهنت مهنة أسقطتك من حساب عشيرتنا.

: وماذا عملت؟

-: وهل نسيت ما فعلت؟

: لم أفعل إلا ما يرفع الرأس.

-: هذا في نظرك أنت.

: ونظر من يقدرون الأمور ومواقف الرجال.

-: أما نحن فإن فعلتك في نظرنا عار.

: العار والشنار لو تركت إخواني ورفاقي يحصدهم خصومهم وأنا أستطيع إنقاذهم بفكري ويدي وسيفي.

-: أوه، ليتك تركتهم يفنون عم آخرهم ولم تفعل ما فعلت

يا الله!! أهذا رأيك يا عم، وأنت الرجل الرزين العاقل؟

: نعم، هذا رأيي.

-: أتفضل فناء خيرة شباب عشيرتك على أن أعمل عملاً أنقذهم فيه من مأزقهم؟

: لقد أنقذتهم وأهلكت نفسك.

-: بماذا أهلكت نفسي؟

: باسقاط أصلك.

-: إسقاط أصلي!!

: نعم.

-: إنني إبن إخيك فلان الذي خرجتما من صلب رجل واحد وبطن واحد.

: أوه، ذلك كان بالأمس.

-: أتنكر أنني إبن أخيك؟

: لا، لا أنكر ذلك، ولكن ما فعلته جعلك تسقط من عيني، وبالتالي فلن أزوجك إبنتي.

-: لن تزوجني ابنتك!؟

: نعم، فوالله لن تمس يدك بشرتها.

-: لا تنس أنك أقرب الناس إليّ.

: وإن يكن.

-: هذه ابنة عمي وقد «حَيَّرْتَهَا» عن غيري.

: لا تستطيع «تحييرها».

-: ألا يحق لأبناء العم «تحيير» بنات أعمامهم حسب العرف القبلي؟

: ومتى كنت تعترف بالعرف القبلي الذي كفرت به؟

-: كفرت به!!

: نعم، لوكنت تحترمه لما فعلت ما فعلت.

-: يا الله!! كأنني أطبقت السماء على الأرض!؟

: هذا ما لا يقدر عليه غير الله، أما أنت فلا تستطيع.

-: لا أقصد ذلك، وإنما كأنني فعلت فعلة نكراء.

: وهل هناك أشنع مما فعلت؟

-: يا عم، لا تكن متعصباً لهذه الدرجة، فالمفروض فيك أن تكون عاقلاً تميز بين الغث والسمين من الأمور الملتبسة.

: وهل فهمت بأنني مجنون؟

-: لم أقصد ذلك.

: إذا، ماذا تعني؟

-: إن هدفي، أن أمر كهذا لا يستدعي منك كل هذا الاهتمام، فلو أنني ارتكبت جريمة كبيرة لما بلغ بك التعصب لهذا الحد.

: كل شيء يهون إلا هذه.

-: ولماذا كل هذا التهويل؟

: التهويل!! ألا تعلم أن حينا بأكمله سيعيرني إذا أنا زوجتك؟

-: إيه، بماذا يعيرونك؟

: بأنني قد زوجت ابنتي هذا الصانع.

-: ألست منكم؟

: بلى، ولكنني لن أزوجك.

-: ومن يزوجني إذاً؟

: عليك أن تخطب أي فتاة بالحي غير ابنتى.

-: إذا كنت عمي وشقيق إبي ولم تــزوجنى، فكيـف تــريــد من الآخــريـن أن يزوجوني.

: ذلك شأنك مع من تخطب منه.

-: أرجو أن تفكر في الأمر جيداً.

: الأمر لا يحتاج إلى تفكير.

-: ولم؟

: الأمر واضح جلي، فقد اختطيت لنفسك طـريقاً سـوف تسلكه أنت وأبنـاؤك من بعدك.

-: أي طريق تعني؟

: أعني أنك انفصلت عن عرف القبيلة، وعليك أن تتحمل نتائج عملك.

-: هذا يعني أنك لن تزوجني؟

: وهو المؤكد.

-: هل رأيت مني تقصيراً في أمر من الأمور؟

: حاشا لله.

-: وهل تنتقدني بأمر من الأمور الدينية؟

: معاذ الله.

-: هل رأيت بي مثلبا يحط من قيمتي؟

: كلا، ماعدا فعلتك تلك.

-: هذه لا تحط من قدري ياعم، عليك أن تسأل عقيد القـوم عن أفعالي عنـدما اشتد القتال.

: لا أشك في أفعالـك، وأعرف مـواقفك جيـداً وهي في مجملها تـرفع الـرأس وتشد العزيمة.

-: إذا لماذا كل هذا اللت والعجن؟

: إنني أخشى المعيبة من الناس!! ألا تعلم؟

-: أي معيبة تعني؟

: أوه، أنت أدرى بها.

-: عليك أن تزوجني إبنتك إذاً وعلي تحمل كامل ما يحدث.

: هذا مستحيل.

-: لماذا.

: لا داعي لتكرار الكلام، ولك علي أية مساعدة تطلبها والوقوف إلى جانبك في أي موقف ما عدا التزويج.

-: لا أريد منك أية مساعدة مادية، فقد أغناني الله من فضله ولست بحاجة إلى مساندتك لأنني آخذ حقي بنفسي فلا أنتظر مساندة أحد غير الله.

: إذا ما دمت مستغنيا عني فلماذا تضايقني هكذا «طِسْ بَالذّيْ مَا يَا قَاكْ وَلاَيْرْعَاكْ».

-: لم أضايقك وإنما جئت خاطبا إبنتك باعتبارها إبنة عمي هذا كل ما حدث.

: أما هذه فهي أبعد عليك من الثريا.

-: هل في نفسك علي شيء؟

: ماذا تعني؟

-: أعني أن بعض الأعمام قد يكون في أنفسهم شيء ما على أبناء أخوانهم، وعندما يتقدم أحدهم لخطبة ابنة عمه يلجأ العم إلى إظهار كوامن نفسه ولواعجها فيجعلها عقبة أو عقبات يتشفى بها من إبن أخيه.

: لم أفهم ما تعنيه.

-: أقول إن بعض الأعمام إذا جاءه ابن أخيه خاطبا، أبرز له ما في نفسه من أضغان وغلفها بأمور قد تكون المغالات في المهر بما لا يستطيع الزوج تحمله أو تكون بشروط عسيرة يصعب تحقيقها وقد تكون لأسباب واهية أخرى حتى يتخلص من ابن أخيه أو قريبة.

: أتعنيني بهذا الأمر؟

-: لإن عنيتك فلقد سبقك إليه آخرون كثيرون منذ ما قبل عصر النبوة وحتى وقتنا الحاضر.

: إسمع مني سواء حللت أو عللت فلن أزوجك ابنتي.

-: الغرض في نفسك؟ أردت أن تقنعه بما تدعيه عليّ؟

: إنني حر في قراري هذا، وكما تشاء أن تعلله أو تحلله لن أقبل لك صرفا

ولا عدلاً.

-: إذا، مع السلامة وسأجد خيراً منك.

ويدنف الفتى إلى ابن عم له فيخطب إليه ابنته حيث فاتحه في الأمر قائلاً:

: لقد أتيت إليك يا ابن العم طالباً يد ابنتك.

-: أنت تطلب يد ابنتي!!

: نعم وماذا في الأمر؟

-: ولك وجه بأن تسألني نفس هذا السؤال؟

: وماذا في ذلك؟

-: المفروض ألا نحدثك مجرد حديث فضلاً عن أن نزوجك بناتنا.

: ماذا تقول؟

-: أقول ما سمعت.

: دعنا نتكلم بمنطق الجد تاركين المزاح جانباً.

-: إنني لا أمازحك، إن ما أقوله لك هو الجد بعينه.

: الجد بعينه!!

-: وماذا تريد أن تفعل؟

: دعنا من التزمت الذي لا لزوم له.

-: أي تزمت تعني؟

: أقصد أنني جئت إليك لغرض معين ولابد أن يكون حديثنا لهذا الغرض بالذات.

-: إنني أرفض رفضا قاطعاً ماجئت من أجله.

: ولماذا الرفض؟

-: ألم يخبرك عمي؟

: بماذا؟

-: ألا تعلم أن سكان هذا الحي قد اجتمعوا في ليلة واحدة واتفقوا على عدم تزويجك فيها لو تقدمت إلى أحد منهم وذلك خشية أن يعم العار حينا؟

: إتفقوا على عدم تزويجي!!

-: نعم، وهذا ما حدث في بيت عقيد القوم.

: عند العقيد!!

-: نعم وبحضور إخوانك أيضاً.

: هذه مؤامرة ضدي.

-: سمها كما تشاء، ولا تتعب نفسك في الذهاب إلى فلان أو علان لتخطب منه، فسوف تلقي نفس الرد إن لم يكن أقسى منه.

: هاه، هذا والله الظلم بعينه.

-: بل قل إنه العقاب الرادع لك ولأمثالك.

: هذا والله جزاء سنمّار المذكور.

-: حتى لا تسول لأحد نفسه أن يحذو حذوك.

: معنى هذا أنكم تريدون القضاء عليّ.

-: وستبقى لوحدك منبوذاً، ومقطوعاً من العشيرة.

: آه، لن تقضوا علي أبداً.

-: بل سنحطمك، ولن يكون لك ذرية من بعدك.

: يأبى الله ذلك، فلن أبقى في هذا الحي وسأنتقل إلى أحياء أخرى من العرب حتى أجد من يزوجني.

-: أوه، إن الأحياء المجاورة لنا قد علموا بفعلتك ولن تظفر من عندهم بسوداء جديلة.

: سأذهب إلى أبعد من ذلك.

-: أما البعيدين فسوف يطلبون منك أن تنتسب لهم وعند ذلك سيسألون عنك في حينا وسيجدون الخبر اليقين، أفهمت!!

: لن أبقى على الذل أبداً؛

-: ماذا تعني؟ إنك من الذل والذل فيك.

: إن قوماً ينظرون إليّ بهذا المنظار لن أبقى بينهم.

-: هه، ألا تعلم أنهم يفرحون بفراقك إياهم.

: ماداموا كذلك فإن فرحتي أشد عند فراقهم.

-: أوه، إنهم لا يعترفون بك أصلاً، فقد نبذوك من عشيرتهم.

: ولن أنتسب إليهم.

-: لمن تنتسب إذاً؟

: «للشيطان الرجيم» فهو خير منهم.

-: هل وصل بك الغضب إلى هذا الحد؟

: إذا كان ما قلته من اجتماعهم واتفاقهم ضدي صحيحاً فلن أبقى في هذا الحي ليلة واحدة.

-: لم أخبرك إلا بالصحيح وعليك أن تسأل غيري كي تتأكد مما أقوله لك.

: إذا كنت ابن عمي وتؤكد لي هذا الخبر فلا حاجة لأن أسأل عنه أحداً.

-: الأفضل أن تتأكد.

: لن يحدث ذلك، ومن الآن فصاعداً لا تعتبروني واحداً منكم.

-: أوه، «يَاحْلَيْلَكْ» لقد اتفقنا على ذلك وقررناه قبل أن تقرره أنت.

: إذا، مادام الأمر كما ذكرت، فإنني لست منكم، وعليَّ تبعات ما سأفعله في المستقبل.

-: إنني أخشى أن ترتكب جرائم في المستقبل ونتحمل تبعتها.

: أما قلت أنكم اتفقتم على استبعادي من حساب أفراد القبيلة؟

-: بلى، بلى، ولكن ذلك لا يكفي حتى يجتمع أفراد القبيلة وتكون معهم ويتم هذا القرا.

: لا أستطيع رؤية تلك الوجود مرة أخرى تجتمع من أجلي.

-: آه، ولكننا لا نأمن مكرك.

: لن يأتيكم مني إلا الخير رغم موقفكم السيء مني.

-: لست مصدقا بما تقول.

: صدق أو لا تصدق ثم أيعقل أن رجلاً خذله إخوانه وأعمامه وأبناء عمه وأفراد عشيرته أن يذهب منهم ولا يكون في نفسه عليهم من الأحقاد ما يوقر الجبال.

-: ليس الحقد من طبعي.

: أخشى أن تغدر بنا؟

-: لم يكن الغدر من شيمتي.

: هذا إدعاء تدعيه.

-: بل هو الواقع الذي لن أحيد عنه.

: ما هو الميثاق الذي يضمنك؟

-: ضميني هذه الكلمات التي قلتها لك.

: الأفضل أن نأخذ عليك عهداً بذلك.

-: وأنا لن أعطى أحداً ميثاقاً.

: حتى عقيد القوم؟

-: والله لئن تجرأ أحد وقابلني لهذا الغرض لأذبن رأسه بهذا السيف كائن من كان.

: هذا دليل غدرك.

-: إنك لا تفهم معنى الغدر.

: أنا لا أفهم!!

-: نعم، فالغدر هو نقض العهد، أما أنا فلم يحصل بيني وبينكم أي شيء ومن سيواجهني الآن فسيلقى حتفه لا محالة.

: هاه!! ماذا تقول؟

-: أقول والله لو لم تكن ابن عمي وأنا ضيف في بيتك لتركتك الآن تتخبط بدمك.

: دعك من المزاح.

-: ومتى رأيتني مازحاً في مثل هذا الموقف؟

: هاه، لم أقصد ذلك.

-: إذا، أستودعك الله، ولن ترى وجهي مرة أخرى.

: عليك أن تصبر حتى الصباح فقد يغير القوم رأيهم.

-: لا حاجة لي بهم ولا برأيهم.

: وبيتك لمن تتركه.

-: للبوم يلعى به.

وتجند الفتى سيفه وغادر الحي متوجها إلى حي آخر وصله مع الصباح الباكر،

ومر به مدعيا أنه يبحث عن بعير ضائع، وهكـذا استمر يتنقـل من مكان إلى آخـر حتى ابتعد عن المنطقة التي بها عشيرته الأقربين منتحلاً لنفسه لقبـاً جديـداً لا يمت إلى قبيلتـه الأصلية بصلة، وكلما سـأله أحـد عن قبيلتـه أجـابهم أنـه لا قبيلة لـه، وعندما ألحَّ عليه بعض من يعرف لهجة قبيلته ويؤكد لـه أنه من تلك القبيلة إدعى أنـه عاش معهم فتـرة طويلة واصـطبغت لهجته بلهجتهم ثم اشتغـل بالـرعي تارة وبمشاركة الغزاة على فترات متفاوتة، وشيئاً فشيئـاً حتى كون نفسـه، وابتنى له بيتـاً من الشعر، وتكونت لديه ثروة طيبة من الإبل والأغنام وأصبح بيته مقصد الرجال ومنتداهم، حتى صار رجلاً مرموقاً يستدلون برأيه ويتبعون مشورته، مما جعـل كل فتاة ترغب لو تقدم لخطبتها، لكنه لم يفعل ولم يخبر أحداً بقبيلته الأصلية خشيـة إن هو كشف عن هويتـه أن تبدأ التسـاؤلات حولـه، ففضل أن يبقى مجهـولاً عن أن تتقاذفه ألسنة أرذال الناس، بل اكتفى بالبقاء مع رعيـان مواشيـه في بيته وفي أحـد الأيام ذهب للبحث عن بعير له وأدركه الليل فضوى عـلى حي من العرب، وحـل ضيفا على أقرب بيت يواليه، وبعد العشاء جلس المضيف مع ضيفه يتحدثـان على نور تلك الليلة المقمرة حين قال الضيف:

-: من يكون أهل هذا الحي؟

: إنهم من القبيلة الفلانية.

-: القبيلة الفلانية!!

: نعم، ولماذا الاستغراب؟

-: أليسوا قبيلتك؟

: بلى، بلى.

-: آه، لكن لهجتك ليست لهجة تلك القبيلة.

: أجل، إنني منهم.

-: لا أشك في ذلك ولكن..

: هداك الله إيها الضيف الكريم، ولماذا كل هذه الأسئلة؟

-: إسمح لي إذا كنت قد أسأت الأدب، أو تجاوزت حد الذوق.

: عفـواً، لم أقصد ذلـك، ولكني أقول إن بعض الضيـوف قـد يـدعـوهم حب المعرفة إلى السؤال عن كل شيء.

-: سامحني عما مضى مني، وإن الدافع كما ذكرت هو حب المعرفة.

: لا عليك، وهذا شيء واجب معرفته، إذ ربما ضاف الإنسان قبيلة أو حيا من قبيلة قد تكون بينهم وبين قبيلته بعض الإشكالات فيتحاشاها.

-: عليك أن تطمئن من هذه الناحية، فإنني لا أنتمي إلى قبيلة معينة.

: لا تنتمي إلى أية قبيلة!؟

-: وما العجب في ذلك؟

: إن لهجتك تدل على أنك من القبيلة الفلانية.

-: صدقت، لقد عشت معهم فترة طويلة تأثرت فيها بلهجتهم.

: آه، أجل والله إن من يسمعك يحلف أنك أحد أفراد تلك القبيلة.

-: صحيح، ولكن أصدقني القول من أين أنت؟

: لماذا تشك في انتمائي إلى هذه القبيلة؟

-: آه، إن في لسانك لَكْنَةً خفيفة تجعلني أشك في ذلك.

: لكنه!! لست أعجمياً حتى يوجد عندي ما ذكرت.

-: لم أقل ذلك، واعرف أنك من أحدى القبائل العربية ربما في وسط نجد أو جنوبها.

: كيف عرفت؟

-: لقد عرفت لهجتك التي تحاول أن تخفيها في لهجة هذه القبيلة ولكنها تظهر بين كلمة وأخرى.

: أبداً، قد لا تكون مصيباً.

-: أنا!! والله لئن صدق حدسي فإنك من القبيلة الفلانية أو تربيت في حي من أحيائها.

: وأنت إذا صدق ظني فأنت أحد أفراد تلك القبيلة التي أدعيت أنك عشت بينهم وقتا معينا.

-: أنا لم أنكر ذلك، فقد عشت في كنفهم بالحلف لمدة طويلة.

: بالحلف!!

-: نعم،

: أجل، إنك تشبه. . .، أجل بالحلف يعيش بعض الناس حينما ينضوون

تحت كنف قبيلة قوية.

-: آه، كأنك أردت أن تقول شيئاً فكتمته؟

: أبداً، هذا ما أردت قوله، ولكن في بعض الأحيان يتلعثم لساني.

-: لا بأس عليك، لا بأس، كأني بك تريد أن تقول: تشبهني، أليس كذلك؟

: لم أرد هذا.

-: أخبرني بربك، عن حقيقة أمرك، وتأكد أن ما تقوله لي لن يخرج من لساني لكائن من كان من البشر.

: لا تسألني بربي، فالسؤال فيه يتطلب مني الاجابة.

-: لقد سألتك بفارض خمسك أن تخبرني.

: وتعاهدني على أن تحفظ سري؟

-: عليك عهد من الله وميثاق.

: هل حولنا أحد؟

-: نحن في بيتك، وليس به غير أهلك.

: دعني أتأكد، هل هن قريبات منا ويسمعن حديثنا؟

-: أتعني زوجتك؟

: نعم، زوجتي وبناتي، إنهن حتى الآن لا يعرفن ما سأقوله لك.

-: وهل يعقل أن زوجتك وبناتك لا يعرفن عنك شيئاً؟

: أنت تعرف بعض النساء لا يحتفظن بالسر.

-: لك ما تشاء.

: لقد ذهبن لحلب الغنم.

-: هاه، أعطني ما عندك.

: الواقع أنني أعيش مع هذه العشيرة من القبيلة الفلانية بالحلف كما كنت مع تلك القبيلة حسب ادعائك أما في الأصل فلست منهم.

-: حسنا، ومن أين أتيت إليهم؟

: لقد أتيت إليهم من مكان بعيد، وبعيد جداً.

-: كان الله في عونك، وهل كان للطمع في أي شأن من شئون الحياة أثر في نزوحك عن ديار قومك؟

: لا والله يا أخي ، لكن الظروف والأقدار تحكم مصير الإنسان شاء ذلك أم أبى .

-: عسى أن تكون ظروف خير؟

: لا والله ، فالخير بعيد عنها.

-: هاه، ماذا تقول؟

: تعلم أن الإنسان لا يجلي عن ديار قومه إلا لظروف سيئة، إما بسبب الحاجة والعوز أو بسبب الثارات .

-: هل أنت بحاجة؟

: الحمد لله إنني في غنى في نفسي بما قسم الله لي .

-: إذا، من المؤكد أن الذي جعلك تنزح عن أهلك هو العامل الثاني .

: بالفعل .

-: كيف حدث ذلك؟

: آه، كيف حدث؟ ليكن في علمك أن محدثك هو فلان ابن شيخ العشيرة الفلانية من قبيلة كذا .

-: آه، لقد صدق حدسي، أكمل رعاك الله .

: في أحد الأيام ابتلاني واحد من أفراد عشيرتنا بشره فقتلته وثار إخوته ووالده يطالبون بدمه، فحاولنا دفع الدية فلم يقبلوا إلا بالقصاص، وفشلت كل الجهود لاقناعهم بذلك، عندئذ تواريت عن الأنظار لمدة خمس سنوات غادرت فيها أرض قبيلتي ووصلت إلى مشارف العراق فعملت راعياً عند عقيد القوم بذلك الحي من العرب لمدة ثلاث سنوات دون أن يعلم من أي قبيلة أنا، وحصل بيني وبينه مودة وثقة لدرجة أنه قد زوجني ابنته التي هي أم بناتي .

-: يا الله!! زوجك دون أن يعرف من أين أنت؟

: كان الرجل عاقلاً، فعندما خطبت منه إبنته ذات يوم قال لي: يا بني، إنني أعلم يقينا أنك عربي صميم ومن أرومة عربية صحيحة، لما تتحلى به من الشجاعة والمروءة، والكرم والصدق والأمانة والطاعة لله تعالى، ولكن ظروفاً معينة قد جعلتك تخفي علينا اسم قبيلتك، ولكن مادمت جئت تخطب ابنتي

وأنت كفؤ لها فقد زوجتك إياها.

-: الله!! ليت عمي كان كذلك.

: عمك!!

-: نعم، لقد كان له موقف مناقض لموقف هذا الرجل الكريم تماماً.

: هل منعك من زواج ابنته؟

-: نعم، وسأقص عليك قصتي فيما بعد، أكمل قصتك.

: بعد أن تزوجت مكثت عنده خمس سنوات أخرى حتى انتقل إلى جوار ربه يرحمه الله.

-: ألم يعارض أقاربه هذا الزواج؟

: بلى، لقد عارضوه، آه، وكانت هذه المعارضة السبب الرئيسي في تركي لذلك الحي والانتقال إلى هذا الحي الذي أعيش فيه.

-: هل يعني هذا أنهم ضايقوك بعد وفاة صهرك؟

: نعم، عندما كان حيا لم يتجرأ أي إنسان على التلفظ بكلمة واحدة أما بعد وفاته رحمه الله فقد طلب مني أبناء عم زوجتي أن أطلقها فأبيت ورحلت معي زوجتي وبناتي فأبعدنا عنهم.

-: هل لك رغبة في الرجوع إلى أهلك وديار قومك؟

-: لا والله، لقد انتقل أبي إلى جوار ربه، وجاءني من أخواني دعوة يخبرونني فيها بأنه تم الصلح مع أهل القتيل ودفعوا لهم الدية وانتهى كل شيء ولكن ليست لي الرغبة في العودة إلى تلك الديار.

-: لماذا؟

: لأنني وجدت دياراً أحسن منها، وأناساً طيبين إلى أبعد الحدود، وقد ولفتهم وأندمجت معهم وتعزيت بهم عن أفراد قبيلتي وأبناء عشيرتي.

-: قد يكون عدم رجوعك بسبب ضيق ذات اليد، فإن كان هذا السبب فوالله لأعطينك من المال ما يكفيك ويرفع رأسك ويجعلك تحتل مكانة أبيك بين أفراد عشيرتك.

: كثر الله خيرك على شعورك الطيب، فوالله لو كان ما يمنعني هوا المال لبينت لك ذلك، ولكن ما يمنعني هو عدم الرغبة في العودة إلى تلك الديار مادمت

قد وجدت هؤلاء الأجواد الكرماء أبناء هذه القبيلة.

-: ألا تجد مضايقة من بعض سفهاء الحي، سيما وأنك مجهول النسب عندهم؟

: أبداً، فوالله لم تطرق أذني منهم كلمة واحدة منذ أن حللت بهذا الحي قبل بضع سنوات.

-: حسنا، هذا ما يدل على كرم الضيافة عندهم.

: ونعم الرجال، كرماء للضيف، عونا للمظلوم سنداً للضعيف، حماة للجار.

-: ليس لهم فضل في ذلك، فهم من هذه القبيلة المشهورة في هذه الخصال.

: أوه، لا تقل هذا يا أخي فلكل قبيلة حثالة.

-: لا شك لا شك، ولكن مثل هؤلاء لا يحرص المرء على مجاورتهم.

: ألك رغبة في مجاورتنا؟

-: قد أفكر في الأمر مستقبلاً.

: حياك الله وبياك، ألم تخبرني عن قصتك؟

-: سأخبرك بالتفصيل.

: هات.

-: إنني بالفعل من القبيلة الفلانية التي أخبرتك عنها.

: ولماذا حاولت أن تخفي نفسك؟

-: هاه، لا أدري.

: ألا تعلم أنني عرفت أنك من تلك القبيلة بمجرد أن تحدثت معي؟

-: وهل أصبحت عرّافة بلهجات القبائل؟

: تعرف يا صاحبي أن الإنسان مع طول الوقت والاختلاط مع أفراد من كل قبيلة أصبح يدرك لهجات كل قبيلة بل وكل عشيرة.

-: لا يدرك مثل هذه الأمور إلا ذوو الحس المرهف.

: ولكنك لم تجبني عن سؤالي الآنف؟

-: الواقع يا أخي أنني حاولت إخفاء نفسي بسبب حادثة حصلت لي في عشيرتي.

: أوه، إن بعض الحوادث هي التي تتحكم في مصائر الناس، عسى ألا تكون مشكلتك مثل مشكلتي؟

-: لم تكن كذلك.

: ما هي إذا؟

-: مشكلتي أنني أنقذت رفاقي في إحدى الغزوات من موت محقق وهلاك ماحق، فتحملت أعباءها.

: إن من ينقذ رفاقه من مثل هذه التهلكة لا يعتبر في مشكلة، كيف حصل ذلك؟

-: كنا مجموعة من الاخوة وأبناء العم من عشيرة واحدة في غزوة من غزاوتنا، فحفيت خيلنا في أرض الحماد، وكان العدو أمامنا والحماد خلفنا، وسننتهي إلى هلاك مؤكد دون أن نبلغ الغاية التي قدمنا من أجلها، ولما تأكدت من ذلك بادرت باحضار عدة الحدادة، وحذوت خيل رفاقي التي استطعنا على صهواتها تحقيق هدفنا والعودة إلى أهلنا سالمين غانمين، ولكن أتدري بماذا كافأني أصحابي؟

: أتوقع أنهم أعطوك حصة الأسد من الغنيمة إن لم تكن الغنيمة بكاملها؟

-: أوه، «يَامَلْ حِزْنٍ يِرُوْمَكْ حَجَرْ»!! ليتني سلمت منهم.

: سلمت منهم!!

-: نعم.

: بالله بماذا كافأوك؟

-: لقد كانت مكافأتهم لي من نوع آخر.

: ماذا تعني؟

-: لقد إحتقروني.

: إحتقروك!!

-: بل ونبذوني من العشيرة كلها.

: لأي سبب؟

-: لما ذكرته لك.

: هذا لا يستدعى مثل هذه المعاملة.

-: لقد اعتبروني «صانعا» وقرروآ عدم اعتباري من القبيلة.

: بكل هذه البساطة!!

-: كما ترى.
: على العكس، فإن صناعة باليد أمان من الفقر.
-: ولكن من يفهم؟
: خير للمرء أن يتقن عملاً يتسغنى به عند الحاجة ويكسب منه الرزق الحلال.
-: هذا الاعتبار عند من يقدرون مثل هذا العمل.
: وهل يحق لهم اتخاذ مثل هذا الاجراء وسلخك من العشيرة؟
-: لقد اجتمعوا وتمالئوا على هذا الأمر من وراء ظهري.
: من وراء ظهرك، وأنت الذي أنقذتهم من الهلاك؟
-: بل اتفقوا على أكثر من ذلك!!
: على ماذا؟
-: لقد قرروا عدم تزويجي أي واحدة من نسائهم.
: أحقا ما تقول؟
-: هذا ما حصل، فلقد خطبت من عمي فرفض.
: إيه، إنها عادة بعض الأعمام!!
-: ولكني تقدمت إلى ابن عم-لي آخر فصارحني بما تم الاتفاق عليه.
: أمن أجل هذه الحادثة البسيطة جرى كل هذا؟
-: وليتها حادثة إجرام بحق القبيلة لكان أهون على النفس.
-: علي العكس، إنها حادثة نافعة ومن مقومات الحياة التي لا تستغني عنها أي قبيلة بل ربما أي فرد من الأفراد.
: لا شك في ذلك، ولكن الأمر يحتاج إلى من يقدر مثل هذه الناحية ويرعاها ويشجعها لا من يثبط عزيمة فاعلها ويحاول تحطيمه.
-: أما سمعوا بيت الشاعر الذي يقول: ؟

٢٦٣ خَـطْوَ ٱلْمَشْتَفْ مِثِـلْ وَصْفَ العِقَـابِيْ　　　　خَمَّـايِـنْ حَـذَايِـنْ بَـالـدُّبِـيْـلَةْ[1]

: إنهم لا يبالون بما يسمعون، وإلا فا لأقوال كثيرة في هذا المعنى.
-: ماذا فعلت عندئذ؟

---

(١) هذا البيت للشاعر عسل الرمالي.

: لقد شامت نفسي ورحلت عنهم.

-: ذلك خيار ما فعلت، أين ذهبت؟

: انتقلت عند عشيرة أخرى، وكونت نفسي شيئاً فشيئاً حتى أصبحت الآن ولله الحمد رجلاً من وسط الرجال إن لم أبرز عليهم في بعض الأمور.

-: مادمت كذلك فأنا أعتبرك من خيارهم.

: «وَلاَ عَلَيْكَ زَوْدْ».

-: ألا تزال عازبا حتى الآن؟

: نعم لقد فضلت حياة العزوبية على أن أتعرض لألسنة السخفاء.

-: ولكن الإنسان لا يستكمل مقومات حياته إلا ببقية ركائزها، كما أن البيت لا يقوم إلا على كامل أعمدته، ومن هذه الركائز الصناعة التي عملت بها.

: أوه، عملت بها فكانت نقمة عليّ.

-: وهل أنت نادم على ما فعلت؟

: لا والله، بل على العكس شعرت بأنني في يوم من الأيام قد قدمت خدمة لرفاقي.

-: إذا ما الذي يضايقك؟

: هناك شعور داخلي أحس ببرارته، إذ كيف يعامل الانسان المحسن بالإساءة، ومن هذا المنطلق فقد كرهت هذا المستوى من الناس، وأصبحت يساورني القلق في أن أقع في أناس مثلهم.

-: ألا ترى أن ما يضايقك هو الوحدة في عزوبتك؟

: ليست هي كل ما يقلقني.

-: سأعرض عليك فكرة لا أدري مدى تقبلك لها.

: ما هي؟

-: هناك إنسان سيزوجكَ ابنته لتملأ عليك فراغ الوحدة، وتملأ بيتك.

: أي إنسان تعني؟ هاه!! لا أدري، لا أدري.

-: لا تتردد، ولا تخف فلن ينالك بسببه أي مكروه.

: إنني لا أخشى أحداً.

-: لم أقل ذلك،

: ومن يكون هذا الإنسان؟

-: إذا كنت موافقاً فسأخبرك به.

: كيف أوافق وأنا لا أعرفه؟

-: إنه محدثك.

: أنت!!

-: نعم، أنا فهذه إبنتي وقد بلغت سن الزواج وقد أعطيتك إياها إذا قبلتها.

: كيف لا أقبلها وهي ابنتك، لقد قبلتها حتى ولو كانت لحماً على وضم.

-: لم تكن كذلك وإنما هي إبنة سوية كاملة من أحسن الفتيات.

: لقد قبلتها، فأكثر الله خيرك، وأكثر من أمثالك.

-: لم أفعل لك شيئاً.

: وهل هنالك أكبر مما فعلت!؟

-: لقد رأيت فيك رجلاً كفؤاً لابنتي.

: عسى الله أن يعينني على رد الجميل ومعروفك الذي لن أنساه.

-: «جَمَّلْ الله حَالَكْ».

: متى يكون ذلك؟

-: لو أردت هذه الليلة فليس لدينا ما يمنع.

: لا، سأذهب وأرتحل من الفريق الذين أقطن معهم وأنزل عندكم وبعد ذلك يتم الزواج.

-: كما تريد.

وفي فترة قصيرة يتم الزواج وترتحل الزوجة إلى بيت زوجها، ويعيش الزوجان حياة سعيدة حسب متطلبات ذلك الوقت، وبعد بضع سنوات يحل ضيف ثقيل على المنطقة بأكملها، ذلك هو الدهر الذي أجدب بالأرض فيهلك ما عليها من المواشي، وتقع مجاعة ساحقة، وتقع شدة وطأتها على سكان البادية فهرعوا إلى القرى والمدن بأنفسهم وما استخفوا من متاعهم، ولما كانت القرى أحسن حالاً نوعاً ما من المدن، فقد وجد هؤلاء، القليل من الطعام وكل بدوي له رفيق من الحضر إلتجأ إليه وجاوره، فأحسن هذا جواره وأسكنه في جزء من داره

أو بستانه، ومن ضمن من سكن من أبناء البادية، هذان الرجلان فقد حلاّ عند رفيق لهما في جزء من داره بأسرتيهما فترة من الزمن، ولما كان الرزق نطافاً في المجتمع بأسره، فكان كل إنسان يعمل المستحيل للحصول على قوت يومه، وذات مساء، جلس الرفيقان وقال أحدهما للآخر:

-: يا الله، ما أشد وقع هذه السنة؟

: لم تكن سنة واحدة، بل هي ثلاث سنوات متوالية جثمت بثقلها شيئاً فشيئاً على صدور الناس، وكادت أن تكتم أنفاسهم وكانت هذه السنة أشدها، وهي ثالثة الأثافي.

-: لم أر بعيني ولم أسمع ممن يكبرونني سنا أن واجه الناس سنة أقسى من هذه السنة منذ حوالي سبعين سنة مضت.

: الواقع أن بعض الناس بلغ به الفقر مبلغا جعله يضحى بأنفس الأشياء لديه في سبيل حصوله على لقمة العيش.

-: وليتها لقمة تسوى ما يبذل في سبيلها.

: إنها على بساطتها وقلتها صعبة المنال.

-: والله لم يبق لدي من المقتنيات والسلاح غير هذا السيف.

: أين سيفك الثاني؟

-: لقد بعته اليوم بثمن بخس.

: بكم بعته!؟

-: بصاعين من الشعير.

: يا الله!! بصاعين فقط؟

-: وكان للمشتري الفضل في هذا.

: يا «غَمِيْضَةْ» ذلك السيف الصمصامة.

-: ولكن حياة أطفالي أهم من اقتنائه، ولدي سيف لا يقل عنه سأحتفظ به، إيه!! عند الحاجة «تُبَاعْ الكُحَيْلَةْ بْوَجْبةْ لَيْلَةْ».

: مادامت الأمور قد بلغت إلى هذا الحد، فقد آن الأوان للعمل.

-: العمل!! أي عمل تعني؟

: الصناعة التي أتقنها، أنسيت ذلك؟

-: لا ، ولكنك لا تعرف غير صنعة حذاء الخيل ، وهذه لا وجود لها الآن .

: لا تقل ذلك يا أبا فلان .

-: كيف؟

: إنني أعرف أو أتعلم لعدة أنواع من الصناعة .

-: هل تجيد شيئاً غير ذلك؟

: نعم «مِنْ لُهْ عْيُونْ وْرَاسْ يَعْمَلْ مَا عَمِلْ النَّاسْ» كما يقول المثل .

-: مادمت كذلك فعلى بركة الله .

: ولكني أريد من يساعدني .

-: أتحتاج وأنا إلى جانبك؟

: أتستطيع مساعدتي؟

-: أنا ساعدك الأيمن .

: إذا ، فإنني أحتاج إلى العدة اللازمة فكيف الحصول عليها .

-: ستجدها بالمدينة .

: ولكن من أين لي «السُّلْم» الذي أشتريها به .

-: صحيح ، إن الدراهم والجنيهات من الصعب الحصول عليها .

: هذا ما يحيرني .

-: دعني أفكر في الأمر، فلدي رفيق من تجار المدينة لعلني أجد عنده التمويل الكافي لشراء هذه المعدات .

: إذا، ننزل للمدينة سويا، وعليك بالحرص على ذلك .

-: على بركة الله، وسوف لن يخيب رفيقي ظني فيه .

وترك الإثنان القرية إلى المدينة ولبى التاجر طلب رفيقه فأمده بالمال اللازم لشراء ما يحتاج من عدة الصناعة وعاد الرجلان وفتحا لهما مكانا لممارسة هذه المهنة وتكاثر لديهما العمل، ومع استمرار العمل زادت خبرتهما فأتقنا كثيراً من الأعمال في حقل صناعتهما وتفننا في صناعة بعض التحف التي تبهر أعين الناظرين إليها، وصار الناس يلتفون حول مشغلهما ليروا مثل هذه المنتجات حيث دار هذا الحديث بين شيخ كبير ورجل آخر سأله .

-: يا الله، ما أجمل هذه الأدوات التي يصنعها هذان الرجلان؟

: إيه، يا ولدي من تردد في شيء أعطي حكمته.

-: ولكن كيف عرف هذان الرجلان إتقان هذه المهنة؟

: يا بني كل إنسان أعطاه الله عقلاً وتردد في عمل معين إذا كان لديه الذكاء الكافي أبدع في عمله وتفنن فيه.

-: لكنهم «شياطين» يعرفون كل شيء!!

: يا بني لا تقل هذا، ألست فلاحاً جيداً تجيد عمل الفلاحة بفضل ترددك فيه؟

-: بلى، بلى.

: ألا تدري أن بعض الناس ممن لا يعرف صعود النخل يرى الغرابة في سرعة صعودك للنخلة الطويلة «بالكر»؟

-: هاه!! ولكن هذا بسيط بالنسبة لما يفعلانه.

: أوه، كل إنسان يتقن عملاً يرى أنه بسيط بالنسبة إليه، بينما يراه غيره صعباً أو فيه نوع من الإعجاز.

-: لا أصدق.

: لماذا لا تصدق يا بني؟

-: مثل هذه النقوش والزخارف لا يتقنها إلا الذين هم من بعيد الديار.

: أبداً، إنها بسيطة بالنسبة لمن يمارسها.

-: أرأيتك ممن يكون الرجلان؟

: لا أدري يا بني، ولكن لهجتهما لهجة القبيلة الفلانية.

-: القبيلة الفلانية!!

: نعم، ولو أن أحدهما في بعض الأحيان تجد فيه لكنه غريبة عن تلك اللهجة.

-: إنني أشك أنهما عربيان؟

: وهل في ذلك شك؟

-: نعم.

: ما موضع الشك؟

-: إن العرب لا يصنعون وإن صنعوا فإنهم لا يتقنون الصنعة مثل هؤلاء.

: وما يدريك أن العرب لا يصنعون؟

-: أدري.

: والله «مَاعِنْدَكْ مَا عِنْد جِدِّتِيْ» يا بني.

-: أنا!!

-: نعم أنت، ومتى طلعت على الدنيا حتى تحكم على أن العرب لا يصنعون.

: هاه!!

-: ألا تعلم يا بني أن العرب بعد أن شملتهم الحضارة الإسلامية منذ بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم قد برزوا بالصناعات على مختلف مستوياتها ووصلوا فيها حداً جيداً من الروعة والإتقان؟

: وما يدريك يا عم؟

-: أوه، أنا ما يدريني؟

: نعم، إنني أتساءل.

-: لقد سمعت الكثير ممن يكبرونني سنا لجيل بعد جيل وذهبت يا بني مع «الحَدْرَة» ومع تجار الإبل إلى العراق ودخلت بغداد والبصرة والنجف والموصل ورأيت بعيني المصنوعات العربية الرائعة في مختلف شئون الحياة.

: أريتك، هل سكان العراق عرباً؟

-: يبدو أن تفكيرك ضيق يا بني لا يتعدى حدود قريتك؟

: كيف؟

-: أجل تسألني عن سكان العراق أهم عربا أم لا ؟

: وهل على سائل من حرج؟

-: أبداً، أبداً، فسكان العراق جلهم إن لم يكن كلهم من القبائل والعشائر العربية الذين نزحوا من الجزيرة العربية، ومنهم أبناء عمنا الذين يملؤن الجزيرة الفراتية فضلاً عن المناطق الأخرى.

: وهل لنا أبناء عم هناك؟

-: هناك الكثير منهم، فكل من رصته الحاجة أو ضهده رفاقه لجأ إلى العراق.

: وماذا رأيت غير العراق؟

-: لقد رزت الشام في أعمال تجارية ودخلت مدينة دمشق وحلب وحمص وحماة وبيروت، وذهبت إلى فلسطين فزرت القدس الشريف وغزة وحيفا ويافا.

: الله!! متى رزت كل هذه الأمصار؟

-: لقد زرتها عندما كنت اشتغل بتجارة الإبل والخيل مع «عُقَيْل».

: وماذا رأيت فيها؟

-: رأيت فيها الكثير من الأشياء، ومن ضمنها الصناعات المختلفة موضع حديثنا، وهي التي يعمل بها إخواننا العرب وغيرهم وقد توارثوها كابرا عن كابر.

: أيعنى هذا أن الصناعة قديمة لدى العرب؟

-: أوه، يا بنى إن عمرها أكثرها من ألف سنة!!

: لماذا لم نعلم بها؟

-: الإنسان القابع في قريته أو المنزوي في أحد جوانب البراري الواسعة لا يدرك إلا بما تحيط به أفقه ولا يعرف ما وراء ذلك.

: ماذا تعنى؟

-: أعنى أن المرء كلما سافر وتنقل خارج البقعة التي يعيش فيها رأي أشياء لا تخطرْ على باله ولم يسبق أن رآها.

: مثل ماذا؟

-: ألا تعلم أن سوق النحاسين في دمشق يساوي مساحة قريتنا كاملة.

: بمساحة قريتنا!!

-: نعم، وربما أكبر، وكذلك سوق الصناع في بغداد يوازيه إن لم يزد عليه.

: هذه المعلومات جديدة عليّ، لم تحدثني بها من قبل.

-: لأنك لم تسأل عنها، ولم تحضر مجالس الرجال عندما يعودون من الأسفار ويقصون على الناس أخبار ما شاهدوا.

: أحقاً أن من يشتغل بالصناعة هناك عرباً؟

-: نعم، يا بني إنهم عرب من عشائر وقبائل عربية صميمة ومعهم غيرهم.

: إذا، كيف نعيب على من يشتغل بالصناعة عندنا؟

-: هذه نتيجة الجهل يا بني.

: الجهل!!

-: نعم، ألا تعلم أن الناس أعداء ما جهلوا؟

: لم أفهم ما تقصد.

-: كل أمر من الأمور يجهله الإنسان يكون عدواً له حتى يعرفه ويطمئن إليه فعندئذ يصبح أصدق صديق له.

: وما دخل هذا بموضوعنا؟

-: إنه في الصميم يا بني، فالصناعة كما ترى يحتقرها البعض ويغمطون من حق الذين يشتغلون بها وربما عدهم البعض في غير مستواهم الاجتماعي بينما هي في الحقيقة خير ونعمة وخدمة للمجتمع ومهارة في يد الإنسان يعمل بها متى احتاج إليها، أما سمعت المثل القائل صناعة باليد أمان من الفقر؟

: أما هذا المثل الأخير فإنني أقره واصدقه تماماً.

-: كيف؟

: إن هذين الرجلين عندما قدما إلى قريتنا كانا في حالة يرثى لها من الفقر والعوز، والآن تحسنت أوضاعهما وأصبحا من أغنياء الناس.

-: هذا بلا شك المردود العملي لعملهما وجدهما واجتهادهما.

: ولكني أشك..

-: بماذا؟

: يساورني الشك في أنه قد دكَّ بهما عرق من بعيد أو قريب أثر عليهما في هذه المهنة؟

-: أوه، يا بني أنت ممن يعزون كل شيء لتأثير الوراثة.

: كيف؟

-: دعني أبين لك، إذا برز الإنسان في أي مجال من مجالات الحياة قالوا، إنه قد أثر فيه كذا وكذا، وإذا تخاذل إنسان في أي مجال قالوا قد أثر عليه كيت وكيت، ناسين أن هناك مؤثرات أخرى من تربية وذكاء، وفهم، وقرامة، وفوق هذا كله إنها موهبة من مواهب الله التي يقسمها بين عباده.

-: لاشك في ذلك، ولكني لا أزال أشك في أنهما يعودان إلى قبائل عربية.

: وما دليلك على هذا؟

-: لو كانا كذلك لما عملا بالصناعة.

: أوه، لقد عدنا إلى ضيق الأفق مرة أخرى، الا تعلم يا بني أن جل سكان

هذه الجزيرة إن لم يكن كلهم عدا العنصر الأسمر القادم من وراء البحر كلهم من القبائل العربية الصحيحة، وحتى العنصر الأسمر كذلك يعودن إلى قبائل وعشائر عظيمة في بلادهم.

-: إذا، لماذا لم يعرفا بأصلها؟

: قد يكون هناك موانع لا نعرفها، فقد يكون الخوف من ملاحقة الثارات كما تعرف أو بدافع الفقر والعوز، أو البعد عن الديار من أسباب عدم أظهار اسميهما.

-: إنني أظن لو بحثنا عن أصلهما البعيد لما وجدناه يمت إلى قبائل عربية.

: إنك تحب العناد يا بني.

-: أنا!!

: نعم أنت، فلو رجعنا إلى الجذور العربية البعيدة لعثرنا على أشياء، وأشياء كثيرة.

-: لم أفهم.

: لو تتبعنا الأصول الصحيحة لوجدنا أن كثيراً ممن يرون في أنفسهم في الوقت الحاضر، من أصول كأصول الفطر ولوجدنا كذلك أناساً آخرين يمتون إلى جذور عميقة وثابتة، ولكنهم لسبب أو آخر بقوا في عداد المجهولين.

-: إنني أحتاج إلى إيضاح أكثر.

: كما قلت لك، قد يكون سبب ذلك جرائر الثارات القبلية أو تفاني قبيلتين فيما بينها بحرب أو مرض وغير ذلك فبقي من هاتين القبيلتين شراذم قد يكونون من صغار السن، وهؤلاء قد يلتحقون بقبائل أخرى بعيدة عن مكانهم ويصبحون محتقرين عندهم بحكم قوة هؤلاء وضعف أولئك، وفي نفس الوقت يعدونهم من المجهولين، وعلى هذا يوجد فئة من الناس.

-: وهل يوجد أحد مما ذكرت؟

: نعم، إنني أعرف عدداً من الأسر كانوا بقايا قبائل هلكت بكاملها في الحروب التي دارت بين قبائلهم.

-: أنت تحاول أن تقنعني بما في نفسك ولكنني غير مقتنع.

: كما قلت لك إنك تحب العناد، وإلا فأنت تدرك بعض ما أقوله لك تماماً،

وتؤمن ببعضه، ألم تسمع بذلك الحي الكامل من العرب الذين ضربهم مرض الطاعون «الرحمة» وقضى عليهم ولم يبق بمنـزلهم غير أطفـال رضع وجـدوا من يحسن إلـيهـم وحتى الآن لم يـعـرف من أي قـبيـلة هم فـصـاروا في عـداد المجهولين.

-: بلى لقد سمعت بخبرهم.

: ألم تسمع بخبر تلك المعركة الشرسة التي قـامت بين حيـين من العرب وأفنت كل «الأَوَادِمْ» رجالاً ونساءاً ولم يبق منهم غير طفل صغير وحتى الآن لا يعرف من أي قبيلة ولم يعثروا في معارة المعركة أو حولها على أي شيء يدل على هويـة سكان الحي.

-: ألم يعثروا على وسم على مواشيهم يدل على هويتهم؟

: لم يروا عندهم من مـواشيهم شيئاً لأنهم لم يـأتوهم إلا بعـد أن ذهبت المواشي عن المكان.

-: مالي أراك وكأنك غضبت عليّ يا عم؟

: إذا غضبت عليك فلي العذر في ذلك، أجل «أَمْسَكَكْ الْعِنَـانْ وْتَلْقَمْ بِدِيْ»!! أحاول أن أبين لك بعض الأمور التي تعرف معظمها.

-: سامحني يا عم، وأرجو العفو عما بدرمني، فلقد استفدت كثيراً من معلوماتـك القيمـة التي أعتبر نفسي عـلى يقين منها أو من بعضها عـلى أقل تقـدير ولكني أردت الاستزادة من المعلومات التي تعرفها أكثر مني بحكم تجربتك.

كان الرجلان يسمعان بين الحين والآخر مقاطع من الحوار بين هذين الرجلين الجالسين غـير بعيد عنهـما، ولكنهما كـانا مشغـولين بعملهـما عما سـواه، وفي المساء جلسا لأخذ قسط من الراحة بعد أن تناولا العشاء، فقال أحدهما للآخر.

: أريتك ماذا يقول ذلك الشيخ الجالس عندنا عصر هذا اليوم؟

-: أتعني ذلك الذي كان يتحاور مع الرجل الثاني؟

: نعم، إياهما أعني.

-: لم أستطع متابعة حديثهما، وإنما سمعت منه مقاطع متفرقة لم إعرف منهـا مدار الحديث.

: وأنا مثلك، ماذا سمعت من حديثهما؟

-: لقد سمعتهما يتحدثان على مايبدو عن الصناعة وقد سمعت ذكراً للعراق والشام وفلسطين.

: كان الشيخ يتكلم بلهجة الجد وترتسم على وجهه أحيانا إنفعالات جادة.

-: بالفعل لقد رأيته كذلك، وخاصة في آخر الحديث.

: أترانا المعنيين بهذا الحديث؟

-: لا أدري، ربما عنونا بذلك.

: إيه، أناس ليس لهم عمل غير الحديث عن فلان وعلان.

-: لقد سمعت كلمة تعنينا بالفعل.

: ماذا قالا؟

-: كأنني سمعت كلمة مصحوبة بالاشارة إلينا من ذلك الرجل الذي يجادل الشيخ وهي تدور حول أصلنا وقبيلتنا.

: أوه، ألا تعلم أن الأصل ليس كل شيء؟

-: لم أفهم.

: دعني أبين لك، فكم رجل يمت إلى أصل كريم عريق ويصبح كرماد الجمر تذروه الرياح، وكم رجل أدنى من سابقه فيبنى نفسه بنفسه ويبدأ في رقي درجات المجدو السؤدد حتى يصل إلى درجة عالية بمختلف طرق الحياة.

-: كلامك صحيح، فمنذ خلقت الدنيا وكما يقول المثل يعز القوم رجل ويذلهم رجل.

: أما سمعت بقصة ذلك الرجل الذي قدم إلى إحدى القرى من مكان بعيد وبقي مخفياً نسبه وشمر عن ساعده وكون نفسه بنفسه حتى أصبح له بستانا جيداً أثرى منه، ولما خطب ابنة أحدهم قال له: ولكن أخبرني عن أصلك؟ فرد عليه الخاطب «أَصْلِيْ قَصْرِيْ» ويعنى ما في بيته من النعمة والمال فإذا كان لك الرغبة في تزويجي على ما ترى مني وتعرف عني فهذا المطلوب وإلا فسوف أجد من يزوجني غيرك؛ فما كان من الرجل إلا أن زوجه ابنته دون أن يعرف عن أصله شيئاً.

-: لا شك أن الإنسان سيد نفسه، فإن كان ذا مجد تليد وذكر حميد من آبائه

وأجداده فهو نور على نور، ولكنه لن يزيد على من سبقوه، ولكن الفخر كل الفخر لمن يكون من أرومة ضعيفة أو مستضعفة فيحي موات هذه الأرومة ويرفع سمعتها ويخلد ذكرها عبرا لأجيال بأي مجال من مجالات الحياة، كذلك الرجل الذي افتخر بنفسه عندما افتخر أنداده بآبائهم وأجدادهم قائلاً لهم: أنتم وجدتم أشدة مشدودة من آبائكم واجدادكم، أما أنا فقد وضعت الشداد بنفسي وركبت عليه، فأقروا له بذلك.

: ولكني أحيانا أتسأل، لماذا لا نقول للناس إننا من القبيلة الفلانية والفلانية؟

-: أوه، إن كثيراً من الناس لا يصدقوننا يا جري.

: لماذا؟ فكل إنسان مؤتمن على نسبه.

-: نعم هذا الكلام يعتبره العقلاء من الناس.

: وهل نحن موكولون بسفهائهم؟

-: أوه، شر الناس ومشاكلهم تأتي من سفهائهم، ألا تعلم أن معظم المشاكل التي تحدث بين الناس، يجر جريرتها «مَقْرُودٍ مَضْرُوْدْ» أو عيٌّ مدعي؟

: معك حق، إن شرارة الفتنة لا يقدحها غير سيء الحظ.

-: النقطة الثانية، ما هي الفائدة التي سنجنيها من وراء إعلان قبيلتينا؟

: هاه!! صحيح.

-: إنني أفضل أن نبقى على ما نحن عليه مجهولي الأرومة خير من أن نفتح المجال لأشرار الناس وغوغائهم إلى الخوض في سيرتنا ما بين مصدق ومكذب، ومتسائل ومحاور، وهازيء ومستهزيء، سيما وأننا مطمئنين إلى سلامة محتدنا وأصالة جذورنا.

: وأبناؤنا؟

-: أبناؤنا يسيرون على سيرتنا.

: إنك لعلى حق فيما تقول.

-: وعلينا أن نلتفت لعملنا ونجد ونجتهد فيه وذلك خير لنا من الدخول مع عامة الناس في جدل عقيم، وخاصة مع من عشش الجهل في عقولهم.

: بالتأكيد بعد أن عرفنا ما يدره علينا عملنا من ربح وفيرو رزق حلال.

-: فوق هذا كله، عزة النفس، وترفع عن الخضوع لمنّة أي إنسان، أو رجاءاً

لفضله ومعروفه.

: إذا، فنلبق على ما نحن عليه وسيبقى ذلك سراً نحتفظ به لأنفسنا.

-: وأرى ألّا نبوح به حتى لأبنائنا ليبقوا على ما نحن عليه الآن.

: أتدري؟

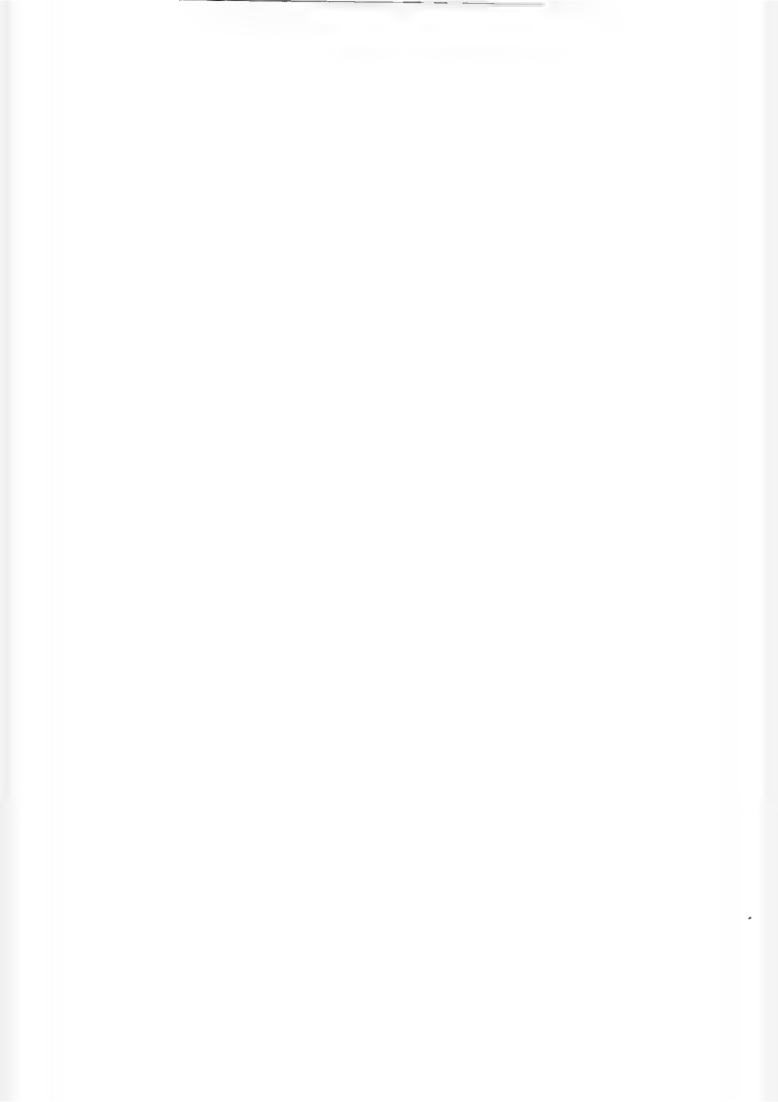
-: عماذا؟

: «إنْ شِفَاكْ ظَنِيٌّ» فسيعود معظم الناس إلى الطريق الذي نسير عليه الآن.

-: أتعني الصناعة؟

: نعم.

القصة رقم (١٧)



تموت الحرة ولا تأكل بثدييها

نعمت القرية في حضن ذلك الجبل الجرانيتي الأحمر ردحاً من الزمن مكتظة بالبساتين الغناء التي تؤتي ثمارها في المواسم المعتاده وألف الناس رغد العيش وطراوته فيها وتمتعوا بمختلف ملذات الحياة المتاحة لهم، وذلك بعد أن أصبحت قريتهم محط أنظار الممتارين من مختلف الأصقاع المحيطة بهم مما جعل التجار يغدون إليها من أماكن شتى جالبين معهم مختلف السلع الغذائية والكمالية كالملابس وغيرها مما يحتاجه الإنسان، ووسط جلبة هذه الحركة الدائبة في سوق القرية الذي أزدحم بعشرات المجموعات من الإبل المحملة بمختلف السلع بين قادم لتوه ببضاعته، ومن هو علي وشك الإنصراف إلى أهله بأحماله التي اشتراها من السوق بالإضافة إلى الرجال والنساء الذين يمشون على أقدامهم بين الحوانيت لقضا حوائجهم، في هذا الخضم المائج أقبل شيخ قد قوست الأيام ظهره يتوكأ على عصاه، ولما أقترب من مجموعة من الرجال جلوس عند بوابة أحد الحوانيت رأى بعينيه الضعيفتين مجموعة متناثرة من التميرات، قد تكون انتثرت من أحد الحمول المارة، فوقف الشيخ وانحنى إلى الأرض مستعينا بعصاه فالتقط هذه التميرات ونفخها بفمه من التراب والغبار العالق بها ثم أسقطها في جيب ثوبه المثبت على صدره حيث يتدلى إلى ما تحت سرته ثم استمر بطريقه نحو الرجال الجالسين، وما إن وصلهم وسلم عليهم ثم أخذ مجلسه حتى بادره أحدهم بقوله:

-: مالك يا أبا فلان كاد هذا البعير المسرع وأن يخبطك بخفة؟

: الحمد لله يابني، لقد ستر الله عليَّ.

-: لماذا وقفت بوجهه؟

: لقد رأيت هذه التميرات المتناثرة على الأرض فلم أستطع أن أتركها على التراب تحت أقدام المارة.

-: أمن أجل تميرات كاد هذا البعير أن يقصم ظهرك؟

: أولاً الحمد لله على السلامة يابني، ثانياً ربما دفع الله عني شر هذا البعير بسبب ما فعلت.

-: وماذا فعلت؟

: ماذا فعلت!! لقد أكرمت النعمة.

-: لا بأس من ذلك ولكن..

: ولكن ماذا؟

-: كنت أريد أن أقول إن هذه التميرات لا تستحق مثل هذه المخاطرة.

: لماذا؟

-: لو نظر الإنسان في طريقه فسوف يرى الكثير الكثير من التمر وغيره ملقى على الأرض.

: إيه، إيه، يا بني!! يقول ذلك وهو يهز رأسه إلى الإمام والخلف.

-: لماذا تتنهت يا أبا فلان؟

: ألا تعلم أن إكرام النعمة مما أمر به ديننا الحنيف.

-: أعلم ذلك، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يلم كل مارآه ساقطا على الأرض من المأكولات.

: ليفعل كل منا قدر استطاعته.

-: كيف؟

: ألا تعلم أن هذه النعمة المتساقطة هي نواة ورمز للنعمة المحفوظة التي نأكل منها؟

-: بلى، بلى، ولكن الخير إذا كثر لا تستطيع أن تحيط به.

: بلى أقول لك يابني ولمن حضر معنا في هذا المجلس إنه يجب على الإنسان أن يكون لديه غيرة على نعمة الله التي أمدنا الله بها.

-: لم أفهم.

: دعني أفهمك، أليس لأي واحد منا محارم يغار عليها إذا مسها سوء أو

تعرضت لأي أذى لاسمح الله؟

-: بلى، بلى.

: أترضى أن توصم نساءك ومحارمك بقول أو فعل؟

-: لا، أبداً!!

: لو شعرت أن أحداً لاسمح الله سينال نساءك بسوء فماذا تفعل؟

-: سأدافع عنهن بالنفس والنفيس.

: لأنك تخشى العار، أليس كذلك؟

-: نعم.

: وتخشى العقوبة أيضا؟

-: صدقت أيها الشيخ الجليل، ولكن ما الداعي لمثل هذه الأمثلة؟

: الداعي يا بني، إذا كنت تخشى هذه الأمور على محارمك وتغار عليها بالتالي، فلماذا لا تغار على نعمة الله التي أنزلها الله رزقا لعباده ومخلوقاته؟

-: هاه!!

: نعم، يجب علينا أن نكون غيورين على نعمة الله، نكرمها ونقدرها لأنها قوام حياتنا.

-: صدقت، ولكن...

: ماذا تريد أن تقول؟

-: كنت أريد القول، إن الساقط من الطعام كثير، وأحياناً نجده غير صالح للأكل.

: مهما كان، فالطعام يجب أن يكرم، ويرفع عن المستوى غير اللائق به، فإن كان صالحاً للأكل الأدمي كان بها وإن لم يكن كذلك فيجب أن يقدم للحيوانات والطيور لتأكله.

-: صحيح، معك حق ولكن..

: أوه، وماذا تريد أن تقول أيضاً؟

-: أقول «إذا كثر خير الله قلت رعاته».

: أوه، يابني لا تقل هذا الكلام.

-: لماذا؟

: يجب علينا أن نخشى العقوبة.

-: العقوبة!!

: نعم، ألا تعلم أن الله يعاقب من يستهين بنعمته؟

-: أعوذ بالله، لم يكن هذا استهانة بنعمة الله.

: بلى، بلى، إن من لا يقدر نعمة الله فربما نال عقابه.

-: لم أقصد ذلك، ولكن أقول إن الخير كثير ولله الحمد.

: ولكن الخوف من ضده يابني.

-: لم الخوف والأرزاق قد ملأت أيدي الناس؟

: أليست هذه الأرزاق من الله؟

-: بلى، وبدون شك.

: أليس من منحها للناس يستطيع نزعها إن لم يشكر؟

-: بلى،

: إذا، فالله هو المعطى المانع، يستطيع منع هذه النعمة إذا تمادى الناس بالاستهانة بها وعدم تكريمها.

-: معك حق.

: إذا ما دمت توافقني على ما أهدف إليه فلماذا تلومني على ما فعلت؟

-: لم يكن لوماً بقدر ما هو حرص مني على حياتك.

: الحياة بيد الله يابني، وربما سلمني الله مما توقعت بسبب ما فعلت في تكريم هذه النعمة، ولو أن كل إنسان فعل ما فعلت لم تجد نعمة ملقاة على الأرض.

-: لا شك في ذلك.

: كأنني أسمع أذان الظهر، ألم يحن بعد؟

-: لا يزال الوقت مبكراً، فالوقت ضحى الآن.

: إذا ما الذي أسمعه؟

-: قد يكون صاحب قافلة يحدو لإبله و«يشايع» لها.

: آه، قد يكون ذلك، فلقد ضعف سمعي يا بني واختلطت عندي الأصوات.

-: عظم الله أجرك، وختم حياتك بالخاتمة الصالحة.

-: آمين.

وتتابعت السنون على السكان وهم في نعمة وارفة لم يشعروا بمرور السنة إلا بحلول موسم الأمطار التي يعتبر سقوطها قوام حياتهم، والمرتكز الأساسي الذي تقوم عليه أنشطتهم المعيشية، وأطلت تلك السنة الجديدة بوجه كالح، حين تأخر نزول الغيث إلى وقت لم تستفد منه الأرض وبكميات قليلة جداً، فكان الناس لا يزالون يتمتعون بنشاطهم المختزن من الأعوام السابقة، ومضت تلك السنة ولم يشعروا بوطأتها، غير أن السنة التي تلتها كانت أثقل حملاً منها فلم ينزل قطرة مطر واحدة، فاتضح أثرها على الطبقة الفقيرة من الناس ولم تؤذ أغنياءهم، وما إن جثمت عليهم السنة الثالثة بمحلها الساحق حتى تلوى عدد من الناس تحت ضغط ثقلها الباهض، وقل المعروض من الأرزاق في الأسواق وتسابق الناس بنهم إلى من يوجد لديه أطعمة يريد بيعها فاشتروها منه بالسعر الذي يحدده، مما جعل التجار الذين يتصفون بالسماحة واليسر تفرغ مخازنهم من المواد الغذائية في فترة قصيرة، وأتاح في نفس الوقت الفرصة لتلك الفئة الجشعة من التجار باخفاء مالديهم من تلك المواد الضرورية مدعين نفادها مثل غيرهم في الوقت الذي كانوا يبيعونها فيه بخفية وبكميات قليلة على من يريدون البيع عليه، حسبما تقتضيه أهواءهم بصرف النظر عن ضرورة المادة لهذا المتقدم لشرائها أوذاك، في هذا الوضع الذي صار فيه طلب شراء المواد الغذائية يتم تحت جنح الظلام حين يأتي الزبون إلى بيت من يخمن أن لديه بيع للطعام ومعه إناءه ودراهمه الفضية أو الجنيهات الذهبية ويطرق عليه الباب فإذا خرج صاحب البيت دس الزبون بيده ما معه من نقود ومد إليه الإناء طالبا منه وضع الكمية التي يراها صاحب البيت ثمنا لهذه النقود فحينا يلبي طلبه، وأحيانا يتعذر منه مدعيا عدم وجود أي كمية من الطعام عنده، عند ذلك تبرز كلمات الاستعطاف وجمل الرجاء الحار وعبارات الإسترحام والاستجداء، فتتصدى لها صيغ الاعتذار المختلفه ويطول الجدل بين الزبون المضطر والبائع المستغل، فأحيانا يثمر الجدل بالموافقة علي بيع الزبون هذه المرة، وأخرى تصل إلى طريق مسدود ينتهي بقفل الباب في وجه الزبون ليعود بنقوده وإنائه فارغا تخنقه العبرة من أثر هذا التصرف المشين.

في هذا الخضم دنفت تلك الشابة الجميلة الحسناء التي تعتبر مضرب المثل بجمالها في ذلك الحين، غير أن يد القدر قد امتدت إلى زوجها واختطفته تاركا في

حضنها ثلاثة من الأطفال الصغار كأفراخ الحمام، وعندما أرخى الليل سدله حملت أحد أطفالها على كتفها وأمسك الإثنان بجوانب ثوبها وأخذت ما استطاعت أن تحضره من النقود وإناء صغير ظنت أن ما يملؤه من الطعام يكفيها وأبنائها لفترة أسبوع أو أكثر وعندما طرقت باب التاجر رد عليها.

-: من بالباب؟

: أنا.

-: من أنت؟

: إمرأة أتت إليك.

-: أوه، ما أكثر النساء اللواتي يطرقن بابي هذه الأيام.

: إفتح من فضلك.

-: أهلاً وسهلاً، «هَيَا»!!

: إنها هي بعينها.

-: يا أهلاً وسهلاً، ما أبرك هذه الساعة التي جاءت بك.

: بارك الله فيك.

-: لماذا أتيت هكذا؟

: هاه!! كيف تريدني؟

-: أقصد لو جئت لوحدك لكان ذلك أفضل.

: هؤلاء أبنائي لم أجد أحداً أتركهم عنده.

-: آه، المشكلة هنا، إنني لو أعطيتك ما تريدين فلن تستطيعي حمله مع الأطفال.

: إنني أستطيع حمل ملء هذه القفة التي فوق رأس بالإضافة إلى أبنائي.

-: هذا القفة إنه قليل عليك، «لاَ مِدَّةٌ لَنَا وَلاَ قَدْرٌ لَكِ». ولكني لم أحضر لك من النقود سوى ما يملأ ثمنه هذه القفة الصغيرة.

: ومن سألك عن النقود؟

-: من سألني عن النقود!!

: نعم، فأنت أغلى عندي من النقود.

-: لم أفهم!!

: أعني أنني لـو علمت بحاجتـك لأوصلتك إيـاها دون أن تكلفى نفسـك عناء المجيء إلى هنا.

-: كثر الله خيرك.

: المفروض أن ترسلي إليّ أي خبر عن حاجتك.

-: هاه!! ومتى كنت تخدم الناس في بيوتهم؟

: ليس كل الناس.

-: ماذا تعني؟

: أقصد الذينهم مثلك فقط.

-: آه، فهمت. تقول ذلك بنبرة حادة.

: أرجو أن يكون فهمك على الوجه الحسن.

-: إيه، لقد فهمت ما تقصد، ولقد أتيت إلى هنا وهذه النقود أرجـو أن تضع لي يثمنها من الطعام ما يسد رمق هؤلاء الأطفال.

: ساحضر لك بما عون أكبر من هذه القفة ولن آخذ منك أي نقود.

-: هاه، وهل أمسيت هذه الليلة توزع على الناس الطعام بالمجان؟

: لك فقط.

-: ولكنني لن أقبل منك ذلك.

: لن تقبليه مني!!

-: نعم،

: لماذا؟

-: لن أقبل منك سوى ما تبيعني بهذه النقود فقط. ساعطيك بدون نقود.

: لن أقبله منك أبداً.

-: «قَصَدْتِكْ» هذه المرة أن تقبليها.

: ولا هذه المرة.

-: سآخذ منك النقود في المرات الأخرى.

: إن لم تأخذ مني هذه المرة فلن أقبل منك أي شيء آخر.

-: سيهديك الله.

: على درب الخير.

-: إستعيذى بالله من الشيطان.

: أعوذ بالله منه ومما يأمر به من أعمال السوء.

-: سأحضر لك هذا الزنبيل المليء بالحب وفوقه «طاسة» مليئة بالتمر.

: ولكني أرفضه من الآن.

-: ترفضيه!!

: نعم وبكل قوة.

-: هاه!!

: ولن أقبل منك سوى ثمن هذه الريالات «الفرنسية» الستة التي عرقت عليها يدي.

-: ستة ريالات!!

: نعم وبهذه القفة التي تستوعب صاعين من الحب.

-: لماذا صاعين؟

: لأنني علمت بأنك تبيع الصاع بثلاثة ريالات «فرنسية» أو بجنيه ونصف، ولذلك أحضرت لك الإناء الكافي لقيمة هذه النقود.

-: إذا، هاتي الريالات وسأزيدك في البيع.

: أبداً، هذه الريالات فقط، ومعذرة فإن إثنان منها قد غطاها الصدأ.

-: أي شيء من يدك فهو مقبول، وما الصدأ الذي عليها إلا من فتات المسك والعنبر.

: أوه، إذا خذ هذه القفة وأعطني ثمن هذه الدراهم.

-: كما قلت لك إن الدراهم ليست ذات أهمية.

: أوه، لا تطل هذا الحديث. تقول ذلك بنغمة حادة.

-: مالك؟ أراك وكأنك تضايقت مني؟

: لقد جئت إليك لأشتري طعاماً لأبنائي وليس للحديث معك.

-: ألم يعجبك حديثي؟

: ولكنه حاد عن الطريق المألوف.

-: آه، ما هو الطريق المألوف في نظرك؟

: الذي لا يتعدى حديث البيع والشراء

-: إن الحديث مع أمثالك يختلف عما سواه.

: أوه، من فضلك خذ هذه الدراهم وأعطني ثمنها.

-: لكأني أسمع بحديثك نبرة غريبة.

: ماذا تريدني أن أقول لك؟

-: آه، يبدو أنّ الجوع لم يطو حشاك حتى الآن!!

: لادخل لك بذلك.

-: والله لو مسّك الجوع لتبين لك كلام غير هذا.

: أتريد أن تعطيني شيئاً أم لا؟

-: إذا أردت أن أعطيك فبدون ثمن.

: وأنا لا أقبل إلّا بثمن.

-: إذا، ليس عندي شيئاً للبيع.

: مع السلامة.

-: ستعودين إليّ قريبا، وربما هذه الليلة. يقول ذلك وهو يصفق بالباب ليوصده في حنق وعصبية.

بينما أخذت المرأة طريقها عائدة من حيث أتت وعرجت في طريقها إلي تاجر آخر، ولما دنت من بيته سمعت لغط الرجال داخل المنزل، فغلبها الحياء وذهبت إلى تاجر ثالث طرقت عليه الباب فلم يفتح لها بل نهرها بكلمات قاسية كان بودها لو ماتت جوعاً ولم تسمعها من هذا التاجر العجوز ثم قفلت راجعة إلى بيتها خاوية الوفاض، وقبيل وصولها إلى بيتها بدأ طفلها الرضيع يصيح على متنها، مما لفت انتباه تلك العجوز التي تسكن في نفس الشارع حيث دفعها الفضول لمعرفة هذا الطفل الذي يصيح في الشارع فخرجت عند باب بيتها وقالت:

-: من أم هذا الطفل الذي أيقظنا من النوم بصراخه؟

: أنا، السلام عليك يا خالة. تقول ذلك من باب احترام فارق السن.

-: وعليك السلام من أنت؟ هيا!!

: نعم، أنا هي، تقول ذلك بنغمة مجرورة.

-: ما الذي أتى بك في هذا الليل؟ «بسم الله عليك»

ذهبت لغرض لم يتحقق.

: ليست من عادتك الخروج من بيتك بالليل.

-: لقد اضطرتني الظروف ياخاله.

: الظروف!!

-: نعم، هؤلاء الأطفال الذين ترين على عاتقى أحدهم وإثنان يسيران بجانبي.

: ولكن خروج الليل غير مأمون يابنتي!!

-: ماذا تعنين؟

: هاه، لا أعني شيئاً، ولكن لورآك أحد في هذا الوقت من الليل، لربما تساءل عن سبب خروجك.

-: إيه، لايحس بالنار غير واطيها.

: لاشك، لاشك، ولكن إمرأة مثلك لاينبغي لها أن تخرج بالليل.

-: متى تريديني أن أخرج؟

: في النهار يابنتي.

-: ألا تعلمين أن البيع والشراء الآن أصبح تحت جنح الظلام، وخاصة للأطعمة؟

: أعوذ بالله متى كان ذلك؟

-: حين أصبح تجار البلد في مثل هذه المواد من الناس الجشعين.

: هاه، لاعلم لي بذلك.

-: لهذا السبب رأيت فرصة حلول الظلام ما بين صلاة المغرب والعشاء وقبل أن تكتف الرجل لقضاء حاجتي.

: معك حق يابنتي، إن العشاء لم يؤذن بعد.

-: الآن بدأ، الأذان.

: هاه، عسى أن تكون حاجتك قد انقضت؟

-: سيقضيها الله ياخاله.

: ما هي حاجتك؟

-: شيء من طعام لهؤلاء الأطفال.

: ألم تجد لهم شيئاً؟

-: هاه، لم أجد إلا ماسييسره الله.

: ألم تجد أحداً يبيع عليك؟

-: وجدت ولم أجد.

: كيف؟

-: هناك من وجدت عنده بعض الرجال فلم أطرق بابه وآخر نهرني وثالث. . .

: لماذا غصصت بهذه الكلمة؟

-: دعيها، دعيها، تبقى بدون خروج.

: أخشى يابنتي ألا تملكين من الدراهم شيئاً.

-: هذه «المَطْشِيَّةْ» في يدى.

: أمعك الدراهم ولم تجد طعاماً؟

-: الدراهم ليست كل شيء.

: لا يابنية، أنت مخطئة. الدارهم كالمراهم تجبر العظم الكسير.

-: ولكنها لم تفدني شيئاً. تقول ذلك وهي تخفي حقيقة ما حدث.

: أوه، ألا تعلمين أن الدراهم «تجيب بنت السلطان»؟

-: إننى لا أريد ما تذكرين.

: وإن يكن، إذحضرت الدراهم جاء كل شيء.

-: على يدك ياخاله!!

: سأتيك بما تريدين.

-: إليك إياها.

: الآن استريحي بعض الوقت في بيتي وسأذهب وآتيك بمطلبك

-: أرجوك ألا تطيلي الغياب لأن هؤلاء الأطفال سينامون الآن وهذا الصغير الذي لا يزال يصيح سيضطرني إلي عدم البقاء مدة طويلة.

: الناس الآن قد ذهبوا لأداء صلاة العشاء، فهل تستطيعين الصبر إلى بعد الصلاة؟

-: لا أظن ذلك.

: حاولي تسكيت الطفل الذي يصيح ولن أطيل عليك.

-: أتدرين يا خاله؟

: نعم ماذا بدا لك؟

-: سأذهب إلى بيتي الآن وحاولي استحصال ما تستطيعين من الطعام في الصباح، فإن حصلت على شيء فأرجوك أن تحضريه لي غير مهانة.

: أنا لا أستطيع!! أنا أم فلان!!

-: جعل الله فيك البركة.

: إصبرى يابنتي إصبري.

-: ماذا تريدين؟

: ساعطيك قطعة تمر تمرسينها وتسقين مريستها هذا الطفل الجائع.

-: جزاك الله خيراً.

: خذي هذه التمرة، وأعطى كل واحد من أبنائك واحدة أو إثنتين والباقي أو جريه هذا الطفل الصغير عله أن ينام.

-: أحسن الله إليك وجزاك خير الجزاء.

: عودي يا بنتي إلى بيتك، وعند الصباح سآتيك بما تريدين.

-: تصبحين على خير.

وعادت المرأة إلى بيتها وبيدها قطعة من التمر قد قبضت عليها بكف يدها، وكأنها قد قبضت على كنوز الأرض، وهي تقول في نفسها، جزا الله هذه السيدة العجوز خيراً، لقد فزعت لي بما يسكت أبنائي هذه الليلة ليناموا ويريحوني من السهر، يا الله ما أثمن كل شيء في ساعة الحاجة إليه؟ أهذه القبضة من التميرات تساوي عندي الآن ملك الدنيا بأسرها لحاجتي الماسة إليها، لإسكات أبنائي الذين لم يتركوني أنام الليلة الماضية، يا الله!! ما أكبر قدر هذه التميرات القليلة عند العوز، لقد كنت في كثير من الأيام تغوص قدماي إلى الكعبين في دبس التمر الطري فلا أستطيع المشي بين مخازن التمر إلا بعد تنظيف قدميّ!! لقد كنت أقلب أطرى وألين أنواع التمور ولا تشتهي نفسي واحدة منه ولم أفكر أن هناك من له قيمة عنده مثل قيمته عندي الآن!! كنت أغرف الدبس الصافي من جورته حيث ينساب بين الحياض وكأنه الينابيع المتدفقة!! ياالله، والآن أكاد أطير من شدة

الفرح من أجل قبضة تميرات جافة ملء جمعي قد جادت بها يمين أم فلان، يا الله!! ما أعظم أجر هذه التميرات وما أثقلها في مزان الحسنات عند الله، لهذه السيدة الفاضلة إيه، جزاها الله أحسن الجزاء، هاه، لقد وصلت إلى بيتي دعني أفتح الباب يابني.

وما كادت السيدة العجوز تؤدي صلاة الصبح حتى وضعت القفة على رأسها متوجهة إلى منزل ذلك التاجر وكلها ثقة بأنها ستنال منه مطلبها، فوافقته على الباب عائداً لتوه من أداء صلاة الفجر فبادرته قائلة:

-: السلام عليكم.

: وعليكم السلام، من أنت أيها المسلمة؟

-: «وَاغِرْبِاً ليْ» أما تعرفني؟

: هاه!! معذرة، معذرة يا أم فلان، إننا في غبشة الليل لا أكاد أميز الأزوال، ولم أعرف صوتك لأول وهله.

-: لك العذر في ذلك، أسعد الله صباحك يابني.

: وصباحك، ماحسبت أنك تجسرين للخروج من بيتك في هذه الحزة من الليل؟

-: إنني لا أعرف الخوف يابني، منذ كنت فتاة في ريعان الشباب حيث كنا نذهب لأعمالنا في منتصف الليل، وقد زادتني الأيام قوة وصلابة، بالاضافة إلى أنني كما ترى عجوز قد يخاف بعض الناس مني.

: حاشا عليك يا أم فلان، أنت لا تزالين شابة.

-: ذاك كان بالأمس، أما الآن فعسى الله أن يمن علي بحسن الخاتمة يا بني.

: ما الذي جاء بك في هذا الصباح الباكر؟

-: جاءت بي خطي كتبت عليَّ.

: إنها خطوة عزيزة.

-: لقد جئت إليك يابني، لحالة لو تعرفها لرق لها قلبك.

: ما هي؟

-: حالة صغار جياع يرق لحالهم من لايعرفهم.

: من تعنين؟

-: أناس دعهم يلفهم ستر الله.

: أيمنع أن أعرفهم؟

-: مالك ولهذا، إنها حالة يرق لها الحجر الأصم.

: لقد حاولت تكبير المسألة.

: أبداً يابني، لقد أخبرتك عن الواقع الفعلي لهذه الأسرة.

-: أتقولين الواقع؟

: نعم، وهذه الريالات الستة قد أحضرتها لي أمهم البارحة مع هذه القفة تريد بها شيئاً من الطعام لأبنائها الصغار.

-: آه، آه.. ولكن. يقول ذلك بعد أن جزم أن هذه النقود لتلك المرأة.

: مالك قد تغير صوتك؟

-: لاشيء أبداً، ولكني قد تذكرت أنني على موعد مع أحد التجار سأذهب إليه الآن.

: لا بأس يابني، وأنت على موعدك، خذ من فضلك هذه الدريهمات واملأ هذا الاناء الصغير بالحب واذهب ترافقك السلامة.

-: لكنني مستعجل الآن، والحب في مخازن دونها أبواب مقفلة.

: لن يعوقك ذلك.

-: بل إنني على موعد مع الرجل الآن حيث أنه في انتظاري.

: أرجوك يابني ألا تردني خائبة.

-: لن أردك، لن أردك.

: كيف؟

-: بامكانك أن تتركي هذه القفة وتعودي إليها بعد طلوع الشمس لتجديها بالبيت وفيها ما تريدين.

: كما تعلم يابني «الروحة» والجيئة علي صعبة.

-: إذا الآن سأعطيك كتعة من التمر حتى أفرغ لك بعد طلوع الشمس كثر الله خيرك يابني، ولو كتعة من التمر.

: هه، خذيها إنني مستعجل جداً.

-: وفقك الله يابني، إذا خذ هذه الدراهم.

: لماذا آخذها؟

-: اقتطع منها قيمة هذه التمرة.

: أوه، هذا التمر ليس له قيمة إنه صدقة من عندي.

-: أجزل الله لك الأجر، متى أعود إليك؟

: كما تشائين اليوم أو غداً.

-: إن مجيئي اليوم ليصعب علي، ولكن سآتيك غداً.

: لماذا تكلفين نفسك عناء التعب؟

-: ومن تراه يجيء غيري؟

: وهل يحتاج ذلك إلى سؤال؟

-: ماذا تعني؟

: يأتي صاحب الشأن، فكل صاحب حاجة يبحث عنها بنفسه. معك حق، ولكننا نحن العجائز نكلف أنفسنا ما لا نطيق.

-: ألا تعلمين أن ذا الحاجة أحرص عليها من غيره؟

: بلى، بلى، يابني، ما حك جلدك مثل ظفرك.

-: إذا دعيني أذهب لشأني.

: وفقك الله لما تحب يابني.

وقفلت العجوز راجعة والفرحة تغمر جنانها، فتجاوزت بيتها إلى بيت تلك المرأة والقفة تتأرجح فوق رأسها المهتز، وطرقت عليها بابها قبل طلوع الشمس ولما دخلت عليها قالت:

-: أبشري يابنيتي أبشري.

: بشرك الله بالخير والعافية.

-: لقد ساق الله لك رزقا فوق ما تتصورين.

: ذلك بفضل الله ثم بفضل مسعاك.

-: قد ذهبت إلى أحد الأجواد وأعطاني لك ملء هذه القفة تمراً دون أن يأخذ له ثمناً، فجزاه الله خيراً.

: بدون ثمن!!

-: نعم، لقد اعتبرها صدقة منه.

: صدقة!! وهل أنا مستحقة للصدقة؟
-: إذا كنت لا تستحقين الصدقة فمن يستحقها؟
: آه، من يكون هذا الجواد؟
-: وهل من الضروري أن تعرفيه؟
: نعم، لابد أن أعرفه.
-: إنه فلان.
: فلان!! متى صار هذا جواداً؟
-: وهل تعرفينه؟
: أبداً، إنها معرفة اسم فقط، ولكني لم أسمع عنه ما ذكرت.
-: ألا تعلمين أنه جواد ومن «حمولة» أجواد؟
: إيه، ستر الله على الأجواد.
-: الآن أفرغي هذه القفة أو أعطيني بدلاً عنها لأحضر لك بدراهمك نوعاً آخر من الطعام.
: شكر الله مسعاك يا أم فلان، ولكن..
-: ولكن ماذا؟
: لكن لن يدخل بيتي طعام بدون ثمن.
-: ماذا تعنين؟
: أعني أنني لن أقبل أن يرسل إلي طعام بدون أن أدفع ثمنه.
-: إنها صدقة ألم أقل لك؟
: بلى، لقد فهمت ولكني لا أقبل الصدقة من مثل ذلك الرجل.
-: «واغِرْبَالْ حَيِّ وْمَيِّتْ» وهل أحد يرد الصدقة في مثل هذا الوقت؟
: لا يردها غيري!! تقول ذلك بانفعال وعصبية.
-: مالك يابنتي؟
: وماذا رأيت مني؟
-: أبداً، أبداً، ولكني أراك منفعلة مع هذا الصباح يالله صباح خير.
: عسى ألا أكون أغضبتك؟
-: سامحيني يا أم فلان، إنني أحيانا أتكلم هكذا ومن لا يعرفني تماماً يظنني أتكلم

بعصبية.

: إيه، لا بارك الله في الشيء الذي يغضبك.

-: لست في حالة غضب أبداً. تقول ذلك وهي تحاول ضبط نفسها.

: إذا، أعطيني ما عونا آخر لأحضر لك ما تريدين.

-: قبل هذا أرجوك أن تعودي بهـذا التمر إلى صـاحبه حتى يـأخذ ثمنه، فإن لم يأخذ ثمنه فتعيديه إليه.

: هاه!! ماذا تقولين؟

-: أظن أنك سمعت ماقلت لك.

: ولكن هذا القول لا يعجبني.

-: لماذا؟

: وتسألين لماذا؟

-: نعم.

: لقد أتعبت نفسي بالذهاب إلى الرجل جهمة هذا اليوم واستعطفت الـرجل حتى أعطاني هذه التميرات ثم تقولين أعيديها إليه.

-: كما قلت لك إنني لن أقبل شيئاً بدون ثمن.

: لقد أتيت على المثل القائل «قَالْ دُوْنَكْ خَيْر قَالْ مَا تَأخِـذُهْ مِخْلَاتِيْ، قَـالْ دُوْنَكْ شَرّْ قَالْ دَعْنِي أَفْرِشْ عَبَاتِيْ»!!

-: أوه، كثيرة هي الأمثال ياأم فلان، فأرجوك ألا تكثـري منها وأن تـأخذي مـا جئت به وتعيديه إلي صاحبه إلا إذا قبل ثمنه.

: أتدرين!! أمري إلى الله سأعيده إليه.

-: إنني آسفة جداً لا تعابك هذا الصباح.

وعـادت العجوز بقفتهـا مسرعـة إلى بيت الرجـل، ولما طـرقت عليـه البـاب وخرج إليها أخبرته بأن صاحبة الشأن قد رفضت الطعام بدون ثمن قائلة له:

: آه، لقد أتعبتني تلك المرأة ولم تقبل ما بعثت به إليها دون أن يكون له ثمنا.

-: رفضت!!

: نعم، فأرجوك يابني أن تقتطع قيمة ما في هذه القفة من تلك الدراهم وتريحني من هذا التعب.

-: لِمَ تخبريني عنها من تكون؟

: أوه، لقد كنت مخفية إسمها في المرة الأولى، أما الآن فإنها فلانة ابنة فلان.

-: آه، لقد عرفتها.

: هل بينكما معرفة قبل ذلك؟

-: أبداً، ولكني أعرف أنها من تلك الأسرة.

: نعم.

-: إيه، إنها «فَسْقَانَةْ»!! إنها تعيش حتى الآن على عز أهلها.

: لا والله يابني.

-: أجل لماذا ردت الهدية أو الصدقة؟

: هذا ما حيرني في أمرها.

-: ألم أقل لك إنها «فسقانة»؟

: ليس هذا السبب.

-: ما هو السبب إذاً؟

: والله لا أدري، ولكني. . .

-: ولكنك ماذا؟

: هاه!! لا أدرى، لاأدرى.

-: هل قالت لك شيئاً؟

: لا.

-: الآن ماذا تريدين مني؟

: إريد أن أعطيك قيمة هذا التمر.

-: ما دام الأمر كذلك، فإن القيمة أكثر من هذه الدراهم.

: ماذا تقول؟

-: أقول إن القيمة لا تساوى نصف الكمية.

: إيه، لا يابني لتكن بنفس الكمية.

-: أبداً، لن إوافق على ذلك.

: سامحها عن الزيادة كمساعدة لها.

-: إنها لا تستحق المساعدة.

: أرجوك يابني.

-: دعيها إنها تستأهل ما يحصل لها.

: هل بينك وبينها عداوة؟

-: أبداً، إنني لا أعرفها، ولكن يبدو أنها لا تستأهل المساعدة أو الرحمة والشفقة.

: لماذا التحامل على هذه المسكينة؟

-: هي الجانية على نفسها، وإلا أترين أحداً يرد التمر في الوقت الذي يتمناه كل واحد؟

: أما في هذه فأنا معك.

-: إيه، دعيها يا أم فلان، فكما يقول المثل «طريق الحبل على الجرار».

: والله لا أدري سبب رفض هذه المرأة.

-: قد يكون غرها حسبها ونسبها.

: أين الناس من هذه الناحية؟

-: البعض لايقدر الظرف الذي يعش فيه.

: صحيح إنها شابة ذات حسب ونسب وجمال ولكن الوقت وقت ضرورة.

-: إيه، مصير مثل هؤلاء الناس لابد أن يمر بأيدينا.

: أرجو الله أن يكتب ما فيه الخير.

-: والآن، أمعك بقية المبلغ؟

: لا والله يابني.

-: إذا هذه نصف كمية التمر بهذه الريالات الصدئة.

: كما تريد يابني، كما تريد، مع السلامة يابني.

-: مع السلامة.

: وعادت العجوز بنصف كمية التمر إلى المرأة وما إن دخلت عليها منزلها حتى قالت لها:

-: هاه، لقد عدت إليك بأقل مما أعطيت.

: ماذا تعنين ياخاله؟

-: لقد أخذ نصف الكمية وأعاد نصفها بدريهماتك.

: حسناً فعل، جزاك الله خيراً يا أم فلان.

-: عجباً!!

: مم تتعجبين؟

-: عجبي من منطقك.

: منطقي!!

-: نعم، الآن يعطيك الرجل صدقة فترفضيها، ثم تفرحين حين أخذ دراهمك وأعطاك نصف الكمية.

: أوه، هذه تكفي أولادي.

-: هل أنت في حلم؟

: أي حلم تعنين؟

-: أتحلمين أنك لا تزالين تعيشين في تلك النعمة التي كنت فيها على حياة والديك وزوجك، رحمهم الله؟

: لا، أبداً إنني أعيش الواقع الذي أنا فيه حالياً.

-: لو كنت كذلك لأدركت أن الناس في مجاعة يكاد بعضهمم إن يأكل البعض الآخر.

: إنني أدرك ذلك تماماً.

-: لماذا، إذاً تصرين على البيع والشراء بهذه الطريقة؟

: أرأيت يا خالة لو أحضرت بعدد تلك الدراهم تميرات في بيع وشراء حر لاشائبة فيه، فهو ألذ عندي من أن تأتيني بمثل هذا الجبل الأحمر كتلة تمر أو غيره من الأطعمة.

-: هل جننت؟

: إنني بكامل صحتي العقلية.

-: لاوالله، إنك لست صاحية.

: لماذا؟

-: أتنظفين يديك من الدراهم في سبيل إرضاء غرورك؟

: لم تصيبي الهدف تماماً يا خالة.

-: ماذا تعنين؟

: أعني أن الدراهم ليست كل شيء.

-: أوه، الدراهم عصب الحياة.

: لا شك في ذلك، ولكن هناك ما هو أثمن منها.

-: إنك تتعالين على الواقع يابنتي.

: لم يكن تعاليا بقدر ما هو محافظة على أشياء ثمينة.

-: إنك تحلمين بأمجاد سابقة!!

: على العكس، إنني أعيش الواقع بدون حلم.

-: المفروض أن تتعاملي مع الناس بلطف.

: وهل سمعت عني غير ذلك؟

-: لم يكن سمعاً، بقدر ما رأيته بعيني ووقفت عليه برجلي.

: صحيح لقد جرى هذا مني مع هذا الرجل ومثاله.

-: هل أصابك منه سوء؟

: حاشا لله.

-: إذا، كيف تحكمين عليه؟

: إيه «وْسُوْمَهْ بِخْشُوْمَهْ».

-: أتدرين يابنتي أن الناس في الوقت الراهن ينظرون للتجار ومن بيدهم ثروة نظرة إجلال وتقدير؟

: على شرط الإحترام المتبادل.

-: أوه، أنت دائماً تلجائين إلى هذه الأخلاقيات الفاضلة.

: وهي أغلى مالدي الإنسان.

-: المفروض يابنيتي في واحدة مثلك لديها هؤلاء الأطفال أن تعامل الناس معاملة حسنة لكي تنال عطفهم.

: لا بأس عندي من ذلك إذا كان على أساس سليم.

-: ماذا تعنين؟

: أعني بالبيع والشراء الحر الشريف.

-: أوه، البيع والشراء الشريف هذه الكلمات الرنانة تصبح غير ذات معنى في بعض الأحيان.

: ماذا تعنين؟

-: أحيانا الدراهم لا تغني شيئاً عندما يتهافت الناس على من لديه شيء من الطعام، بل يعتمد ذلك على العلاقة الطيبة المترتبة على المعاملة الحسنة والكلام الحسن والنفس الزينة.

: لن يفوتني ما تقولين مع الناس الطيبين.

-: ولكن ما تذكرين قد نفد ما لديهم ولم يبق الآن سوى الأجلاف الأشحاء.

: الموت خير من الوقوف على أبوابهم.

-: أتعلمين أنه لم يبق بالبلد الآن من لديه طعام سوى عدد قليل يعدون على الأصابع ليد الواحدة، وربما تقلص هذه العدد إلى أقل من ذلك.

: فرج الله قريب يا أم فلان.

-: لا شك، لا شك، ولكن. . .

: ماذا تريدين أن تقولي؟

-: كنت أود القول لو أن كمية التمر لم تنقص لتكفيك وأبنائك لفترة أطول.

: سأعطيها أبنائي لسد رمقهم حتى يفرجها الله من عنده.

-: وأنت؟

: المهم عندي أبنائي.

-: هل لديك شيء من المال.

: عندي بركة من الله.

-: لا غنى عن بركة الله، ولكن المال ضروري.

: لم يبق عندي منه سوى عدد مماثل من الدراهم وهذا المصاغ الذي ترين في عنقي أحيانا.

-: أتريدين أن تبيعيه.

: ولم لا؟

-: «عَمِيْضَهْ» بيع هذه «المُوَرَّقَةْ».[1]

: عندما تدعو الحاجة.

---

(١) المورقة مصاغ قديم من الذهب يشبه الرشرش.

-: صحيح يابنتي كما يقول المثل «تْبَاعْ الكِحَيْلَةْ بْـوَجْبَةْ لِيْلَهْ» ولكن مثل هذا المصاغ الذهبي يجب الحرص عليه.

: إن ربا رزقني به كفيل بأن يرزقني بغيره.

-: ونعم بالله، ولكن إذا أردت بيعه فأخبريني.

: لا بأس.

-: إذا، أستودعك الله.

: جزاك الله خير جزاء، لقد خدمت هؤلاء الصبية خدمة جليلة نرجو الله ألا يحرمك ثوابها.

-: هذا واجب يابنتي.

: قليل هم الذين يحرصون على أداء الواجب.

-: ليتني أقدر على سد حاجتهم.

: لم تقصري حسب مقدرتك.

وبعد أن غادرت السيدة العجوز المكان مرت في طريقها على أحد الأجواد وقصت عليه قصة تلك المرأة وما هي فيه من الحاجة والعوز، فامتدت أريحيته وأرسل لها مع العجوز شيئاً من الطعام قبلته على كره، وهكذا توفر لها ولأطفالها ما قد يكفيهم لمدة أطول، وفي تلك الليلة الباردة بدأ الأطفال يتضورون من شدة الجوع ولسعات البرد، مما جعلها تضيق ذرعاً بالوضع الذي هي فيه، فالطعام الذي لديها قد نفد بالاضافة إلى قيمة الدريهمات التي أدخرتها بعد المرة الأولى ولم يبق عندها غير المصاغ المدخر في وقت نضبت فيه جميع مصادر الرزق في البلد سوى ذلك التاجر الذي سبق أن ردها، وعند ذلك ضاقت عليها الأرض برحابتها، وبالذات فإن الوقت بعد منتصف الليل ولا تستطع الخروج من بيتها عند ذلك لجأت للتفتيش في صرر حوائجها علها تجد شيئاً يتسلى به أولئك الصغار، فيسد رمقهم ويسكتوا عن الصياح وبعد البحث في كل الصرر الموجودة في بيتها عثرت باحداها على ثور من الأقط وهو كسرة بمقدار قبضة اليد فغمرتها الفرحة وكسرته بين أبنائها وأعطت كل واحد منهم كسرة يمصها فيسكت وتضفي عليه أغطيته ليستسلم لنوم عميق حتى الصباح، وعندما بسطت الشمس ضوءها على الأرض خرجت من بيتها متجهة إلى منزل تلك العجوز، بأسمالها البالية وهي

تحاول اتقاء لسعات البرد لساقيها بسواري البيوت وملاذات الطريق الضيق حتى وصلت إلى غايتها، فوجدت العجوز وقد جلست لتوها في مشراق بيتها، فسلمت عليها ورحبت هذه بقدومها قائلة :

-: تعالي هنا يابنتي بهذا المشراق الدافيء واجلسي فيه قليلاً.

: إنني لا أشعر بالبرد.

-: يعلم الله يابنتي أن الجو بارد البارحة وهذا اليوم ألا ترين الماء وقد تجمد في هذه المواعين؟

: هذا وقته يا أم فلان.

-: صحيح، ولكن البرد اللاسع يؤلم المرأة المسنة مثلي.

: فيك البركة ياخالة.

-: لماذا لا تجلسين؟

: إنني على عجل من أمري. تقول ذلك وصوتها يرتجف من شدة البرد.

-: .على عجل؟

: نعم، فلقد تركت أبنائي نياما وأخشى أن يستيقظوا ولا يجدوني عندهم فيفزعوا.

-: قربي إجلسي قليلاً وحدثيني، ما الذي جاء بك في هذا الصباح؟

: لقد أتيت إليك هذه المرة وأريد فزعتك.

-: فزعتي!!

: نعم.

-: ولكن أخبريني مالك هكذا؟

: ماذا ترين؟

-: أرى هذه الثياب الرثة المشذرمة المرقعة عليك.

: أوه، هذه أحسن ما عندي.

-: أحسن ما عندك!!

: نعم، إنها ثياب باليه متهرئة فكلما أرقع منها جانبا إنشق جانب آخر، وكلما خطت فتقا إنهرأ فوقه أو تحته مثله وربما أطول منه.

-: حرام يابنتي على هذه السيقان التي تشبه الجمار أن يلسعها البرد أو تنساب

إليها نظرات العيون.

: دعينا من هذا يا خالة عما هو أهم.

-: «أَهْـهْ»، قبل أن نتكلم دعيني أعـطيك أحـد أسمالي لتلبسيـه مع ثيـابك عله يدفيك ويقيك شر البرد والعرى.

: شكراً، لا داعي لذلك ياخالة.

-: والله لأحضرنه.

: لقد كلفتك أكثر مما تطيقين.

-: خذي يابنتي هذا الخلق الذي قد تهلهلت أطرافه.

: أوه، إنه أحسن بكثير مما علي.

-: آه، إن كـلامك لا يخلو من المجـاملة، وإلا فهو خلق بـالي قد عـافته عجـوز مثلي.

: فيك البركة ، يا أم فلان فليت الناس مثلك.

-: عسى أن يكون على مقاسك؟

: فيه الستر.

-: أوه، أين أنا وأنت؟ ما شاء الله عندل كأنها قوام الـرمح، إن ثـوبي لن يتعدى ركبتيك.

: أوه، لقد غطى منتصف الساق.

-: حفظ الله لـك هذا الشبـاب الناعم والجمـال الأخاذ حتى يـرزقـك الله بـابن الحلال الذي ترضين عنه.

: أوه، دعينا من هذا الكلام يا أم فلان ولنتكلم بما جئت إليك من أجله.

-: ما هو؟

: ألا تعليمن أن أبنـائي قد نـاموا البـارجة مقـوين، فلما انتصف الليـل صاح أحدهم من شدة الجوع فتنبه أخويه وبدأ ثلاثتهم في جثير متواصل حتى قيض الله لي كسرة من الأقط أسكتهم فيها حتى ناموا.

-: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

: وجئتك الآن ومعي هذه «المُوَرَّقَةْ» التي سبق أن طلبت مني إخبـارك إن أردت بيعها.

-: «المورقة»!! تقول العجوز هذه الكلمة مجرورة وهي واضعة إبهام يدها على ذقنها وسرحت في التفكير؟

: مالك ياخالة!؟

-: لا شيء، لاشيء، ولكني يابنتي لا أملك ثمنها الآن.

: لا داعي للقلق، أعذريني إن كنت أحرجتك.

-: لا داعي لا يابنتي، لا تقولي هذا، فالأمر ليس فيه إحراج وإنما كنت قد نويت ذكرها لابنة آل فلان حيث أنها قد أوصتني على «مورقة» ممتازة مثل التي عندك.

: إذا، أعرضيها عليها.

-: آه، ياليت ذلك كان قبل شهر.

: والآن ماذا حدث؟

-: لقد اشترت إثنتين.

: إثنتين!!

-: نعم، وبأبخس الأثمان.

: كيف؟

-: تدرين أن النساء في هذه الأيام قد بعن مصاغهن بقليل من الطعام؟

: بقليل من الطعام؟

-: أقول إن الطعام في هذه الأيام صار بما يقارب وزن الذهب.

: هاه!!

-: وكل هذا الذهب صار من نصيب التاجر فلان.

: التاجر فلان!!

-: نعم، لقد أثرى ثراء لا يساويه فيه أحد.

: أحقاما تقولين؟ كأنني لم أصدق ما أسمع.

-: أزيدك تفصيلاً، فقد أصبح الرجل يأتي بمصاغ زوجته ويطلب منه مقابل ذلك صويعات من الطعام لا تتعدى أصابع اليد الواحدة.

: وهل نفد «السَّلْمْ» من أيدي الناس؟

-: تعلمين يابنية أن الناس لا يلجأون إلى مصاغ النساء إلا بعد أن ينفذ مالديهم

من نقود؟

: لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا الرجل المستغل.

-: وأكثر من ذلك، فقد أمست النساء اللواتي لا رجال لهن يطرقن بيته ليلاً في مجموعات تقل وتكثر ومعهن مصاغهن فيأخذها منهن مقابل حفنات من الطعام.

: عسى الله أن يأتي بفرج من عنده لعباده المسلمين.

-: إننا نتضرع إلى الله ليل نهار لجلاء هذه الشدة.

: لقد حطمت أعصابي بهذه الأخبار السيئة.

-: هذا الواقع يابنيتي.

: إذاً، «مورقتي» لن تسقيني من الماء.

-: لا تيأسي يابنيتي فالرجاء بالله قوي.

: ونعم بالله، ولكن البلاء من خلقه.

-: بامكانك أتذهبي بها إلي ذلك الرجل أو غيره فربما اشتراها منك بثمن أكثر.

: أما إلى ذلك الرجل فلن أذهب أبداً، وإلي غيره فأنت أدري بمن تذهبين بها إليه.

-: سأخدمك في الموضوع إن وجدت غيره وإلا ذهبت إليه.

: جزاك الله خيراً، أنا سأعود إلي أطفالي فأرجو أن تذهبي في الحال ولو أنني قد أثقلت عليك في هذا الأمر.

-: «أفا عليك» سأذهب الآن بعد أن أحسست بالدفء.

وأسرعت العجوز إلى بيت ذلك الرجل فحاولت استدرار عطفه وإظهار هذه السلعة التي جاءت بها بمظهر متميز، وما إن وصلت إليه وسلمت عليه حتى قالت له:

-: لقد جئتك يا أبا فلان بسلعة ثمينة.

: ثمينة!!

-: نعم، إنها من أثمن السلع التي رأيت.

: وهل يوجد اليوم سلعة ثمينة غير. . . ؟

-: لماذا لم تكمل يابني؟

: كنت أريد أن أقول غير الطعام.

-: ذلك قوت الناس الذي يترتب عليه حياتهم أو موتهم.

: هاه، أخبريني ما هي السلعة التي معك؟

-: سلعة من أفضل مارأت عيناي وقد اشترتها صاحبتها بثمن خيالي.

: أوه، بثمن خيالي!! ذلك كان في وقت الرخاء.

-: وهي لا تزال تحتفظ بقيمتها.

: أما الآن فلا.

-: لماذا؟

: الواقع يا أم فلان أننا أحرجنا مع الناس في هذه الأيام.

-: ما سبب ذلك؟

: السبب ما يؤتي به إلينا من السلع ويتعلل أصحابها أنهم اشتروها بكذا وكذا ظانين أن هذا الوقت مثل ذلك الوقت الذي اشتروها به.

-: وماذا تفعل بها.

: إيه، آخذها على كره مني.

-: على كره!!

: نعم.

-: وهل أحد يكره الذهب والفضة؟

: ليس كرها بالمعني الصحيح، ولكن الشيء إذا كثر فقد جاذبيته.

-: وما ثمنها عليك؟

: ثمنها!!

-: نعم إن أثمانها قليل من الطعام.

: أوه، الطعام هو الذي ينقذ حياة الإنسان من الهلاك.

-: والذهب والفضة عصب الظهر.

: وماذا تعملين بالذهب والفضة إذا لواك الجوع أتصهرين أيها لتأكليه؟

-: أيعني كلامك هذا التقليل من قيمة ما أتيت به إليك؟

: وما الذي أتيت به؟

-: أتيت «بمورقة تفضخ العقل»!!

: كفانا الله الشر.

-: إن هذه المورقة من النوع الجيد الصنع الثقيل الوزن ذات الذهب الإبريز.

: الله!! أريني إياها قبل أن تمدحيها بهذا الأسلوب.

-: ولو علمت بكم اشترتها صاحبتها عندما كان الزمان ضاحكاً لها لأخذتها دون مواربة وبأي سعر أطلبه منك.

: لمن تكون هذه.

-: لاحدى بنات الأجواد التي رصتها الحاجة إلى بيع آخر مصاغاتها وأغلاها في نفسها.

: من تكون هذه المرأة؟

-: ابنة حلال مستورة لم تستطيع الوصول إليك فطلبت مني القيام بذلك نيابة عنها.

: أتكون رفيقتك التي أرسلتك في المرة الأولى؟

-: مالك ولها.

: أحقا إنها هي؟

-: قد تكون هي أو غيرها.

: لن آخذها منك حتى تخبريني.

-: بالفعل هي لرفيقتي.

: حقا، إنها سلعة ثمينة وممتازة.

-: وهي كذلك بالفعل.

: حرام أن تبيعها في هذا الوقت العصيب.

-: وأنا أقول ذلك، ولكن الشكوى إلى الله، شدة الحاجة جعلتها تبيعها.

: شدة الحاجة!!

-: نعم،

: وهل تحتاج واحدة مثلها؟

-: كفانا الله شر الوقت الأقشر، الذي جعل بنات الأجواد يحتجن فيه لبيع سلعهن.

: آه، إنها على جانب كبير من الجمال ولن تعدم من يقضي حاجتها.

-: ماذا تعني؟

: لم تتركيني أكمل حديثي، أردت القول بـأنها إلى جانب جمـالها فهي من بنـات الأجواد الذين يجب أن يحافظ على بناتهم.

-: «أشْوَى» لقد حسبتك تعني شيئاً آخر.

: لا، لا، لم أقصد شيئاً.

-: الآن يا بني خذ هذه السلعة وقدر ثمنها وأعطني به طعاماً لها ولأبنائها.

: لقد قلت لك إنه حرام بيعها في هذا الوقت بالذات.

-: لكنها بأمس الحاجة إلى الطعام.

: مسألة الطعام بسيطة ياأم فلان.

-: الـطعام والكسـاء، فوالله لـو رأيت تلك الأهمال البـاليـة ذات «السـراسيب» المتدلية تحت ركبتيها وهي تمشي مع الشارع شبه عارية السـاقين يلسعهـا البرد بشدة لو رأيتها لأسفت لحالها.

: هاه، يلسع البرد ساقيها؟

-: نعم، فـوالله لقد تجمـد بهما الـدم فصارا كـأنهما الجمارتـان المشربتـين بحمرة الدم.

: هاه!! لماذا تركت نفسها هكذا؟

-: لم تترك نفسها ولكن ملابسها بليت من طول الاستعمال.

: إيه، آه، بسيط هذا الأمر.

-: بسيط!!

: نعم، نعم، سأعطيك لها طعاماً وثيابا وأعيد معك سلعتها.

-: كيف؟

: قلت لك سأقضي حاجتها دون أن نأخذ مصاغها.

-: وهل تسمح بذلك؟

: نعم، فكل الأمر بيدي.

-: ليس بيدك لوحدك.

: كيف؟

-: ألا تعرف أنها إمرأة قشرا لا تقبل إلا بالبيع والشراء.

: وما أدراك؟

-: أدري.

: أما لينت رأسها الحاجة حتى الآن؟

-: لم تزدها الحاجة إلا قوة وصلابة.

: غريب أمرها.

-: ألا تعلم أنها لم تقبل تلك التميرات في ذلك اليوم إلا بعد أن أخذت الدراهم.

: ألهذا الحد؟

-: نعم، فوالله لم تنبسط أسارير وجهها حتى أحضرت لها تلك القطعة من التمر بدراهمها.

: أما قالت إنها قليلة؟

-: على العكس لقد قالت لي: لو أحضرت لي بعدد دراهمي تميرات لهو أفضل عندي من الهدية أو الصدقة.

: ما أغرب هذه المرأة؟

-: ولم الغرابة!؟ فكل بنات الأجواد يصبرن على الجوع والعرى ويكابدن مشاق الحياة.

: ولكنها تختلف عن تلك النساء اللواتي يأتين إليّ.

-: بماذا؟

: لكونها جميلة.

-: وإذا كانت جميلة.

: أعني إذا كانت المرأة ذات جمال فإن العيون تتركز عليها.

-: يا بني مهما تركزت العيون على المرأة الجميلة فلن يضيرها ولن ينقص من صبرها وجلدها ولن يتعرض لمكانتها.

: أعرف ذلك أعرفه. يقول ذلك محاولاً قطع هذا الحديث ثم يستأنف والآن ماذا تريدين؟

-: كما قلت، أريد أن تقدر ثمن هذه السلعة وتعطيني ببعض ثمنها طعاماً

والبعض الآخر نقداً لتشتري به ثوباً لها يستر عورتها.

: أما تقبل مني أن أعطيها طعاماً وثياباً؟

-: لا أظن ذلك.

: حاولي، إذهبي إليها وخذي هذا الطعام وهذه الثياب والنقود وحاولي إقناعها بقبولها وردي إليها سلعتها.

-: لا أظن إنها تقبل ذلك.

: وأخبريها إذا انتهت هذه الكيمة من الطعام واحتاجت إلى أي زيادة أو لـزمها أي شيء آخر فعليها إخباري وسأقضي حاجتها.

-: هاه!! مقابل ماذا؟

: بدون مقابل.

-: بدون مقابل!!

: نعم.

-: وهل تتكلم بجد أو تمزح عليّ؟

: تعرفين أنني لا أحب المزاح في مثل هذه المواضيع.

-: إن كان كلامك صحيحاً فأنت أكرم رجل.

: هه، أكرم رجل!!

-: نعم، ستطغى على كرم حاتم الطائي.

: ستر الله الحال يا أم فلان.

-: لا والله، هذا الشيء الذي لم نألفه في هذه الأيام. مع السلامة.

: في أمان الله.

-: وما إن وصلت العجوز إلى منزل المرأة وانزلت الزنبيل المملوء بالطعام وفوقه لفافة من الملابس حتى أخذت نفساً ثم قالت:

: رزقك يابنيتي من باب السماء.

-: ألبسك الله ثوب العافية إستريحي أولاً.

: لقد أتعبني هذا الزنبيل وأنا ليست بي القوة الكافية.

-: بالفعل إنه ثقيل.

: ثقيل مما بداخله.

-: أرزاق ربي كلها.
: من أين أتيت به؟
-: من فلان.
: من فلان!!
-: نعم.
: غريب.
-: أتدرين ما هي؟
: لا.
-: إنـه حوالي ملء الزنبيل من الحب، وبوسط هذه «الطاسة» المليئة بالتمر وفوقه هذه اللفافة من الملابس.
: ليست له عادة أن يبيع عملاءه مثل هذه الكمية.
-: هذه ليست بيعاً.
: ماذا تقولين؟
-: أقول إنها هدية وليست بيعاً.
: هاه!! هدية؟
-: نعم، لماذا إمتقع دم وجهك وشحبت وجنتاك؟
: ألم يكن هذا ثمن «المورقة»؟
-: لا، فالمورقة معي.
: أوه، عدنا إلى طريقتنا السابقة.
-: ماذا تعنين؟
: لقد قلت لك إنني لا أقبل الصدقة ومن هذا الشخص بالذات.
-: هاه!!
: أما سمعت قولي؟
-: بلى، بلى، ولكن لماذا؟
: هذا شيء في نفسي ولن أبوح به لأحد.
-: هل بينك وبينه أي خلاف؟
: أبداً، أبداً؛

-: إذا، لماذا ترفضين هديته؟

: لم تكن هدية نظيفة.

-: أما في هذه فقد ظلمتي حظك يابنيه، فوالله إن ما في هـذا الزنبيـل من أفضل الطعام.

: أعرف ذلك، أعرفه. تقول ذلك وهي جازمة بأن العجوز لم تفهم قصدها.

-: إذا لماذا ترفضيها؟

: لن أقبلها أبداً، وستعاد إليه.

-: خافي الله يا بنتي، لا تحرمي هؤلاء الصبية من رزق ساقه الله إليهم.

: «إمْحَقْ» رزق.

-: استغفري الله، هذه نعمة لايقال بحقها مثل هذا الكلام.

: لم أقصد النعمة بعينها.

-: وماذا تقصدين إذا؟

: إنني أعني من أرسلها.

-: لماذا أنت حاقدة عليه؟

: ليس حقداً، بقدر ما هو كراهية.

-: أتكرهين إنسانا يعتبر في الوقت الحاضر من أثرى أثرياء البلد؟

: حتى لو كانت ثروته تصل إلى عنان السماء وتغطي عين الشمس.

-: ماذا تقولين؟

: أقول ما سمعت.

-: لابد لك اليوم أوغداً من ولوج هذا الشارع والوقوف ببابه.

: يأبى الله علي ذلك.

-: لماذا هذه المكابرة، والله لو كنت تملكين خرائن الأرض فلن تقولي هـذا الكلام.

: إنني أملك ما هو أسمى من ذلك.

-: ماذا تعنين؟

: أعني أن لدي الصبر والجلد الذي يمنعني من الذهاب إليه.

-: قد يكون لديك ذلك، لكن ما ذنب هؤلاء الأطفال؟

: خير لهم أن يموتوا جوعاً من أن يتغذوا على مال هذا الرجل.

-: أوه، لقد أطلت المسألة.

: لم أطلها، ولكن أرجوك يا أم فلان أن تعودي بما أحضرت من عنده إليه حالاً.

-: هل جننت؟

: أبداً، إنني بكامل قواي العقلية.

-: ألا تعلمين أن الناس اليوم لا يكادون يحصلون على أقل القليل منه بأغلى الأثمان، وتعيدين كمية طيبة من الطعام دون مقابل؟

: هذه الكمية التي تذكرين ليست لله.

-: هاه!! ماذا تقولين؟

: أقول، أحسبك قد فهمت!! إن وراء الأكمة ما وراءها.

-: يعني أن هناك أطماع أخرى من وراء ذلك؟

: أجل، أجل،

-: آه، لقد رأيت الرجل عندما جاء ذكرك على لسانه ارتبك صوته وتلعثم في بعض الكلمات!!

: أما رأيت الخبث باديا على سحنته؟

-: آه «يَامَفْتُورْ الْحَيْلْ» لهذا السبب تهلل وجهك!؟

: إيه. لقد حبستك أذهن مما بدالي.

-: مادام الأمر كذلك، فإنني أبرأ إلى الله منه ومما يهدف إليه من الأعمال والنوايا الخبيثة.

: إذا، أرجوك أن تعيدي إليه ما أحضرت منه.

-: ولكن هذا «غميضة» أن يرجع إليه خذيه عندك، وإذا حاول مرة أخرى فاطرديه.

: «أفا» عليك يا أم فلان أتشيرين على أن آكل شيئاً فيه شبهة، والله لو تمددت الآن مع أولادي ومتنا من الجوع خير لنا من أن نأكل من طعام مشبوه.

-: معك حق، معك حق، ولكن ماذا أقول له؟

: أخبريه برفضي التام له ولأي طلب يأتي منه إلا بالشراء الحر النظيف.

-: ولكن أولادك سيتأثرون من شدة الجوع.

: لنا الله وفرج من عنده.

-: ونعم بالله، هيا ساعديني برفع الزنبيل إلى رأسي وخذي «مورقتك».

: مع السلامة.

وعادت العجوز بما معها ولما وصلت إليه سألها:

-: هاه!! لماذا عدت بهذه السرعة؟

: لقد رفضت قبول ما أرسلت إليها.

-: لماذا؟

: لأنها لم تقبلها.

-: قد لا تكوني أقنعتيها؟

: لقد عجزت عن ذلك.

-: أظن أنك يا أم فلان لست من العجائز اللواتي يعتمد عليهن.

: لا والله يابني، إنني عجوز «عَلَىَ وَجْهِيْ» ونيتي.

-: إيه، مغفلة!!

: نعم، وعليك أن تنزلي الزنبيل عن رأسك وتذهبي عني. يقول ذلك بحنق.

-: أبشر.

: وبدأ يتمتم بكلمات مسموعة غير مفهومة ولسان حاله يقول:

ما أعتى هذه المرأة وأعنفها، ألأنها جميلة؟ لكن الجمال في بعض الأحيان تصحبه الرقة واللين، ولكن هذه مغرورة بنفسها، ولكني لها مع الأيام، أنا لك والزمان طويل، ترى من هي العجوز التي أستطيع إرسالها إليها؟ لكن العجوز إن اطلعت على أمرى فقد تفضحني، سيما وأنني أتظاهر أمام الناس بالصلاح والتقي، ولكن الأفضل أن أذهب إليها بنفسي هذه الليلة، مادامت في أمس الحاجة.

وبعد أن عادت العجوز إلي بيت المرأة أخذت سلعتها وارسلتها مع إمرأة أخرى أتت بثمنها قليل من طعام لا يكفيها مدة اسبوع حيث استمرت تقوته على

أطفالها وتتذوق منه ما يسد رمقها في تلك الليالي الشاتية.

وتعاقبت الليالي القاسية عليها ولما أيقن الرجل بأن حاجتها قد استحكمت حلقاتها دنف إلي بيتها في تلك الليلة الحالكة السواد وطرق بابها بعد صلاة العشاء الأخير مباشرة ولم تستطيع الوقوف من شدة الإعياء والجوع إلا بعد جهد جهيد وبعد أن وصلت إلى الباب قالت:

-: من الطارق؟

: أنا.

-: من أنت؟

: ضيف. يقول ذلك بصوت مغاير لصوته.

-: ضيف!!

: نعم.

-: إنني إمرأة لوحدي وليس عندي رجل يقوم بضيافتك.

: لا أريد من يضيفني، إنني أريد الدفء فقط.

-: بإمكانك أن تذهب إلى أحد البيوت التي يوجد بها رجال يستقبلوك ويدفئوك.

: إفتحي الباب وسأحدثك من داخل الباب.

-: ماذا تريد مني؟

: إفتحي وسأخبرك.

-: هاه، لقد فتحت الباب ماذا تريد؟

: دعيني أرد الباب خلفي، وعندها سأحدثك بما أريد.

-: إذا، قف في مكانك ولا تتعداه.

: أبشري.

-: ما عندك يارجل؟

: إنني فلان.

-: فلان!؟

: نعم،

-: ما الذي أتى بك في هذا الوقت؟

: جئت أحمل إليك الخير، كل الخير، جئت إليك لأنتشلك من هذا الفقر الذي تعيشينه، وأنقذك من هذه الحاجة التي ترزحين تحت وطأتها.

-: ما الذي دفعك إلى هذا الموقف؟

: دفعتني الشفقة عليك والرحمة بأبنائك الصغار، جئت لكي أطعمك وإياهم من خير ما يؤكل في هذا البلد، وألبسك وإياهم من أفضل ما يلبسه الناس.

-: كلام طيب ولكن ماذا وراءه؟

: ليس وراءه شيء.

-: هذا لا يمكن أن أصدقه، ولكن أخبرني بحقيقة أمرك.

: حقيقة أمري!!

-: نعم، الدافع الذي جعلك تأتي إليّ في هذه الليلة المظلمة.

: جئت أحمل إليك هذا الماعون الممتلىء بكل ما لذ وطاب.

-: لم أسألك عن هذا، وإنما أسألك عن هدفك.

: هاه!!

-: نعم أخبرني.

: الواقع أن لي رغبة فيك.

-: آه، رغبة فيَّ!!

: نعم، وأرجو ألا تردي لي طلبا، ووالله لأجعلنك أسعد إمرأة في هذا البلد، وسأغدق عليك من الخيرات والأرزاق والكساوي مالا تتصورين.

-: آه، ولكن الرجل إذا رغب في أي إمرأة فإنه يتوجه إلي رجالها ويطلب يدها منهم.

: ليس هذا مقصدي.

-: وما مقصدك إذا؟

: كما تعلمين أن لدي عدداً من الزوجات لا مزيد عليهن، وأريد أن أميزك عليهن بالمرور عليك والمكوث عندك ساعة من ليل في الأسبوع مرة واحدة وتحت جنح الظلام بحيث لا يفطن أحداً لمجيئي إليك.

-: آه، لقد عرفت مقصدك أيها الخبيث، ولقد كشرت عن أنيابك أيها اللئيم

الغدار، فاتضح لي الآن جليا ما كنت أحسبه ظنا عابراً.

: أنا خبيث؟

-: وأخبث الخبثاء، لقد حسبت قبل الآن أن حدسي وهم وأن ظني باطل حينما جاءتني وصاياك، وارسالياتك التي رددتها عليك بأكملها، ولكن حينما نطقت الآن بلسانك فقد اتضح هدفك وبان مقصدك.

: أخفي صوتك كيلا يسمعك أحد، فوالله لا غنينك ولأعيدن إليك سابق عيشك الرغيد.

-: ولكنني أرفض ذلك كل الرفض.

: ترفضيه!!

-: نعم، وبكل قوة، ولا تحسبن ما في يدك من المال الذي تتحكم فيه برقاب عباد الله سيقرب لك بنات الأجواد، وتجعلهن يخضعن لمآربك، ويلبين طلباتك.

: هاه!! ماذا تقولين؟

-: أقول لك وبكل تأكيد، والله لو هلكت جوعاً وافتضحت عريا على أن أخضع لارادتك لفضلت الهلاك على ما تريد.

: لماذا تتصلبين برأيك هكذا؟ إرحمي أولادك.

-: لست لوحدي التي تقف هذا الموقف، وإنما كل إمرأة عربية مسلمة حقاً، فهذا موقفها، أما أولادي فوالله إنني أفضل أن يموتوا جميعاً وادفنهم أطهاراً مطهرين خير من أن أغذيهم برزق حرام وطريقة نجسة.

: إيه، هذا رأيك بنفسك ولكن ما يدريك عن بقية الناس؟

-: أدري.

: هل تعلمين الغيب أو تضربين بالحصى بسم الله الرحمن الرحيم؟

-: ماذا تعني؟

: هاه!! أعني أنني قد طردت عدة مرات بهذا الأسلوب، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

-: وهل تعرف الله يارجل.

: أنا لا أعرف الله!!

-: لو كنت تعرف ربـك وتخافـه وتتقيه ماانتهزت حلول هـذه المجاعـة والمسغبة الشرسة واستخدمت نعمة الله في محـاولة هتـك أعراض بنـات الأجواد، أمـا تعرف أن الحرة تموت جوعاً ولا تأكل بثدييها؟

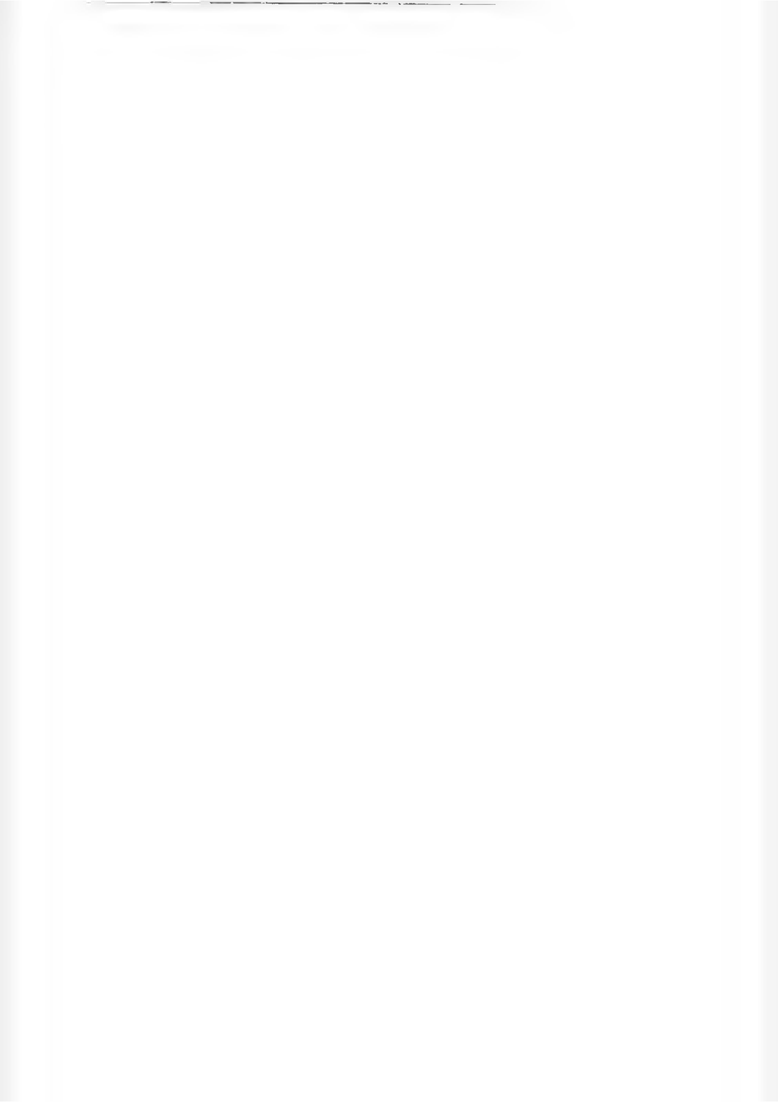
: هاه!! لقد سمعت هذا المثل عدة مرات.

-: عليك أن تعتبر وتثوب إلى رشدك وتحمـل زنبيلك وتخرج من هـذا الباب الآن وإلا كشفت أمرك للناس.

: لا، لا، إسترني، ستر الله عليك.

-: اذلف إلى غير رجعة لا ردك الله.

القصة رقم (١٨)



«من شاف شيء حكى به»

لم تكد الشمس ترتدي وشاحها الذهبي وينعكس هذا اللون على تلك الصفحة الشقراء من رمال النفود الناعمة الطرية حتى بدأت نسمات ذلك الهواء البارد تلسع خدود أولئك الركب فبدأ كل واحد منهم يجذب أطراف عباءته أورادئه ويحاول لفه على نفسه ويأخذ «بِمَساعِيْد غُتْرَتِهِ أَوْشِمَاغِهِ» ليتلثم بها لاتقاء هذا الهواء البارد عندها قال أمير الركب:

-: أيها الرفاق، لقد كادت الشمس أن تغيب ويجب علينا أن نختار المكان المناسب لمبيتنا هذه الليلة.

: ألا تريدنا أن نسير حتى تغرب الشمس؟

-: لن نقطع من المسافة ما يساوي تركنا للمكان المناسب مادمنا في وضح النهار.

: المكان المناسب!؟

-: نعم.

: نحن في هذا النفود الفسيح وكل مكان فيه أعتقد أنه مناسب.

-: لم أحسبك هكذا!!

: ماذا أخذت علي يا أبا فلان؟

-: ليست كل الأماكن واحد، فحتى في النفود يجب أن نختار المكان الذي يذرينا عن لفح هذه اللفحات الباردة من الهواء.

: هاه!!

-: نعم، هذه اللفحات التي تفوح علينا بين الحين والآخر من بين هذه الكثبان الرملية وكأنها الثلج.

: صحيح، معك حق.

-: إذا، دعونا نختار تلك الوهدة المنخفضة والقريب منها شجر الأرطى نحتطب منه ونشب نارنا هذه الليلة لندفأ عليها.

: ألا ترى أنه من الأفضل أن نقطع هـذا العرق من الـرمل علنـا أن نجد وراءه خب يتوفر فيه المرعى لركابنا لأن الحطب متوفر في كل مكان.

-: صدقت، صدقت، فركابنا هي رأس مالنا في هذا المكان وهي التي ستوصلنـا إلى هدفنا.

: ألا ترون أن في ذلك «اللُّغْفْ» جهامة خضرة؟

-: بلى، بلى، ستوجه إليه.

: هاه، لقد وصلنا إليه.

-: حقا، إنه نعم المكان، إن به من العاذر والسليح وغيره ما سيعشى ركابنا.

: وهـذا المنحنى الضيق سوف يـذرينا عن هـذا السموم الـذي يهب علينـا بـين الحين والآخر.

-: لقد أحسنت الاختيار أيها الأمير.

: لم يكن باختياري بقدر ما هو رأيك أنت يا أبا فلان.

-: لا فرق بيننا، فأنت أميرنا وموجهنا.

: إذا، أنيخوا ركابكم، إخْ، إخْ، إخْ.

-: أتريدون أن تحشوا لها أم تتركونها ترعى؟

: لنتركها ترعى حتى يحكم الظلام ثم نعقلها.

-: ولكن يجب ألا نتركها بدون عشاء.

: سيجمع كل منا لمطيته حضنا من الحشيش تأكله وهي باركة ليدفئها الليلة.

-: هذا هو الرأي الصائب.

: إذا عليكم أن تجمعوا الحشيش والحطب ما دامت الشمس لم تغرب.

-: الحـطب لا يهم سنجمعه حتى في الـظلام لكن الأفضـل أن نجمـع الحشيش أولاً.

: كما تريدون.

-: حتى أنت ستحش إيها الأمير؟

: ومن قال لك أنني قد عفت مطيتي؟

-: لم أقصد ذلك، ولكن هناك من يكفيك هذه المهمة.

: سأباشر العمل بنفسي.

-: والله لن تمس شيئاً، وتترك مهمة إحضار الحشيش والحطب لنا وعليك بالجلوس بقرب النار.

: إذا، سأعمل لكم القهوة والعشاء.

-: ولا حتى هذا.

: والله لن يحمس هذه القهوة غيري.

-: لا نريد أن نقطع يمينك، أما العشاء فسوف يتولى عمله فلان.

: لماذا قصدت فلانا بالذات؟

-: لأنه بارع في عمل خبزة النار.

: معك حق.

-: سيعمل لنا هذه الليلة خبزة في جمر هذه الأرطى ورمل هذا النفود الناعم، أليس كذلك يا أبا فلان؟

: أبشروا بسعدكم وأنا «أخوميثاء».

-: كفو.

: «ما عليكم زود».

-: لنؤد صلاة المغرب الآن لقد وجبت.

: حقا إن هذا وقتها.

-: إنتبهوا لما حولكم، قبل أن يدمس الليل.

: ماذا تعني أيها الأمير؟

-: ليرقب أحدكم ذلك الرأس النائف من الكثيب ويرى ما إذا كان حولنا أحد.

: ومن تريد أن يكون حولنا؟

-: الله أعلم، سبحان الله وذلك على سبيل الاحتياط.

: لا أحد حولنا.

-: وإن يكن، فالأرض قد لا تخلوا من قطاع الطرق.

: كن آمنا فلا أحد في هذا النفود.

-: الحيطة واجبة وعليك أن ترقب يا فلان.

: أبشر، أبشر.

-: يا الله ما أجمل هذا المكان وأذراه.

: من يصدق أننا الآن في شهر شباط؟

-: ماذا تقصد؟

: أعني أننا في هذا «اللُّغفْ» الدافيء وكأننا في بيت مقطب.

-: أنت في حضن هذا النفود الدافيء.

: صحيح ما قيل فيه من مدح.

-: ماذا تعني؟

: أعني أنه لم يكذب ابن عمنا عجلان عندما قال:

الله عَـلَى دَوْرٍ لَـنَـا لَـوْيِـرِدُيْ مَشْتَى الْنُفُـوْدْ وْنجْضِعُـهْ إِوْ نِبِـطَاحَـهْ

-: صدق لسانه، فلقد عاش بالنفود وأغرم به وأحبه من أعماق قلبه أما سمعت بيته الذي يقول:

٢٦٤ يَـا مِـيْر جِيْتَـكْ عِقِبْ سَكْنَ الْمَبْـوْبِي أَبِيْ الْـنفُـوْدَ الـلِّيْنَـهْ ونْـخَـلاَقِيْ

: هذا شأن من أحب بقعة من الأرض وخاصة النفود.

-: ومن منا لا يحب النفود؟ ومن منا لا يألفه؟

: آه، ما أحلى مرباعه!! إذا أراف الله عليه.

-: ومصيفه لولا أنه متعب وذلك لقلة المياه فيه وعمق الآبار إن وجدت أما سمعت بن عمنا الثاني عبدالله عندما قال:

جِيْنَا قِلِيْبِ غَاطْسٍ وسْطَ الأَطْعَاسْ بَـالْخَمْس مَعْ نِصْفَ الثْمـانِـينْ نِـدْلِيْـهْ

: أوه، لو أن الله سبحانه وتعالى بجس فيه عدداً من العيون أو الآبار لأصبح مصيفه يضاهي مرباعه.

-: ليت الناس يجدون فيه ولو آباراً عميقة.

: تفضلوا خذوا فنجانا من القهوة.

-: سلمت يداك أيها الأمير، دعني أصبها عنك.

: ألا تعلمون أن هذه آخر طبخة من قهوتنا؟

-: كيف؟

: لقد انتهى ما معنا من القهوة.

-: آه، إن معي كمية قليلة منها، لقد ذخرتها لنفسي، ولكن مادمنا قد احتجنا لها في الطريق فليس عن النفس مذخور.

: سنعوضك عنها إذا عدنا إلى أهلنا.

-: «أُفّا» وهل أنا ممن يطلبون فيها يقدمون عوضا.

: ألا تعرف المزاح؟

-: ترى كم المسافة بيننا وبين ما نريد؟

: أوه، مسافة خمسة أيام إن لم نخطيء الطريق.

-: نخطيء!!

: نعم، فكم واحد قد أخطأ الطريق وتاه عن الدرب فهلك في وسط هذه الرمال.

-: لكننا نعرف الطريق تماماً.

: وهل الإنسان معصوم من الخطأ؟

-: لا، ولكن هذه الأماكن نعرفها.

: تعرفها!! كلها كثبان من الرمال المتشابهة وأعداد هائلة من العروق الرملية والقعور السحيقة والوهدات المنخفضة التي قديتيه الإنسان فيها.

-: لن نتيه إن شاء الله ومعنا هذا الخريت.

: ستر الله على الجميع.

-: لا تنسى أن هناك علامات ودلائل نهتدي بها في الليل والنهار.

: مثل ماذا؟

-: مثل قمة جبل أم سُلْمَانْ وقمة جبل العُلَيْم وغيرها والتي تشاهد من مسافات طويلة.

: معك حق.

وفي الصباح سار الركب في طريقهم على هذه الأرض الذهبية الناعمة التي

تزينها تعاريج العـروق الرمليـة المتموجـة وغمنمات الـرياح ونقـوشها الـرائعة عـلى صفحـات تلك الدعـوص الرمليـة والتي تهزأ بـأروع اللوحات الفنيـة دقـة وحسن تنسيق وتبزها روعة وجمالاً، وفي المساء جمعتهم الصدفة في ركب آخر يعرفونهم وقد ساروا في اتجاه معـاكس لمسير هـذا الركب وبعـد أن سلم بعضهم على بعض قـال رئيس هؤلاء الركب:

-: ما رأيكم حينما جمعنا الله بهذه البقعة الطيبة أن نستأنس الليلة بوجودكم ونمرح في هذا المكان لنسمر معاً هذه الليلة وفي الصباح كل يذهب في طريقه.

: رأي صائب، هاه، لقد سبقتني عليه، وقـد تبادر إلى ذهني بمجـرد أن رأيتكم سيما أننا الآن في وقت العُصَير ولم يبق على الشمس إلا القليل ثم تغيب.

-: إذا، على بركة الله، فأنتم ضيوف علينا.

: هذا ما لا نوافق عليه، بل أنتم الضيوف علينا.

-: «قَصَدْتُكَ» أن تكون الضيافة من نصيبي أنا وصحبي.

: نحن أحق بها لأننا أكثر عدداً.

-: ولكني سبقتك إلى الموضوع فأرجو أن تهبه لي.

: قد لا يوافق رفاقي على ذلك.

-: أنت أمير رفاقك، ولن يخرجوا عن رأيك فقد طلبتها منك هذه المرة.

: على أن نبقى ليلة ثانية وتكونوا ضيوفا علينا.

-: إيه، في الصباح يكون خير، فاجعلها من نصيبي، هذه الليلة.

: لقد وافقت على ذلك، ولكننا في البر كما تعلم ورفـاقي أكثر من رفـاقك وكـل واحد منا وراءه مسافة طويلة ومعه زاد محدود فلكم شرف الضيافة ولنشارككم في بعض الأمور.

-: هاه، لقد أخجلتني يا أبا فلان.

: ولمـاذا الخجل، فلو جئتـك في بيتك لكـان لـك الحق في أن تقـول مثـل هـذا الكلام لكننا الآن في وضع متشابه، فالكل منا قـد ضرب طـريق سفر ولـديه مسافة يحتاج إلى قطعها ليصل إلى هدفه.

-: إذا، على بركة الله ولو أنها لم تنحل من نفسي.

وبعد أن تم اختيار المكان الجيد في حضن ذلك العرق المرتفع أنيخت الركاب وتسابق الرجال في تجميع الحطب واشعال النار وعمل القهوة ولم تغرب شمس ذلك اليوم إلا وقد شرب القوم أول طبخة قهوة عملوها ومع إدارتها على القوم إنسابت الأحاديث عما شاهده كل ركب في طريقه. وما صادفه من متاعب، وما تنعم به من ساعات أنس مع رفاقه ودار مع فناجين القهوة إناء «المُطَبَّقَة» المليئة بالتمر الرطب الممتاز قدمه واحد من القوم الكثر فسأله أمير الركب القلة:

: هذا تمر ممتاز من أين اكتلتموه؟

-: أهذا النوع من التمر يكتال؟

: هاه!! صحيح إن هذا النوع لا تمسكه سوى الأواني لما فيه من الدبس، إذا من أين لكم.

-: هذا جزء مما «زَهَّبَنَا» به ذلك الجواد الكريم.

: من تعني؟

-: أعني الذي يقول:

يَبْـرَا لِهِنْ مِـنْ مَيْـرغِيْـدٍ مِبَـاكِـيْر   وِنَقْلُطْ الَـفْضْـلَةْ عَـلَى مِنْ هَـذَا بَـهْ

: آه، لقد فهمت أتعنى مبارك.

-: نعم، إنه «أخو سعدى».

: والف نعم.

-: كفؤ ويستأهل أكثر من ذلك، متى كنتم عنده؟

: قبل ثلاثة أيام.

-: ثلاثة أيام!!

: نعم فلقد أكرمنا خير إكرام.

-: تستأهلون يا أبافلان.

: ويستأهل هو المدح والثناء.

-: وألف نعم «باخي سعدى» من وافيتم عنده؟

: لقد وافينا عنده أناس كثير.

-: كثير!!

: نعم، فلقد قدموا من كل حدب وصوب.

-: إيه، أعان الله الأجواد على ما في وجوههم.

: فلقد التقينا عنده ركب قدموا من شرق النفود يريدون غربه وآخرين قدموا من شماله يريدون جنوبه، ونحن من جنوبه قاصدين شماله وكل هذه المجموعات الثلاث التقت عنده في ليلة واحدة.

-: أعان الله الأجواد وبارك لهم في رزقهم.

: لم يقصر فقد أكرم هذه المجموعات الثلاث التي نحن أحدها ولم يكتف بذلك بل زود كل مجموعة بكمية من التمر الذي هذا عينة منه حيث ملأ لهم جميع ما معهم من أواني.

-: كثر الله خيره، يُضَيِّفُ و«يُزَهِّبْ» الضيوف.

: والله إذا رأيت هذا الرجل وما يقدمه للوافدين إليه من الطعام والشراب والمأوى، تجزم بأن الله قد بارك له في رزقه.

-: ماذا تعني؟

: أعني أن ما يقدمه للآخرين من التمر يفوق مئات المرات ما ينتجه نخله من التمر.

-: هاه!!

: نعم، وإذا رأيت ما يقدمه من الطعام للآخرين أيقنت أن البركة قد نزلت عليه وإلا لو كان يهل من أحد هذه الكثبان الرملية لنفدت.

-: وألف نعم بأخي سعدى كثر الله خيره وأكثر من أمثاله، ألا تعلم أننا نفتخر به جميعاً.

: هذا لا شك فيه فقد سارت الركبان بأخبار كرمه كغيره من كرماء العرب الذين ينتشرون في كل قبيلة وحي ومدينة وقرية.

-: إيه، بلا شك ولكن والله لو رأيت ما يفيض عليه من ذلك الخل من الضيوف لما صدقت أن هؤلاء الناس هناك من يستطيع إطعامهم.

: ليته خل واحد، بل هناك عدد من الخلول ولكن الجواد معان من الله عز وجل يا ابن العم.

-: لا شك في ذلك.

: ألا تعلم أن كل ضيف وطاعم عند هذا الكـريم يلهج لسـانه بجملة، خلف الله عليكم، أوزادكم الله من فضله، أو أنعم الله عليكم، أو بارك الله لكم.

-: نعم، نعم، هذه الجمل وأمثالها تتردد على شفـاه الضيوف والـذين طردوا عن أنفسهم غائلة الجوع من صحن هذا الكريم.

: بـلا شك إن هـذه الأفـواه العـطشى والأجـواف الجـوعى إذا رويت وشبعت ودعت لصـاحب الفضل فـإنه حـري من الله أن يقبل دعـاءهـا وينـزل الخـير والبركة في رزق هذا الجواد الكريم.

-: آه، ليتنا صرنا مثله نسمع تلك الدعوات تطلب لنا.

: إنكم مثله يا ابن العم.

-: لا، لا، يا ابن العم، ستر الله الحال ولكن لسنا منه في شيء.

: هذا تواضع منك، وإلا فأنت في بيتك ومكانك غير بعيد عنه.

-: هاه!! دعنا من هذا فأنت أطيب مني.

: أنا أطيب منك!!

-: نعم.

: ستر الله على من أراد الستر ولكننا لسنا بمستوى أخا سعدى.

-: ذاك معروف ومتروك له طريقه.

: جزاه الله خير جزاء.

-: وأكثر من أمثاله.

: أين تريدون الآن؟

-: نريد أرض الجوبة.

: أوه، إن بينكم وبينها مسافة طويلة.

وهكـذا استمر حـديث السمـر حتى انهرس الليـل ثم نـامـوا ومـا إن أصبـح الصباح حتى ذهب كل ركب إلى وجهته ترفعهم الكثبان الرملية تارة وينحـدرون، مع الخبوب الناعمة تـارة أخرى وحينـما أراد الركب المتجـة جنوبـا المبيت في الليلة الثانية فضلوا الانحدار من فوق ذلك الكثيب ولم يشعروا إلا وقد إنصبوا على ركب آخر قد اختاروا ذلك المكان الدافيء، وتجشمت ركـابهم منزل الـركـب دون مقدرة على تجنبه، عنـد ذلك وقف رئيس الـركب مرحبـاً بمن على أكـوار الركـاب وحلف

عليهم ألا يتعدوا عنه، فشعر رئيس الركب الوافد بالخجل وأحس بـالحرج عنـدما سمع رئيس الركب يقول:

-: حياكم الله، حياكم الله، حللتم أهلاً ووطأتم سهلاً.

: معذرة يا أخانا، فوالله لم نشعر بكم إلا حينـما إنحدرت بنـا الركـاب من فوق هذا الكثيب.

-: ولماذا الإعتذار يا أخي هذه هي الساعة المباركة.

: قد نكون سببنا لكم إزعاجاً أو مضايقة.

-: عـلى العكس أيها الضيـوف الكرام فقـد سررنـا بقـدومكم في هـذه اللحـظة السعيدة.

: جعل الله المسرة حليفكم في كل مكان ولكننا شعرنا بالحـرج عندمـا إنهلت بنا الركاب مع هذا العرق ولم نستطع منعها حتى وطئنا مراحكم فمعذرة.

-: ألا تعلم أن قدومكم بهذه الصورة نعتبره مفاجأة سارة لنا.

: متع الله بأيامكم. يقول ذلك وهو يلوي رسن مطيته ليحرفها إلى إتجـاه مغايـر ليتبعه رفاقه حينها قال له الرجل الثاني.

-: أين تريدون؟

: نريد مواصلة سيرنا.

-: تواصلون سيركم!!

: نعم.

-: لقد حلفت عليكم.

: حلفت!!

-: نعم لقد مضى مني يمين ألا تبرحوا هذا المكان لهذه الليلة.

: لا تحلف يا ابن الأجواد سنذهب في سبيلنا.

-: والله لن تتعدوا هذا المكـان، فالـوقت الآن متأخـر عن المسير وستمـرحون في مكان قريب منا فدعونا نستأنس هذه الليلة بوجودكم معنا.

: هاه!! نرجوا المعذرة ياأخي.

-: لا عذر لكم ولن أسمح لكم بمبارحة هذا المكان.

: لن يوافق رفاقي.
-: ألست أميرهم؟
: بلى.
-: لم أتصور أن ركبا سيعصون مشورة أميرهم.
: ما عدا رفاقي.
-: في ربعك البركة ولن يعصوا أمرك.
: إنهم لم يوافقوا على ما تريد.
-: لقد حلفت عليكم، يقول ذلك وهو يمسك بمثناة رسن مطية أمير الركب ويقول لها إخْ، إخْ حتى أناخها.
: أمرنا إلى الله ولكن على شرط.
-: ما هو؟
: أن يكون الطعام من عندنا.
-: لم تجر العادة بذلك، حيث لم يحدث أن قدّم ضيف الزاد لمضيفه يا ابن الأجواد.
: نحن مسافرون وليس بيننا ضيف ومضيف.
-: ولكن المتعارف عليه أن العربي يصبح مضيفا إذا حل عليه ضيف حتى ولو كان في قلب الصحراء، سيما وأننا بأرض يتصف أهلها بالكرم والمروءة.
: ستر الله الحال.
-: أترضى لوكنت في موقفي أن أساهم بضيافتك، هذه منافية للعادات العربية.
: هاه، ولكنك لست بوضعي.
-: كيف؟
: يبدو من لهجتك أنك قدمت من جنوب الجزيرة وحللت بأرضنا.
-: أرضكم!!
: نعم، أرض قبيلتنا.
-: «وألف نعم» بهذه القبيلة وأرضها وهذا ما جعلني أخجل في هذا الموقف.
: ولماذا الخجل؟
-: إن كل فرد نحل ضيوفا عليه من أفراد هذه القبيلة العظيمة وغيرها من سكان

هذه البقعة يسبل علينا فيضا من كرمه الجم لدرجة أننا أصبحنا نخجل من أنفسنا.

: هذا واجب وليس لأحد فضل فيه بين العرب.

-: والله لو بذلنا الغالي والرخيص لرد ولو جزء بسيط من معروفكم علينا لما استطعنا ذلك.

: لا تقل هذا يا ابن الأجواد فلم تر ممن مررت بهم غير القيام بجزء من الواجب الذي فرضته علينا سجية الكرم وعاداتنا العربية.

-: إنه أكثر من الواجب بكثير، أتدري ماذا أتمنى؟

: لا.

-: إن أمنيتي أن يأتينا رجل مررنا عليه في طريقنا وأكرمنا بدرجة لم نشهد لها مثيلاً.

: من يكون؟

-: إنه إبن عم لكم.

: كثير أبناء عمنا، فمن يكون منهم؟

-: إنه مبارك بن محمد بن عبيكة، أتعرفه.

: ونعم، إنه كما ذكرت.

-: نعم واحد، إنه يستأهل عشرة آلاف نعم.

: هه، ماذا رأيت منه؟

-: رأيت منه الكرم الجم والحجاج الضاحك والنفس السمحة بالإضافة إلى ما يقدمه لضيوفه من الطعام والشراب والمأوي.

: من لقيتم عنده؟

-: أوه، لقينا لديه خلق كثير قد أتو إليه من كل جهة.

: أعرفتم أحداً منهم؟

-: باعتبارنا من جنوب نجد فكانت معرفتنا بقبائل هذه المنطقة قليلة نوعاً ما، لكن هناك مجموعات تنتمي كل مجموعة إلى قبيلة معينة من شرق وغرب وشمال وجنوب هذه الجزيرة.

: إذا، أعجبك الرجل؟

-: وأكثر من الإعجاب، وأمنيتي بالحياة أن يحل هذا الرجل بحقي من الأرض لأرد إليه ولو جزءاً من جميله باكرامه.
: من أين أتيتم؟
-: أتينا من أقصى جنوب نجد.
: وأين تريدون؟
-: نريد إلى «الغَرْبِيَّة» عمان وما جاورها.
: ما غرضكم هناك؟
-: نحن أربعة إخوة، ثلاثتنا هؤلاء، ورابعنا وهو أكبرنا ذهب مع من ذهب إلى «الغربية» قبل حوالي عشرين سنة وانقطعت أخباره عنا ولم نعرف عنه أي شيء لذلك عقدنا العزم على البحث عنه علنا نصل إلى أحد يهدينا إليه.
: هل ذهب لوحده أم معه أحد؟
-: آخر خبر عرفناه عنه أنه إتجه إلى هناك في الوقت الذي كنا فيه صغاراً.
: عقل الله عليكم، فقد يكون ممن انتظموا مع العسكر.
-: من تعني؟
: أعني عساكر الأتراك أو الإنجليز والفرنسيين.
-: وهل يوافقون على إدخالهم العسكرية.
: نعم فقد انتظم فيها عدد من الشباب مع «الهَجَّانَة».
-: لعلنا نجد أخانا معهم.
: وفقكم الله.
-: واستمر السمر تلك الليلة على هذا المنوال ثم قال رئيس الركب الجنوبي: لقد سمعت بيتا لم أتأكد من قائله أتدري لمن هو؟
: ما هو البيت:

طول الجدار وقصرة الرجل نوماس ... لا صارما للرجل داع دعاها

-: ممن سمعته؟
: سمعته في أحد المنتديات أثناء طريقي.
-: هل سمعته لوحده؟
: لقد سمعت معه عدة أبيات.

-: أتعرفها؟

: على ما أعتقد، إن لم تخني الذاكرة.

-: ما هي؟

: قال الراوي:

٢٦٥ يَارَاكِبٍ مِنْ عِنْدَنَا فَوْقْ عِرْمَاسْ   عِمْلِيَّةٍ قَطْعَ الْفِيَافِيْ مْنَاهَا
٢٦٦ تَلْفِيْ لاَ بُوْعَبْطَا عَلَى وَقْتَ الادْمَاسْ   وِلْيَا لِفَتْ لَلشَّيْخ هُوْمِنْتَهَاهَا
٢٦٧ مِنْ بَاعَنَا بَالرِّخِصْ بِعْنَاهْ بِفْلاَسْ   بَيْعَتْ هَزِيْلٍ مِيْسٍ مِنْ رِجَاهَا
٢٦٨ طُوْلَ الْجِدَارْ وْقَصْرَةْ الرِّجِلْ نُوْمَاسْ   لاَصَارْ مَالَلْرِجِلْ دَاعٍ دَعَاهَا

-: آه، لقد أخطأ على ما أعتقد، لمن رواها؟

: رواها لعبد الله بن صقيه التميمي صاحب قفار.

-: للتميمي!!

: نعم، وروي معها قصة تقول: إنه حصل اختلاف بين هذا الشاعر وأبناء عمه على إخراج حقه من الأرض، فقد استضعفوه وجعلوا له قطعة من الأض لا يتوقع أن يكون بها ماءاً ولا تسوى شيئاً وأخذوا الجيد من الأرض، عند ذلك إنحاز إلى خصومهم من بني خالد المسمين «بالخشيمات» فأعطوه من حقهم كواحد من خيارهم وبعد ذلك قال هذه القصيدة.

-: هذه قصة قريبة من الواقع إذا استشهدنا بالبيت الثالث القائل:

من باعنا بالرخص بعناه بفلاس   بيعت هزيل ميس من رجاها

أما البيت المعني فليس من القصيدة.

-: لقد سمعتها هكذا.

: قد يكون تطابق أبيات القصيدتين جعل هذا الراوي وأمثاله يخلط بينهما.

-: ماذا تعني بالقصيدتين؟

: أعني أن هذا البيت في قصيدة لمبارك الذي سبق أن تحدثنا عنه.

-: مبارك الكريم؟

: نعم، إن له ضمن قصيدة سأوردهالك فيما بعد.

-: أسمعني إياها، أسمعني.

: ليس قبل أن تكمل لي قصة ذلك الراوية التي سمعتها منه.

-: لقد أنهى الراوية قصته بهذه القصيدة أو على الأصح بهذه الأبيات قائلاً أنها لعبدالله المذكور.

: ألا ترى أن البيت لا يتلاءم مع أبيات القصيدة؟

-: والله لكأني أحس بفجوة بين هذه الأبيات، إما أن يكون هناك أبيات ساقطة منها، أو أن البيت كما ذكرت ليس من القصيدة.

: البيت ليس من القصيدة بالتأكيد.

-: أسمعني قصيدة مبارك.

: آه، أبشر، فقد قال:

٢٦٩ يَا بَانْ ضَوْ الصُّبِحْ قَلَّطِتْ بِحْمَاسْ ... عَلَى وَهَجْ جَمْرٍ تُوَقَّدْ سَنَاهَا

٢٧٠ وْزَيَّنْتْ أَنَا الْحَمْسَةْ عَلَى الْكَيْفْ بِقْيَاسْ ... كَبِّيتَهَا بَالنِّجِرْ حِينْ اسْتِوَاهَا

٢٧١ بِنْجِرِلْيَا حِرِّكْ يِقِلْ ضَرْبْ نَحَّاسْ ... دِبْ اللِّيَالِيْ مَايْبَطِّلْ غْوَاهَا

٢٧٢ وْلَقَّمْتْ بْدَلَّهْ مُولَعٍ مَالَهْ أَجْنَاسْ ... مِنْ حَبْ صَنْعَا عَايِي لَهْ عْبَاهَا

٢٧٣ صِبَّهْ لِمِنْ حَوْلَكْ عَلَى الزِّبِرْجِلاَّسْ ... هَلَ السُّمُوتْ اللِّيْ بِعِيدٍ مِدَاهَا

٢٧٤ وِاثْنَهْ لِمَمْرُورٍ عَلَى الْخَيْلِ مِدْبَاسْ ... يِقْفِيْ عَنَهْ صُمْ الرِّمَكْ يَانِصَاهَا

٢٧٥ مِنْ فَوْقْ مَاتَا خِذْ عَلَى الْخَيْلِ مِرْوَاسْ ... يَا جَدْعَتْ سَهْلاَتْ الأَنْفُسْ حْذَاهَا

٢٧٦ يِقُولْ مْبَارَكْ هَرْجِةٍ مَابِهَا بَاسْ ... تَطْرَبْ لَهَا كْرَامْ اللِّحَا مِنْ حَلاَهَا

٢٧٧ طُوْلَ الجِدَارْ وْقَصْرَةْ الرِّجِلْ نُومَاسْ ... يَا عَادْ مَا لِلرِّجِلْ دَاعٍ دَعَاهَا

٢٧٨ خَلِّكْ عَلَى بَابَكْ يِقِلْ عِمِلْ حَرَّاسْ ... يَا جَوْ عَلَيْهِنْ مِحْتِرِيْنٍ عْشَاهَا

٢٧٩ يِصِيرْ بِعْيُونَ الرِّفَاقَةْ مَعَكْ بَاسْ ... وِانْ كَانْ مَا تِدْعَى تَرَهْ مِنْ عَنَاهَا

٢٨٠ يِصِيرْ قَالاَتٍ وْيِصِيرْ لُوْلاَسْ ... وْنُوبٍ مْنَ الأَذْنِينْ يَاتِيْ عَنَاهَا

٢٨١ يَاجَنْ مَعْ الخِلْ الشِّمَالِيْ لَهْ اضْرَاسْ ... وَالْكِلْ تَشْكِيْ رِجْلَهَا مِنْ حَفَاهَا

٢٨٢ تِحِيِّ بَهَمْ مِنْ قَبِلْ تَجْدِيْعَ الأَلْبَاسْ ... تْقَلِّطْ لَهَمْ تَمْرَالحِلِي مِنْ نْمَاهَا

٢٨٣ وْتَذْبِحْ لَهَمْ كَبْشٍ يِصْلَحْ بَالأَطْعَاسْ ... وِتْقَلِّطَهْ مِنْ حِينْ غَيْبَةْ مِسَاهَا

٢٨٤ هَذَاتْ سَلْمٍ اجْدُودْنَا قَبِلْ مِنْ رَاسْ ... وَاللِّي بَعَدْنَا كَانْ رَبِّي هَدَاهَا

-: والقصيدة أطول من ذلك لكن هذا ما أحفظ منها.

: صح لسانك، لقد أحسنت، فقد أجاد وهو كفؤ لذلك،

-: إن له قصائد ممتازة غير هذه.

: بالفعل إنه كلام رائع، ولكن ألا ترى معي أن البيت الذي يقول:

يـصـير قـالات ويـصـير لـولاس ونـوب من الادنـين يـاتي بـلاهـا

ألا ترى أنه ربما يكون من قول الرجل الأول لأنه يتطابق في المعنى مع البيت القائل:

من باعنا بالرخص بعناه بفلاس بيعت هـزيـل ميس مـن رجـاهـا

-: أبداً، أبداً، إن هذا البيت ضمن قصيدة مبارك نفسه التي أوردتها لك ولقد سمعته منه بنفسه.

: أنا لا أقول شيئاً ولكن أقول ربما لأن وضع البيت في قصيدة مبارك كأن به شيء من النفور وفي نفس الوقت متطابق مع القصيدة السابقة، كما أن البيت القائل:

طول الجدار وقصرت الرجل نوماس يـا عـاد مـا للرجـل داع دعـاهـا

نافر من أبيات قصيدة عبدالله ويتفق مع قصيدة مبارك لمطابقته مع البيت الذي جاء بعده وما جاء قبله.

-: هاه!! قد يكون ولكن هذا البيت سمعته بنفسي وحفظته.

: أقول ستر الله على الأجواد، فقد كان كل واحد يعبر عما في نفسه وكل منهم كفؤ لما يقوله.

-: ما الذي أعجبك في هذه القصيدة؟

: لقد أعجبتني كلها لأنها قول على فعل وحقيقة ماثلة للعيان، وهي بنفس الوقت قد تكون أقل من الواقع الذي شاهدته بعيني.

-: أقل من الواقع!!

: نعم، فإن ما ذكره أقل بقليل مما شاهدت بعيني.

-: لم تشاهد شيئاً، فلقد حضرته ليلة أو ليلتين بينما أعرفه على مدى سنين طويلة.

: أنظر يا أخي ما أجمل بيته الذي يقول فيه:

هـذات سلم اجدودنـا قبـل من راس والـلي بعدنـا كـان ربي هـداهـا

-: لم يقل كذبـا، فهذا الكـرم متوارث فيهم أبـا عن جد وسيكـون في عقبهم إن شاء الله.

: بذر الله للأجواد البذرة الطيبة وجعلهم دوحة مورقة مظلة إلى يوم الدين.

-: إن الحديث عن هذه العائلة يطول ويطول.

: الواقع إن حديثك لايمـل ولكني أرى عمود الفجـر قد أوشـك أن يطل علينـا قبل أن نأخذ قسطا من النوم.

-: صحيح، لقد أخذتنا أحاديث الرجال الطيبين وذهبت بنا كل مذهب.

: إذا، ليغمض كل منا ولو وقت قليل قبل أن نصلي الفجر ونستأنف الرحلة.

-: تصبح على خير.

ومع انبثاق عمود الفجر قام الركب وأدوا الصلاة جماعة وتناولوا القهوة معاً ثم ودع كل رفاقه وأخذ وجهته التي قصدها. وتستمر رحلة هذا الركب المتجهة جنوبا حتى يصلوا بقرب القرية التي يسكنها ذلك الجواد، ويتريثوا قليلاً حتى قرب حلول المساء ليروحوا إليه مع أولئك الضيوف القادمين من كل مكان.

وفي المساء ضووا إلى القرية قـاصدين قصر هـذا الجواد المشهـور فوجـدوا بيته غاصاً بالضيوف من كل حدب وصوب فأكرم وفادة كـل من أوى بيته وبعـد تناول العشاء دارت الأحاديث وكل يروي لصحبه ما شاهده أو صـادفه في طـريقه وعـلى ضوء حطب الأرطى دارت الأحاديث فقال أحد الضيوف القادم من الشرق.

: لقد قدمت من الصمان أبحث عن إبل ضائعة.

-: أوه، من الصمان من هناك؟

: نعم، وسرت على مطيتي عبر الدهناء حتى وصلت إلى هنا.

-: هل أتيت مع هذا النفود؟

: لقد قطعته عدة مرات أدخل فيـه تارة وأخـرج منه أخـرى باحثـا عن أي خبر عن إبلي.

-: كم عددها؟

: ثلاث نياق وجملين.

-: أوه، عقل الله عليك، ما ألوانها؟

: ناقتين حمراوين والثالثة وضحاء أما الجملين فأحدهما أقمر والثاني أوضح.

-: ما هي العلامات التي تميز كل منهن؟

: آه، الجمل الأقمر له شعفة شقراء والأوضح له شعفة سوداء.

-: والنياق؟

: النياق أحدهما وضحاء لاهقة والثانية حمراء ووبر اكتافها أدهم غامق، أما الثالثة فهي حمراء صافية.

-: هل عليها وسوم؟

: إحدى النياق غفل لا وسم عليها وهي الوضحاء أما الثانية والثالثة فعليها وسمنا على صفحة الفخذ الأيمن، أما الجملين فالأقمر عليه «العرقات» على خده الأيمن ووسمنا على فخذه الأيمن أما الأوضح فهو غفل لا سم عليه.

-: إن إثنين من إبلك غفل فلماذا لم تسمها؟

: لقد اشتريتها مؤخراً ولم أتمكن من وسمها.

-: ما أسنانها؟

: آه إثنتان من النياق أبكار بسن الثنية أما الثالثة فهي رباعية أم الجمال فأحدهما رباع والآخر ثنى.

-: إن إبلك كلها أشباب وفيهن مطمع.

: إي والله، وهذا الذي جعلني أبحث عنها ليل نهار.

-: متى ضاعت؟

: منذ حوالي الشهرين.

-: هل استقطعت لأثرها؟

: آثار الإبل كثيرة ولم أفطن لها إلا بعد إن ضاع أثرها.

-: ألم تذكر لك في طريقك؟

: لم أجد عنها أي خبر.

-: ماذا رأيت في طريقك؟

: عن أي شيء تسأل؟

-: عما شاهدت ويستحق الذكر.

: آه، لقد شاهدت فريقا من بقر الوحش، الوضيحي.

-: فريق من المها!!

: نعم، لقد عددتها ثمان والتاسعة مهاة صغيرة.

-: هذه والله غرض القناص.

: لقد طلعت عليها وهي تـرعى في قعربـين اشجار الأرطى فجفلت مني وولت هاربة.

-: ألم تحاول أن تصيد منها شيئاً؟

: لقد أبعدت عني، وبندقيتي أم فتيل لا توصلها.

-: ليتني في مكانك، ومعي هذه البندقية. ويشير إلى بندقيته.

: ليست أفضل من بندقيتي.

-: إن ما معي أفضل مما معك.

: هذا غير مؤكد، هذا من نـاحية، ومن نـاحية أخـرى فإنني لا أريـد أن أصيد بقرة وحش في الوقت الذي لا أستطيع أن آكلها، وليس بقربي أحداً سيـأكلها ولذلك لم أصدها لأكل جزء منها وأرمي ببقيتها.

-: لو كنت في مكانك لا صطدتها وأكلت من شوائها وتركت الباقي.

: أوه، يكفيني من اللحم جربوع واحد أنفجه وأصطاده أو طائر أجلده بعصاي فأصطاده.

-: قد تكون بخلت بطلقة واحدة تخسرها على هذا الصيدة.

: لم يكن هذا هدفي يعلم الله، ولكن القناعة هي الدافع الذي جعلني أتركها.

-: وماذا رأيت غيرها، أرأيت ظباء؟

: أما الظباء فهي كثيرة جداً لا تكاد تنقطع عن نظري كل يوم.

-: أين رأيتها؟

: في أرض الحماد وقرب النفود.

-: ألم تصد منها شيئاً.

: لم أحاول.

-: لقـد بخلت عليهـا «بِكَيْلَةِ مِلْحٍ بـارُوْدْ» وقـطعـة من القصـديـر مثلهـا مثـل الوضيحي. يقول ذلك وهو يبتسم.

: لقد أبنت لك وجهة نظري يا رجل ولا داعي لتكرار ما قلته.

-: دعونا من هذا ولنستمع إلى مسافر آخر جاء من الغرب ليخبرنا عما رأي في طريقه، هكذا قطع حوار الرجلين أحد الحاضرين.

: من المسافر الذي قدم إلينا من الغرب؟

-: أنا أتيت من هناك، فماذا تريدون؟

: من أين أتيت؟

-: أتيت من قرب ساحل البحر.

: ماذا كنت تعمل هناك؟

-: لقد ذهبت إلى أخي.

: أخوك؟

-: إنه يعمل مع «الدَّوْلَةْ».

: مع الدولة!!

-: نعم إنهم يعملون طريقاً لشيء اسمه القطار.

: أتعني «البابور» أو هو غيره؟

-: والله يا ابن الأجواد لا أعلم ما هو ولكنهم يقولون إنه شيء ضخم تجره آلة قوية يمشي على الأرض.

: أهو أكبر أم الجمل؟

-: على ما يذكرون لي أنه يساوي ثلاثمائة بعير أو أكثر.

: أوه!! ثلاثمة بعيرا!

-: نعم وربما زاد من ذلك.

: من أي شيء مصنوع؟

-: من الحديد والخشب.

: يا الله!!

-: والله لو رأيتم قضبان الحديد التي يغرسونها له في الأرض ليمشى عليها لطارت عقولكم.

: أهو يمشي على حديد؟

-: يقال إنه يمشي على حديد ولو أنني لم أره.

: ومن الذي يصنع له هذه القضبان؟

-: رجال من الدولة.
: وهل رأيت «الدَّوْلَانِيْ»؟
-: نعم.
: كيف هو؟
-: الرجل الدولاني ضخم الجسم أحمراً «أَعْطَراً» أشقر الشعر أزغر العينين.
: ماذا يلبسون؟
-: يلبسون السراويل والجبب ويضعون على رءوسهم «الكبابيس».
: «كبابيس»!! ما صفتها؟
-: نعم، إنها تشبه «الطاقية» ولها إطار فوق وجوههم وعلابيهم وآذانهم.
: هل هم حاسري الرءوس دائماً؟
-: إنهم حاسروا الرءوس مكشوفوا الأذان ما عدا هذه القبعات التي تغطي هاماتهم.
: وهل ربعنا يعرفون كلامهم؟
-: لا والله إنهم يتراطنون كلام لا نعرفه.
: كيف يعرفون كلامهم؟
-: هناك ترجمان يفهم لغتهم ولغة العرب.
: وماذا أحضرت معك؟
-: لم أحضر سوى قطع ومسامير من الحديد.
: كم يدفعون للعمال من الأجرة؟
-: يعطونهم بالشهر من جنيهين إلى ثلاثة وأجود عامل يصل أجره إلى أربعة جنيهات في الشهر.
: أربعة جنيهات!!
-: نعم، ولكنها لا تأتي إلا بصعوبة، «بِتَعَبْ وْطَقْ كَعَبْ».
: وأين تريد الآن؟
-: أريد العودة إلى أهلي في شمال الصمان.
: من مررت في طريقك؟
-: لقد مررت بكثير من أحياء العرب.

: أراك لوحدك و«الخلاوي» قد لا يكون آمنا.

-: معي رفيق كنا معاً وافترقنا قبل يومين وسنلتقي مرة أخرى.

: أين ستلتقون؟

-: لقد تواعدنا هنا.

: هنا!!

-: نعم، لدى بن عبيكة.

: وهل كنتم تعرفونه؟

-: كنا نسمع به، فقد انتشرت أخباره في كل مكان.

: كيف وجدتموه، أقصد هل رأيتم من كرمه كما سمعتم عنه أم أقل من ذلك؟

-: لا والله، لقد وجدناه أكثر مما سمعنا عنه.

: أكثر!! قل الحق.

-: والله لم أقل إلا الحق، ألا ترى هذه الوفود القادمة من الشرق والغرب والشمال والجنوب تفد إلى قصره في وسط هذا النفود، وكل يجد منه المضيف الذي يقدم لضيوفه كل عناية وإكرام.

: هل مررتم في طريقكم على أحد مثله؟

-: كما تعلم يا أخي فالأجواد في كل مكان من هذه الجزيرة وكل دون حقه وعانيه، ولا نستطيع تفضيل أحد على أحد ولكن نقول كثر الله من أمثال هؤلاء الأجواد الذين يبذلون المعروف لعابري السبيل والمحتاج.

: ونقول معك آمين.

-: مالي أراك وقد غالبك النوم؟

: إننا متعبون من وعثاء السفر.

-: وكذلك نحن، تصبح على خير.

وسار الركب في اليوم التالي كل إلى وجهته، وجاء آخرون وكان عقيد ذلك الركب قد توقف قليلاً عندما أطل على بلد هذا الكريم المشهور فقال له أحد الرفاق:

: لماذا توقفت يا أبا فلان؟

-: آه، لأنظر لهذا الخل.

: وماذا تريد منه؟

-: أريد أن أنظر إليه جيداً.

: ولماذا تنظر إليه إنه خل مثل خلول النفود الأخرى.

-: بل إنه يختلف؟

: بماذا يختلف؟

-: لقد ذكره صاحب هذه البلدة التي أقبلنا عليها بقصيدته ولذلك وقفت لأفحصه بعيني.

: ماذا قال عنه؟

-: يقول عنه من قصيدته المشهورة.

يا جن مع الخل الشمالي دعاثير   عجلين باليمنى نحني ركابه

: كفؤ، إنه كفؤ لذلك.

-: وألف نعم فيه.

: هل تحفظ القصيدة؟

-: أحفظ منها بعض الأبيات.

: هل تتفضل وتسمعنا إياها.

أبشر، قال مبارك:

٢٨٥ لَيَاضَاقْ صَدْرِي جِبتْ صَفُّهْ جِنَامِيرْ   وْشَبَّيْتْ نَارِيْثِلْ نَارْ الْحِرَابَهْ

٢٨٦ ثُمْ احْتَرَفْتْ وجِبتْ هِذَفَ الْمَنَاقِيرْ   يِرْكَنْ عَلَى جَمْرٍ عَقَابْ الْتِهَابَهْ

٢٨٧ إخِمِسْ وَزَيِّنْ خَمِيسَتَهْ لَلْمِسَايِيرْ   وَالْلِي لِفَتْنَا مِنْ بِعِيدٍ رْكَابَهْ

٢٨٨ وْكِبَّهْ بْنَجْرٍ يَا صَهَلْ كِنَّهْ الزِّيْرِ   مِنْ دَارْ ابِنْ عَمْرٍو لَفَى مِنْ هَضَابَهْ

٢٨٩ وْصُبَّهْ عَلَى مِثْلَ الزَّبَيْدِيْ مَغَاتِيرْ   يَا شَافْتَهْ الْعَذْرَامَنَى خْضَابَهْ

٢٩٠ يَا مَاحَلاَ تَوْرِيدَهَا عِقِبْ تَوْخِيرْ   يِنْقَادْ كِمَا سِلْكَ الْحَرِيرْ انْصِبَانَهْ

٢٩١ يَا شَفَّهْ الطَّرْقِيْ بَلَجْ بَلْجَةْ الطِّيْرْ   يِزِيِّنْ وَجْهُهْ عِقِبْ وَسْمِ الْخَلاَبَهْ

٢٩٢ يَبْرَا الِجْنْ مِنْ مَيْرْ غِيدٍ مِبَاكِيرْ   وِنْعَقِّبْ الْفَضْلَةْ عَلَى مِنْ هَذَا بَهْ

٢٩٣ لِعْيُونْ رَبْعِيْ مِتْعِبِينْ الْمِبَاهِيرْ   إِنْ جِيتْ وَجَايْمِيْ بِدَا مَرْحَبَابَهْ

٢٩٤ إنْ سَـانَعَتْ نِحِطْ كَبْش عَـلَى مَـيْر وانْ عَـاضِبَتْ بِسِدْقَـوْ لِنْ هَـلاَبَـهْ
٢٩٥ يَـاجَنْ مَـعْ الخَـلْ الشُمَـالِيْ دَعَـاثِيرْ عَـجْلِينْ بَـالْيُمْنَى نْـحَـنِي رْكَـابَـهْ
٢٩٦ أبِيْ لْـيَـارَكْبَـوْا عَـلَيْهِـنْ مِشَـاوِيـرْ يِـقَلْطُوْا مِـنْ شَـافْ شَيٍّ حَكَى بَـهْ
٢٩٧ الـلِّ عَـلَى شَـيْنٍ وَلاَ هُـو عَـلَى خَـيْر تَبْدِيْ مِصَـابِيحُـهْ عَلَى مَا سَرَى بَـهْ

-: صح لسانك، والقائل كفؤ لما ذكر في قصيدته.

: إن له قصائد كثيرة في هذا المعنى ولكنه اشتهر بهذه القصيـدة ووصلت مختلف الأصقاع.

-: هل يمكنك أن تسمعنا شيئاً منها؟

: لا نستطيع الآن لأننـا وصلنا إلى قـرب المنازل ولا نسـتطيع الـوقـوف ولكن ذكرني لهذا الأمر بعد ذلك.

وأمـام المنزل وجـدوا صاحبـه يرحب بهم بكـل بشاشـة وإكـرام ويؤويهم إلى مجلس الرجال ليجـدوا رفاقهم قد أتوا من أمـاكن أخرى، وبعـد استراحـة قصيرة وارتشاف عدة فناجين من القهـوة مع التمر من ذلك الصحن الكبـير الذي يقـدم للضيوف كل في مكانة ليتناول منه ما شاء، في هـذه اللحظة التفت أحـد الضيوف إلى ضيفـ آخرها فسأله بقوله:

-: لقد صدق صاحبنا.

: من تقصد؟

-: أقصد من يقول:

يبـرا لهن مـن مـير غيـد مبـاكـير ونعقب الفضلة عـلى مـن هـذا بـه

: ومن قال لك بأنه غير صادق.

-: آه، لم يقل لي أحد، ولكن بعض الناس يقول قولاً يخالفه في العمل.

: ماذا تقصد؟

-: أقصد أن بعض الناس يمدح نفسه بما ليس فيها.

: هذا النوع من الناس يغالط نفسه وبالتالي فإن الناس لا يقرونه على ما يقول.

-: معك حق.

: أما رفيقنا فكما ترى لم يكتف بالقهوة التي كانت تدار على الحاضرين حينما أتينا

إليهم، وإنما كما تراه أمر عامل القهوة بأن يعمل لنا طبخة جديدة.

- : فعلاً هذا ما حدث.

: ولو لم يفعل ما يقول لكذبه الناس.

- : صحيح، فالناس لا يقرون إلا ما كان صحيحاً.

: ألم تر أن الرجل قد احتاط في نفس القصيدة؟

- : بماذا احتاط؟

: لقد احتاط بقوله:

إن سانعت حطيت كبش علي مير   وان عاضبت يسد قولة هلا به

- : صحيح، إنني لم أفطن لهذا المعنى.

: ألم تسمعه؟

- : بلى، ولكني لم أدركه تماماً.

: يجب أن تدرك أي معنى في أي بيت من القصيدة وغيرها.

- : ولكن لماذا قال هذا الكلام وهو الرجل الكريم المشهور؟

: آه، لقد قال هذا الكلام من باب الاحتياط، فاحياناً لا تأتي الأمور للانسان على ما يريد.

- : كيف؟

: كما تعلم أن الأرزاق تأتي شحيحة في بعض الأحيان وقد تعدم تماماً فلا يستطيع الرجل الحصول على أقل القليل منها، ولذلك فقد تعسره الأمور ولا يستطيع تقديم ما يريد لضيفه، وفي هذه الحالة فإن الترحيب والبشاشة وملاطفة الضيف مع تقديم ما تيسر من الطعام تعوض عليه عن الكثير من الطعام مع «الْغَلْدِمَةْ».

- : صحيح، معك حق، والله لو لم تبين لي هذا الموضوع لم يخطر على بالي.

: آه، هكذا الرجال يحسبون لكل وقت حسابه.

- : لم يقصر.

: هو لم يقصر بذاته، ولكن أحيانا يعيش بظروف قاسية تجبره على ما لا يريد أو يرغب.

- : معنى ذلك، أنه لم «يَتَرهَّى».

: لم «يترهى» على الأيام فقد قال إنه في حالة وجوده لما يجب أن يقـدمه لضيـوفه فلن يبخل به وإذا حكمته الظروف القاسية وأجبرته على سد رمق ضيـوفه مما تيسر عنده، مع البشاشة في المحيا ولطافة أحاديثه فهذا قد يعوض على ضيفه.

-: إنه كلام منطقي.

: هكـذا عظماء الرجال يحسبـون لكل شيء حسـابه لا يتفـوهـون بكـلام غـير معقول.

-: إيـه، هذا الفرق بالـرجال، فمنهم من يـدعى لنفسه مـا ليس فيها وبعضهم يقتصر على ما فيه.

: لا، إن كثيراً من الرجال لا يبين إلا قليلا من خصاله وربما لا يذكرها أبداً بل يترك الناس يتحدثون عنه اللهم إلا إذا كان في مـوقف فيه مفـاخرة أو مبـارزة فقد يبين أو يلح ببعض الخصال التي يتحلي بها.

-: هاه، ها هو أطل ليقدم الضيوف للطعام.

: «حَيْ وَالله هَا الْحِجَاجْ».

وما إن أصبح الصبـاح حتى غادرت هـذه المجموعـات من الضيوف وكـل قد ذهب إلى وجهته يحمل ما شاهد بعينه وما لمس بيديه والإنطباع الذي انعكس عـلى نفسه عن هذا المضيـاف الكريم ومـا استفاده من أخبـار الركبـان الذين صـادفهم عنده.

ولما دلف ذلك الركب مع أحد تلك الخلول المتعدده بين كثبان النفـود الذهبي حتى قال أحدهم:

-: أريتك يا فلان كيف رأيت مضيفنا البارحة؟

: عن أي شيء تسأل؟

-: ما هو بنظرك من الرجال؟

: رجل كريم من خير الرجال.

-: لم أسألك عن هذا.

: عن أي شيء تسألني؟

-: أردت أن أقول لك، ما هي المزايا التي يمتاز بها؟

: إن له مزايا كثيرة حسب اعتقادي.

-: أتستطيع أن تخبرني عما عرفته منها؟

: هناك مزايا معنوية والأخرى مادية.

-: مثل ماذا؟

: أذكر من المزايا المعنوية صيته الذائع في المنطقة المحيطة به وقد تعداها إلى أماكن غيرها.

-: وهل ظهر له الصيت لوحده؟

: ماذا تعني؟

-: أعنى أن بعض الرجال يكون صيتهم موروث عن آبائهم وأجدادهم فهم في هذه الحالة يكملون ما سبق، وأن خطه لهم آباؤهم، والبعض الآخر يكون الرجل من عائلة مغمورة أو ذوى ذكر خامل فيبني لنفسه هذا الصيت ويحتل المكانة المرموقة التي يريدها فمن أي الصنفين صاحبنا؟

: إنه من الصنف الأول فقد ورث سجية الكرم من آبائه وأجداده وأكمل المهمة التي وضعوها على عاتقه فقام بها خير قيام.

-: إذا، هو مكمل لخطة مرسومة.

: نعم، لقد وجد شداداً مشدوداً فركب عليه.

-: وماذا ترى أيضا؟

: لقد أعجبني فيه بذله السخي رغم شح الرزق في هذه الأيام فوالله لوكان يهل الطعام من أحد هذه الكثبان الرملية لنفد وانتهى.

-: حقاً إنه كما تقول ولكن الله قد بارك له في رزقه ويسر له الحصول عليه.

: إذا علم الله بحال كفاها.

-: وماذا رأيت بعد؟

: قوة صبره في هذا المكان، فكما ترى يعيش مع جماعته في وسط هذا النفود، وإليهم يضوي الرائح ومنهم يغدو المسافر، فكل من طرق هذا النفود مر عليهم إما بذهابه أو بإيابه.

-: لم تقل خطأ وماذا بعد؟

: لم تتركني أكمل، ففي هذا المكان بالذات، يصعب على الإنسان الحصول

على شربـة من ماء فضـلاً عن أن يجد من يقـدم له الـطعام والشـراب والمأوى دون مقابل حتى لو بقيت مدة طويلة.

-: أتدري أن هذا الظرف بالذات ربما هـو الذي جعـل سجية الكـرم ترسـخ في أعماق الإنسان في وسط هذه الصحراء.

: لا أوافقك على هذا الكلام.

-: لا توافقني!!

: نعم.

-: لماذا؟

: لا أوافقـك على التعميم، فليس كـل النـاس تجعـل منهم ظـروف الصحـراء القاسية كرماء، بل ربما حصل العكس فقد يكون شح الـرزق وندرة الميـاه مما يجعلهم يقترون في الرزق على أنفسهم فما بالك بالآخرين.

-: هاه!! لقد أوقفتني في حيرة من الأمر.

: ليس في الأمـر مـا يحـير، فليس كـل النـاس عنـدمـا تصيبهم الشـدة والعـوز يتحـولون إلى كـرماء، وربمـا تراكم فيهم الشـح والبخل وأصبحـوا لا يؤوون الضيف، وقد يشلون عليه كلابهم عند قدومه إليهم.

-: صحيح هذا الكلام قد يقع في بعض الأحياء من العرب ولكن.

: ماذا تريد أن تقول؟

-: لم تتركني أكمل حديثي هداك الله، فقد كنت أود القول بأن الظروف الصعبة في هذا النفود تجعل الإنسان يحرص على مساعدة أخيه الإنسان ليبقى على قيد الحياة.

: يـا أبا فـلان، إنني لا أزال أعارضـك في الـرأي فـالأوضـاع الصعبـة تصهـر الإنسان ليخرج على حقيقة معدنه فـإن كان معـدنه طيبـاً ظهر طيبـاً وإن كان معدنه رديئاً ظهر رديئاً.

-: أما في هذا فأنا معك.

: الصعـوبة تشبـه النار التي يحمى عليهـا الحديـد فيتساقط عنـه الصـدأ ويبقى الحـديد الصـافي، ويذاب عليهـا الذهب فتـطفو العـوالق والشوائب ويجـري الذهب الابريز.

-: إنك على حق.

: وهكذا بالنسبة للرجال، فرجل تصقله الشدائد فيزيد معها قوة ولمعانا، وآخر إذا ألمت به الصعاب إضمحل وخبت ضوؤه وخمل ذكره.

-: لقد صرت أفهم مني.

: معذرة يا أبا فلان، ولكني أردت أن أبين لك أموراً قد تكون أعرف مني بها.

-: أبداً، أبداً، إنني آخذ الأمور على ظاهرها ولم أحاول الغوص في باطنها.

: إذا، هذا الرجل لو لم يكن من معدن طيب لما حافظ باستمرار على هذه السجية التي ورثها عن آبائه واجداده وسيورثها أبناءه وأحفاده من بعده.

-: صحيح.

: ألم تر أن كثيراً من الرجال لم يزدهم ضيق الأرزاق وقسوة العيش إلا بخلاً.

-: أوه، إنني أعرف رجالاً قد اشتهروا بالبخل وهم في رغد من العيش دون أن تمسهم الحاجة أو يحدوهم العوز.

: كما قلت لك، إن الناس معادن وكل يعود إلى معدنه فالطيب طيب والرديء رديء.

-: نعود للحديث عن الرجل ما هي أجمل خصلة وجدتها فيه.

: الآن أصبحت أعلم مني ببواطن الأمور، ولا استطيع إجابتك.

-: إنها خصلة واضحة فيه وليست خفية.

: كثيرة خصاله ولكن أخبرني أنت.

-: لن أخبرك حتى أرى هل إنتبهت إلى ما انتبهت إليه؟

: لقد أصبحت أكثر مني انتباها فأخبرني.

-: أتدري ما هي الخصلة التي أغبطه عليها؟ وأود لو أعطاني ربي مثلها؟

: لا والله.

-: تلك الخصلة، هي الإبتسامة الدائمة على محياه يستقبل بها ضيوفه ويودعهم بها فهي لا تفارق جبينه وثغره على كثرة الغادي والرائح منه وإليه.

: ونعم بهذه الخصلة، حقا إنها تكسو محياه دائماً ألا تعرف يا أخي أنها تعكس الراحة والإطمئنان على وجوه الضيوف وربما أغنتهم عن شيء من الطعام والشراب؟

-: إنها عندي أفضل من كثير من الطعام والشراب، ألا تعلم أنني أفضل شربة ماء بارد مع طلاقة جبين وكلام طيب على صحون مليئة بالطعام مع عبوس يلف وجه المضيف؟

: وهكذا أنا.

-: أوه، لقد قطعنا مسافة دون أن ندري.

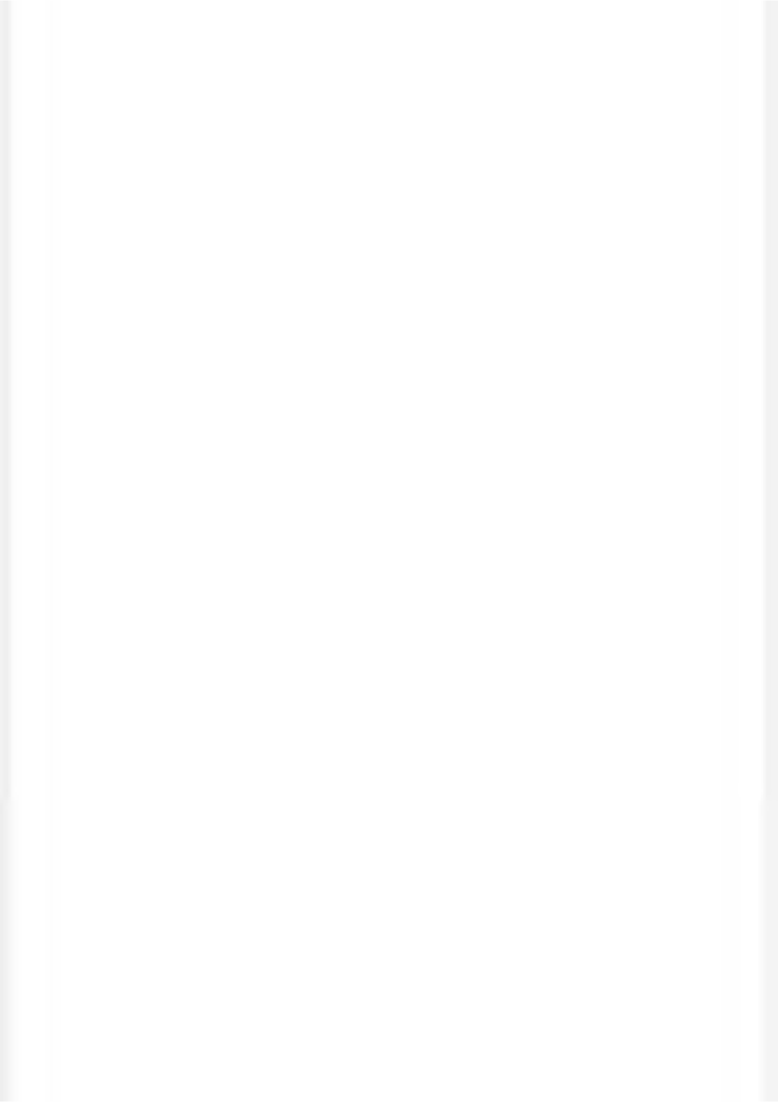
: هذه الأحاديث هي فاكهة الطريق التي يتفكه بها عابروا هذه القفار والبراري ولولاها لأصبح الطريق طويلاً ومملاً.

-: صدقت، وخاصة إذا كانت هذه الأحاديث بعيدة عن الكلام في أعراض الناس.

: في هذه الحالة تصبح جزءاً من الغيبة والنميمة.

-: الحمد لله الذي جعل حديثنا بعيداً عنها ويتعلق في ذكر أجواد العرب وسيرتهم العطرة بين الناس.

القصة رقم (١٩)



الزوجة المربية

مع إطلالـة فجر ذلـك اليوم الخـريفي الهادىء وعـلى أذان الفجر الأول نهض الرجل من مرقده، وأوقد النار ثم توضأ وصلى ركعتي الشفع وركعة الوتر، وعندها تناول محماس القهوة وبدأ يعمل أول طبخة في ذلك اليوم، وما كاد يسحق القهـوة «بالنجر» حتى انتبهت زوجته على صوت الدق فقامت من فراشها وتفقدت أغـطية أطفالها ثم توضأت واقتربت من النار لتجفف البلل من يديها ووجههـا وعند ذلـك بادرت زوجها قائلة:

-: السلام عليكم، صبحك الله بالخير.

: وعليكم السلام، صحبك الله بمثله.

-: أح، أح.

: مالي إراك وكأنك بردانة.

-: الا تشعر بأن الجو بارد هذا الصباح.

: أبداً، فالجو معتدل، لم يصل وقت البرد حتى الآن.

-: أتراني أجل أشعر بالبرد لأنني قد خرجت من الفراش لتوى؟

: قد يكون ذلك، ثم إنك إمرأة برّادة.

-: ليس علي من اللباس ما يقيني البرد.

: وهل جاء برد حتى الآن؟

-: الجو بارد، ألا تشعر بذلك؟

: أبداً، فالجو دافيء، ولكنك...

-: ولكني لا ألبس غير هذا الثوب الواحد.

: وأنا مثلك على ثوب واحد.

-: لكن الرجال يلبسون أثوابا أغلظ من الثياب التي نرتديها نحن النساء.

: لا فرق بين ما ألبسه أنا وما تلبسينه أنت.

-: ماذا تقول؟

: أقول إن ملابسنا كلها من القطن العادي والفرق بينها في اللون فقط، فأنا لونه أبيض وأنت لونه مصبوغ بالأحمر أو البني أو الأسود.

-: وما يدريك أن ثوبي كان قماشاً أبيضاً وقد صبغته بنفسي إلى هذا اللون البني.

: إنني أذكر تماماً أنني اشتريت لي ولك من قماش واحد حيث صبغت ما يخصك وبقي ثوبي على لونه الأبيض.

-: إيه، دعنا من هذا، أسمعت تلك الأصوات البارحة؟

: أي أصوات تعنين؟

-: لقد سمعت جلبة مرت مع السوق الذي أمام بيتنا.

: لا والله لم أسمعها، أعرفت من الأصوات شيئاً.

-: إنها أصوات جلبة لم أميز منها صوتا واحداً وقد استمرت أكثر من ساعة.

: آه، قد تكون قافلة من قوافل التجار الذين يطرقون بلدنا بين الحين والآخر.

-: لقد مضى مدة طويلة قبل أن يصل إلينا قوافل مما تذكر.

: آه، وقد تكون قافلة «حدرة» لأحد أحياء العرب جاءت بتموينهم.

-: لم يكن حولنا منازل لأحد من العرب حتى تمرقوا فلهم ببلدنا.

: قد يكونوا مروا علينا بطريقهم لإسقاء إبلهم والإرتواء من الماء.

-: هذا محتمل.

: وقد يكونون من تجار المواشي «عُقيل» الذين يؤلفون الإبل والأغنام ويجلبونها إلي الشام والعراق وفلسطين لبيعها هناك.

-: هذا غير مستبعد، لكن أهذا وقت ذهاب «عقيل» إلى تلك الديار البعيدة؟

: هاه، هذا بالفعل ليس وقتهم ولكن..

-: حسب ظني أن وقت ذهابهم في آخر فصل الربيع عندما تكون الإبل والأغنام سمينة، أما الآن فكما ترى لاتكاد الإبل تصل إلى هناك فضلا عن الأغنام.

: على كل حال، فأي قادم لبلدنا قد نستفيد منه.

-: نستفيد منه؟.

: نعم، إما أن يكون قد جلب إلينا سلعة نشتريها منه، أو أن يشترى مناسلعة نبيعها عليه.

-: هذا صحيح.

: ألا تعليمن أن هذه الطبخة من القهوة هي آخر ما أملك الآن.

-: وهل نفدت القهوة التي اشتريت قبل شهر؟

: وكم اشتريت منها حتى تبقى إلى اليوم؟

-: هاه، لا أدري.

: لقد اشتريت منها نصف الصاع قبل شهر وكما ترين فأنا مغرم بتناولها كل صباح وبعد الظهر.

-: مادام الأمر كذلك، فبالفعل لقد أنزل الله فيها البركة، شهر كامل على نصف الصاع من القهوة!!

: إيه، كما ترين أقتصد منها بمقدار ما يكفيني.

-: وإن يكن، لولا بركة الله لنفدت منذ مدة.

: عسى أن تكون تلك الجلبة البارحة قافلة تجار ومعهم قهوة.

-: ومعهم قماش لتشتري لي ثوبا آخر ألبسه في هذا الشتاء ليدفئني.

: إيه، الثوب أمره هين عند القهوة.

-: لماذا تراه هيناً؟

: كما تعلمين أنني لا أصبر عن القهوة يوماً واحداً أما الثوب فهناك ما ينوب عنه.

-: ولكني كما ترى لا أملك غير هذا الثوب الذي يحتوي على الكثير من الرقع.

: إذا بقى لدي ما يزيد عن قيمة القهوة فإنني سوف أشترى لك الثوب الذي تريدين.

-: الآن رضيت عنك حسب وعدك.

: ألديك «قِدُوْع»؟

-: أظن أنه قد بقى تميرات في تلك القفة.

: أحضريها لنحلوي بها أرياقنا قبل القهوة.

-: هذه التميرات.

: بضع تميرات فقط!! يالله لا تجعلها آخر رزقنا.

-: هذه بقية ما عندنا الآن.

: إيه، الرزق على الله يا ابنة الأجواد.

-: خذي هذا الفنجان.

: أتريدني أن أشرب القهوة؟ مع أننا معشر النساء لانشربها.

-: خذي هذا من يدي.

: تسلم يدك، ويسلم رأسك يا أبا فلان.

-: ومن قال.

: ألم تسمع أذان الفجر قبل قليل؟

-: بلى قد سمعته.

: إذا أسرع حتى لا تفوتك الصلاة وينادي باسمك إمام المسجد فلا تجيب فيتهموك بالتهاون بالصلاة وربما نظروا لك نظرة أخرى.

-: يأبى الله، وسآتي بخبر الجلبة التي سمعت البارحة.

وما إن صلى الفجر حتى وجد من يعطيه الأخبار المفصلة عمن ضوى على البلد في هذه الليلة، وعرج في طريقه على أحد أصدقائه ليشرب عنده فنجانا من القهوة وليجد عنده مزيداً من الأخبار وقبيل بزوغ الشمس عاد إلى بيته ليجد زوجته وقد أحضرت الماء للمنزل على رأسها من جورة الساقي فقال لها:

: ألم تنته بعد من «الرِّوَاةْ»؟

-: لقد أحضرت «جَذَعَتَين» وبقى الثالثة.

: هل النار حية؟

-: نعم ولكنها قد خمدت لنفاد الحطب عنها.

: إيه، إنه لا يوجد لدينا من الحطب غير كمية قليلة.

-: سأحضر منه اليوم حزمة تكفينا ليوم آخر.

: وسأحضر منه غداً شبكة تكفينا لمدة أسبوع.

-: إدخل عند النار وسأذهب لإحضار هذه «السفرة» وانتبه للأولاد.

: وهل استيقظ منهم أحد؟

-: لا، ولكنه من باب الحيطة.

: لا أحتاج إلى من ينبهني.

-: بلا شك، ولكن كما تعرف حرص الأم.

ودخل الرجل إلى المنزل بينما ذهبت زوجته لشأنها فأوقد النار وجلس بقربها يتصلى على حرارة لهبها، ولم يمض طويل وقت حتى عادت زوجته فقال لها:

: أوه، ما بال ثيابك تلتق من البلل؟

-: لقد انصب الماء علي أثناء رفعي للاناء على رأسي.

: إقتربي من النار، وتصلي على لهبها لتجفيف ثيابك من لثق الماء.

-: لا تقل ثيابك، بل قل ثوبك، الذي ابتلت مقدمته بأكملها.

: ألبسك الله العافية.

-: هاه، أأخبرك أم تخبرني؟

: عن أي شيء؟

-: عما سمعته البارحة.

: هاه، ماذا سمعت؟

-: لقد سمعت طرفاً من الأخبار من النساء اللواتي كن يروين من المروى.

: هاتي ما عندك.

-: يقال أن القادم البارحة تجار من «العقيلات» أتو لشراء الإبل من بلدنا.

: وماذا بعد؟

-: هذا مجمل ما سمعته.

: لقد سمعت تفصيلات أكثر.

-: أكثر!! ما هي؟

: هؤلاء التجار معهم أعداداً كبيرة من الإبل وهم في طريقهم إلى الشام ومعهم الجنيه الذهبي الأحمر.

-: جنيهات!!

: نعم، إنهم من كبار التجار بين نجد والشام ولايزالون يشترون ما يجدونه من الإبل إذا كانت بأسعار مناسبة.

-: إيه، ولكن أين هي الإبل السمينة التي يريدونها؟

: لقد ذكر لي أحد الذين شاهدوا الإبل التي معهم بأن سنمها مكتنزة بالشحم وبعضها قد شمخت سنمها بطول ذراع وأطول وأقصر.

-: من أين أتوا بهذه الإبل السمان؟

: قد يكونون أتو بها من جنوب نجد فإن عليه ربيع طيب هذه السنة كما يقال.

-: إيه، لقد تبخر حلمي وحلمك إذا.

: ماذا تعنين؟

-: أنسيت أننا كنا نتمنى أن تكون هذه القافلة قافلة تجار لتشتري منها قهوة وثوباً لي.

: أوه، لم يشغل بالك غير الثياب.

-: إنه كما ترى للضرورة وليس للترف.

: دعيني أخرج وأذهب لمعرفة المزيد من الأخبار عن هذه القافلة.

-: شيء لا يعنيك ماذا تريد فيه، ألم تسمع البيت القائل:

بَـرْقٍ عَـادِيْـكْ لَا تِـسْـتِـخِـيْـلَهْ   يَا صَارْ مَـا تَرْجِىْ سِـوَارِحْكْ تَـرْعَاهْ.

: قد يعنيني خبر من أخبارهم.

-: وفقك الله.

ومع بزوغ الشمس خرج علي من بيته فوجد مجموعة من رجال البلد قد احتشدوا بقرب منزل أصحاب هذه القافلة يتفرجون على تلك الأذواد من الإبل، وهناك مجموعة أخرى قد جلبوا إبلاً وأوقفوها بانتظار مجيء ذلك التاجر ليساومهم عليها ويشترى منها ما يريد بالسعر الذي يناسبه حسب العرض والطلب، ويبقى أولئك الرجال حتى ارتفعت الشمس، وما إن فرغ التاجر من شراء الإبل حتى عرض على الحاضرين رغبته في رجلين يذهبان معه بالإضافة إلى رفاقه لساعدوهم على ما تحتاجه الإبل في طريقها من رعي وسقي مقابل أجر معلوم فكان علي أول المرشحين لهذه المهمة من قبل بعض من حضر المجلس حيث قال أحدهم:

: هذا الرجل من خيرة الرجال قوة، وأمانة، وصدقاً.

ـ: هاه، ما رأيك يا علي؟

: إلى أين تريدون؟

ـ: نريد الشام إن شاء الله.

: الشام!!

ـ: ألك رغبة في مصاحبتنا؟

: نعم، لي الرغبة ولكن...

ـ: لاتترك هذه الفرصة تفوتك، هكذا قاطعه أحد الحضور.

: فرصة!!

ـ: نعم، إنها فرصة العمر، فكلها عشرين يوماً ذهاباً ومثلها إيابا والمبلغ الذي سيدفعه الرجل مغري ويستأهل من يذهب من أجله.

: حقاً، حقاً، إنه مبلغ طيب عشرة جنيهات.

ـ: وأنت رجل «زُقِرْتِيْ» ليس لك زرع ولا فرع.

: ولا خف وضرع.

ـ: إذا عزمت، توكلنا على الله «يا عم» هكذا كان ينادي التاجر باعتباره سيكون من رفاقه وبحكم السن.

: إذا، عليك أن تذهب لتحضر ثيابك وحوائجك.

ـ: ليس لدي أي شيء فأنا كما يقول المثل «عباتي وأنا فيها».

: إذا، . تجهز وأخبر أهلك، ومن سيصاحبنا غيره؟

ـ: هذا فلان.

وعاد علي إلى بيته مسرعاً يحث الخطى وعندما دخل المنزل رأت زوجته التغيير البادي على وجهه فقالت له:

: هاه، مالي أراك وقد تغير وجهك؟

ـ: لقد...، لقد...، لقد عزمت على السفر.

: السفر!!

ـ: نعم،

: إلى أين؟

-: سأصاحب هذه القافلة إلى الشام.

: إيْ!! إلى الشام؟ ظهرت الجملة على شكل شهقة.

-: نعم، ولن أطيل هناك.

: ولكن الشام بعيد.

-: ليس بعيداً، ففي كل يوم يذهب الرجال إليه ويعودون منه.

: وكم يوماً ستمكث هناك؟

-: لن أبقى طويلاً، فبمجرد وصولنا إلى هناك وتصريف صاحبنا لإبله سنعود قافلين إليكم.

: وكم المدة التقديرية؟

-: من شهر إلى شهر ونصف وإذا غلبت الروم فربما تصل المدة إلى الشهرين.

: عسى أن يكون الأجر الذي سيدفعه لك مساويا للمتاعب والمشاق التي ستتحملها؟

-: عشرة جنيهات ذهبية.

: المبلغ مجزي بالفعل.

-: نعم، عشرة جنيهات ذهب «عِصْمَليْ».

: إيه، وفقك الله، ولكن..

-: لكن ماذا؟

: كيف تتركنا وليس عندنا من الطعام شيء؟

-: أوه، تدبري أمرك حتى أعود، وسأحضر لك من الملابس والطعام ما يبهج نفسك.

-: نحن بحال اليوم يا أبا فلان.

: إيه، هي مدة بسيطة وسأعود إليك، وعليك بالانتباه لأبنائك وخاصة الرضيع منهم.

-: كما تعلم، إنني لا أحتاج إلى توصية.

: كفوْ والله، ولكن من باب الحرص.

-: إيه، وفقك الله، ولو أنني غير مقتعة في هذه السفر.

: لماذا؟

ـ: لأنها جاءت مفاجئة بدون أي ترتيب ولا حتى مجرد ذكر لها.

: لم يكن هناك ترتيب مسبق، وإنما هذا رزق ساقه الله إلي دون أن أدري.

ـ: جعل الله عاقبته خيراً.

: خير إن شاء الله.

ـ: أتريد أن أجهز لك شيئاً؟

: وماذا ستجهزين؟ لن أحتاج في سفري هذا إلى أي شيء من حيث الطعام والشراب، أما الملابس فليس لدي إلا ما على ظهري.

ـ: إيه، إذا وفقك الله، وساعدك وأعادك إلينا سالماً.

: آمين، مع السلامة.

وامتطى الرجل نعليه وودع زوجته وأبناءه ثم غادر المنزل والتحق بهذه القافلة التي غادرت البلد في ذلك الصباح ومضى الشهر الأول دون أن يكون هناك أي خبر عنه وفي منتصف الشهر الثاني عاد رفيقه الذي صحبه من نفس البلد فأسرعت «رُقَيَّةُ» إلى ذلك الرجل فدخلت بيته وبقيت عند زوجته حتى عاد إلى البيت فسألته قائلة:

ـ: أرأيت صاحبك فلان.

: نعم، أتعنين زوجك؟ إنه بصحة جيدة فلقد ودعني ساعة غادرت غزة بفلسطين قبل إثنين وعشرين يوماً.

ـ: ما الذي أخره؟

: آه، لقد تأخر بعض الوقت ولن يغاب طويلا.

ـ: ما سبب تأخره؟

: بعد أن وصلنا إلى هناك إختاره التاجر ليسافر معه في مجموعة إبل سيجلبها إلى مصر.

ـ: إلى مصر!!

: نعم، فلقد وقع عليه الإختيار من بين مجموعة من رفاقنا.

ـ: هاه، لماذا إختاره هو بالذات؟

: والله لا أدري، فربما إختاره لأمور لا نعرفها عنه وهي تعتبر ميزة له عند صاحب الشأن فكل واحد منا يود لو وقع عليه الاختيار.

-: آه، ليته لم يفعل.

: لماذا؟

-: إنني أخشى أن يبطىء بالعودة.

: سيعود إن شاء الله ويديه مليئة بالأرزاق.

-: ليس هذا ما يزعجني ويخيفني.

: ما الذي يخيفك إذا؟

-: إن ما أخشى منه أن يتردد كثيراً بتلك الديار وبالتالي يتعلق بها.

: لا تخافي عليه، فهو رجل مكتمل العقل متدين وربما انفتح ذهنه للتجارة.

-: هذا مالا أريده.

: لا تريدين أن يكون زوجك تاجراً؟

-: لم أقصد ذلك، وإنما لا أحبذ أن تكون تجارته هناك.

: هناك ميدان التجارة والمجال المناسب لها.

-: ليته يكون تاجراً هنا.

: لماذا؟

-: إنه زوجي وأنا أعرف به.

: صحيح، ولكن مجال التجارة هنا ضيق جداً ولايدخله سوى الناس الذين لديهم رساميل كبيرة.

-: وهناك؟

: هناك يستطيع الإنسان أن يمارس التجارة ولو بمبلغ زهيد.

-: أوه، لاتجارة من القلة.

: على العكس يا أم فلان فالتجارة كنواة الحبة تبدو صغيرة جداً وإذا بذرت في أرض خصبة وتعهدها صاحبها بالسقى لا تلبث أن تنبت شجرة مورقة ذات سيقان متعددة تحمل عشرات السنابل المكتنزة بمئات الحب إذا وفق الله.

-: لا أنكر ذلك، ولكن...

: ولكن ماذا؟

ـ: لكن ما قلت يحتاج إلى تدبير جيد وتصرف سليم يضمن للتجارة استمرارها بالمحافظة على رأسمالها ونمو أرباحها.

: وزوجك لا ينقصه شيء من ذلك.

ـ: إيه سلمه الله وأرانا وجهه، لكنه أحيانا يتصرف بعجلة قد تضر بتجارته.

: لم أعهد منه ذلك.

ـ: إنه زوجي وأنا أعرفه أكثر من أي إنسان آخر.

: إنه معنا في هذا الطريق من أحسن رفاقنا وأجودهم وأنشطهم وأدمثهم أخلاقا.

ـ: إنني لا أنكر ذلك عليه، إذا وقاه الله من سرعة التصرف بدون تفكير وهذا ما لايصلح للتاجر.

: لاتخافي عليه، لا تخافي، إنني لم ألاحظ عليه ما تذكرين.

ـ: صحيح لأنه لا يملك شيئاً يتصرف به.

: أبداً، كوني مطمئنة.

ـ: هل أخبرك متى يعود؟

: لم يخبرني بذلك بالضبط، ولكنه قال إنه بعد أن يعود من مصر فسوف يعود إلى هنا.

ـ: وكم تبعد مصر عن فلسطين؟

: ليست بعيدة كما تتصورين.

ـ: مسافة كم؟

: من خمسة إلى سبعة أيام.

ـ: إنها مدة بسيطة يعني هذا نصف شهر «روحة» وجيئة.

: وبالمناسبة، فقد حملني إعتذاره من عدم إرسال أي شيء معي والسبب أن صاحبه لم يعطه أجره حتى يعود من مصر.

ـ: إيه، وفقه الله، لم آت هنا لأسألك عن هذا الموضوع بقدر ما كنت حريصة على الإطمئنان على صحته وعن سبب تأخره.

: سيأتيك غداً أو بعد غد محملاً بالهدايا.

ـ: إذا سلم رأسه وعاد لا نريد شيئاً.

: أبشري بعودته.

-: إيه، جزاك الله خيراً لقد طمأنتني عنه.

: وسيعود قريباً.

-: عسى، أستأذنكم، فلقد أبطأت عن أبنائي.

: مع السلامة.

وتعاقبت الشهور تترى وعاد التاجر الذي ذهب معه من هذه القرية فأسرعت الزوجة واصطحبت معها عجوزاً لتسأل التاجر القادم عن مصير زوجها، ولما وصلت المرأتان إلى قرب خيمة التاجر تقدمت العجوز ونادت أحد رفاق التاجر وطلبت منه أن ينادي صاحبه وعندما خرج التاجر من خيمته أقبل على المرأتين فسلم عليهما فردتا عليه السلام فبادرته العجوز قائلة:

-: يابني هذه إمرأة ذهب زوجها معك قبل بضعة أشهر ولم يعد وتريد أن تعرف عن أخباره.

: ذهب معي!!

-: نعم، لقد ذهب معك حينما قدمت لهذه البلدة في آخر «الأَتْوَامْ» من العام الماضي.

: ما اسمه؟

-: علي...

: آه، علي... إنه طيب وبصحة جيدة، ذكره الله بالخير كلما حل ذكره.

: أين هو الآن؟

-: أوه، ما شاء الله، لقد فتح الله عليه.

: كيف؟

-: إنه يزاول التجارة بين مصر وفلسطين تارة وبين فلسطين والشام تارة أخرى.

: هذا ما أخاف منه. هكذا انفلتت هذه الجملة من لسان زوجته فسمعها التاجر وقال:

-: لا تخافي يا ابنة الأجواد.

: لم يكن تخوفها من ذلك.

-: أبداً، فالرجل على ما يبدو سيفتح الله له باب رزق من هذه التجارة وإذا سار

على نفس الطريقة التي هو عليها الآن فسيكون له شأن فيا بعد.

: إيه، «لاوَأبْعَينيْ» ما هي الطريقة التي يسير عليها؟

ـ: آه، لقد اشترك مع تاجر آخر.

: ومن أين له رأس المال؟

ـ: إشترك معه بدون رأس مال.

: كيف؟

ـ: كان التاجر يبحث عن شريك يساعده لإدارة تجارته بدون رأس مال، على شرط أن يكون أمينا ونشيطاً ولما كان زوجك قد جربناه وخبرنا فيه هذه المزايا فقد رشحناه لهذه المهمة.

: إيه، أخشى أن يتورط معه.

ـ: لماذا تخشين؟

: لأن زوجي طيب القلب وقد تمشي عليه بعض الحيل.

ـ: ولكن صاحبه طيب مثله.

: كفاه الله الشر، إنه في بعض الأحيان سريع التصرف بدون روية وأخشى أن يتسبب ذلك في خسارة لشريكه مما يكون له الأثر السيء على مستقبله معه.

ـ: لا تخافي يابنة الأجواد فالأمر هين.

: عسى أن يكون خيراً.

ـ: أتريدين منه شيئاً إذا عدت إليه بعد شهر؟

: أبداً، لا أريد غير سلامته وأن يرجع إلينا.

ـ: في أمان الله.

: مع السلامة.

وتمر الشهور التي تتكون منها السنين وعلي يعمل بالتجارة يكسب تارة ويخسر أخرى، أما زوجته فبعد أن نفد ما عندها من المتاع بدأت تبيع مصوغاتها الواحدة تلو الأخرى حتى نفدت ولم تستسلم للظرف القاسى الذي تمر به، ولم تستكن فتصبح هي وأطفالها عالة على المجتمع، بل شمرت عن ساعديها ونزلت إلى ميدان العمل.

ففي مساء تلك الليلة الربيعية طرقت بابها إحدى نساء جيرانها وقالت لها:

-: يا أختي رقية، أتستطيعين مساعدتنا غداً؟

: على أي شيء؟

-: على حصاد الزرع.

: نعم.

-: إذا عليك أن تتجهزى في غداة غدٍ لتصاحبينا إلى الزرع.

: أبشري.

-: ألديك مخلب؟

: نعم، عندى مخلب جديد، لقد اشتريته يوم أمس.

-: حسنا، إذا موعدنا غداً.

: إن شاء الله، ومن معكم غيري.

-: لقد وقع إختيارنا عليك مع ثلاث نساء أخريات يساعدننا على حصاد زرعنا.

: علي أي أساس تم إختياري؟

-: أوه، والله لاأدري غير أن أمي سمعتها تقول: إن رقية شابة قرمة ويستفاد منها في الحصاد.

: وما يدريها بذلك؟

-: الله أعلم، ولكنى سمعتها أيضا تقول إنها عاقلة، ودافئة اللسان، هذه الكملة التي لا أعرف معناها حتى الآن.

: عليك أن تسألى أمك عن معناها.

-: وسمعتها تقول إنك متدينة.

: الحمد لله.

-: لهذه الأسباب سمعت أمي تقول: إنه من الأولى أن نعطى «الغِمْرْ» لها.

: إذا هذا الإختيار وراءه ما وراءه.

-: نعم، إن أهلى أرادوا أن يستفيدوا من نشاطك وفي نفس الوقت مبرة لك في هذا الحضن من الزرع كأجرة عن كل يوم حصاد.

: إيه، جزاهم الله خيراً.

-: إذا، موعدنا غداً، ولكن لا تتأخرى.

: سآتيكم قبل طلوع الشمس بعد أن إيقظ أبنائي وأقدم لهم فطورهم.

ـ: تصبحين على خير.

واستمرت أيام الحصاد ورقية تباشر عملها مع رفيقاتها يحصدن الزرع منذ بزوغ الشمس حتى أذان الظهر ثم يجمعن هذا الزرع المحصود في أكداس وبيادر في وسط الحصيدة أو في أحد جوانبها بقرب المدرس، ليأخذن في نهاية كل يوم لمن هن من غير نساء الفلاح حضناً من الزرع بسنابله وذلك أجرة للواحدة منهن عن عمل يومها ذاك، ويتراوح محصول هذا الحضن من الزرع ما بين الصاع، والصاع والنصف إلى الصاعين من الحب من أي نوع من الحنطة أو الشعير، وهكذا لم تمض أيام الحصاد إلا وقد حصلت رقية على كمية من الحب تكفيها مع أولادها لخمسة أو ستة أشهر، وما إن انتهى موسم الحصاد حتى جاء دور التقاط السنابل المتساقطة في الحصيدة وهذه السنابل تكون في العادة من نصيب زوجة الفلاح، ولما كان عمل هذه المرأة قد راق لزوجة المزارع فقد إتفقت معها على أن تساعدها في التقاط سقاط الزراع، وذلك بمقدار نصف الربع، ولم تمض بضعة أيام حتى أصبحت الحصيدة قد التقط ما بها من سنابل فأضافت رقية إلى حصيلتها كمية طيبة.

وعندما لاحظ الفلاح ما أوجدته هذه المرأة بين نسائه من حيوية ونشاط فقد رغب في مساعدتها، وذلك بالاستعانة بها على ذري الزرع وتنقيته بأجر معين من الحب حيث قال لزوجته:

ـ: إنظري يا أم فلان، ألا ترين نشاط هذه المرأة وحذقها في العمل؟

: من تعني؟

ـ: أعني زوجة جارنا الغائب فلان.

: آه، تعني رقية؟

ـ: نعم.

: هذه ما شاء الله، شابة قرمة، ألا تعلم أننا لا نستطيع مباراتها في أي عمل تقوم به؟

ـ: حتى الفتيات منكن؟

: والله حتى الفتيات النشيطات قد أفحمتهن ولم يستطعن مجاراتها في عملها.

-: ألبسها الله ثوب العافية.

: ماشاء الله، إنها نشيطة جيداً، لقد كنت أقول في نفسي هذا نشاطها وهى أم لثلاثة أطفال فكيف بها قبل الزواج؟

-: أنها لا تزال شابة، وثلاثة أطفال لا يضرون المرأة.

: بلى والله، إنهم ليهدون الحيل.

-: لم يؤثروا فيك، فهؤلاء أبناؤك رجالاً وبناتك نساءاً ملء البيت، وأنت ما شاء الله تترمزين وكأنك الظبي الجافل.

: إذكر ربك يا أبا فلان.

-: لقد ذكرته في البداية.

: عليك أن تغفل عن ابنة الأجواد.

-: إنني غافل عنها، ولم أذكرها بسوء.

: إنها والله لنعم المرأة، دين وصلاح، وقوة ونشاط.

-: إنني على علم بذلك، ألم تر أنها قد غاب عنها زوجها قبل سنتين ولا تزال قائمة في بيتها وأبنائها خير قيام وكأن والدهم حاضر بينهم؟

: هل مر على غياب زوجها سنتان؟

-: نعم، وربما أكثر، وهي مستورة الحال لايعلم أحد بما هي عليه؟

: هل يأتيها من زوجها شيء؟

-: لا أعلم، ولكن لم أسمع أنه قد جاءها منه شيء، فهو كما يقال قد تورط مع شريك له في التجارة بالشام حمله الكثير من الديون ولا يزال يسدد بها.

: رجل يغترب لوحده ويكون عليه ديون.

-: نعم، إذا غرق في الديون من الصعب عليه الخروج منها بسهولة.

: مسكينة!! كيف تستطيع أن تعيش؟

-: إيه قد يكون ذلك بمساعدة أهل الخير.

: أما هذه فقد حلفت لي بأغلظ الأيمان أنها لم تقبل أي مساعدة من أحد.

-: ولا حتى منا؟

: لقد رفضت ما قدمته لها في يوم من الأيام.

-: رفضت!!

: نعم، وقالت: إنها ليست مستحقة لمثل هذه المساعدة.

-: إذا كانت إمرأة وحيدة وأم أطفال وترفض المساعدة من الآخرين!!

: لقد قالت لي إنها شابة وتستطيع أن تعمل بيدها وتدرك قوت أبنائها ولا حاجة لها بالمساعدة مادامت في هذه الحال.

-: الله، ماذا تعمل!؟

: أوه، ما شاء الله عليها، إنها تتقن الخياطة تماماً، وتبدع في عمل السفيف ومن أجور هذا العمل تحصل على لقمة العيش.

-: لم أكن أعلم بحقيقة حالها هذه.

: وأنت جارها!!

-: كما تعرفين أنني لا أتدخل في شئون الآخرين ولم يسبق أن سمعت أخباراً عنها.

: لقد قلت لك إنها إمرأة مستورة وقرمة.

-: إن جيد الحظ من يكون في بيته مثلها.

: ماذا تقول؟

-: أقول إن فلانا، قد وفقه الله بزوجة صالحة.

: إيه، أن حظه أقوى من حظها، فقد رزق بنعمة لم يرعها.

-: ماذا تعنين؟

: أعني أنه رزق بهذه المرأة التي لم يعرف قدرها.

-: ماذا تريدينه أن يعمل؟

: يكون إلى جانبها.

-: إنه يطرد رزقه في مواطن الرزق التي وصل إليها، أما هذا البلد فإن مصادر الرزق فيها شحيحة سوى من الفلاحة أو الرعي.

: ليس على الأقل من أن يرسل لها بين الحين والآخر ما يساعدها على أود الحياة.

-: أما هذه فانه مقصر فيها.

: إنني أعتبره أكثر من مقصر، يعني كما يقول المثل «وِدَاعَتِكْ يَاشْجَرَةْ».

-: قد يكون للرجل عذره الذي لا نعرفه.

: لا أتصور أي عذر يمكن أن يبرر موقفه منها.

-: وهل اشتكت عليك حالها؟

: لا والله، فإن ابنة الأجواد لم تنبس بكلمة واحدة نحوه وكلما حلت سيرته بدأت تدعو له بالهداية والتوفيق.

-: قد يكون الرجل يرسل لها شيئاً ونحن لا نعلم عنه.

: لا يخفى على الناس شيء، فالماء لا يغطيه الدفين.

-: وما يدريك؟

: أدرى وأعلم بذلك، فلم يذكر أن أحداً في يوم من الأيام على مدى السنتين الماضيتين يسأل عنها ليسلمها ملابس أو نقود أو طعام من زوجها بالشام.

-: أنتن أيها النساء أعلم بحال بعضكن البعض.

: لا شك في ذلك، فكلنا أهل قرية وكل قد عرف أخية.

-: إيه، المهم سنعطيها زيادة عن حقها عندما تنتهي من عملها.

: تستأهل.

-: وأكثر.

: ما رأيك يا أبا فلان في موضوع آخر؟

-: ما هو؟

: كما تعلم نحن بحاجة إلى من يساعدنا على دق علف الإبل وتجهيزه وإطعام السواني فما رأيك لو استعنا بها؟

-: ألا تستطعن إنجاز أعمالكن بأنفسكن؟

: بلى، ولكن من باب المساعدة لها نطلب منها أن تساعدنا ونستطيع أن نعطيها ما نود أن نبرها فيه على هيئة أجر وهي تساعد بناتي على عملهن.

-: لماذا نتعبها؟ لندعها تتفرغ لتربية أولادها، وسنعطيها ما نستطيع بدون أن تعمل معنا.

: إنها لا تقبل ذلك، لقد حاولت معها عدة مرات فرفضت.

-: غريب أمر هذه المرأة!! لماذا رفضت؟

: تقول إنها لا تستحق المساعدة مادامت تستطيع أن تعمل بيدها، وتكسب

لأبنائها لقمة العيش الحلال بالطريقة الحرة الكريمة.

-: هذه والله الأنفة والشهامة.

: وحب العمل.

-: لقد فاقت بعض الرجال الذين يتكاسلون عن العمل ويركنون إلى الخمول فيعيشون تحت ضغط الحاجة والعوز.

: ليست وحدها يا أبا فلان.

-: ماذا تعنين؟

: أقصد أن هناك الكثير من النساء اللواتي يشبهن حالتها.

-: لم أذكر في قريتنا من ذهب أزواجهن إلى الشام أو غيره ومكث هناك غيرها.

: ليس في قريتنا لوحدها.

-: أما القرى الأخرى فلا أعرفها.

: إنني أعرف الكثير غيرها في نفس الظروف.

-: إذا أنت أعرف مني.

: ثم إنه ليس بالضرورة أن يكون زوج الواحدة منهن قد ذهب إلى الشام.

-: ماذا تعنين؟

: أعني أنه قد يكون زوجها غائبا للشام أو غيره، وقد يكون منتقلا إلى رحمة ربه بعد أن ترك في حضنها مجموعة من الأطفال الأيتام.

-: أمام هذه فأنا معك.

: وقد يكون عندها ولكنه «مَيِّتْ نَارْ» قد ركن إلى الخمول فترى زوجته تتكسب من هنا وهناك بما تتقنه من مهارات لتضع من حصيلتها اللقمة في أفواه أبنائه وفي فمه هو.

-: هذا النوع ليس في عدد الرجل من ينتظر أن تأتيه اللقمة من عرق جبين زوجته، وأظنه نادراً إذا وجد.

: ليس بدرجة الندرة كما تتصور فكم ابنة حلال قد بلاها الله بمثل هؤلاء الذين يسمون بالرجال وليسوا رجالاً.

-: سبحانه الله العظيم فكثيراً ما يحدث ذلك مع النساء الجميلات حيث تجد نصيب الواحدة منهن من الأزواج لا يساوي قلامة ظفرها.

: وكذا الحال بالنسبة لبعض الرجال فقد تجد الرجل الوسيم أو الطيب وقد صار نصيبه «كِسْرَةْ عِرْقَاتْ» لا تساوى شيئاً.

-: هكذا قسمة الأرزاق من الله عز وجل.

: ولكن الرجال يستطيعون التعويض عما فقدوه في هذه المرأة بالزواج من غيرها، فهم كما يقول المثل «تَلَهَّى بِأمْ شُوْشَةْ حَتىَّ تجِيكَ اَلْمَنْقُوْشَـةْ» أو يطلقها ويتزوج غيرها، ولكن المشكلة تكمن فينا نحن النساء إذا وقع في حلق إحدانا غصة فإنها لا تستطيع إزاحتها عن حنجرتها، وخاصة إذا رزقت منه بأطفال، حينئذ يتطلب منها أن تعمل وتكافح لا عالة أبنائها وتربيتهم وكأن والدهم غائب عن الوجود.

-: لقد صدق والله راشد الخلاوى بقوله:

كَمْ مِنْ صِمُـوْتَ الحِجِلْ تُبْـلَى بْعَـاقَـهْ وَكَمْ عَـاقِـةٍ زِفَّتْ لْـوَافْ الخَصَـايِـلْ

: هذا ما يحدث لكثير من الجنسين.

-: المهم جارتنا إستوصي بها خيراً ما دامت في هذه الظروف.

: لا توصى حريصة عليها.

-: ستبقى معنا، وسيكون أبناؤها مثل أبنائي في كل شيء.

: ولكن بدون أن تشعرها بأن في ذلك منة عليها أو إحسان إليها.

-: لماذا؟

: ونها لا تقبل مثل هذا الأمر.

ومضت السنون تترى ورقية تكدح وتعمل جاهدة لتحصل على لقمة العيش لها ولأبنائها تارة بالجهد المضني من حصاد وتجميع العشب «فلاة» وإحضار الحطب من البر لاهدائه إلى الناس ميسورى الحال وأخرى بالعمل اليدوي من خياطة الملابس وغزل الصوف وصنع السفيف، وما إن بلغ أكبر أبنائها سن التعليم حتى سعت به إلى إمام مسجد القرية وأدخلته عنده لتعلم القرآن الكريم وحفظه وتعلم القراءة والكتابة وأتبعته أخويه، وكلما أراد أحد منهم التهاون بهذا الجانب أجبرته على الإلتزام به حتى لم يكمل الواحد منهم سن العاشرة إلا وأصبح يتقن القراءة والكتابة، وفي إحدى الأمسيات قال أكبرهم:

-: أماه، لقد أصبحنا اليوم في عداد الرجال ولم نرو والـدنا، أهـو حي يرزق كـما تقولين؟

: نعم إنه حي يرزق يابني ويعمل بالتجارة في الشام.

-: مادام كذلك، لماذا لم يأت إلينا؟

: سيأتي قريباً إن شاء الله.

-: هذا الكلام كنا نسمعه منك منذ أن عرفنا أنفسنا فمتى يكون هذا القريب؟

: إنه غير بعيد، أن ترو والدكم وهو قادم بقافلة تجارية.

-: لكم انتظرنا ذلك، والآن هل هناك سبب جعله يغاب عن أهله كل هذه المدة خلافا لكثير من الناس؟

: ليس هنـاك أي سبب يـابني سـوى أنـه قـد اشتغـل بـالتجـارة هنـاك وتعلق بارتباطات تجارية وقد خسر خسائر فادحة وكلما خسر مرة غاص في ديون كثيرة ثم بدأ بسدادها حتى إذا شارف على الوفاء بها غاص مرة ثانية.

-: من أخبرك بهذا؟

: لقد أخبرني من يأتي منه.

-: إنني أشك في ذلك

: لماذا؟

-: هذه ليست تجارة، إن هذه خسارة في خسارة.

: هكذا التجارة طلوع ونزول.

-: ليست بهذه الدرجة، ثم ألم يتذكر في يوم من الأيام زوجته وأولاده؟

: هاه!! لا أدري، هذا السؤال يجب توجيهه إليه.

-: ألم يرسل لهم يوم من الأيام شيئاً يستعينون به على شئون الحياة.

: لا أذكر إلا مرة واحدة أرسل لكل واحد منكم كسوة

-: يالله!! في العشر السنوات التي غابها لم يرسل سوى مرة واحدة.

: مالك ولهذا يابني!؟ هل قصر عليكم شيئاً منذ أن كنتم أطفالاً؟

-: لا، لا بالطبع، سلم الله لنا هذا الرأس، يقول ذلك وهو يشير إلى رأسها.

: أجل يابني دعوه وشأنه حتى يخرج مما غاص فيه ويأتي إلينا.

-: مادام الأمر كذلك يا أماه، فسوف نقوم نحن بمساعدتك سيما وأننا أصبحنا

نستطيع القيام ببعض الأعمال.

: هاه!! ماذا تقول؟

-: أقول إنني بإمكاني أن أقوم بأي عمل يسند إليّ كسياق السواني، أو مساعدة الفلاح بالأعمال الخفيفة، وكذلك الحال بالنسبة لإخواني.

: إنني لا أريد أن تمارسوا الأعمال وأنتم صغاراً، فلا زالت أجسامكم غضة لا تتحمل الجهد الكبير.

-: هذا لن يضرنا، بل على العكس سيعودنا على تحمل المسئوليات.

: إذاً، أعانكم الله، أنت وأخوك الذي يليك، أما فلان فإنه لا يزال صغيراً ولم ينته من ختم القرآن.

-: سيباشر عمله بعد أن يصل المرحلة التي وصلنا إليها.

: على بركة الله.

-: أما أنا فسوف أستمر على عملي لنتكاتف ونتعاضد جميعاً حتى يفرجها الله.

وتتحسن أوضاع الأسرة بعد أن كبر الأبناء الثلاثة وأصبحوا يساندون والدتهم حتى قارب العقد الثاني على غياب والدهم أن ينصرم، وذات مساء قال الابن الأكبر لوالدته.

: أماه، لقد عزمت على أمر وأريد أن آخذ رأيك فيه.

-: ما هو؟

: لقد عزمت على الذهاب إلى والدي.

-: الذهاب إلى والدك!!

: نعم، لأنظره بعيني وأرى ما هو عليه، ولأعرف السبب الذي جعله يتأخر إلى هذا الوقت، لقد مضى على غيابه ما يقارب عشرين سنة، وهو جالس هناك، فلو كان ميتاً لتحرك.

-: آه، ولكن. . . تقول ذلك، وهي خائفة أن يلحق بأبيه فيبقى عنده.

: ولكن ماذا؟ في كل مرة نحاول فيها الذهاب إلى والدنا تعللينا بمختلف الأعذار، لقد نبت الشعر في وجوهنا ولم نر والدنا.

-: ولكن هل قصرت نحوكم بشيء؟

: لم أقصد هذا يا أماه، فلم تقصري نحونا بأي شيء لقد قمت على تربيتنا وإعالتنا وتعليمنا وكأن والدنا لم يغب عنا، ولكن ما أريده، هو أن آتي بأبي إلى هنا، لقد أغنانا الله بواسع فضله دون أن نعمل بتجارة لا ربح لها ولا مردود منذ عشرين سنة.

-: لا مانع لدي من ذلك، وهذه من دلائل النجابة فيك يابني، سلمك الله ووفقك واعلم يابني أن اعتراضي على ذهابك إليه طيلة هذه المدة لم يكن قطعاً لك عن والدك. ولكن هناك رأى آخر.

: ماذا ترين؟

-: لماذا لا تكتبون له كتباً تخبرونه فيها بما عزمتم عليه وتستحثونه على المجيء والعودة.

-: أخشى ألا تؤثر فيه مثل هذه الرسائل فلقد سبق وأرسلنا له رسائل مماثلة.

: أن رسائلكم الأولى لم تطلبوا منه شيئاً، وإنما هي مجرد أخبار، أما هذه المرة فأخبروه بما أنتم عليه، وأن البلد قد تغيرت عن عهده بها. والأمور تبدلت وتحسنت، وأرى أن تحرقوا أطراف الرسائل بالنار، عله أن يلين قلبه ويأتي إليكم.

-: هاه!! لماذا نحرق أطراف الرسائل؟

: ليعلم أن قلوبكم قد تحرقت وتحرقت على رؤيته.

-: أترينه يتأثر بذلك؟

: لعل وعسى.

-: سأكتب إليه من الغد، وأرسلها مع أول حملة تتجه للشام ثم ننتظر الإجابة.

: جربوا، والتجربة أكبر برهان، وربما تأثر والدكم وقدم من غيبته الطويلة.

وعندما استلم علي رسائل أبنائه وقرأها كان لها الوقع الأكبر في نفسه ولاسيما العبارات التي تحمل النبرة العاطفية وكلمات العتاب التي تكررت في الرسائل الثلاث من أبنائه الذين تركهم قبل أكثر من عشرين سنة وهم أطفالاً أكبرهم لم يتجاوز الثلاث سنوات، وآخرهم في الشهور الأولى من عمره، فأصبحوا رجالاً يقرأون ويكتبون، يعدون بمصاف الرجال، فاستعاد في ذاكرته كيف مضى عليه

هـذين العقدين من الـزمان وهـو لا يدري، وكـأن غيبته لم تـدم أكـثر من عـام أو عامين، عند ذلك عقد العزم على العودة إلى أهله وشرع في تصفية بضـاعته وإنهاء علاقاته التجارية مع الآخرين يستوفي ماله من ديون ويسدد مـاعليه من التـزامات ولم يمض شهـر واحد حتى جهـز نفسه في حملة تجـارية ليخـرج بها إلى بلده قـوامهـا الأقمشـة وأصناف التجـارة الأخرى، وصـاحب أحد التجـار الخارجـين إلى نجـد ليساعده برجاله على حماية القافلة، ومستلزمات الطريق حتى يقترب من بلده، وما إن أشرف على البلد حتى أرسل من يبشر أهله بقدومه، وعندما دوى صوت البشير في البلد معلنـا قدوم عـلي حتى خف أبناؤه الثـلاثة، فـأسرعـوا لاستقبالـه قبـل أن يدخل البلد وبالطبع لم يعرفوه، وهو كذلك قد تغيرت عليه معالم وجوههم بعد أن كبروا وكسى وجوههم الشعر وبينما هم في سباق نحو القافلة إستقبلهم علي وهـو لم يصدق أن هؤلاء أبناؤه الـذين تركهم قبـل فترة وهم كـأفراخ الحمـام، فقال أكـبر أبنائه.

-: هل أنت أبونا علي؟

: نعم، وهل أنتم أبنائي صالح، ومحمد وسليمان؟

-: نعم، نحن أبناؤك.

والتفت سـواعد الأبنـاء على عـاتق الوالـد، وتزاحمت الصـدور على صـدره، وانهالت القبلات على كل جزء من وجهـه ورأسه وأكتـافه وانهمـرت دموع الفـرح الممزوجة بحرارة اللقاء على صدره حيث دام هذا المشهد المؤثر حتى تعدتهم أحمـال القافلة، وبعد أن أفاقوا مما هم فيه قال الابن الأكبر:

-: حياك الله يا أبي.

: وأبقاكم يا أبنائي، ما شاء الله، لم أصدق عيني حتى الآن.

-: لماذا؟

: لقد أصبحتم رجالاً أكبر مني.

-: نحن أبناؤك، وبذرة من بذورك.

: يا الله!! حقاً إنكم بـذرة صالحـة إن شاء الله، وقـد تعهدت هـذه البذرة يـد حفية وأمينة وحريصة على سقيها وتربيتها.

-: من تعني؟

: إنني أعني والدتكم جزاها الله عنى خير جزاء.

-: آمين.

: كيف حالها الآن؟

-: إنها ولله الحمد تتمتع بأتم الصحة والعافية والحيوية والنشاط.

: عسى ألا تكون غيبتنا قد أثرت على معنويتها أو صحتها؟

-: إنها ولله الحمد تتمتع بمعنوية عالية ونفسية مطمئنة وصحة ممتازة.

: بشرك الله بالخير، هذا ما يسر الخاطر، أحقاما تقول؟

-: لم أزد على ذلك، وإذا وصلت ورأيتها فربما تجدها أكثر وأحسن مما ذكرت لك.

: الحمد لله، إن ما أخافني يابني أن بعض النساء إذا غاب عنها زوجها ولو مدة قصيرة تأثرت من جراء غيابه وتحمل المسئولية من بعده.

-: إن والدتي جزاها خيراً تختلف عما ذكرت، فإنها مؤمنة بالله، مطمئنة على نفسها، تتحمل المسئولية الكاملة، تؤمن بضرورة العمل الحر الشريف لتحصل على لقمة العيش الحلال، حريصة على كرامتها وكرامة أبنائها.

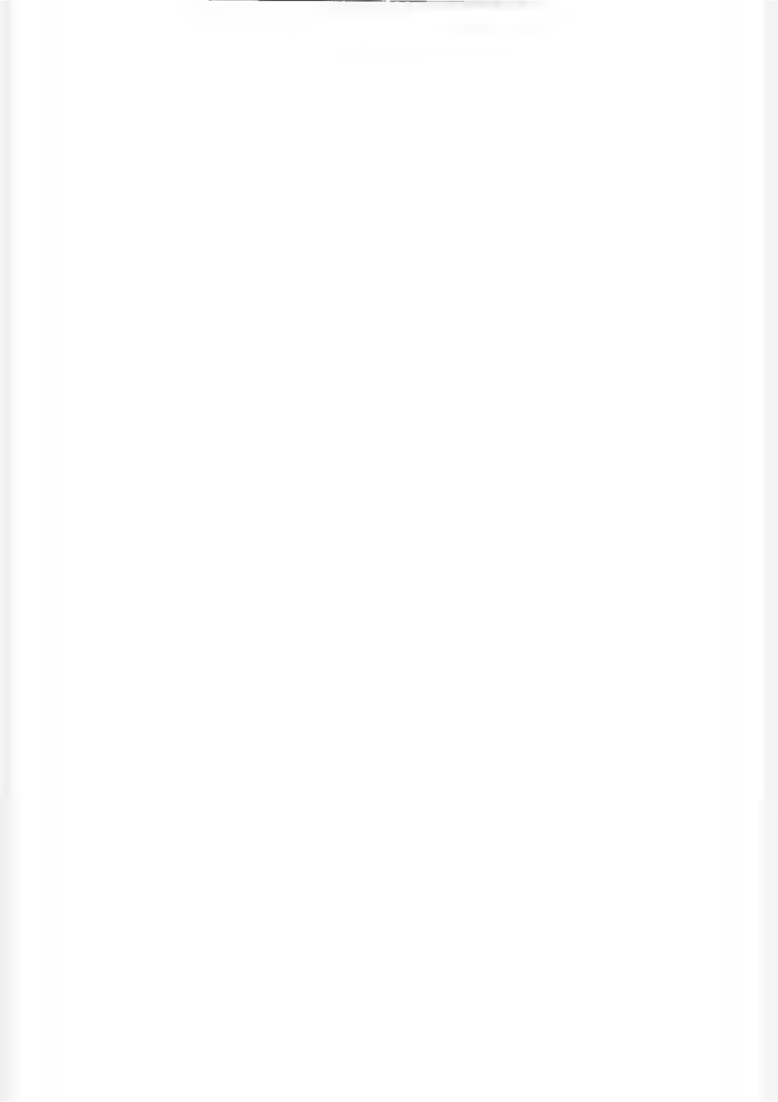
: هذا ما جعلني أطمئن لمكوثي كل هذه المدة.

-: هاهي والدتي تستقبلك على الباب، فإنطلق معي واترك القافلة لاخواني ينزلونها.

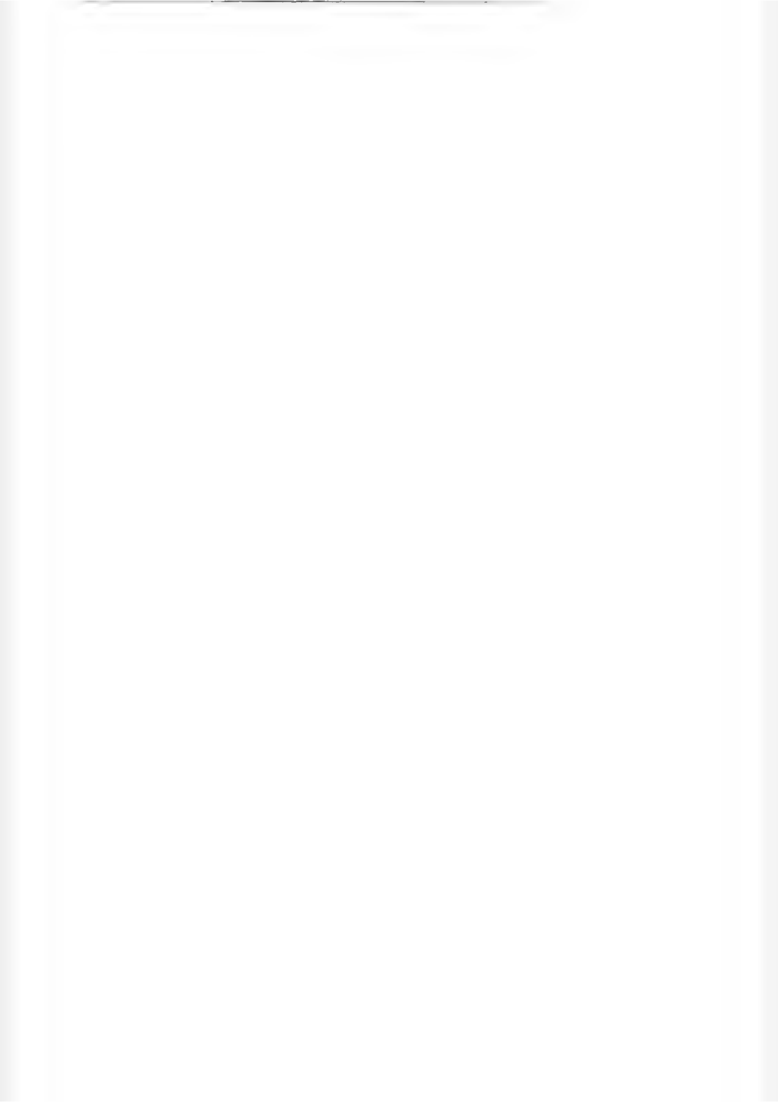
: أهلاً وسهلاً بأبي صالح، «حَيٌ اَلله اَللِّي يْغَابْ وْيِسْرِعْ اَلْرَدَّةْ» مرحباً بِكَ بعدد ما مشيتَ عليه من رمال الصحراء.

-: وأهلاً بك أضعافا مضاعفة.

وضم الزوجان كل صاحبه على صدره بتعبيرات مؤثرة، وغصت الجناجر بالكلمات مما جعل الابن يتراجع ويغلق باب المنزل عليهما ويعود لاخوانه لانزال الأحمال، وتعم الفرحة والسرور أهل هذه القرية فضلاً عن أفراد هذه الأسرة التي غاب عنها ربها لأكثر من عقدين من الزمن.




الحواشي



شرح القصائد
الواردة بالكتاب باللهجة العامية

(١) خير: كريم، جاني: جاءني.

يفتتح الشاعر شائع بن مرداس الرمالي الشمري رحمه الله هذه القصيدة بالتنويه عن المدة التي مكثها في السجن وهي ثمان سنوات، وقد وصف من سجنه بالجود والكرم، وهناك من يروي البيت:

أخذت ثلاث اسنين في حبس خير   والرابعة جاني صدوق الفعايل

وإذا سلمنا بصحة هذه الرواية فإنها قد تتناقض مع عمر الغلام حيث تذكر الروايات أن الغلام كان صغيراً في سن الطفولة عندما سجن أبوه، أي من ثلاث إلى أربع سنوات، فإذا ما أضفنا إليها المدة التي وردت في البيت فعند ذلك يصبح عمره ثمان سنوات وفي هذه السن لا يتوقع منه أن يفعل شيئاً، ولذلك فإن الرواية المثبتة هنا أقرب إلى الصحة، سيما إذا أضفنا ثمان سنوان إلى أربع فيصبح عمره حينذاك إثنا عشرة سنة وهو أقرب لأن يحس الغلام بما حوله ويتصرف كما ينبغي بصرف النظر عن القياس على جيل هذا الزمن.

(٢) لم يخط شاربه: إي لم يظهر فيه الشعر، وهو أقل من عمر الرجال جايل: أي ما يجول في ذهنه من نوازع الخوف، وجائل التي خففها الشاعر فصيحة.

يحدد الشاعر سن ابنه عُمَيْرةْ بالعلامة الفارقة التي تظهر على وجوه الرجال إذا بلغوا مرحلة معينة من العمر، وهي ظهور شعر الشارب واللحية، فيقول إن ابني عندما جاء لينقذني كان في مرحلة ما قبل ظهور الشعر في وجهه، حيث لا يزال الزغب يلمع على طُرّة شاربه.

(٣) دنق: إنحنى وهي فصيحة، مضنون ما أضن به وأحتفظ وهي فصيحة، شلايل: كأنها شلالات الماء المتساقط بغزارة. يستمر الشاعر في وصف خطوات ابنه إذ يقول إنه عندما عرفني بين تلك الأهمال اغتنم تلك السانحة وانحنى عليّ وقبلني، حيث انهمرت دموعه على وجهي، تلك الدموع لم تكن دموع جزع أو خور، وإنما كانت دموع العاطفة المتأججة في جنانه، حينما أخبرني بأنه قد جاء لإطلاق سراحي.

(٤) الحبايل: جمع أحبولة وهي الفخ كلمة فصيحة، وقد شبه الحديد المحيط بساقيه مثل إمساكة الفخ بالصيلة.
يبين الشاعر أنه رد على طلب ابنه عندما جاء لفك أسره بأنه ليس بامكانه أن يفعل شيئاً في هذا الوضع، وذلك بسبب الحديد المغلق على ساقيه، ولأنه قد ثوى في مجلسه لمدة طويلة، ويحتاج إلى بعض الوقت للتدرب على المشي قبل أن يستطيع الهرب مع ابنه.

(٥) الشبل: إبن الأسد وهي فصيحة، سطى: من السطوة وهي الاقدام والجرأة وهي فصيحة، وهذه الكلمة كانت شائعة الاستعمال في ذلك الوقت، الدجى اشد الظلمة وهي فصيحة، الشيخ: المقصود ابن عريعر.
يستمر الشاعر في امتداح ابنه حيث يطلب له من الله طول البقاء بعزة ومنعه، ووصفه بالشبل الجريئى، وكيف لا؟ وهو ابن هذا الأسد المصور الذي يرسف في حديده، حينما أقدم ابنه في هذه الليلة الداجية على انتزاع ابن الشيخ الذي عامله بقسوة تهتال منها قلوب الرجال.

(٦) الورع: الطفل الصغير، الأصل فيه فتح الواو والراء، لكن العامة يكسرون الواو ويسكنون الراء وفي وضعها الأول كلمة فصيحة، ربعة: المكان أو المنزل وهي فصيحة.
يصف الشاعر مغامرة ابنه حيث اقتحم أحد بيوت نساء الشيخ، واستل الصبي من حضن أمه، تلك المرأة الجميلة ذات اللون الصافي، والجدائل الشقراء، دون أن تشعر به، وحمله معه ليطلب الفداء لاعادة إطلاق سراح والده.

(٧) درب: طريق أو خطة وهي فصيحة، صعيب: صعب، هفا: إنخذل وهي فصيحة، جاب: اختزال جملة جاء به الفصيحة.
يقول الشاعر إنه عندما رأى تصميم ابنه على إطلاق أسره، ورأى منه عزمه على اختطاف الصبي هداه ودله على الطريق الموصل إلى هدفه، ورسم له الخطة القابلة للنجاح، عند ذلك قام خير قيام بالمهمة التي وضعها على كاهله، فانتزع الصبي من حجر أمه دون أن تدرى، وعندما فقدت ابنها صاحت وضج لصياحها كامل الحي للبحث عنه.

(٨) زم: شد ورفع وهي فصيحة، مِزْ: ما يشعر به الرجل المرور، وهو ذو القوة وشدة العقل من الخلق والصلف عندما يصيبه ضيم وهي فصيحة.
يصف الشاعر الخطوة الثانية التي اتبعها إبنه عندما حمل الصبي، فقد مر عليه وودعه بقبلات حارة وذلك ليطمئنه على ما فعل، وعند ذلك أحس الشاعر بزوال تلك الغشاوة التي يحس بمرارتها القاطعة تحرق في كبده منذ مدة طويلة، فقد زالت الآن وبرد لهيبها عندما رأي ابنه في طريقه للنجاح بالهرب في الصبي الذي سيكون سببا في إنقاذه.

(٩) الربد: جمع ربداء وهي المفازة فصيحة، وجناء: صفة للناقة وهي فصيحة، مناتلات:

مجاذبات وهي فصيحة، الجدايل: الأعنة المجدولة وهي فصيحة.
يصف الشاعر الناقة التي يمتطيها ابنه بأنها تلك النجيبة السريعة التي من عادتها قطع المسافات الشاسعة في فترة وجيزة، تلك الناقة التي لا تلحقها الخيل، فهو في هذه الحالة مطمئن على ابنه ورهيته مادام قد لاذ بكورها.

(١٠) الوضحاء: لون الناقة البيضاء وهي فصيحة، الهيج: قد يعني قزع السحاب عندما تحدوه الريح الشديدة.
يصف الشاعر تلك الناقة الوضحاء الطافحة براكبها، وكأنها قطعة المزن عندما تحدوها الرياح الشديدة، فتطير في صفحة السماء تتوارى بسرعة في سمت الأفق.

(١١) ثقيل الروز: الرزين عند الامتحان والشدائد، ويقصد ابنه وهي فصيحة وضح: جمع وضحاء وهي الناقة البيضاء فصيحة، فطاير: جمع فاطر وهي الناقة إذا إنفطر نابها بعد أن تبلغ من السن تسع سنين فصيحة، زوبع: أحد القاب قبيلة الشاعر، جلايل: جمع جليلة وهي الناقة الكاملة الخلق التي تعجب الناظر إليها وهي فصيحة.
يقول الشاعر أن ابنه ذلك الرزين قد طلب فدية لاعادة الصبي إلى أهله مجموعة من النياق الوضح المكتملة، وهي نياق معروفة، عند أحد شيوخ قبيلته التي تعتزى «بزوبع» وهذه النياق من المستحيل الحصول عليها، لما دونها من الرجال، وهذا المطلب على سبيل التعجيز لأبي الصبي.

(١٢) بالإضافة إلى تلك النياق المعروفة، فقد طلب جوادين من الخيل يعرفهما ويعرف أصحابهما، ويجزم بأنه من المستحيل الحصول على هذين الجوادين أيضاً، وذلك للأسباب التي يوضحها في البيت التالي.

(١٣) واضح النقا: أي الطريق الواضح، الدبايل: جمع دبيلة وهي الداهية من أسماء الحرب وهي فصيحة.
يقول الشاعر إن هذا المطلب الصعب من النياق الوضح، والجوادين المعلومين من الصعب الحصول عليها لما دونها من الرجال شديدي المراس الذين لا يبالون في اقتحام الأهوال، وخوض الحروب من أجل حماية أنفسهم وأموالهم، والدفاع عنها.

(١٤) من عقب ماني: بعد أن كنت، جوني: جاءوني، يبون: يريدون يوضح الشاعر لهذا الشيخ الذي حبسه طيلة هذه المدة قائلاً: بعد أن كنت مهملاً عندكم حافي القدمين لا قيمة لي، مرميا وكأنني الهمل البالي، جئتموني الآن تطلبون مني أن أفعل جميلة باعادة ابنكم إليكم، وذلك بالتوسط لدى إبني للتخفيف من شروطه وطلب أي عدد من الإبل والخيل خلاف ما طلبه.

(١٥) يمتدح الشاعر ابنه، ويدعو له بطول الحياة والبقاء، وذلك على هذا الموقف النبيل الذي وقفه من القوم حينما طلب منهم ذلك المطلب الصعب، فقد تقصى فيه، ولم يترك لهم مجالاً يكون لهم الخيار فيه، وذلك عندما طلب تلك الخيول المعلومة والنياق المعينة التي يصعب الحصول عليها.

(١٦) مثبار: مصدر ثبر وتعني الحبس أو المكوث وهي فصيحة، ظهيد: مظلوم وهي فصيحة، غلائل: جمع غليلة وهي مؤنث غليل وهي فصيحة.
يتشفى الشاعر في هذا البيت ممن حبسوه مكملاً معنى البيت السابق، ويعني ابنه فيقول: لقد فزع لي ابني وكوى أكباد من اضطهدوني وسجنوني مدة طويلة ظلماً وعدواناً، والآن، دعهم يذوقون بعض ماذقت من غصص العذاب.

(١٧) يستمر الشاعر في إطراء ابنه فيقول: إنه أخذ بثأر أبيه وعمه وعزوته التي يعتزى بها من أفراد قبيلته ممن نالهم إساءة من بعيد أو قريب من هذا الشيخ، وجعل من رفع رأسه وزم أنفه يطاطيء الرأس تحت ضغط هذا الظرف، وهو يعني بذلك الشيخ نفسه.

(١٨) تسفى: تذروا وهي فصيحة، مسهسهات: الرمل الناعم.
يدعو الشاعر على أي غلام لم ينل العلا، ويفعل مثل فعل آبائه وأجداده إن كانت لهم أفعال طيبة، يدعو عليه بأن يفارق هذه الحياة وتسفو عليه الرياح من ناعم الرمل ما يخفيه ويغيبه عن هذا الوجود.

(١٩) الحمايل: جمع حمولة وهي العائلة.
يكرر الشاعر الدعاء لابنه بطول الحياة، والرفعة والسؤدد في قمة المجد، لأنه من تلك العائلة ذات القدر الرفيع فهم من كبار العوائل والأرومات العربية الأصلية.

(٢٠) قرم: الشجاع المقدام الحيوي وهي فصيحة، نفل: إختص وهي فصيحة، السطر: الصلف، السلايل: السيوف وأصلها فصيح.
يختتم الشاعر هذه القصيدة بوصف ابنه بالشجاعة والاقدام وقد اختص بهذه المزايا، ولا غرو في ذلك فهو غصن من هذه الدوحة وقد توارثوا هذه الخصال أباً عن جد منذ زمن بعيد، فآباؤه وأجداده خضبوا السيوف من رقاب أعدائهم.

(٢١) جضع: الاضطجاع على أحدى الجنبين، الانبطاح الاستلقاء على البطن.
يتمنى الشاعر الأمير عجلان بن برغش بن رمال رحمه الله الذي ابتعد عن وطنه أن يعود إليه ويتقلب على بطنه وظهره وجنبيه فوق رمال النفود اللينة الباردة صيفاً، والدافئة شتاءاً، بعد أن تكسوها أشعة الشمس.

(٢٢) طلوق ريق: طعام الإفطار، وهو أول ما يتناوله الإنسان بعد النوم، يمد: يعطى وهي فصيحة، والمقصود هنا التمر، برية: المقصود بها البن القادم من اليمن عن طريق البر وهي من أفضل البن، فاح: غلى وهي فصيحة.
يوضح الشاعر ألذ الأشياء التي ذاقها في حياته، وهي التمر الجيد مع القهوة البرية فوق رمال النفود الناعمة في جو ذلك الصباح الصافي على الطبيعة الهادئة، وهي لذيذة بلا شك، ولا يدرك ماعناه الشاعر إلا من تذوق ماتذوق في المكان والزمان المذكور.

(٢٣) مزيت: المز هو الشرب من خلال الأسنان وهي فصيحة الثنايا: الأسنان الأربع بمقدمة الفم اثنتان علويتان واثنتان سفليتان ويعدهما الرباعيات وكل هذه الكلمات فصيحة، طرقوع: الشربة ملء الفم والحلق بنفس واحد، جديع: من يسند عليه الشاعر. يقول

الشاعر الذي لم أعرف اسمه، ما أحلى قبلة على ثغر المحبوبة يمز فيها من رضاب ريقها من بين أسنانها ما يروي ظمؤه، وما أحلى هذا الحب إذا كان على محبة متبادلة.

(٢٤) خذيت: أخذت، سبع أسبوع: سبعة أسابيع، أشوف: أرى وهي فصيحة.
يبالغ الشاعر في هذا البيت حيث يذكر أنه بقى سبعة أسابيع بعد تلك القبلة التي تخيلها من محبوبته لا يأكل ولا يشرب، ومع ذلك فإن حالته الصحية لم تتأثر لا نقطاعه عن الطعام والشراب، وهذا من خيالات بعض الشعراء ومبالغاتهم.

(٢٥) مشهور: اسم الجواد، جردت: جردت الخيل أعدت للغارة وهي فصيحة، زال: تراءى أو لمع وهي فصيحة، طمع: مطمع وهي فصيحة.
يقول الشاعر عرار بن شهوان رحمه الله مفتخراً بجواده مشهور إنه سيكون في مقدمة الخيل، إذا جردت للقتال من أشباح قد تكون أعداء.

(٢٦) الحر: النادر من الصقور وغيرها، المرقب: المرأي وغيره لرؤية ما حوله كرءوس الجبال وغيرها، تهزلف: انقض، الشبر: الرديىء من الصقور وغيرها وهو ضد الحر، مقايله: جمع مقيل، وهو ما يستريح به وقت القيلولة. وهي فصيحة.
يصف الشاعر نفسه كالحر النادر من الصقور إذا اعتلى في رأس جبل أو شجرة ورأى صيدته ثم انقض عليها انقضاض السهم، فكذلك هو بالنسبة لاعدائه.

(٢٧) يا: إذا، نايله: يناله.
يصف الشاعر حصانه بأنه عذاب الخيل إذا طردها شتت شملها، أما إذا طردته فلن تلحق به مهما أوتيت من قوة.

(٢٨) عميرة إبنة راشد بن ضيغم رحمها الله، التلا: مؤخرة الجيش أو الظعن، عصمان الشوارب: هم الرجال ذوو البأس والشجاعة، مثايله: أبياتها التي تقولها وتتمثل بها.
تفخر الشاعرة بأبيها الذي كان يذود خلف مؤخرة أصحابه ويحمي ذمارهم وتقول هذه الأبيات التي يطرب لسماعها ذوو البأس من الرجال الصناديد.

(٢٩) هيض: من هاض وهو المعاودة كلمة فصيحة، تغاوى: تختلف عنده، الفهمان: جمع فهيم وهي فصيحة، قاف: قافية وتعني القصيدة.
تقول الشاعرة إن كلامها إذا أعيد على اسماع أصحاب مجلس اختلفوا في تفسير معناه لما يحمل من البلاغة والعمق وهذا المعنى شبيه بما عناه أبو الطيب المتنبي رحمه الله بقوله:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

(٣٠) عزي: أتعزز له، راع: صاحب، الغوج: الحصان الجزيئي الطويل وهي فصيحة، تبرا: تباري وهي فصيحة، سلايله: سلالته وهي فصيحة.
تقول الشاعرة، واعزتا لصاحب ذلك الحصان الأصيل إذا لحقه خمس من الأمهار من سلالته، وهي أشب منه فعند ذلك سيد ركنه وربما تجاوزنه.

(٣١) جهلاً: جهل، غلايلة: جمع غليلة وهو ما يغل الإنسان وهي فصيحة.

تفصح الشاعرة في هذا البيت عمن سيكون على تلك الأمهار الخمس، وعلى من في مقدمهن أخوها عمير بن راشد، ذلك الفتى المشهور الذي يعجز كل فتى عن إدراك الطائلات التي أدركها.

(٣٢) تستمر الشاعرة في تعداد مزايا أخيها، فهو الذي يعزى الطفل عن أمه رقة ولطافة ورحمة، ويتقلب عدوه في ملة ناره مكرراً الشكوى بدون فائدة.

(٣٣) مخنى : مخضب وهي فصيحة، خشوم الفوس: سلة الفأس وجمعها مخففة من فئوس، شمح الذرا: هي الابل شامخة ذرى سنمها وهي فصيحة، عيّا: أبي وشح، الحب: رمز للطعام. تستمر الشاعرة في مدح أخيها، وتصفه بالكرم الجم لما ينحره من الجزر لضيوفه، بحيث تقطر فئوس الجزار لديه دماً من نحور الابل، وخاصة في سنين المحل والشدة والعوز، إذا شح البخيل بطعامه واعتذر البائع عن بيع الزاد.

(٣٤) دخاخين: جمع دخان وهي فصيحة، ميرة: الطعام وهي فصيحة، مصالا: مصالات. تستمر الشاعرة في وصف ما يدل على كرم أخيها بأن دخاخين من يعدون الطعام في بيته مستمرة بالليل والنهار، ومن يقومون بهذا العمل يصالون حرارة النار أيامهم ولياليهم.

(٣٥) يذلق: من ذلق وهو إخراج الشيء من الطرف البارز وهي فصيحة ذباب السيف: رأسه الحاد وهي فصيحة، مكنهر: كنهر أي تجهم وأظلم وجهه شبيه بالسحاب المتراكم المظلم وهي فصيحة، قفر: مقفرة وهي فصيحة، رحايله: جمع راحلة وهي فصيحة.
تبرز الشاعرة صفة الشجاعة بأخيها، وذلك أنه إذا ذلق السيف من غمده ومشى متجهما بين الصفوف فلا أحد يقف في وجهه وسيحدث على من يغير عليهم من الضجة والجلبة ما يشبه العواء والصياح.

(٣٦) الغيل: هي المياه الطافحة على وجه الأرض في بطون الأودية وهي فصيحة، وترمز هنا إلى جميع المياه، جاس: قاسي، رصراص: الحجارة الصغيرة المتراصة المتماسكة في طينة لزجة صلبة، ضلع: جبل وهي فصيحة، هضايله: من هضل بالكلام أو الماء أي سح فيه وهي فصيحة.
تبرز الشاعر في هذا البيت مقدار قوة ذويها وذلك بأنهم يستطيعون السيطرة على موارد المياه مما يغيل فوق الأرض أو ينزك من الجبال أو يهضل من العيون.

(٣٧) تفتخر الشاعرة بقوة صبر إخوتها حيث تقول إن أحداً لا يستطيع الصبر كما نصبر، ونبرهن على ذلك بأن المستوى الطيب والمكان المرموق لا يستطيع أي إنسان أن يناله دون أن يصبر ويجالد ويتحمل المشاق.

(٣٨) يتمنى الشاعر شهوان آل ضيغم رحمه الله أمنية لا يحبذها ولا يحبها وهي حدوث الشر، ولكن في موقف كهذا فالشر شيء لا بد منه، حيث يتمنى لو كان هو وولده عرار حاضرين عندما عبث ابن أخيه بكسر ثنيتي بناته مجازات لكسر ثنية أخته عميرة.

(٣٩) ربايب: جمع ربيبة وهي فصيحة، زمايم: جمع زمامة وهي الفتاة في عنفوان شبابها وحيويتها.

يعاتب الشاعر ابن أخيه حينها أساء إلى بنات عمه وكسر ثنية كل واحدة منهن، وهن الصبايا الناعمات في أول عنفوان شبابهن.

(٤٠) ظل: بقى على حالته السوية، تفتكر: أي ترعوى، دابرات: دائرات الأيام.
يوبخ الشاعر الفاعل بقوله: أما يعود إليك عقلك فترعوي وتفكر أن تلك النسوة اللاتي أسأت إليهن كان من المفروض أن تدافع عنهن، أما تخشى دائرات الأيام إذا دارت.

(٤١) هو كيف: إستفهام بزجر، العذارى: جمع عذراء وهي فصيحة مغيبة: أي قد غاب عنهن محارمهن، تشنع: من التشنيع وهي شدة الإساءة، وهي فصيحة.
يستمر الشاعر في توبيخ الفاعل بقوله: كيف تأتي إلى تلك العذارى اللواتي غاب عنهن من يحميهن منك ومن أمثالك، وتشنع بأسنانهن بكسرها فتشوه أفواه تلك الفتيات اللاتي كأنهن البدور.

(٤٢) الرهايا: جمع للمترهي وهو الذي يرى في نفسه ما ليس فيها.
يختتم الشاعر توبيخه لابن أخيه بقوله: إن تلك الفتيات لهن قدر كبير عند من يحرصون على كسب الثناء الطيب والذكر العطر، أما من يتغطرسون ويرون في أنفسهم ما ليس فيها فليس لهن عندهم قدر ولا قيمة مثلك وأمثالك.

(٤٣) ظل: بقي على حالته السوية، أوحش: أو قدت النار من تحته يفور: يغلي وهي فصيحة.
يرد الشاعر عمير بن راشد رحمه الله علي عمه بهذه الأبيات قائلاً: أما رجعت إلى رشدك أنت وابنك حين كسر ثنية أختي وهي زوجته وبفعلته تلك أغضبني وكانت هذه الفعلة بمثابة وضع الحطب تحت القدر المركب على النار ليغلي الماء الذي بداخله.

(٤٤) ناقا: نقي وهي لغة طائية بابدال الياء إلى الألف، فصيحة عثور: جمع وهي فصيحة، عثرة.
يبرر الشاعر موقفه من البنات بقوله: في العام الماضي قبل أن تفعل بأختي فعلتك لا نرضى لهن إهانة أو ضيم أما الآن فلا نقى لهن عثرة جزاء ما فعلت يداك بأختنا.

(٤٥) شايب: من لاح الشيب في شعره وهي فصيحة، العيا: العنت والتصلب وهي فصيحة.
يقول الشاعر بهذه القصيدة عاذلاً عمه عراراً إن شيخنا هذا يسير على ما فيه مضرتنا، ويسعى جاهداً على إيذائنا وهذا طبعه منذ أن كان شاباً حتى صار الآن شيخاً فلم يلف من تصلبه ولم يقلع عن تعنته ضدنا.

(٤٦) يبون: يريدون، ميثاء: زوجة عمير وهي ابنة شهوان بن ضيغم وأخت عرار رحمها الله لقوة: منتقاة وهي فصيحة، على حذوة: أي على حذاء الخيل وهي كناية عن أخذها بالقوة والقهر فوق صهوات الخيل.
يقول الشاعر إن مدبرى هذه المؤامرة الذين جعلوا هدفهم أخذ زوجتي ميثاء وهي النادرة من نسائنا فوق ظهور الخيل لم يكن الهدف هو أخذها، إنما يريدون الايقاع بنا

أمام قوة لا نستطيع مقاومتها، وهم يعرفون تمام المعرفة أننا لن نترك حريمنا لقمة سائغة لمن أرادهن بل سندافع عنهن بأرواحنا، وبذلك تتحقق أمنيتهم بفنائنا عن آخرنا بحيث يصفو لهم الجو ويخلوا لهم المكان.

(٤٧) إنخننا: أي استثرن فينا النخوة بالجمل المثيرة، والزغاريد المؤثرة التي تدفعنا نحو عدونا. بحاسات: يعني الخيل التي يمتطونها، والخيل إذا سمعت الصياح والزغاريد تطرب فتجري وتندفع بشدة.
يقول الشاعر، زغردن وصحن واعتزين بنا يا نساءنا لتكون أصواتكن بمثابة الدافع إلى الاستماتة والاستبسال والانتحار لنكسر شوكة خصمنا بقضه وقضيضه ويكون النصر لنا إن شاء الله.

(٤٨) نثني: أي نعود بخيولنا إلى معمعة المعركة وهي فصيحة نقعد: أي نعدل وهي فصيحة وهو هنا يعني لن نحر فهن عن وجوههن باتجاه العدو.
يصف الشاعر سير المعركة بأنه وإخوته الأربعة قد انطلقوا بخيولهم نحو الأعداء، ولن يحرفوا خيولهم مع طريق الهزيمة إبداً وسيشقون بخيولهم صفوف الأعداء حتى يهزموهم.

(٤٩) الجاذبات: يعني الخيل بمجاذبتها الأعنة من أيدي فرسانها. يقول الشاعر إن أول من يثنى على خيل الأعداء هو أخوه عقيل بن راشد آل ضيغم، مع أخيه الثاني وهو الحصن الحصين للخيل، ذلك الأخ هو حجاب بن راشد آل ضغيم.

(٥٠) يذود: وهي هنا يعني يحد ويحشر وهي فصيحة، دارع: الفارس الذي يرتدي الدرع وهي فصيحة، القنا: الرماح وهي فصيحة، حر: النادر من الصقور وغيرها، بتوع: البتوع هنا الجريء المقدام.
يمتدح الشاعر أخاه الثالث الذي لم يذكر اسمه ويصفه بالجرأة والاقدام، وأنه الهلاك المؤكد للرجال بينما حجاب يحشر الخيل بفرسانها ويخترق صفوف الأعداء.

(٥١) حميدان بن راشد آل ضيغم هو الأخ الرابع لعمير وهو المصاب بالخرس، سلطان مارد: مارد هو الحصن الأثرى الموجود بمدينة الجوف الحالية، تهيا: حصل.
يصف الشاعر اللقاء الذي تم بين أخيه الأصغر الأخرس حميدان وبين السلطان الذي غزا بجموعه هذا الفريق الصغير من العرب مستهدفا إفناءهم بايعاز من عمه شهوان وابنه عرار.

(٥٢) زرقاسنينة: يعني الرمح، صماصيم: الشديد، الصلب من صمصم وهي فصيحة.
يقول الشاعر إن أخاه حميدان قد ضرب السلطان بتلك الرمح السنينة حتى جعل درعه الشديد الصلب تتناثر حلقاته ويغوص الرمح إلى ثومة قلبه.

(٥٣) الدمث: الأرض اللينة وهي فصيحة، الرمث: شجر يتخذ منه الحطب طيب الرائحة على النار وترعاه الإبل وغيرها عند الحاجة ويكثر نباته في الأرض اللينة ومسائل الأودية والشعاب، الغضى: أحر من نار الرمث، أودع: جعل.

يقول الشاعر إن أخاه حيدان قد لحق بالسلطان في موضع بحد منبت شجر الرمث والغضى عن عروق النفود وحطم أضلاعه ودرعه بتلك الطعنة النجلاء التي طارت معها روحه.

(٥٤) يستمر الشاعر في وصف بسالة أخيه ويقول بأنه قد كساه من صافي الحديد تلك الدرع التي لا تدركها الرماح بالاضافة إلى شجاعته وإقدامه.

(٥٥) شوق: من يشتاق إليه، وهو هنا يعني الزوج.
يعود الشاعر إلى نفسه فيقول منحيا باللائمة على من يسبونه بقصر القامة ويفتخر بنفسه بأنه وإن كانت قامته قصيرة إلا أن أفعاله عملاقة، ويذيق الرجال العذاب والنكال على يديه ويعتزى بأنه زوج ميثاء تلك الزوجة المثالية.

(٥٦) يفصل الشاعر ما أجمله في البيت السابق فيقول إنني قد جمعت القصر مع الظفر والثروة والجاه، وزوج لتلك التي تزين بالخضاب لتضيف جمالاً إلى جمالها.

(٥٧) زغزية: المهرة الفتية في عنفوان قوتها، وأصل الكلمة من زغزغ وهي الخفة والحنق.
يقول الشاعر كيف يلومني هذا اللائم وأنا فوق هذه المهرة الفتية المتدفقة قوة ونشاطاً وعنفوانا، هذه المهرة التي لم أدربها للألعاب والاستعراض، وإنما دربتها على خوض غمار المعارك.

(٥٨) الحدري: الأسفل، كأسفل الوادي أو أسفل التل والجبل وهي فصيحة، ملبس: أي قد لبس الدرع، العرايا: يقصد الناس العاديين الذين لا دروع عليهم.
يقول الشاعر إنه قد قتل من القوم تسعين فارساً دارعاً من خيار الفرسان بأسفل المكان أو منحدرة، أما الفرسان العاديين فليس لهم عدداً، وهذا إن صح فيدل على كثافة الجيش.

(٥٩) شعث: جمع شعث وهو انشقاق حافر الفرس طولياً، ويؤثر عليها بالجري، وأساس الكلمة فصيح من شعث.
يصف الشاعر الفرس التي يمتطيها بأنها دهماء، ويطلب من الله أن تسلم قوائمها من أي عيب يؤثر في جريها.

(٦٠) وليا: وإذا، ما أزمل: لا أخاف، هضاب: جمع كثيف يشبه الهضاب.
يواصل الشاعر افتخاره بنفسه، وأنه إذا أمسك بسيفه فلن يخاف حتى لو كانت الجموع التي سيلاقيها متراكمة مثل الهضاب.

(٦١) المضيوم: من تعرض للضيم وهي فصيحة، ياعض: إذا عض يختتم الشاعر هذه القصيدة في بيت قد يتناقض معها، أو أنه الصيحة الأخيرة في أذن عمه وابنه الذين يسعيان لتحطيم أقاربهم فيقول: إن الإنسان لا ينفعه غير ابن عمه أو قريبه إذا غض به ناب الشر فهو الذي يدافع عنه ويحميه، وهذه الفكرة تنفع في بعض الحالات، وفي بعض الحالات قد يأتي الشر من أقرب الأقربين إلى المرء.

(٦٢) نطيت: إرتقيت، وأساس النط القفز والارتفاع وأساسها فصيح، رجم: ما يرجم من

الحجارة بعضه على بعض ويتخذ منه مرقباً يرتقيه الرقيبة للقوم، وهو هنا يعني الجبل الذي رجم الله حجارته، الحيا: المطر وهي فصيحة، سميح: سهل المرتقى، العوالي: جمع عالية وهي المرتفعات، طنوبه: رواسيه وهي بمثابة أطناب البيت وهي فصيحة.
يقول الشاعر عيادة بن منيس العمودي الشمري المتوفي حوالي عام ١٣٤٧ رحمه الله أنه ارتقى ذلك الرجم النائف الذي أشرف منه على ما أثار شجونه وجدد أحزانه، ويدعو عليه بأن لايصيبه صيب المطر.

(٦٣) ولىّ: من ولىّ أي ذهب إلى غير رجعة، هودت: اللين والصلح وهي فصيحة، ياتقل: إذا هي، برطم: الشفة الغليظة وهي فصيحة شنة: الدلو أو القربة البالية القاحلة وهي فصيحة، غرويه: جمع غرب وهي الدلو وهي فصيحة.
يقول الشاعر إنني كلما قلت أن عيني قد ارعوت وتوقفت عن البكاء تدفق الدمع منها وكأنها فم تلك الدلو القاحلة المتهرئة التي لا تصمد الماء بداخلها بل يتناثر منها يمنة ويسره.

(٦٤) مزنة: المزن السحاب الركامي وهي فصيحة، استكنه: أي تراكم بعضها على بعض وثقل سيرها وكأنها مستكنة في مكانها وهي فصيحة، الخضر: موضع في الغرب من جبل أجأ، غمقين الأطعان: يعني أفراد قبيلته ذوو الطعان العميقة في صدور الأعداء.
يصف الشاعر تلك السحابة التي تراكمت فيها الأمزان، وجاءت بسيرها البطيء ومطرها الغزير، وهذه الظاهرة اتخذها الشعراء كمقدمة لقصائدهم بوصف السحابة ومسيرها ومطرها قبل أن يدخل للموضوع، وهذه بمثابة المقدمة الغزلية في الشاعر العربي الجاهلي من حيث الهدف حيث يسعى الشاعر إلى ما يلامس شغاف قلوب السامعين، وخيرما يتحدث عنه هو المطر ونزوله، ويطلب من الله أن تكون هذه السحابة على أراضي قومه ويصفهم بالشجاعة وذلك بعمق طعناتهم في نحور أعدائهم.

(٦٥) الركة: جبل
يطلب الشاعر أن تقف هذه السحابة على جبل يدعى ركة وكأن وقوفها تؤدي سنة سنت عليها بحيث أصبح السيل الذي نزل عليها يغرق ما فوق الأرض من البشر وغيرهم من الجن والحيوانات والحشرات.

(٦٦) تعلا: إرتفاع وهي فصيحة، طامي: مرتفع وهي فصيحة يتمنى الشاعر أن يغطى سيل هذه السحابة جميع الأماكن المرتفعة فضلاً عن المنخفضات بحيث ترتفع الأعشاب في كل مكان متغطرفة ريانة.

(٦٧) هنا يدخل الشاعر في الموضوع، فيئن أنينا باكيا وكل أنة من أناته توازي ثمانين أنه يئنها غيره، ويعزي زوره ويطلب له العون على ثقل المصيبة التي حلت به والكارثة التي عصرت قلبه بين حناياه.

(٦٨) السابق: الجواد وهي فصيحة، شهب النواصي: يعني الخيل وهي فصيحة، الأرسان:

جميع رسن وهو عنان الفرس فصيحة. يصف الشاعر أنته تلك، بأنة من جندله فارس شجاع ورماه عن ظهر جواده مصاباً، فولت عنه الخيل وتركته لوحده يتخبط بدمه بعد أن أرخى لها فرسانها الأعنة تاركين هذا المصاب في ميدان المعركة.

(٦٩) السبايا: سرب الخيل، كحيلان: جواد أصيل.
يصف الشاعر حالة ذلك المصاب الـذي تركتـه الخيل في المعـركة بعـد أن ودعن ميدان المعركة، تلك الخيول الأصائل وهن من سلالة ذلك الجواد الكريم المسمى كحيـلان، ومؤنث كحيـلان: الكحيلة وهي اسم فـرس أيضـا من اسـماء الخيـل المشهـورة لقبيلة الشاعر.

(٧٠) البريم: سير لـين مجدول يعقـده الرجـل والمرأة من عـدة لفات فـوق أعلى الـورك يشد الظهر وله ميزات أخرى. لمات الأمتان:
ملتقى الكتفين بالظهر، ويقصد هنا ما يقارب موضوع الكلية.
يستكمل الشاعر وصفه لطعن هذه المصاب الذي أصابته الرماح ما فوق موضع البـريم وتحت ملتقى الكتفين وهو موضع الكلية وهو يئن ذلك الأنين العميق المؤثر الذي يشبـه أنينه على زوجته.

(٧١) لهـدتن: اللهد داء يصيب الابـل لانفراج صـدورها وأجنـابهـا من ثقـال الأحمـال وهي فصيحة وقد استعار الشاعر هذه الصفـة من باب القيـاس، ثمان: الأسنـان في مقدمـة الفم منها أربع ثنايا وأربع رباعيات.
يقول الشاعر أن انته تلك على فراق زوجته التي لم يسمع أو يرى أو يلمس منها ما يكدر صفوه طيلة حياته معها، وفوق ذلك فهي جميلة رائعة، وقد رمز إلى جمالها بنقاوة وجمـال أسنانها.

(٧٢) محاضات: من الحضـا وهو الانتبـاه والعنايـة وهي فصيحة. يتـأوه الشاعـر على فـراقها ويتذكر أنه طالما لمسها بيديه وأدفأته بحضنها في وقت البرد، وطالما اعتنت به عناية فائقـة في محنته ومرضه الذي لم يعتن به غيرها.

(٧٣) القطاة: الطائر المعروف بعنايته بفراخه وهي فصيحـة، يامـا: حتى، يثني الشاعـر على زوجته بوصفها بألطف الطيور لفراخها ويقول إنها صـارت عليه كـأنها القطاة المستكنـة عـلى فراخهـا ترفى عشهـا وتعتني به وتنـافح دون فـراخهـا حتى من الله عليـه بـالشفـاء والعافية.

(٧٤) مِزِّنْهْ: المفاصل، هوزة، من هاز أي أومأ أو أهوى بعصى أو غيـره، العديم: الشجـاع الصارم.
يصف الشاعر انقضاضة ذلك الثعبان على زوجته مثل انقضاضة ذلك الفـارس الصارم إذا أومأ برمحه وزرقه على خصمه بسرعة خاطفة وقوة فائقة.

(٧٥) ناضوح: نضح وهو ما يخرج من خلال الاناء وهي فصيحة، شنة: سبق شـرحها وهي القربة أو الدلو البالية القاحلة وهي فصيحة مـراجيح: هي عـدة البئر من الخشب التي

تركب عليها المحالة لاخراج الماء من البئر. عثمان: هو الكريم لمشهور عثمان بن ناصر التميمي صاحب جفيفا الذي يضرب بكرمه المثل رحمه الله، وجفيفا تقع إلى الجنوب الشرقي من بلدة موقق إلى الغرب من جبل أجا أحد جبلي طي المشهورين قرب مدينة حائل.

يتعزز الشاعر لعينيه التي ينهمر منها الدمع وكأنها الدلو الشنة المركبة على بئر الشيخ عثمان بن ناصر التميمي صاحب جفيفا.

(٧٦) رقط: جمع أرقط وهو ما يحمل نقطا من الوان مختلفه وهي فصيحة، زمار: هي المزامير من أدوات الغناء، تقل: كأنها.

يصف الشاعر تلك القليب بما عليه من الدلاء والمحال التي تعزف بأصواتها التي تشبه صوت عزف الموسيقى العسكرية التي ربما رسمها الشاعر أو سمع عنها من عسكر الدولة العثمانية.

(٧٧) السواقي: جمع ساقية أو ساقي وهي مجرى الماء وسواء أكان ذلك على ظاهر الأرض أو في مجارى المياه الجوفية تحت الأرض والتي يحفر عليها الآبار، وتسقى منها وهي فصيحة، غروب: جمع غرب وهي الدلو وهي فصيحة، يودعن: يجعلن، المي: الماء، . شلان: يتدفق بغزارة.

يقول الشاعر إن هذه الدلاء الثلاث تخرج الماء من جوف الأرض من مجاريه المسمات بالسواقي بحيث تتدفق كميات من هذه الدلاء بغزارة.

(٧٨) سحم: جمع أسحم وهو صبغة سواد تكون على خدود السباع والمقصود هنا الذئب وهي فصيحة، الضرا: جمع ضاري وهي السباع وهي فصيحة. قصيرتك: أي جارتك، إبن حركان: هو الشيخ سوهج بن حركان العمودي الشمري رحمه الله.

يوصي الشاعر جاره على قبر زوجته خشية أن تنبشه السباع وتعبث به الذئاب، وقد وفّى هذا الجار وحافظ على الوصية بما تنقله أوثق الروايات، كما جاء بالقصة السابقه.

(٧٩) اللي: التي، يا: إذا، المعيد: البعير الذي يسنى عليه الفلاح لا سقاء زرعه ونخيله.

يمتدح الشاعر عسل بن ذايد الرمالي الشمري أفراد عشيرته والبقعة التي يقطنونها هم وغيرهم بأنه لم يذكر بينهم واحدر ديثى أو ذو همة ضعيفة وقد رسخت فيهم سجية الكرم بحيث أن أحدهم إذا ضاقت عليه الأمور، فإنه يضحى بأغلى شيء لديه كفرسه الذي يمنعه من أعدائه كما فعل قمة هذا الكرم وهو حاتم بن عبدالله الطائي الكريم المشهور، أو مطيته التي تنقله من مكان إلى مكان أو سانيته التي يخرج عليها الماء ليعيش منه ويعيش أولاده، وهذه الصفة من صفات أهل تلك المنطقة إلا القليل منهم.

(٨٠) هيه: تستعمل هذه الكلمة للتنبيه والنداء، يالي: يالذي، وداد: مودين، عزوى: ما أعتزي به وهي فصيحة ليه: لماذا.

يقول الأمير الشاعر عبدالله بن علي الرشيد رحمه الله لمن حوله أين الذين لهم القلوب المودة والراجية، أما ترحمون من مثلي قد استنكر له البعض من صحبه وانحازوا إلى

خصمه، أما ترحمون هذا الذي يسعى جاهداً لادراك المعالي لرفعتكم.

(٨١) غدا: صار.

يستمر الشاعر في التساؤل لماذا لا ترحمون هذا الذي نثر الدمع من عينيه لا للجزع وإنما للعبرة ممن انفضوا من حوله، ولما يراه من منظر زوجته الوفية التي أحبت أن تراه حين خرج من بلده وجفاه الناس، فأتت إليه على قدميها حينما كان مختبئاً عن خصومه.

(٨٢) شوفتي: رؤيتي وهي فصيحة للترف: المترف ويعني زوجته وهي فصيحة، مزبور: شامخ، متهنفل: الهنفلة نوع من المشي تمشيه المرأة بتؤدة ودلال وإغراء، قِدِمْ: مقدمة القدم.

يقول الشاعر إن سبب بكائه عندما رأى زوجته الوفية ذات الترف والجمال، وقد أتت إليه ماشية على قدميها الحافيتين ولما كانت لم تتعود على ذلك فقد آلمت الأرض قدميها فأصبحت تمشي على مقدمة أقدامها لا تقاء الآلام، وقد تحملت كل ذلك في سبيل رؤية زوجها الذي لم تكن مصدقة أنه على قيد الحياة.

(٨٣) مواطيه: يعني أقدامها والموطىء فصيحة، رداد: مانع وهي فصيحة السبت: النعال وهي فصيحة، ويطلق السبت على جلد القدم الغليظ الذي هو بمثابة النعال وهو المعنى هنا.

يستمر الشاعر في وصف زوجته فيقول إن قدميها الحافيتان ليس لهما جلد قوي يقيهما حثالة الأرض وذلك من آثار الترف التي تعيش فيه بحيث أن هذا الجلد الرقيق لقدميها لا يقيها شر وخزات الشوك المتناثرة على الأرض.

(٨٤) جُبَّة: بلدة قابعة في أحضان النفود وتقع إلى الشمال الغربي من حائل وتبعد عنها مائة كيل وهي قاعدة آل رمال من شمر، الوسم: مطر الوسمي الذي يسقط في آخر الخريف وهو من أجود الأمطار وأنفعها للأرض إذا بارك الله، خشم: عرنون الجبل وهي فصيحة أم سلمان: جبل ناري أسود يقع إلى الجنوب الغربي من جبه ويمثل هذا الجبل الأسود، مثل حبة الخال على خد هذا النفود الذهبي، وترى ذروته من أماكن متباعدة في النفود، والبعض ينطقها باسم: أم سنمان، على أساس أن ذرى هذا الجبل يشبه أسنمة الابل. يرجو الشاعر من ربه عز وجل أن يبادر بباكر من مطر الوسمي الدافق الرافق النافع على كل تلك البقعه التي ترى منها ذروة أم سلمان وتشمل رقعة كبيرة من النفود.

(٨٥) الحرم: يعني الحرم المكي الشريف.

سبب دعاء الشاعر لهذه البلدة لأن يصيبها وابل الوسمى لأنها ملاذ من لا ملاذ له، وملجأ من احتاج إليه، وذلك لوقوعها في وسط النفود وصعوبة الوصول إليها، بالإضافة إلى مناعة أهليها ومنافحتهم عمن لجأ إليها، ويعتقد الشاعر بأنها بعيدة عن خصمه وهي في الواقع لا تبعد غير مائة كيل كما أسلفنا، ولكنه اعتقد أنها بعيدة ومنيعة لمن لجأ إليها وهي شبيهة بالبعد والمناعة بالحرم الشريف.

(٨٦) ابن رخيص: هو الشيخ عيادة بن رخيص شيخ آل رمال رحمه الله في ذلك الوقت وجبة تحت تصرفه، الاجراد: الأرض الجرداء الواقعة بمحاذات النفوذ، ياهيه: تستعمل للنداء والتنبيه.
يقول الشاعر إنه لجأ إلى هذه البلدة حيث رحب به أهلها وعلى رأسهم الشيخ عيادة بن رخيص الذي قال له: إن الدار دارك فانزل بما تريد منها وامكث الزمن الذي ترغب تحت حمايتنا.

(٨٧) قليب: بئر وهي فصيحة، بالخمس مع نصف الثمانين: يعني أن عمق البئر خمسة واربعين بوعاً وهو مقياس قديم والبوع يساوي مترين، أي أن عمقه تسعين متراً، ندليه: أي نخرج ماءه بالدلاء.
يقول الشاعر أنه مر على هذا البئر العميق الذي يبلغ عمقه تسعين متراً في مقاس الزمن الحاضر، وشربوا من مائه، وهذا البئر قد غطس في وسط كثبان النفوذ ويقع إلى الشمال الشرقي عن جبه.

(٨٨) عيسى: هو عيسى بن علي آل علي رحمه الله خصم الشاعر ومنافسه على السلطة في ذلك والوقت، نسانيس: النسناس هو الهواء العليل الذي يصلح لذري الحب وتصفيته من التبن والشوائب وهو كناية عن قيام الحظ لشخص ما وتحسن أوضاعه.
يقول الشاعر إن خصمه يقول إن الحرب تنفد المال وتفنيه وإنني أعارضه في ذلك فإذا قام حظ المرء وسار إلى الهدف الذي يصبوا إليه فإن المال الذي يبذله في هذا السبيل قد خدمه وسيعوض عنه فيما بعد.

(٨٩) أزواد: زيادة، إنشد: إسأل وهي فصيحة امسوِّي: صانع، ليه: لماذا.
يقول الشاعر إن خصمه يدعي أن الحرب ليس بها لنا زيادة أو فائدة، ويدعوه للاستسلام، وهو يعارضه بقوله: عليك بسؤال صانع السيف لماذا صنعه محنيا إلا للحرب وسهولة الاقتتال فيه.

(٩٠) وَدِّيه: إدفعه، يم: إلى، العرفجية: هي لؤلؤة ابنة عبدالرحمن العرفج من آل ابو عليان أمراء بريدة، وقد أخذت بثأر إبنها من قاتله واشتهرت بهذه الفعلة.
يقول الشاعر لخصمه ولغيره، إن هذا السيف المعد للقتال إذا كنت لا ترويه من دم أضدادك، فعليك أن تدفعه إلى تلك المرأة الشجاعة الجريئة لؤلؤة عبدالرحمن العرفج التي أخذت ثأر والدها من خصومه.

(٩١) المِرْ: من الممرور والمرة هي القوة والشدة والاندفاع وهي فصيحة، يزغرت: يجوش، يذهل: يهمل ويتناسى وهي فصيحة.
يقول الشاعر إذا لم يكن الرجل ممروراً يغلي الدم بعروقه بكل قوة واندفاع لتحقيق هدفه، والدفاع عن ذماره، فلا خير فيه وعند ذلك فإن الموصىّ سيذهل من يوصيه لأمر من الأمور.

(٩٢) يقسم الشاعر أنه لو كان من وراء جسر بغداد في العراق بعداً، فإنني لن أغاب عنكم

وسيقى هاجسى في قلوبكم مثل هاجس صاحب العمل الذي لا يفارقه.

(٩٣) هـويت: دخلت، السوق: الشـارع وهي فصيحة، المصـطحى: هو رفيقـه حسين بن ملاقى الشمرى المصطحى من آل مصطح من الغفيلة يقول الشاعر أنه دخـل شارع في بغداد بالعراق، وهاله ما رأى في هذا السوق من كثرة المصنوعـات على مختلف أنـواعها وأنها تخلف عقل حتى اللبيب من الرجال.

(٩٤) يهل: يمدد، النطو: النسيج وهي فصيحة، الأوتاد: جمع وتد، وهو ما يثبت في الأرض لتثيت النسيج والبيت وهو فصيحة، يسدويه: يضع له السدو وهي فصيحـة، والنسيج مكون من السدو واللحمـة فالسـدو الخيوط الـطولية واللحمـه الخيوط العـرضية يقـول الشاعر إنه قد طـار لبه عنـدما رأى في هـذا الشارع الشيء الكثـير من المنسوجـات التي ينسجها أصحابها على قدم وساق.

(٩٥) هذات: هذا في لهجة الشاعر والتاء الطائية المفتوحة.
يقول الشاعر أنه شاهد كذلك النجـارين والحدادين وغيـرهم من ذوى المهن الأخرى، وكل واحد منهم قد شغله الله بعمله وزينه في عينيه.

(٩٦) الضيغمى: نسبة إلى آل ضيغم الذين يرجع إليهم أسـرة آل الرشيـد، عض الأنجاد: أي عض بأنيابه على شفته السفلى وهو كناية عن عزم المرء على أمـر من اموره المهمـة، دز: أرسل السبور جمع سبر وهي فصيحة، نواحيه: أطرافه وهي فصيحة والمقصود هنا بدأ يستجمع قواه.
يقول الشاعر مخلف بن محمد بن هـديرس رحمـه الله أن الأمير قـد عزم واستجمـع قواه وأسل من يسبر له الطريق إلى من يريد أخذه وتأديبه.

(٩٧) كزيت: دفعت أو ارسلت، الذويبى: هـو ناشي الـذويبى من الذويـة من حرب رحمـه الله، نخليه: نتركه.
يقول الشاعر أن الأمير سئل إلى أي مكان سيتوجه الجيش فقـال إنه قـد حلف ألا يترك ذاك الرجل إلا ويؤدبه.

(٩٨) نفاجيه: نفاجئه مخففة وهي فصيحة.
يقول الشاعر إن الأمير قد حلف دينا مغلظة أن يعد المفاجأة لصاحب ذلك البيت الذي قد يكون خرج عن طاعته أو أساء إليه بقول أو عمل.

(٩٩) طف: ساحل أوشط وهي فصيحـة، غاد: من الخلف، صنـواريه: أي كـلابه وتشتت الكلاب بعد هلاك أهلها.
يقول الشاعر إن الأمير قد أقسم لو أن ذلك المقصود على ساحل البحر من الجهة الثانيـة فإنه سيصل إليه وسينكل به بحيث تشتت كلاب بيته.

(١٠٠) الظاهري: هو حامد الظاهـري رحمه الله كـان الوالي التـركي بالمـدينة قـد أغراه بـالمال وغيره ومنحه لقب «باشا» ليكون شوكة في طريق الأمارة آنذاك.
يقول الشاعر إن الظاهرى لم تفده إغراءات الوالي التركي له ومنحه الألقاب فحينما جاء

إليه الأمير بجيشه إنهزم شر هزيمة.

(١٠١) منجوب: المكنى بأمه، وهو ابن سعدى رحمه الله، لم أعثر على من يفيدني عن اسمه كاملاً، النير: الجبل المعروف في عالية نجد، غاد: من ورائه، مطعوم النشامى: ويعني بذلك الحنيني رحمه الله، نسبة إلى الحنانية من حرب، و«الحنينية» وجبه ممتازة تتكون من خبز الحنطة والتمر والسمن البرى وتؤكل في الأيام الباردة وفي أيام المرابطة في الحروب لقوة الطاقة التي تولدها واغتناء آكلها عن الطعام مدة طويلة.

يضيف الشاعر اثنين من الخصوم الذين يعزم الأمير على تأديبهم وعندما علموا بقدومه ابتعدوا عنه.

(١٠٢) سبق شرحه برقم ٩٥.

(١٠٣) ممسح صيدته: أي البخيل الحريص على ما تحوزه يداه.

يمتدح الشاعر الأمير بهذا البيت ويصفه بوصول ما يهدف إليه مهما كلفه الأمير، وهو سخي كريم.

(١٠٤) صفوق: هو الشيخ صفوق بن فارس الجربا، عقبكم: بعدكم عيت: أبت.

يشتكي الشاعر بصري الوضيحي رحمه الله من البعد عن الشيخ صفوق بن فارس الجربا رحمه الله، وقد عاش بكنفه مدة طويلة ولما تزوج تلك المرأة رحل معها لمتابعة الرعي لأغنامها اشتاق إلى من عاش في كنفهم تلك المدة ويذكر أن النوم قد حارب جفنيه لبعده عن رفاقه.

(١٠٥) الكبد: هنا يقصد المعدة، هواجيس: جمع هاجس وهو ما يخالج النفس من الهجوم والانفعالات وهي فصيحة الهيام: ما يصيب الانسان بسبب الوله والحب والحزن ويسبب سد الشهية عن الطعام وهي فصيحة.

يقول الشاعر إنه قد هام بحب رفاقه وصام عن الطعام لعدم الرغبة فيه من شدة وقع البعد والفراق عن رفاقه.

(١٠٦) الزاد: الطعام، كنه: كأنه، مروك: مخلوط، سافت: شمت وهو فصيحة، عافت: لم تقبل وهي فصيحة.

يقول الشاعر إن الطعام كأنه مخلوط بالسم، وبمجرد أن شم رائحة الطعام فإن نفسه تعافه ولا تقبل عليه.

(١٠٧) الخلان: جمع خليل وهو الصديق وما في مستواه وهي فصيحة.

يقول الشاعر إنه يبكي على فقد أخلائه ورفاقه وأصدقائه الذين عاش معهم مدة طويلة، ويعتقد أنه لا أحد يلومه حينما يبكي على فقد أحبابه وخلانه.

(١٠٨) غديت: صرت، الديد: الثري.

يصف الشاعر حاله وما وصل إليه مشبها نفسه بذلك الطفل الذي فطم عن ثدي أمه فأصبح يصيح تارة ويسكن على مضض تارة أخرى وهذا الوضع قبل أن يصبح الرضاع من الحليب الجاف والزجاجات، وصار يوقف عند الغنم في مرعاها شارد

الذهن سارح التفكير.

(١٠٩) محذا مطب: مكان البيوت فقط، موسوم: به علامة تواجدهم وهي فصيحة، مركي: المكان الذي تركى به، السوامى: الدائمات على النار.
يتذكر الشاعر مكان رفاقه حينما رأى مكان بيوتهم التي لا تزال لها علامات شاخصة ومكان مشب النار الذي توضع فيه الدلال التي أتعبها صلو النار وكثرة الغلي على النار وهي من علامات الكرم.

(١١٠) التوم: التوأم مخففة وهي فصيحة والأشهر التوائم هي ربيع الأول وربيع الثاني وتسمى التوم الأول، وجمادي الأولى وجمادي الثانية وتسمى التوم الثاني، وهو هنا يعني جمادي الأولى، المعبار: الجسر الذي يعبر عليه وهي فصيحة، الشط: جانب النهر وهي فصيحة، زامى: مرتفع.
يقول الشاعر أن آخر عهده برفاقه عندما رأى هلال جمادي الثانية عندما عبروا نهر الفرات إلى الجهة الأخرى عندما كان منسوب الماء مرتفعا.

(١١١) شثاثا؛ موضع بشبه الجزيرة الفراتية، وململوم جبل غير بعيد عنه، قزيز النعام: موضع بشبه الجزيرة الفراتية.
يقول الشاعر إن أدنى منازل رفاقه شثاثا وململوم إذا كانوا بطيئين بالمشى، وأقصى منازلهم المكان المسمى قزيز النعام.

(١١٢) واخلاف ذا: وبعد ذلك، كوم: جمع كوماء وهي الناقة التي تراكم الشحم وتكوم في سنامها وهي فصيحة، طوعات: يعني الركائب، هجاف: نحيلات، همام: سريعات.
يركب الشاعر بعد ذلك على مجموعة من الركائب الحرائر السمان الخفيفات السريعات ليرسل معهن هذه القصيدة التي يعبر بها عن مشاعره.

(١١٣) وليا: إذا، لفيتوا: وصلتم وهي فصيحة، حمض: المقصود هنا بالقياس على الأبل، فالإبل إذا رعت من حشائش وأعشاب ليس بها الحمض كشجر الرمث والروثة والغضى فإنها لا تلبث أن تشتاق وتتلهف إلى هذه الأنواع من المراعي وعندما ترعى منها ترتاح وتظهر بدينة وهي بمثابة الفاكهة لها، وكذا الرجال فإنهم يشتاقون إلى الأخبار الجديدة التي يسمعونها. يوصي الشاعر هؤلاء الركب الذين تمنى لهم تلك الركائب النجيبة إذا وصلوا إلى غايتهم أن يستريحوا قليلا ثم يبادروا من يلفون إليهم بأخبارهم حيث سيجدون الرجال يتلهفون إليها كتلهف الابل إلى رعي الحمض وهذه المقارنة من بيئة الشاعر وأقصى ما وصل إليه علمه.

(١١٤) يغدى: يذهب، كأس الهند: يعني القهوة العربية المبهرة بالهيل الهندي.
يقول الشاعر إن الأخبار السارة تجلى الهم عن المهموم وتبعد عنه الملل والسأم سيما إذا استمع إلى هذه الأخبار أثناء ارتشافه للقوة.

(١١٥) سند: ذهب بهم إلى أعلى وهي فصيحة، حر: الحر النادر من الصقور وغيرها وهي

فصيحة، وقد شبه ممدوحه بالحر، صاروم: صارم وهي فصيحة، الظعاين: جمع ظعن وهي الإبل التي تحمل البيوت والأمتعة وهي فصيحة، حزام: ما يشد ويلم الظهر وغيره وهي فصيحة.
يمدح الشاعر صفوق بين فارس الجربا ويشبهه بالحر الصارم من الطيور ويصفه بأنه من يحمي ظعن هذا الحي ويذود عن ذماره فقد اتجه بهم مسندا إلى أعلى شبه الجزيرة الفراتية.

(١١٦) زهموم: الشجاع المقدام، قبر الفرس: موضع بشبه الجزيرة الفراتية، الجهام: الأزوال الكثيرة غير الواضحة للرؤية.
يقول إن ممدوحه قد انسابت الاظعان من خلفه مسندة يحفها كل شجاع مقدام ليحموها من كل معتد، بقيادة ممدوحه حتى ورد ذلك المكان المسمى قبر الفرس.

(١١٧) مللوم: جمل قد التم الشحم وتراكم في سنامه، ضلاف: جمع ضلفة، والمقصود بها ضلفة الشداد التي يتكون من أربع ضلاف أي قطع وهي فصيحة، الحزام: ما يربط الضلاف بعضها ببعض وعادة تكون من القد أو «جلامد» البعير.
يرد الشاعر صايد بن عيد الزعيرى الشمرى رحمه الله على بصري الوضيحي بهذه القصيدة التي يستفتحها باركاب مندوبه على ذلك الجمل الذي التم الشحم في سنامه، وليس عليه غير الشداد ليكون حمله خفيفاً.

(١١٨) الكرى: الظهر، العلكوم: القوى الشديد وهي فصيحة يستكمل الشاعر أوصاف هذا الجمل القوى الشديد السريع في جريه وعليه من يؤدي رده للشاعر بصري الوضيحي.

(١١٩) بطيك: أي إبطاءك، الوضحان: لقب عشيرة الشاعر بصري يقول الشاعر إأن المسافة التي تفصل بينك وبين عشيرة الشاعر هي ثلاثة أيام وأربع ليال وسوف تصل إليهم وعليك بابلاغ الشاعر كلامي الذي سأر دبه عليه.

(١٢٠) هَيِّد: تروُ وهو من الموادة وهي فصيحة، وش: هذه الكلمة هي إختزال لكلمتين هما: أي شيء، ثم ابدلت الهمزة إلى «و» فأصبحت الكلمة مختزلة إلى وش وهي كلمة استفهام عيت: أبت.
يقول الشاعر موجها كلامه لبصرى الوضيحي قائلاً: أيها المبتاكي على رفاقه مالذي جعلك تصوم؟ فعليك أن ترفق بحالك وألا تصوم عن الطعام، وما الذي جعل عيونك لا تنام لبعدك عن أهلك ورفاقك؟

(١٢١) الثنتين: يقصد رأي المرأة التي يصحبها ورعية الغنم التي يرعاها.
يقول الشاعر لا تأس يا أخي على ما أنت فيه فلا يتفق إرضاء زوجتك ومتابعتها مع أغنامها ورعى هذه الأغنام والعناية بها، لا يتفق ذلك مع الرجوع إلى الأهل والرفاق فإما أن تطاوع زوجتك وغنمها وإما إأن تعود إلى من نحن إلى لقائهم.

(١٢٢) المطفل: النعجة إذا ولدت، دور أوتوم: أي هل ولدت النعجة فرداً أو توءماً، يلاعبه: يقصد ولد النعجة، ياجا: إذا جاء.

يقول الشاعر متهكماً بسابقه قائلاً له: دعك من مجالسة الرجال وعليك أن تلزم رعية غنمك وتنظر إلى النعجة أو لدت فرداً أم توءماً أرضعه ولاعبه حتى تفطمه.

(١٢٣) سلت: سألت، نصالي: من المصالات وهي فصيحة، الجهام: الجموع الكثيرة.

يقول الشاعر إذا سألت عنا إيها الشاعر المتأوه على مفارقه رفاقه فنحن نكافح عدونا ونصاليه بالجموع الكثيرة بقيادة مجموعة من الفرسان الشجعان حتى نقضي عليه.

(١٢٤) عمرو المدلات: هو عمرو... الشمري الملقب بالمدلات وهو خال ماجد الحثربي رحمها الله وقد قطع ماجد رجله في قصة مشهورة وله قصيدة مطلعها:

ياعمرو يا المدلات يانازل الخوف   أتعبتني وانته تنشد من العام

إلى أن قال:

إما عليه البيض يصفقن بكفوف   وان عاش ما يمشي على كل الاقدام.

مقعد صفى: أي رافع شأنهم، القطامى: نوع صغير صارم من الصقور وهي فصيحة.

يقول الشاعر إننا مع عمرو المدلات ذلك الشجاع المقدام الذي يرفع شأن من كان معه نسير تحت زعامة الشيخ صفوق الذي يشبه فرخ القطامى.

(١٢٥) الكوم: جمع كوماء وهي الناقة تراكم الشحم بظهرها وهي فصيحة نثرى: نستودعه الثري.

يقول الشاعر إن دوننا من المسافات ما يتلف الذئب على سرعة جريه والإبل السمينة حيث تستهلك شحمها قبل أن تصل إلينا.

(١٢٦) واد المرا: الوادي طيب المرعي، كيهوم: متراكم، القطعان: جمع قطيع وهو قطيع الغنم أو المواش وهي فصيحة، الكبو: قتام المعركة وهي فصيحة.

يقول الشاعر إننا في هذا المكان المعشب الذي قد أخذناه بالقوة.

(١٢٧) صيرم: صارم وهي فصيحة، الهجمة: من ٤٠ ـ ٥٠ من الإبل وهي فصيحة، نودع: نجعل.

يقول الشاعر إننا تحت قيادة هذا القائد الصارم الممدوح فكم هجمة من الإبل يثور القتام حولها حتى نحصل عليها بانتزاعها من أيدي أصحابها.

(١٢٨) نطيت: سبق شرحه رقم (٦٢)

يقول الشاعر مسعود مولى الشيخ مشعان بن مغيليث بن هذال شيخ عنزة رحمهما الله بعد أن إنحدر أعمامه وتركوه في مكانهم بوادي الحناكية على بعد مائة وخمسين كيلا شمال شرق المدينة المنورة يقول الشاعر أنه إرتقى ذلك الرجم الذي لم يصل إليه أرداً الطير وأضعفها وهو طائر البومة فلم يصله غير العقبان الصوارم والصقور القطامية ومن هذا المرقب أشرف على ما يريد وتذكر أعمامه.

(١٢٩) غديت: صرت، ملطوم، مضروب بلطمة في ظاهر الكف وهي فصيحة، عقب: بعد، النمش: السيوف، الزحام: زحام المعارك.

يصف الشاعر حاله التعسة بعد فراق عمه الشيخ مشعان بن هذال ومن معه فعندما ارتقى رأس ذلك المرقب وتذكرهم، كأنه لطم على وجهه لطمة قوية بعد أن فارقه أولئك الشيوخ الشجعان الذين يروون السيوف من رقاب أعدائهم في حومة الوغي.

(١٣٠) موسوم: باقي.
يقول الشاعر إن أعمامه قد رحلوا من عنده وتركوه باقيا على المكان وكأنه السجين في حبس مظلم لا يرى منه النور رغم أنه في البراري الواسعة.

(١٣١) محذا مكان: مكانهم فقط، الحفر: الحفرة التي تشب فيها النار لعمل القهوة وهي الكانون، فصيحة مثلوم: منثلم وهي فصيحة، الشوامي: مصنوعة بالشام.
وقف الشاعر على طلال أعمامه ومما أثار شجونه مكان البيت ومجلس الرجال الذي يوجد به مشب النار ومركى الدلال التي تعمل بها القهوة باستمرار في بيت الشيخ مشعان بن هذال وهذا ما ضاعف آلامه.

(١٣٢) زاعت: أسرعت وهى فصيحة، جهامة: الأزوال الكثيفة غير الواضحة الرؤية وهي فصيحة، الواد أبودوم: هو واد الحناكية وبه شجر الدوم الذي يشبه شجر النخل مع اختلاف في الجريد والثمر، مطيرات العسام: الخيل.
يقول الشاعر لقد أسرعت أظعانهم عن هذا الوادي متجهين إلى الجنوب الشرقي نحو القصيم بحيث اختفت جهامتهم شيئاً فشيئاً أمام الرائي عن سمعت الأفق.

(١٣٣) يندرى: يعلم.
يقول الشاعر إنهم ذهبوا وأقفت جهامتهم كذلك الطير الذي حام ثم هبت عليه ريح غربية عاتية ألوت برأس هذا الطائر وقلبت مسير حومه من الغرب إلى الشرق.

(١٣٤) واخلاف ذا: وبعد ذلك، منسوم: قوي شديد، قراريص الرس: الاجزاء التي تلى الحنكين من الرسن، والخطام ما يحيط بالأنف أو العرنون والعذار ما يحيط بعلباء المطية وهذه الأجزاء كلها برسن المطية.
بعد ذلك يتمنى الشاعر أن يركب على ذلك الحر القوي من الإبل وهو الذي يقطع رسنه من شدة عنفوانه وصلفه.

(١٣٥) تلفي: تصل وهي فصيحة، الزوم: من يرى في نفسه العزة والمنعة، يقدي: يقود، الجهام: الجيش الكثيف.
يقوم الشاعر إن راكب ذلك الحر الأصيل من الإبل سيصل إلى عمه مآل العزة والمنعة، ولا غرو في ذلك، فهو شيخ وابن شيخ القبيلة، ومشهود له بالقوة والصرامة.

(١٣٦) الركية: البئر القصيرة العمق وهي أعمق من الثميلة وأقصر من البئر وهي فصيحة، الرس: المدينة المشهورة بالقصيم. يقول الشاعر لمندوبه إنك ستلقى عمي مقيماً على مياه مدينة الرس بالتأكيد.

(١٣٧) يقول الشاعر إذا سالك عمى عنى فأخبره أننى في هم وغم بعد أن غادرتم وقد أصابني الهيام بعد فقدهم فأنا في وضع سيء.

(١٣٨) أجلدت: بقيت، منجوم: من ضاع دليله في الوصول إلى هدفه يقـول الشاعـر أنه بقي بذلك الوادي الذي ينبت شجر الدوم وكأنني المنجوم الذي ضاع دليله فأصبح لايدري أين هو متجه.

(١٣٩) الوجلى: من الوجل وهي فصيحة، أم خرطوم: يعني الناقة التي ضاع حوارها.

يستمر الشاعر في وصف حالته ونقل هذا الخبر إلى عمه بأنه قد أصبـح مثل تلك النـاقة التي أضاعت حوارها فأطنبت بالحنين والهيام وهو يشبهها، كما يشبه نائحات الحمام من شدة الوله والهيام على أعمامه.

(١٤٠) مسالة: مسألة.

يفتتح الشاعر خلف بن زويد الشمري رحمه الله مـوجها كـلامه لـولده دخيـل رحمه الله قائلاً له بأنه سيوجه إليه مسألة ولا كل المسائـل، إنما وصية ثمينـة تحتوي عـلى كثير من المعاني السامية ويطلب منه أن يفهمها ويتفهمها جيداً فهي وصية من رجل مجرب مرس الحياة ومرسته واستفاد منها الاستفادة الكاملة وأراد أن يوجه ابنه إلى ما يريد أن يتمسك به في حياته وهي مفصلة فيمايلي.

(١٤١) خويك: رفيقك في البر وغيره، الرزالة: الرذيلة، أجاويد جمع جواد.

يعطي الشاعر ابنه أول حلقة من حلقات هذه الوصية وهي الاهتمام بالقريب والـرفيق والجـار ومن يمت إليه بصلة وتشملهم كلمـة «خوي» والـرفيق سواء أكـانت رفقته لمـدة زمنية قصيرة كالـسفر مثـلاً أو طالت كـالجيرة والقـرابة والـزمالـة يؤكد عليـه أن يحترمـه ويتجنب الـطرق المؤدية إلى إيـذائه لأن هـذا الرفيق لـه حق كبير ومكـانة عـظيمة عنـد الأجواد في كل زمان ومكان، فلابد والحالة هذه أن يهتم به ويقدمه على نفسه.

(١٤٢) المرجلة: كل ما يمت إلى الرجولة بصلة من القـول أو العمل، بـالك: إيـاك، حبالـه: أسبابها

الحلقة الثانيـة من هذه السلسلة هي مـطالبة ابنـه بالتـزام الطرق الحميـدة التي يسلكها الرجال الفضلاء قولاً وعملاً وعدم المحيد عنها قيد أنملة ويحذره تحذيراً قاطعاً من العيلة على الآخرين، وينذره بعدم التـراخي والخنوع لمن عـال عليه أو كسر اعتبـاره، فيجب عليه أن يرد على من تطاول عليه قولاً أو عملاً على عقبه حتى يكون رجلاً بما تعنيه هذه الكلمة.

(١٤٣) القالة: الحدث المهم.

ينبه الشاعر ابنه في هذا البيت إلى قيمته الاعتبارية وما يجب أن يكون عليه ويعرفـه عن كل ما يدور حوله ويشترك في كل حدث ويعمل على حل المشاكـل التي تنبع من داخـل مجتمعه هذه القيمة المعنوية التي يجب عليه أن يحـافظ عليها وإن لم يكن كـذلك فيمكن اعتباره من جملة الملابس المعلقة الجوفاء التي هي أزوال بلا رجال.

(١٤٤) تموح: تخرجها من البئر وهي فصيحة، شماله: يقصد أن الـدلو أثنـاء متحها من البئـر تتعاقب اليدان في جذبها، فتارة تجذبها اليمين وأخرى الشمال، والمقصـود هنا أن تمتـح

دلوك من البئر بكلتا يديك وألا تكون بيد واحدة، وترمز الدلو إلى كافة أمورك الأخرى أي تأخذ حقك لتعتبر مهيب الجانب، النشاما: جمع نشمي وهو القوي الشهم من الرجال، بنسفونه: يركنونها وهي فصيحة، الجال: هو جال البئر وهي فصيحة، والمقصود هنا في الأمور الأخرى كأن يستخف برأيك ويهضم حقك.

هذا البيت مليء بالمعاني حيث عنى الشاعر أن يكون الرجل معتمداً على نفسه بعد الله يدبر كل أمر من أموره بنفسه ولا يكل ذلك إلى أحد فيحتل مكانته في مجتمعه مرفوع الرأس عزيز الجانب، وضرب لابنه مثلاً محسوساً من نفس البيئة التي عاش بها وهي أن الرجل إذا لم يدل بدلوه بنفسه ويمتحها من البئر بكلتا يديه فلن يرتوي، وسيظل طيلة حياته عطشاناً وقد أشار إلى هذا المعنى شاعر آخر بقوله:

ليا صار ما شرب الفتى من ذراعه شر به من يدى الرجال هماج

(١٤٥) المعاليق: ما يعلق على البعير من قطع الأثاث أو المتاع وهي رمز للأمور الدنيوية.

يعود الشاعر فيوصى ابنه بالرفيق وهذه المرة خص الرفيق القريب بالايتركه ينوء تحت حمله الثقيل فإن رأى عليه ضيم خفف من حمله قطعة قطعة ويعلقها على نفسه حتى يخف حمله والمقصود هنا ليست الأحمال العينية وانما هي الأحمال الأخرى في كل ما تتطلبه مسيرة الحياة من أعباء ومسئوليات.

(١٤٦) شوفته: نظرته للحياة واستيعابه لها وأساس الكلمة فصيح، قد حاله: أي على قدر نفسه، تدور: تبحث يدعو الشاعر على ذلك الرجل الأناني الذي لا يهمه غير نفسه بأن تهجره زوجته وتبحث عن بديل أفضل منه ولهذه الدعوة علاقة في البيت السابق الذي أوصى فيه الشاعر ابنه بأن يتحمل عن رفيقه ما أثقل كاهله وهذا جزء من التعاون وانكار الذات، أما إذا كان الرجل أنانيا أو منزويا لا ينال أحد من فضله شيئاً فهذا ليس من حسبة الرجال.

(١٤٧) الحمرة: طائر بري أشقر اللون به مسحة حمرة خفيفة بحجم العصفور يعيش على أوراق الأعشاب وحبوبها وهو طائر ضعيف مسالم، لاعاد: إذا لم، يبغى: يراد، باقي الأحوال: الأمور الأخرى.

يبرهن الشاعر على ما جاء في البيت السابق أن الرجل إذا لم ينل من فضله نائل فليس من الرجولة بمكان، إذ أن طائر الحمرٌة الضعيف المسالم قد استطاع أن يدرك معيشته ومعيشة فراخه، إذا كان الهدف كله تحصيل المعيشة دون القيام بالأمور الأخرى وهذا الطائر رمز لنوع من الرجال ذوى الهمم الضعيفة أما الرجل الحق فهو من يصل فضله إلى غيره في أي طريق من طرق الحياة كالكرم والمروءة والشهامه.

(١٤٨) عوص: جمع عوصاء وهو الناقة الصلبة القوية وهي فصيحة الانضا: جمع نضو وهي الناقة التي نش لحمها من طول السير والسرى وهي فصيحة، زماله: تصحيف زامله وهي المطلية التي يوجد عليها المتاع وهي فصيحة، صنقر: اشتد اللال: شدة الحر.

ينتقل الشاعر إلى حلقة أخرى من سلسلة توصياته فيقول إذا كان لك من تلك

النجائب القوية السريعة تلك الناقة الحمراء التي تعتمد عليها في قطع المسافات الطويلة وتوردك إلى هدفك بأسرع وقت لا تبالي بالحر من شدة الهاجرة فلذ بكورها، وهذه الناقة هي رمز للعزيمة والتصميم والاقدام في أي شأن من شئون الحياة، وليس للناقة ذاتها ويستكمل الفكرة في البيتين التاليين.

(١٤٩) تمرس: الامراس هو خروج رشاء المحالة من فلكها أثناء سيرها خطاة: بعض، عمال: كل،

يصف الشاعر هذه المطية بسرعة جريها ويشبهها بالمحالة الممرسة التي انقطع أوزل عنها رشاءها أثناء سيرها فاستمرت تجري بسرعة هائلة، هذه الناقة المنطلقة مع تلك الأرض المنبسطة المخيفة بحيث لا يجسرعلى اجتيازها غير الجسور من الرجال لأنها تخيف كل من جاء معها ربما بسباعها أو أنها مهلكة.

(١٥٠) خله: دعها، دبان: جمع دو وهي المفازة، وهي فصيحة ياصار: إذا صار، الخشم: الأنف.

يبين الشاعر الهدف الذي بدأه بالبيت التاسع ومثل فيه بالناقة كشيء ملموس لدي الموصى ثم تعرض إلى لمسة الأنف، والمعنى أنك إذا كنت لا تستطيع إحتمال المكاره والمصاعب ولا تقوى على الانحناء وطأطأة الرأس أمام أي أمر من الأمور، فما عليك إلا أن تعيش لوحدك لتتمتع بكامل حريتك دون أن يضايقك أحد أو تنوء بأية أعباء.

(١٥١) تر: إعلم، الجلالة: العز والرفعة.

يتوج الشاعر وصيته لابنه بهذا البيت الذي يدعو فيه إلى عزة النفس والترفع عن سفاسف الأمور حتى مع الحاجة والعوز، والابتعاد عن الذل والهوان حتى لو كان مع النعيم والغنى، فإن ساعات من نهار تعيشها مرفوع الرأس، تساوي أموالاً طائلة قد عاش في ظلها أنذال الناس وبخلائهم.

(١٥٢) يبتدىء الأمير الشاعر عبدالله العلي الرشيد رحمه الله قصيدته بالحمد لله أولاً، والثناء عليه ثانيا على أي حال من الأحوال.

(١٥٣) ويحمده ثالثاً بعدد ما تلفظ به إنسان من الكلمات.

(١٥٤) الوطا: الأرض وهي فصيحة.

ويحمد الشاعر ربه بعدد ما فوق الأرض من الرمال وبعدد ما ساح ظلال الأجسام في المرتفعات والمنخفضات.

(١٥٥) لواقح خياله: السحاب الممتلئة بالماء.

يثني الشاعر على ربه عز وجل بعدد ما يتساقط من قطرات المطر من تلك السحائب الثقال سواء ما كان منها سحا متدفقا أمنسكبا أو قطرات الديم الصغيرة، أو ما همل من اذيال تلك السحب.

(١٥٦) يقول الشاعر ونقول معه كل الحمد لله والثناء والشكر له سبحانه وتعالى مالك الملك يفعل ما يريد ولاراد لفضله.

(١٥٧) الملا: الناس وهى فصيحة، نواله: مده وهي فصيحة، الهشيم: البالي المتهشم وهي فصيحة، الدارس: الماحل وهي فصيحة يقول الشاعر إنه الله رب الكون بأجمعه ومصرف شئونه رزق الناس من مده الجزل وعطائه العظيم، من خزائنه التي لا تنفد وهو القادر على إحياء الهشيم البالي من الأشجار والدارس من الآثار.

(١٥٨) مسنادى: مستندى وهي فصيحة، ضكن: رصني وهي فصيحة الجال: القائم من جانب الوادي أو البئر أو الجدار وهي فصيحة ويكنى بها عن مصاعب الأمور.

يقول الشاعر ونقول معه أن الله سبحانه وتعالى ربنا ومولانا عازل الشمس عن الظلال والليل عن النهار عليه نستند ونعول إذا ضاقت بنا السبل وأعوزتنا الحاجة إلى فزعاته ليفرج عنا ما ألم بنا.

(١٥٩) هباله: من هبل وهي فصيحة.

يقول الشاعر إن ما كان وما هو كائن هو من تدبير الله عز وجل وتصريفه ومن قال من البشر إنني فعلت كذا وكذا فذلك يدل على هبله، وإنما كل ذلك من فعل من إذا أراد فعل سبحانه وتعالى.

(١٦٠) واخلاف ذا: وبعد ذلك.

بعد أن قدم لقصيدته بهذه الأبيات التي تتضمن الحمد لله والشكر له دخل إلى الموضوع الذي يريد التحدث عنه حيث يتساءل عمن سيوصل هذه الرسالة التي كتبها على هذا القرطاس الصقيل الذي سال عليه القلم بالحبر ليكتب ما يريد.

(١٦١) للثقيلات: الأحمال وهي فصيحة والمقصود هنا المسئوليات والمهمات الثقيلة والضمير يعود للامام فيصل بن تركي آل سعود رحمه الله، وكان الإمام قد أعطى عبدالله بن رشيد إمرة الجبل في حادثة مشهورة تاريخياً.

يتبدىء الشاعر بالسلام على الإمام وآله ويمدحه بوصفه بأنه رب المهمات الثقيلة والملمات الصعبة الذي يتحملها.

(١٦٢) نشد: سأل.

يوصي الشاعر مندوبه بأن يسلم على الإمام السلام اللائق به وألا يفاتحه في الموضوع الذي أرسل من أجل إلا بعد أن يسأله عنه وعن أخباره، وعما جاء من أجله في هذه المهمة.

(١٦٣) الأمثال: هنا يعني القصيدة، يستكمل الشاعر في هذا البيت ما جاء فيما سبقه فيقول: إذا قال لك الإمام أخبرني عن صاحبي كيف حاله؟ عند ذلك أعطه ما كتبناه معك من الرسالة والقصيدة.

(١٦٤) يا خلف من غدا له   من الحى والميت من العم والخال.

هذا البيت يطابق الجملة المشهورة في منطقة الشاعر وهي أصدق ما يقول المرء ذكراً كان أم أنثى والجملة هي «يَا بَعَدْ حَيِّيْ وَمَيِّتِيْ» وهي تعنى أفديك بكل من يمتون إلي بصله من الأحياء والأموات.

يقول الشاعر لمندوبه إذا سألك عني فقل له أفديك بكل من يمتون إلى بصلة من الحي والميت والأعمام والأخوال، إن ما جرى في هذه الحادثة هو كذا وكذا وأبلغه عني ما حملت مني. وبقية القصيدة في كتاب نبذة تاريخية عن نجد من اصدارات دار اليمامة للشيخ حمد الجاسر.

(١٦٥) نرفي: الرفي المدارات وتسديد الشقوق وهي فصيحة، خماله: زلته، نفزع: نسارع بالنجدة وهي فصيحة، الضيم: الضيق والقهر وهي فصيحة.

يقول الشاعر إننا نكرم الضيف ونصفح عن زلته ونفزع بالنجدة لمن دخل علينا ونقف معه قلبا وقالباً حتى نعيد إليه إعتباره.

(١٦٦) نقري: القرى هو الطعام وهي فصيحة، تبرك: تنيخ وهي فصيحة، رحاله: ركائبه وهي فصيحة، المحتري: من يتحرى من نوالنا وهي فصيحة، نهج: ذهب وهي فصيحة.

يكمل الشاعر ما يعدد من فضائله بأنهم يبادرون الضيف بالقرى من حين يصل إليهم وينيخ ركابه، ولا يكتفون بذلك بل تمتد أيديهم إلى غيره، ولا يصل إليهم أحد وهو يؤمل أن ينال من نوالهم شيئاً إلا حصل عليه، كما جاء في بيت له من قصيدة أخرى يقول فيها:

وكم خيرعان لنا يشكي الجوع	حاديه من لوعات الأيام حادي
لو ما تعرفه راح منا بمطموع	من راسي مال نجمعه للنفادي

(١٦٧) صيالة: صال عليه: ، أي إعتدى وهي فصيحة.

يستمر الشاعر في تعداد فضائله فيقول إن صديقنا إذا اعتدى عليه أحد فإننا نقف إلى جانبه ونرخص له الحال والمال.

(١٦٨) سرحه مواشيه وهي فصيحة.

يقول الشاعر إنه بالاضافة إلى ذلك فإن مواشيه تسرح وتروح عليه بأمان واطمئنان وذلك بفضل الله ثم بفضل حمايتنا له ولن يذور حلاله ذاثر ما دام في ذرانا.

(١٦٩) يضيف الشاعر مزية أخرى وهي أن من جاءنا يريد المنفعة فسوف نعطيه سؤاله ولن يذهب منا خائبا، ومن عني إلينا لم نقطع عنه ما يجب أن يناله منا.

(١٧٠) يستمر الشاعر بقوله إننا ندفع الشر عنا بقدر ما نستطيع ونتجنب حدوثه بيننا متبعين أيسر السبل ولا نقبل أن يأتي إلينا ويجر جريرته علينا ما أمكن.

(١٧١) الرشا: الحبل الذي يخرج الدلو من البئر وهي فصيحة، المحالة: البكرة الكبيرة التي تركب على البئر ويدور على ظهرها الرشاء لاخراج الماء وهي فصيحة.

يقول الشاعر إننا ندفع الشر بقدر الامكان لكن إذا ابتلينا به وركب الرشا على المحالة وهي كناية على لزوم الأمر فإننا لا نمل الحرب ولا نأبه بها ونتحمل أثقالها مهما كانت.

(١٧٢) تنهزع: تميل وهي فصيحة، وطي: دعس وهي فصيحة، حافر: كناية عن الخيل، نعال: كناية عن الراجل.

يستكمل الشاعر في هذا البيت ما جاء بسابقه من أنه إذا نشبت الحرب وجد جدها فإننا نصبر لها ونرتكي كما تصبر رواسي الجبال التي لا تميل من تأثير مرور من يمشي عليها ورمز إلى ذلك بالخيل والرجال.

(١٧٣) يوضح الشاعر في هذا البيت منهجه في الحياة الذي يمثل العدل والمساوات فيقول إن يدي اليمنى لا ترضى الجور أو الزيادة فلو جارت أوزادت عليها يدي اليسرى فسوف تجذ هذه الزيادة وكلتاهما يدي ومن جسمي وأحس بما يصيب أي منهما ومع ذلك لا أرضى بأن تجور إحداهما على الأخرى، وأعطي الحق لكل الناس سواء ما كان منهم من البارزين من الناس أو من أرذالهم، وفي هذا البيت إشارة للحادثة التي من أجلها بعث بالقصيدة للامام فيصل.

(١٧٤) الجدايد: جمع جديد وهي فصيحة، الأسمال: البالية وهي فصيحة.
يختتم الشاعر قصيدته هذه بحادثة أخرى يعرفها الامام وهي الحادثة المدونة في كتب التاريخ.

(١٧٥) خنيصره: تصغير خنصر وهي الاصبع الصغيرة الاخيرة من الكف وهي فصيحة وأصابع الكف هي الإبهام والسبابة والوسطى والبنصر والخنصر وهي كلمات فصيحة.
يقول الشاعر الذي لا أعرف اسمه، وينسب الشعر لبني هلال مع أنني أشك في ذلك لأن بني هلال عند ما كانوا في نجد كانت لغتهم عربية فصيحة وربما كان الشعر من قبائل متأخرة عند ما تفشت العامية في النمطقة وربما نسجها الرواة ونسبوها إلى بني هلال.
نعود إلى قول الشاعر حيث يقول أخذك الله وأهلكك إنك لا تسوى كليب ولا تسوى خنصره الصغير.

(١٧٦) الحاشي: الصغير من الجمال، مدعول: كبير البطن يقول الشاعر إنك لا تسوى ذلك الحاشي الصغير المزيل كبير البطن ربما من مرض بداخل بطنه.

(١٧٧) الأشقر: يعني حصانه، شفت: رأيت وهي فصيحة. يقول الشاعر إنه قد حذر خصمه بالا يعترضه إذا رآه على حصانه الأشقر وقد أغاربه.

(١٧٨) فاعوس: رأس الهامة من الرأس، قصب: جمع قصباء وهي نوع من أشجار الأنهار يتخذ من عيدانه الاقلام.
يصف الشاعر أذني حصانه في هامة رأسه وكأنها الأقلام التي براها باري حاذق.

(١٧٩) يبلج: ينفتح وهي فصيحة، كليب: المقصود به كليب وائل، غير أنني أشك في ذلك لأن الزمن الذي قتل فيه كليب وائل كانت اللغة العربية الفصحى في عنفوان قوتها والأشعار التي قيلت أنذاك مثبتة في كتب التاريخ والأداب وربما عني الشاعر كليبا آخر، سميراء: بلدة أثرية قديمة كانت قاعدة لبني أسد في العصر الجاهلي وتقع إلى الجنوب الشرقي من حائل وتبعد عنها حوالي مئتي كيل وهي الآن من أمهات القرى في المنطقة

بها كثير من الدوائر الحكومية. يتمنى الشاعر لوينبلج القبر عن كليب ليرى طرد الخيل في وادي سميراء وأننا أخذنا بثأره.

(١٨٠) ذريع جبيل يقع إلى الشمال الغربي من سميراء
الدوح: الشجر الكبير وهي فصيحة، زحير: درجة من الزفير قريبة من النحيط وهي فصيحة.
يصف الشاعر ميدان المعركة في تلك الأماكن بقرب سميراء حيث تسمع زحير الخيل بذلك الوادي المكتظ بالأشجار الكبيرة.

(١٨١) قضب: أمسك، الجلاعيد أسرة كبيرة تحتل أعلى بلدة سميراء وهم من عنزة وأساس الأسرة جاءوا من القصيم وفيهم إمرة أعلى سميراء، وأسفلها لأسرة كبيرة أيضاً من بني تميم نزحوا إليها من القصيعة قرب بريدة بالقصيم وهم من الوهب من بني تميم وهم الشبارمة وأحدهم شبرمي، وكلا الأسرتين الكريمتين لها مكانتها المرموقة بين الناس وبها رجال فضلاء ستر الله على الجميع، ومن الجلاعيد شعراء ورواة منهم صاحب القصة، سميراء: سبقت الاشارة إليها فرجته: مكانته وهي فصيحة، يسده: يحتلها.
يقول الشاعر فرج بن خربوش الأسلمي الشمري رحمه الله مادحاً الشيخ سعود بن عبد الله الجلعود رحمه الله إنه قد مسك مكان كل من غاب من أقاربه لإقراء الضيف وسد الخلة بالإضافة إلى مكانته.

(١٨٢) سعود: سبقت الإشارة إليه، يزودك: يعطيك زاد السفر بالإضافة إلى ضيافته الكريمة لك، حفنات: جمع حفنة وهي ملء الكفين معاً وهي فصيحة وهي كناية عن الهبة أو العطية.
يمدح الشاعر الشيخ سعود بن جلعود مبيناً أنه بالاضافة إلى القرى الذي يقدمه للضيوف فإنه يزودهم الزاد اللازم لسفرهم وأن يمينه لا تمد الأعطيات المزيلة وإنما تعطي الهبات الجزلة.

(١٨٣) ملفى: مآل وهي فصيحة، فياض: جمع مفيض من أفاض أي إنحدر وهي فصيحة، مسانيد: جمع مسند وهي من التسنيد أي مصعد وهي فصيحة، كنه: كأنه، مناسيف: قطعان الجو: المنهل أو المورد، مده: صدرت.
يصف الشاعر ممدوحه بأنه موئل من يصعد ويفيض مع تلك الدروب ويشبه الوفود الصادرة منه والواردة عليه كقطعان المواشي الصادرة من موردها.

(١٨٤) عذر بك: عابك، والعذروب العيب، مجاويد: ممارسك، منجوم: من ضاع إدراكه في وقت الليل.
يقول الشاعر موجها حديثه لممدوحه إن من عابك بعد ما رأيت منك ليس له ممامسك بربه وليس له ذمة يتقي بها فهو كمن ضاع إدراكه تحت ظلمة الليل.

(١٨٥) هذا البيت لشاعر لا أعرفه ويقول لشخص اسمه سعود، إنك اسم على غير مسمى،

أما سعود الذي يمثل إسما على مسمى فهو صاحب سميراء ويعني صاحبنا.

(١٨٦) تبغى: تريد، المشاكيل: من يرون بأنفسهم الكمال، ناصي: قاصد، طب: إنزل.
يقول الشاعر مبارك بن عيسى الغرَيِّس رحمه الله من أهل روضة رمان، وهذه الأسرة بها كثير من الشعراء والشاعرات حتى الوقت الحاضر، إذا قدمت لبلدة سميراء وتريد عِلْيَة القوم الذين يرون في أنفسهم فعليك أن تصل إلى أعلى البلد ويقصد قصر الأمير سعود.

(١٨٧) تلفى: تصل وهي فصيحة، المرتكى: الثابت وهي فصيحة، الشيل: المهمات.
يقول الشاعر إنك ستصل إلى ذلك الطود الراسخ من الرجال الذين يتحملون المهمات واللازمات، وليس هو ابن نذل من الرجال من شدة بخله يعدد ويحسب دقائق الأمور.

(١٨٨) قرم: الشجاع الحيوي وهي فصيحة، منسف: صحن.
يصف الشاعر ممدوحه بالشجاعة والمروءة والكرم حيث يعمل القهوة بسخاء وتقدم الصحون المليئة بالطعام للوافدين إليه.

(١٨٩) تعللة: من علل وهي أحاديث السمر والكلمة فصيحة ياما: حتى، وسوره: ما يأسره وهي فصيحة.
يقول الشاعر بالإضافة إلى ما يقدمه ممدوحه من القهوة والطعام لزواره وقاصديه فإنه يؤنسهم بالأحاديث الشيقة المسلية حيث ينسجمون معها حتى ينهرس الليل وهم لم يشعروا به.

(١٩٠) ملفى: مقصد وهي فصيحة، ريف: موئل وهي فصيحة الركايب: الركاب وهي فصيحة، يا: إذا، مسيان: عند حلول المساء.
يقول الشاعر سلطان بن عبدالله الجلعود رحمه الله وهو أخ للممدوح «وقد أفردت لشعره الجزء الثاني من شعراء الجبل العاميين» يقول من قصيدة له إن هذه الركائب سوف تصل إلى أبي جلعود عند حلول المساء وهو موئل الأضياف ومحط أنظار المسافرين.

(١٩١) يهلّي: يبادرهم بجملة الترحيب التي لا تفارق شفتيه، يا شاف: إذا رأى وشاف كلمة فصيحة حجاجه: الحجاج هو العظم المظلل على العين وعليه شعر الحاجب وهي فصيحة تقل: كأنه.
يقول الشاعر إن ممدوحه أول ما يبادر من يأوى إليه بكلمات الترحيب فهو ضاحك الجبين يتبلج أمام ضيوفه وقاصديه وكأنه قد ملأت الفرحة جوانحه بقدومهم.

(١٩٢) وطا: الأرض وهي فصيحة.
يبتديء الشاعر دندن الفهيم رحمه الله، ولا أدري أهذا اسمه أم لقب لقب به غير أن هذا هو المشهور عنه وهو من أهل قفار الواقعة إلى الجنوب الغربي من مدينة حائل، وتكاد الآن أن تلتحم بها وهو من شعراء القرن الثاني عشر وقد عاصر مطلق بن فارس الجربا على رأس المائتين بعد الألف.

يقول الشاعر دندن إنه يتبديء بذكر الله عـز وجل رافـع السموات وبـاسط الأرضين، القادر على كل شيء، وهذا البيت هو بمثابة بسم الله الرحمن الرحيم.

(١٩٣) الـزين: الجميـل وهي فصيحـة، الغـرايب: جمـع غريبه مخففـة من الغـرائب وهي فصيحة، داره: بحث عنها.

يضع الشاعر اسمه في بداية القصيدة ويقول إنه اختار أجمـل الأبيات، وهـو جديـر بأن يختار الأبيات النادرة الجميلة ولن يعييه إدراكها.

(١٩٤) هيضـات: جمع هيضـة وهي المعاودة بـاعداد كثيفـة وهى فصيحة، مـطوح: مندفـع، رحاه: رحى الجراد، والجراد إذا طار له عدة تشكيلات منها الأسراب ومنها أنـه يتكون من عمود يرتفع إلى عنان السماء يدور هذا العمود بحركة دائرية تشبه إعصار الرياح في القيلولة وما ارتفع منه يسمى عموداً وأسفل هذا العمود مما يلي الأرض يسمى الـرحى لأنه يشبه حـركة الـرحى في دورانها بأعـداد كثيفة جـداً تغطي مـا حالت دونـه، وعادة تكون الرحى من إناث الجراد الثقيلة بالبيض وأعلى العمود من الذكور الخفيفة ويكـون هذا العمود بمثابة العلم تتبعه جميع أسراب الجراد الأخرى تطير حيث طـار وتنزل حيث نزل.

يقول الشاعـر مفتخراً بنفسـه أنه إذا أراد الأبيـات النادرة من القصـائد فـإنها تأتي إليـه طواعية مثل أسراب الجراد التي تتبع عمودها المرتكز على رحاه الدائرة على الأرض.

(١٩٥) هاض: أي عاد وهي فصيحة، النبا: الكلام ويعني القصيدة.

يقول الشاعر إنه قد هاض عليه ما كان يكنه من جميل الكلام وما أحلى الجـواب الحسن في محله.

(١٩٦) خلاف ذا: وبعد ذلـك، قودا: النـاقة الـطويلة الطيعـة وهي فصيحة، هميم: سـريعة وهي فصيحة، كور: الشداد وهي فصيحة.

يقول الشاعر، وبعد ذلك أيها الراكب على تلك الناقة الطويلة السريعة الطيعـة التي إذا ركبها المرء يطرب لها.

(١٩٧) ريضه: من ريض والتريض التروي، حطني: حط ضع وهي فصيحة، قراه: ظهرها.

يقول الشاعر بعد أن تركب كور هذه المطية عليك أن تتروى لي بعض الوقت لا بلغـك رسالتي الشفهية في هذه القصيدة.

(١٩٨) ينادي الشاعر راكب تلك المطية بأن يفهم ما يقولـه له ويـطلب له التـوفيق من الله جل شانه.

(١٩٩) قفار: بلدة أثرية عريقة تقع إلى الشـرق من أجا أحـد جبلي طي وهي إلى الجنـوب من مدينة حائل وتكاد أن تلتحم بها الآن لتصبح جزءاً منها وقد بلغت أوج قوتها وازدهارها من بداية القرن الحادي عشر حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجـري قبل أن تنتـزع منها مكانتها جارتها حائل فقد كانت هي المنبع الـرئيسي لمعظم الأسر التي عمـرت قرى منـطقة الجبلين منـذ القرن الثـاني عشر الهجري، لـين: حتى، العيط: لقب الممـدوح

مطلق بن فارس الجربا رحمه الله، تر: ترى.
يقول الشاعر لمندوبه إذا سرت على مطيتك من قفار فعليها أن تتوجه إلى الممدوح الملقب بالعيط، وكان إذا صاح على الخيل فزعت معه وأوردها إلى ما يريد وكان يقطن بقرب بلدة موقق الواقعة إلى الغرب منها وتقع موقق إلى الغرب من جبل أجا، وهي بلدة قديمة جداً منذ العهد الجاهلي وعريقة وتعتبر الآن من كبريات القرى.

(٢٠٠) يم: إلى وهي فصيحة. أخو جوزا: هي كنية الممدوح وحوزا أسم أخته بها يعتزى، سقم الحريب: أي من يجعله في حالة سقم ومرض، نديبي: مندوبي.
يوصي الشاعر مندوبه بأن يقصد ممدوحه ذلك الشيخ الشجاع الذي يسقى أضداده كاسات الموت أو السقم المستمر.

(٢٠١) ابن مانع: يعني مطلق الجربا، لجاه: لجأ إليه.
يقول الشاعر إنه يتمنى أن يذهب إليه فإذا وصله صاح بأعلى صوته مناديا إياه بجده الأول مانع قائلاً له ياحمى من لجأ إليه.

(٢٠٢) أظعان: جمع ظعن وهي الإبل المحملة بالبيوت والأمتعة وهي فصيحة، حوش: جمع وهي فصيحة، المراجل: خصال الرجولة احتضاه: من حضأ وهي العناية وهي فصيحة.
يصف الشاعر ممدوحه بأنه للاظعان كعمود البيت الذي لا يقوم إلا به وهو بالاضافة إلى ذلك فهو يروي السيوف من رقاب الأعداء، ويحوش خصال الرجولة ويمتاز بها دون غيره.

(٢٠٣) تلوس: من تلس وهو محاولة الاختفاء وذلك بسلوك الطرق الحقيرة، وهو كناية عمن يتبع الطرق التي تخل بالشرف الخنا: العيب وهي فصيحة.
يتابع الشاعر وصف ممدوحه بمناداته ووصفه بنقى العرض من الأدناس والعيب، البعيد عن الطرق الحقيرة المخلة بالشرف.

(٢٠٤) نفاد الزاد: كناية عن الكرم، جدب: جمع جدب وهو المحل والعوز والشدة وهي فصيحة، اللاش: الرديىء من الرجال يصف الشاعر ممدوحه بصفة أخرى وهي الكرم والمروءة وبالأخص في تلك السنين المتميزة بالحاجة الملحة والعوز القاتل حينما يكون الرديىء من الرجال لايدرك لقمة عيشه.

(٢٠٥) السرج: سرج الفرس وهي فصيحة.
يضيف الشاعر إلى ممدوحه أنه أعد من كرام السلالات من الخيل ما يلوذ بسرجه عند النزال للمعركة من الخيل التي ولدت وتربت على أرض نجد المشهورة باقتناء أجود سلالات الخيل.

(٢٠٦) ساق: دفع، العبية: اسم فرس، تلاه: تلاها ويعني بنتها.
يقول الشاعر إن ممدوحه قد دفع بهذا الجواد عدد أربع وعشرين فرساً من ضمنها الفرس المسماة بالعبية ومعها ابنتها.

(٢٠٧) شمـرة: فرس مـوثقة الخلق وهي فصيحـة، قبـا: مـرتفعـه الأضـلاع وهي فصيحـة، قحوم: تقتحم المعركة وأصلها فصيح حيد الزمل: العظيم من الزمل، مزبـر: مرتفـع وهي فصيحة.
يصف الشـاعر هـذا المهر الـذي اشتراه الممـدوح بأنها شمـرة قبا تقتحم غمـار المعارك بصاحبها، لها صهوة مرتفعة تملأ فرجتها وهي من خيار الخيل.

(٢٠٨) باغ: مريد، ثار: إرتفع وهي فصيحة، العسام: عجاج المعركة.
يقول الشاعر إن ممدوحه قد اشترى هذه الفرس يريد بها إذا ثار قتام المعركة فغطى ما حوله يلوذ بسرجها.

(٢٠٩) لقمها العنان: وضع العنان في رأسها وفمها، أخو جوزاء: سبق شرحها تحيـزم: وضع الحزام في وسطه.
يقول الشاعر إن ممدوحه إذا جن الليل ونشبت المعركة فإن أخا جوزاء سيضع العنان في رأسها وجزء منه في فمها ثم تحزم ولاذ بسرجها لمنازلة أعدائه.

(٢١٠) صك؛ ضرب وهي فصيحة، الربع: الجماعة وهي فصيحة ركون: أركان.
يقول الشاعر إن الممدوح ما إن يركب هـذه الفرس حتى يصيح لقومه وهذه الصيحة هي بمثابة الضرب بالسوط لخيل رفاقه حتى تتجمع وتتجه إلى ميدان المعركة.

(٢١١) كن: كأن، قب: المقبة، الطياس: خوذة الرأس بيطار: الصانع الحاذق.
يقول الشـاعر إن ممدوحه إذا قاد رفاقه في ميدان المعركـة فإنك تسمع لضـرب السوف في خوذات الأعداء وكأنها ضرب الحدادين بالأواني النحاسية.

(٢١٢) السبايا: جمع سبيه وهي فصيحة، الوطا: الأرض وهي فصيحة، الصبايا: جمع صبية وهي فصيحة، ويعني بذلك النساء عامة، دِلَّعْ: دلع جمع دالع، وقـد دلع لسـانها من شدة هول ما ترى وهي فصيحة، ذهل: من الذهول وهو عدم الانتباه وهي فصيحة.
يصف الشاعر ميدان المعركة المتناثر فيه جثث القتلى والحالة النفسية التي فيها النساء من شـدة ما يشـاهد بـأعينهن فقـد ذهلن أنفسهن ونسـين حيائهـن وظهـرن أمـام النـاس حاسرات عن وجوههن وشعورهن.

(٢١٣) يانخن: إذا استثرن همة الشيخ بـالنخوة وأسـاسها فصيح، الشيخ المقصـود به مـطلق الجربا.
يقول الشاعر إن تلك النساء اللواتي هالهن وقع المعـركة قـد صحن بالشيـخ مستثيرات لنخوته قائلات له «يا حمى تالي ظعنا يا حماه» أنقذنا من هؤلاء الأعداء.

(٢١٤) الشقراء: يعني فرسه.
يقول الشاعـر ما إن يسمـع الشيخ أصـوات أولئك النسـوة حتى يقبل عـلى ظهر فـرسه الشقراء الطويلة وقد أوردها حوض المنية حينما سمع من استشار نخوته وهمته.

(٢١٥) حداد الهند: السـوف.
يقول الشاعر عاش من عدل صعاب الرجال في ظبا السيوف الهندية وجعلهم يخضعون

لأوامره وينفذون رغباته.

(٢١٦) خبط: ضرب وهي فصيحة، العدام: أكوام الرمل الصغيرة التي تجمعت بفعل الرياح قرب الرياض ومحاجرها على شجيرات الرمث وغيرها، سدح: ملقى وهي فصيحة. هماه: ضربه وهي فصيحة.
يقول الشاعر عاش من خبط كل من مر عليه من أعدائه بسيفه خبطة القاه على إثرها ملقى على الأرض، وكأنهم الجذوع الهامدة الملقاة على الأرض.

(٢١٧) جرته: أثره.
يقول الشاعر عاش من تفرس على أثره السباع والذئاب والطيور الجارحة من نسور وحدأة وغيرها.

(٢١٨) الجنايز: جمع جنازه وهي جثه القتيل أو الميت فصيحة عقبهم: بعدهم، تشوف: ترى وهي فصيحة، المعارة: مكان المعركة وهي فصيحة، مدبحاة: منحنيات.
يقول الشاعر سترى في أثره الجثث متناثرة ممن قتلهم وسترى النسور وبغاث الطير عاكفة عليها تأكل منها.

(٢١٩) الهشيم: الأخشاب والأغصان اليابسة البالية وهي فصيحة. غثو: غثاء السيل الذي يغثوه على جانبي الوادي وهي فصيحة، نفاه: أي أبرزه وقذف به وهي فصيحة.
يقول الشاعر أن الجثث في أثره مثل أخشاب
وجذوع الهشيم التي نفاها السيل على جانبي الوادي بعد سيله.

(٢٢٠) العُلَيْمْ: جبل أسود في النفود الشمالي يقع إلى الشمال عن جبّه ويبعد عنها مسافة تقدر بخمسين كيلا، العظيم: بلد يقع إلى الشرق من سميراء ويبعد عنها حوالي ٣٦ كيلاً وهي قرية عامرة بها كثير من الدوائر الحكومية، سلمى: أحد جبلي طي المشهورين وتقع إلى الشرق بميل نحو الجنوب عن حائل وهو جبل كبير يحتوي على مجموعة من القرى والأودية والتلاع المغروسة بالنخيل وهذه النخيل لفروع من آل أسلم من قبيلة شمر، الجبل: يقصد جبل أجا أحد جبل طي وقد سبقت الاشارة إليه.
يحدد الشاعر البقعة التي للممدوح سيطرة عليها من النفود شمالاً إلى العظيم جنوبا بما فيها جبلي أجا وسلمى.

(٢٢١) شفا: رأس المرتفع وهي فصيحة، تيماء: المدينة الأثرية العريقة المشهورة منذ العهد الجاهلي وتقع الآن على الطريق المتجه من المدينة المنورة إلى تبوك، ويتبعها عدداً من القرى والهجر وبها الكثير من فروع الدوائر الحكومية، وادي القصيم: يقصد وادي الرمة الذي ينبع من مشارف المدينة المنورة ويتجه إلى الشمال الشرقي مخترقا مقاطعة القصيم حتى يصب في الخليج العربي في رأسه الشمالي الغربي.
يقول الشاعر إن نفوذ ممدوحه تمتد من تيماء غربا إلى القصيم شرقا كل هذه الرقعة المحدودة آنفا قد حماها ممدوحه.

(٢٢٢) عدي: كأني، جلد: صوت اجتلادها وكأنه يضربها بالسوط وهي فصيحة، العيط:

لقب الممدوح كما سبقت الإشارة إليه يقول الشاعر كأنني ياعباد الله أرى سرعة جري الخيل باصحابها وكأنه يجلدها بسوط حينها جاءها العيط من ورائها.

(٢٢٣) عاصوف: عاصفة.
يشبه الشاعر صوت الخيل عند اجتلادها بصوت السحابة الثلجية إذا عصفت بها عاصفة غربية قوية.

(٢٢٤) فاض: إنحدر وهي فصيحة، والضمير يعود للسحاب.
يكمل الشاعر وصف هذا السحاب بأنه انحدر كالجبال المتراكمة وانهلت مياهه.

(٢٢٥) الويل: المطر وهي فصيحة، قطى: جمع قطاة وهي فصيحة.
يقول الشاعر إن المطر من هذه الخيول المتراكمة لم يكن مطراً مائياً وإنما كان من الدم الأحمر الذي ينصب من أكتاف الفرسان على قطي خيولهم.

(٢٢٦) السيافا: لقب قبيلة الممدوح التي يعتزون بها ومفردها سياف.
يقول الشاعر إن الممدوح عدو الخيل إذا صاح وراءها ومعه قومه الملقبين بالسيافا.

(٢٢٧) حاضبينه: أصل الحضب إيقاد النار وهي فصيحة وهنا يعنى إجتمعوا عليه وهي غير بعيدة عنها، الحرار: النادر من الصقور وغيرها، العرجا: من أسماء الضبع وهي فصيحة.
يقول الشاعر إن ممدوحه وقومه قد اجتمعوا حوله مثل أفراخ الحرار من الصقور وهم في هذه الحالة لابد أن يرمون للضبع عشاءها من جثث خصومهم.

(٢٢٨) هدّاج: بئر تيماء الغزير ماؤه وكان في وقت من الأوقات يسني عليه ستة عشر غربا في آن واحد أخبرني بذلك من شاهده غير أنه في الوقت الحاضر قد نضب ماؤه ولم يبق به سوى نطف يسير.
يقول الشاعر إن ممدوحه مثل هداج الموجود في تيماء المدينة التي سبقت الإشارة إليها وكلما زاد النزف منه ازدادت كمية الماء النابعة منه.

(٢٢٩) الطنايا: من ألقاب قبيلة الممدوح، لابة: مجموعة وأصلها لوبة وهذه الأخيرة فصيحة أما اللابة فهي مجموعة من الإبل السود.
يقول الشاعر إن الممدوح وجماعته الملتفين عليه هم العمى لعين العدو ودواؤه في نفس الوقت ويمكن أنه قصد، هم دواؤه إذا صفى لهم.

(٢٣٠) إشلهب الوقت: يقصد السنين الغبراء في وقت الجدب والعوز، المشرع: الحوض الذي يشرب منه وتشرع منه المواشي وهي فصيحة.
يقول الشاعر إن ممدوحه إذا جاءت السنين العسيرة فإنه سيكون كالمشرع البارز لكل من جاءه شرب منه وارتوى فضلاً عن سنوات الرخاء والرغد وكل من جاءه قاصداً بره فإنه يعطيه بما يقتل فقره.

(٢٣١) كن: كأن، غبر الليالي، وقت الحاجة والعوز وهي فصيحة القرى: الطعام وهي فصيحة.

يقول الشاعر إن ضيوفه في سنوات القحط والشدة إذا كان الطعام لا يوجد من يبيعه، فإنهم كثيرون سيذكرهم في البيت التالي.

(٢٣٢) سهيل النجم المعروف، تعاطوا: تعاقبوا وأصلها فصيح، منهل مورد وهي فصيحة، جباه: طعم مائه.
يشبه الشاعر بمجموعات الضيوف التي ترد إلى ممدوح في تلك السنين الغبراء بمجموعات قطعان البادية الواردة والصادرة من ماء منهل عذب.

(٢٣٣) الملأ: الناس وهي فصيحة.
يقول الشاعر إن هذا قولي ويشهد لي جميع الناس لى صدق ما أقول في حقه.

(٢٣٤) القطري: الحمام.
يختتم الشاعر قصيدته بالصلاة على سيد قريش نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعدد ما غرد الحمام في عالي سماه.

(٢٣٥) هبايب: جمع هبوب وهي الرياح فصيحة.
يفتتح الشيخ مشعان بن هذال رحمه الله أحد الشيوخ المشهورين لقبيلة عنزة في القرن الثاني عشر الهجري تقريباً وله كثير من القصائد الرائعة وتعتبر هذه أحدها والبعض يسمها بالشيخة وله قصيدة مليئة بالحكمة منها:

يا لعبد لا يغويك في نفسك الزود	تراك مثل الظل عجل زواله
دنياك لو تعطي مواثيق وعهود	بواقة ما يا من العبد جاله

وقد أصبح هذان البيتان نقطة استشهاد لكثير من الشعراء.
يقول الشاعر ياالله يا مدير الرياح في مختلف الاتجاهات ومدبر أدوار الأيام تكتب لنا من شؤنك ما فيه الخير لنا.

(٢٣٦) يقول الشاعر إننا ندير الأمور بالحيلات والأفكار محاولين إختيار الأفضل منها ولا غناة لنا عن توفيق الله وحسن تدبيره مؤملين أن يصاحبنا النور الذي يسفر لنا نور الحق إلى الطريق السليم.

(٢٣٧) ظعاين: جمع ظعينة وهي الإبل المحملة بالبيوت والمتاع وهي فصيحة، سنجار: جبل عظيم في شبه الجزيرة الفراتيه قرب التقاء الحدود العراقية السورية الأردنية الحالية، نهر الخابور: نهر ينبع من الشرق ويصب في دجلة الدواوير: يقصد المنازل.
يقول الشاعر إن أظعانهم قد وصلت إلى جبل سنجار ونزلت بعض أحيائهم بقرب نهر الخابور والمكانين موجودين الآن بالعراق وقد نزحت إليهما هذه القبائل تاركة مواطنها الأصلية في نجد وذلك لطلب الكلأ والاقتراب من مصادر الرزق وهذه من سمات القبائل العربية حيث تهاجر على شكل موجات متتالية إلى أراضي الهلال الخصيب منذ أزمنة سحيقة طلبا للرزق من الجزيرة العربية.

(٢٣٨) الحورا: مكان بالعراق، داسن الأشوار: تبودلت الآراء، زبون: ما يزبن إليه أي يلتجيء إليه المحتاج المقاصير: المقصرين.

يقـول الشاعـر إن قبائله نـزلت في الحوراء وتبـودلت الآراء بعد أن جـاءهم كتـاب من الشيخ ماجد بن عريعر رحمه الله وهو حاكم الأحساء في القرن الثاني عشر الهجري.

(٢٣٩) حر: النادر من الصقـور، وقد سبقت الإشـارة إليها وهي فصيحـة الأوكار: جمـع وكر وهو عش الطائر وهي فصيحة، المناعير: جمع منعور وهو الشجاع المقدام.
يمتدح الشاعر من جاء منه الكتاب وهو الشيخ ماجد بن عريعر رحمـه الله ويشبهه بـالحر النادر من الصقور، ويذكر في كتابه أن ديـاركم في نجد قـد استولى عليهـا غيركم أيهـا الشجعات المغاوير.

(٢٤٠) نحجى: نمنع وهي فصيحة، نجير: نحمي وهي فصيحة.
يقول الشاعر لقد اعتبرنا هؤلاء القـادمين إلى ديـارنا بمثـابة الجيـران الذين سنمنـع من يؤذيهم ونحميهم من عدوهم أما ديارنا فهي لنا بدون منازع.

(٢٤١) نهوم: من هام يهوم وهو الذهاب بدون هدف وهي فصيحة غير أن الشاعر يعنى نذهب لهدفنا، العجلات: الخيل نقدي: نرشد.
يقول الشاعر إننا نذهب في مغامـرات بعيدة وعسيـرة، لا نحسب حسابـات لما يتـرتب عليها من ناتج ممتطين صهوات خيولنا نرشد أظعاننا إلى الجهة التي نريد.

(٢٤٢) طمٌ: غـطى وهي فصيحة، الأوعـار: جمع وعـر وهو المـرتفع الصعب وهي فصيحـة، غدت: صارت، شعاثير: متناثرة.
يقول الشاعر إنه ما إن وصلنا هذا الخبر حتى أقبلنا بقضنا وقضيضنا مثل السيل العظيم الذي يغطي السهل والجبل حتى أصبحت تلك القبائل التي مررنا عليها أشلاء متنـاثرة هاربة عن طريقنا.

(٢٤٣) غـدا: صار، واد الـدجاني: لم أعـثر على اسمـه بالمعـاجم التي لدى لكنـه يبدو أنـه في الطريق العودة من العراق، الويلان: جمع وائلي نسبة إلى وائل الجد الأول لقبيلة عنزة، الدواوير: دوائر ويقصد جموع النزل أو مجموعات الإبل.
يقول الشاعر إننا في طريقنا إلى ديارنا مررنا بوادي الدجاني وحينما حاول نزلـه مقاومتنـا أشعلنا فيهم النار، وكانت الغلبة فيها لقومنـا بني وائل الـذين ظفروا بـالمعركـة وأخذوا مال خصومهم من الإبل وغيرها وجمعوها كالدوائر.

(٢٤٤) السلمان: موضع وربما قبيلة تحمـل نفس الإسم يقع منـزلهم على طـريق هؤلاء القوم، حزات: جمع حزة وهي الوقت وهي فصيحـة، حطن: وضعن وهي فصيحـة، خضرا آبار تقع غرب الثعلبية وتبعد عن حائـل ٢٧٠ كيلاً، لينـه بلد يقع في الشمـال الشرقي عن حائل وتبعد عنها ٢٨٠ كيلاً مصادير: المكان الذي يصدر منه.
يقول الشاعر إنه مـر على السلمـان في الصباح البـاكر وقت الإفـطار وانحدرنـا إلى لينة وخضراء متجهين إلى هدفنا المرسوم.

(٢٤٥) ششـاثا: مـوضع، أقحـطن: من القحط وهو الشـح وهي فصيحة وطن: مـررن ووطأ فصيحة، الملوم: أسم موضع.

يقول الشاعر إنهم قد مروا بشثاثا وأخذوا ما بها من الأطعمة بالشراء بحيث أوجدوا فيها شح الأرزاق بعد أن إبتاعوا كل ما فيها ومررنا في طريقنا على لملوم منحدرين من عنده.

(٢٤٦) يطيرن: يرعين عشبه وكلأه حتى يطير عن الأرض. الخطايط: الخطائط هي آثار سحائب الوسمي التي تكون في العادة أمطار سحائب منفصلة يتسع أثر هذه السحابة أو يضيق وقد تكون السحائب متباعدة عن بعضها البعض، الأقفار: جمع قفر وهي الأرض التي لم ترع وهي فصيحة، حنشان: مجموعات ذكور الحباري: جمع حباري الطائر المعروف المفضل للصيد، مخامير: جمع مخمر وهو المختبيء وأساسها فصيح.
يقول الشاعر لقد أقفت أظعانهم يرعين الأعشاب النابتة على مساحب أذيال سحائب الوسم وكذلك الأراضي القفر التي لم يرع أعشابها أحد.

(٢٤٧) النبك: تقع بأسفل وادي السرحان وتبعد عن سكاكا ١٧٠ كيلاً، الرمك: مفردها رمكة، وأصلها ما يخصص للنسل حتى تبدو عليها السمنة ظاهرة وهي فصيحة وتوصف الفرس بالرمكة، وتوصف المرأة الممتلئة المجاسد بالرمكة ثار: إرتفع وهي فصيحة، هاكا: ذاك، خز: إختيار المغاتير: الإبل لونها قريب من البياض.
يقول الشاعر إن آخر عهدي بهم بالنبك حيثما ثار عجاج الخيل، وما أحلى ذلك اليوم حيث إختيار الإبل ذات اللون الفاتح وكل واحد من قومنا يختار ما يريده من تلك الإبل التي كسبناها من أعدائنا.

(٢٤٨) أباذراع: قد يكون قاصداً أحد قواده أو شيء آخر، الممحلة: الذين أتى بهم الدهر إلى هذا المكان، المسايير: الزوار.
يقول الشاعر لقد أصبح أبا ذراع مقيم في المكان بعد أن استعدنا ديارنا ممن أخذوها، وأخذنا من أموال من جاءها زائراً، فضلاً عمن يريدون احتلالها.

(٢٤٩) البكرة: الفتاة من الإبل وهي فصيحة، العقال هو الحبل الذي يعقل به البعير باركا مع إحدى يديه وهي فصيحة، قعود الذكر الصغير من الإبل وأساسها فصيح.
يقول الشاعر الذي لم أعثر على اسمه إن من النساء من تساوى قيمة ثمانين بكرة وكانت هذه القيمة أكبر قيمة مادية يدركها الشاعر ومن النساء من لا تساوي ذلك الحبل الذي لا يزيد طوله عن الذراع ولا سيما عقال ذلك الجمل الصغير فعقاله قصير أيضاً.

(٢٥٠) تداعج: تجري، نهوره: أنهارها، بليا: بدون.
يقول الشاعر إن منهن أيضا مثل الجنات التي تجري أنهارها وتغرد أطيارها، ومنهن مثل النيران التي التهمت وقودها وبدأ جرها يتلظى بانتظار الوقود الجديد ليلتهمه.

(٢٥١) الهرة: القطة وهي فصيحة، مكفهرة: متجهمة وهي فصيحة تحد: تطرد وأساس الكلمة فصيح، بعمود: عمود البيت تلك العصا الغليظة وهي فصيحة.
يقول الشاعر ومن النساء مثل تلك الهرة المتجهمة التي نفشت شعرها متحفزة

للانقضاض، تطرد الخير عنك بعصي غليظة بأقوالها وأفعالها.

(٢٥٢) وتيد: إسم رجل لم أعثر على بقية اسمه واسم قبيلته رحمه الله اللي: الذي أو التي، الدبوب: عثكولة من الخيوط الملونة تعلق برقبة الناقة الثمينة حسنة الخلق وأحيانا يعلق معها الجرس.
تقول الشاعرة صيته رحمها الله محذرة زوجها إياك أن تقترب من الناقة ذات الدبدوب فإنها لن يتركها صاحبها مهما كلفه الأمر.

(٢٥٣) ياتيك: يأتيك مخففة، الجو: المورد وهي فصيحة، حليل: زوج وهي فصيحة، زمة: شموخ وهي فصيحة من زم أي إرتفع.
تقول الشاعرة إن صاحب تلك الناقة لن يتركها وسيأتيك مسرعاً فازعا من البيوت عازما على استردادها ممن أخذها بأي ثمن.

(٢٥٤) مجامح: جمع مجمح وهو أثر القفزة الواحدة وهي فصيحة الفلوة: الفتاة من الأفراس وهي فصيحة، أبواع: جمع بوع أو باع وهو طول اليدين معاً مع الصدر ويساوي مترين والكلمة فصيحة الغوج: الحصان الفتي الطويل وهي فصيحة، تقطه: تقطمه وهي فصيحة.
تصف الشاعرة أثر مهر هذا الفارس على الأرض بأن القفزة الواحدة تساوي مسافة سبعة أبواع ومن الخطر عليك وعلى حصانك أن تذهب ضحية لهذا الفارس الذي جاء يطلب إستعادة ناقته.

(٢٥٥) الشبرية: سكين بطول الشبر تشبه الخنجر وهي رمز للخنجر، لماع: تعني السيف، يقطع ظماك: أي يهلكك، بحامي جهدها: بأقصى سرعتها.
تقول الشاعرة إن هذا الفارس الذي سيأتيك فإنه مسلح قد تمنطق بخنجر أو سكين شبرية وبيده سيف لامع وسيهلكك وفرسه بأقصى سرعتها دون أن تتوقف أو حتى تقلل من سرعتها.

(٢٥٦) مريفه: اسم الشاعرة وهناك من يقول إن اسمها جحيشه، يا ملا: يا ملأ وهم الناس فصيحة، ليه: لماذا أشوفه: أراه وهي فصيحة، جذلتي: جديلتي وهي فصيحة، لاح: إتضح وهي فصيحة.
تقول الشاعرة مريفة العمودية الشمرية رحمها الله لماذا لا يتضح الشيب على جذلتي أيها الناس، وإنما ما ترونه من الشيب هو من تقلبات الأيام وركونها إلى الضعف بعد القوة والهوان بعد المنعة ومن كان فيه ولو جزء قليل من الإحساس فإنه سيشيب رأسه.

(٢٥٧) فايز بن هذيل العمودي الشمري رحمه الله، يا: إذا، وكر بني وكره وهي فصيحة، مرقب مارتفع من الجبال وغيرها.
تنادي الشاعرة المعنى بالأمر بقولها إن غيبتك عنا مثل غيبة الذئب عن أرضه بحيث تبدأ الثعالب في العبث بحقه من الأرض، فعليك أن تعود إلينا ثانية، وتذكر الحر من الطيور إذا وضع وكره في رءوس شخانيب الجبال فإنه يعود إليها مهما حال دونه من عقبات.

(٢٥٨) سقف: بلدة تقع إلى الجنوب عن حائل وتقع بجانب جبل يعرف بهذا الاسم ووادي سقف يفضي إلى وادي الشعبة الثلبوت قديما وتبعد البلدة عن حائل مائة كيل، الشعب: جمع شعبة وهي فصيحة، والشعبة المعنية هي الوادي المحاذي لوادي الرمة ثم يصب فيه شرق جبل ذراف «ذرف» وهي وادي الثلبوت القديم، مصلاح: من يسعى لمواشيه بالصلاح وذلك رعيها في المراعي الخصبة.
تقول الشاعرة، أيها المندوب عليك أن تخبر فائز أن بلدته سقف وما جاورها قد ورد عليها مما يلي الشعبة من قبائل شتى، فداسوا حماها وأكلوا مراعيها، فيما لم يكونوا يستطيعون الإقتراب منه حينما كنت في الوجود بيننا.

(٢٥٩) وش: هذه الكلمة أساسها، أي شيء الاستفهامية ثم اختزلت الكلمة لتكون أش، ثم قلبت الهمزة إلى واو فأصبحت «وش» وتعني أي شيء، هقوتك: رأيك، مدّاد: المداد المغادر، نقرة أيوب: موضع بشبه الجزيرة الفراتية، الربع: الجماعة وهي فصيحة، الغزالة: بلدة من كبريات القري الواقعة إلى الغرب من جبل رمان الأحمر وبها كثير من الدوائر الحكومية، وتقع على الطريق الرئيسي بين حائل والمدينة المنورة وتبعد عن حائل مائة كيل وهي قريبة من سقف تقع إلى الشرق عنها.
يقول الشاعر فائز بن هذيل العمودي الشمري رحمه الله ما رأيكم من يغادر نقرة أيوب في الصباح الباكر، ألا يستطيع أن يصل الغزالة قبل أن يدركه المساء، ليخلص أرضه ممن عبثوا بها يتساءل مثل هذا التساؤل وهو يعلم أنه لن يصل إليها لأن ما بينه وبينها ما يقارب مسافة خمسة عشر يوماً للمطية السريعة ولكن ذلك مما في نفسه من الشوق إلى وصول ذلك المكان.

(٢٦٠) أشقر: يعني جملاً حراً أشقر اللون، مرعوب: كأن به رعب وهي فصيحة، الشيهان: نوع من الصقور صغير الجسم حاد الطبع نزقا يتصف بالقوة والصرامة وهي الشاهين فصيحة.
يصف الشاعر المطية التي سيمتطيها بأنه جملاً أشقر اللون سمح الذراعين والأعضاء إذا سار كأن به الرعب من شدة صلفه وعنفوانه أسرع من طائر الشيهان إذا أتى لفراخه بالعلف من الفريسة التي انقض عليها.

(٢٦١) عقبان: جمع عقاب وهي فصيحة، ديم: إسم مأكر في ذرى جبال شاهخة تتصف عقبانه بالقوة والشراسة، نقاز: من نقز وهو من يغلي الدم في عروقه من شدة المرة فيندفع بقوة وعنفوان، وربما أثر عليه غليان دمه فقفز من مكانه وفارق الحياة، ونقز فصيحة، ما يدانون: لا يقبلون، المضوم: الميل والظلم.
يفتخر الشاعر الذي لم أعثر على اسمه بنفسه بأنه ينتسب إلى هذه القبيلة التي يتصف بعض أفرادها بشدة المرة لدرجة أنها تصل مع بعضهم إلى أن يفارق الحياة من شدة مرته.

(٢٦٢) ليا: إذا، طياس: خوذات الحرب.

يقول الشاعر إذا ركبنا للحرب فإننا نسمي بالله الرحمن الرحيم وترى خوذات الحرب تلمع فوق رءوسنا وكأنها لمع النجوم في ظلمة الليل.

(٢٦٣) خطو: بعض، المشتف: عريض الصدر مفتول العضلات قوي البنية الشجاع الجريئ، حمايهن، من يحميهن من الأعداء، حذايهن من يضع لهن الحذاء الذي يقيهن الحفى، الدبيلة: الجيش العظيم.

يقول الشاعر عسل بن ذايد الرمالي الشمري من قصيدة له إن بعض الأبطال الصناديد عظيمي الخلقة من يقوم بحذاء خيله ويحميها من الأعداء حتى ولو كانت جيوشهم كثيرة جداً.

(٢٦٤) يا مير: يا أمير والمقصود هو الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي أمير حائل رحمه الله، وسكن الهبوب: كناية عن استتباب الأمر، إبي: أريد.

يقول الشاعر الأمير عجلان بن برغش بن رمال رحمه الله عندما قدم إلى الأمير عبدالعزيز بن مساعد رحمه الله بعد أن استتب الأمر للملك عبدالعزيز رحمه الله بحائل وانضوت تحت كنف المملكة العربية السعودية أدام الله عزها، إنني قدمت إليكم أيها الأمير بعد أن هدأت الأمور، أريد العيش في هذا النفود الذي تعودت على المعيشة فيه، والجني من نخيلاتي حينما ينضج ثمرها، فرحب به الأمير وعاش بقية حياته بما كان يرغب.

(٢٦٥) عرماس: أساسها العرمس وهي الناقة الصلبة الشديدة وهي فصيحة، عملية: مدربة، فياق: جمع فيفاءة وهي المفازة وهي فصيحة.

يقول الشاعر عبدالله بن صقيه التميمي رحمه الله أوهو مبارك بن محمد بن عبيكة الشمري رحمه الله، أيها الراكب من عندنا فوق تلك الناقة الشديدة الصلبة المدربة التي تهوي قطع الفياق والقفار لما لها من القوة والعنفوان.

(٢٦٦) تلفى: تصل وهي فصيحة، أبو عبطا: المعنى بالمقطوعة، وعبطا اسم ابنته، وقت الإدماس: حلول الليل، والادماس فصيحة، وليا: وإذا.

يقول الشاعر إذا وصلت إليه بحلول المساء فإنها نهاية الطريق والمقصد، فعليك أن تنيخ مطيتك عنده.

(٢٦٧) الهزيل: الهزيل من الإبل التي لا نفع فيها، ميس: ميئوس يقول الشاعر للشيخ أبي عبطا أن من باعنا بالثمن الرخيص فسوف نبيعه بما هو أرخص منه وهو الثمن المفلس كبيعة صاحب بعير هزيل قديش منه فباعه بثمن بخس لا يساوي شيئاً من قيمته.

(٢٦٨) قصر الرجل: المقصود بها عدم السعي والمشي إلا بحاجة، نوماس: شرف ورفعة، لا: إذا.

يقول الشاعر إن تطويلك جدارك دون ممتلكاتك وما لك يحميك ويحمي مالك من أيدي المتطفلين عليه، كما أن إقتصار ذهابك ومشيك إلى مكان ما إلا لحاجة فيه فإن ذلك يعتبر شرفا لك، وبهذا البيت ينصح الشاعر بعدم التمشية بدون غرض أو هدف

مقصود إذا لم يكن للّرجل داع يدعوها لبذل خطواتها.

(٢٦٩) يا: إذا، ضو: ضـوء مخففة وهي فصيحـة، قلطت: وضعت وقدمت، محماس: أداة تحمس بها القهوة.
يقول الأمير الشاعر مبارك بن محمد بن عبيكة الرمالي الشمري رحمه الله، إذا بان ضـوء الصبح من الشرق أوقدت النار وبعد صلاة الصبح وضعت المحماسة على النار وبدأت أحمس البن على ذلك الجمر المتوهج حين يأتون إلي أصحـابي بالإضـافة إلى من عنـدي من الضيوف وقاصدي السبيل.

(٢٧٠) على الكيف: بقدر ومقدار، كبيتها: أفرغتها بعد أن تستوى النجر: الهاون.
يقـول الشاعـر إنه يتفنن بحمس القـوة بحيث تكون حمستهـا لا نيئة ولا محترقة، فـإذا استوت بالقدر المطلوب أفرغتها من المحماسة بالنجر الذي أسحقها فيه.

(٢٧١) دب: طـول، يبطل: يتـوقف، عواء: صهيـل والعواء لبعض السبـاع كالـذئب فشبـه صوت رنين النجر النحاسي أو الحجرى بعواء الذئب الجائع.
يقول الشاعر إنه يدق القهوة ويسحقها بذلـك النجر الـذي يشبه صـوت طنينه صـوت الذئب الجائع حينما يعوى فهذا النجر دائم العواء من كثرة ما يدق به من القهـوة وتقدم للضيوف.

(٢٧٢) لقمت: وضعتها كلقمة لتلك الدلة، دلة: إناء القهوة المعروف، مولع: جميلة الصنعـة رشيقة الجسم، ماله أجناس: ليس لها مثيل، حب صنعـاء: يقصد القهـوة الواردة من اليمن والبنْ اليمني من أجود الأصناف.
يستمر الشاعر في وصف مراحل عملية القهـوة، فبعد أن يسحقهـا يضعها بتلك الـدلة الرشيقة الموضوعة على جانب النار حتى تغـلي بما فيـه الكفايـة ثم أبعدهـا عنها، وهـذه القهـوة من أجود أصنـاف البن اليمني الممتاز، وكـان لا يـرد من البن في ذلـك الـوقت سوى البن اليمني.

(٢٧٣) الزبر: جسم يتكىء عليه الجالس يكون من الخشب أو شداد المطية وربما من الأرائك، جـلاس: جمع جـالس، هل السمـوت: أهل السمـوت، من السمت وهـو السكـوت والهدوء، ويعني الرجال الثقاة الذين يتصفون بالرزانة وبعد النظر.
يقول الشاعر بعد أن تجهـز القهوة فعليـك بصبها أولاً لمن هم حـولك وقـد اتكأوا عـلى الأرائك في المجلس ويعني كبار الرجال وعِلْيَة القوم الذين يتصدرون المجلس وهـم ذوو الرزانة والرأي وبعد النظر.

(٢٧٤) إثنـه: أي صبها ثـانيا، الممـرور: ذو المرة وهي الشـدة وغليـان الـدم وهي فصيحـة، مدباس: ثقيل الضربة عميقها، صم الرمك: الخيـل الصلبة القـوية وأصـل الكلمتان فصيح، يا: إذا، نصاها: قصدها.
يقول الشاعر بعد أن تعطي الأفضلية في صب القوة لأولئك الرجال الذينهم في المقدمـة عليك أن تدير القهوة لأولئك الفرسان الذين إذا إعتلوا صهوات الجياد فإنها تنجال عن

وجوههم خيول الأعداء وهؤلاء يستأهلون أن يشربوا من هذه القهوة.

(٢٧٥) مرواس: آخر الشوط، يا جدعت: إذا رمت.
يقول الشاعر هؤلاء الفرسان الذين تأخذ بهم خيولهم أشواطا بعيدة لمطاردة الأعداء ومقارعتهم للذود عن الحمى ودفع الشر.

(٢٧٦) مبارك هو صاحب القصيدة وقد ذكر اسمه فيها كعلامة فارقة لها أو هي كالوسم لها؛ هرجة: حكاية، كرام اللحا: كرام الرجال.
يقول الشاعر إنني أدلي برأيي في كلامي وأعتقد أنه لا بأس به فقد يرتاح لهذا الرأي كرام الرجال لاستحسانهم لهذه الفكرة التي سوف أدلي بها.

(٢٧٧) شرح هذا البيت موجود برقم ٢٦٨.

(٢٧٨) خلك: إبق، تقل: كأنك، ياجو: إذا جاءوا يقول الشاعر بدلاً من أن تشطح بك خطواتك وتسير بك قد ماك إلى غير هدف، عليك أن تبقى على باب بيتك وكأنك حارس عليه، وذلك من أجل مباشرة ضيوفك إذا قدموا إليك علي مطيهم وقد حداهم الجوع ودفعتهم الحاجة لتكون أمامهم تؤدي الواجب عليك نحوهم باكرامهم.

(٢٧٩) ما تدعي: الضمير هنا يعود لنفس المخاطَبْ.
يقول الشاعر إنك إذا فعلت ما أشرت به عليك في اليت السابق فستكبر بعيون رفاقك الأقربين فضلاً عن الناس الأبعدين وستكون لك قيمة عندهم وإن لم تدع للحضور إلى مجلس ما، فمعنى ذلك أنك لاقيمة لك، وأن نفسك لم تدرك إلا العنى والتعب.

(٢٨٠) قالات: جمع قالة وهي المشكلة، فصيحة، لولاس: الأمور المشتبكة، نوب؛ مرة أو حين.
يقول الشاعر إنه قد تأتي مشاكل وتشتبك الأمور وأحيانا تأتي المشكلة من أقرب الناس إليك فلابد أن تحسب لكل شيء حسابه وهذا البيت في رأيي نشاز في هذا المكان من القصيدة.

(٢٨١) الخل: الفراغ بين كثبان النفود وهي فصيحة، إضراس: تضرس أي تدير حنكها وهي كاظمة فتحدث أضراسها صوتا مسموعاً، وتضرس من شدة التعب أو المرض أو الحنق. يقول الشاعر إذا جاءت تلك الركاب بأهلها من خلول النفود وبالأخص الخل الشمالي الذي هو أكبرها، وقد أتعبها الحفى والسير وبدأت أضراسها تصطك محدثة صوتاً فإننا سنكون أمامها نوفر لها الراحة والعلف ولركابها الطعام والمأوي.

(٢٨٢) تجديع الألباس: فسخ الملابس الثقيلة التي يرتدونها أثناء السفر، نقلط: نقدم، تمر الحلي: وهو من أجود أنواع التمور وأطراها بالمنطقة، غماها: ثمرها وهي فصيحة يقول الشاعر إذا جاءت تلك الركاب على الحالة السابقة التي ذكرناها، فسوف نكون في إستقبالهم للترحيب بهم أجمل ترحيب قبل أن ينيخوا مطيهم وينزعوا الثقيل من لباسهم، وسنبادرهم بتقديم صواني تمر الحلوة لهم مع القهوة حتى تجهز الوجبة التي ستعدها لهم.

(٢٨٣) كبش: الخروف وهي فصيحة، يصلّح: يربي بما يصلح حاله، الأطعاس: جمع طعس، وأساسها دعص، لكن العامة يقلبون الدال إلى طاء والصاد إلى سين ودعص فصيحة. نقلطه: نقدمه غيبه مساها: حين حلول المساء.
يقول الشاعر إننا بعد أن نباشر ضيوفنا بتقديم القهوة وتمر الحلوة فإننا سنقدم لهم طعاماً شهياً متوجا بالخروف السمين الذي تربى في مراعي النفود حتى اكتنز بالشحم.

(٢٨٤) هذات: هذا والتاء هي التاء الطائية المفتوحة، سلم: عادة، من راس: من قبل وقد توارثناه أباً عن جد، اللي: الذي.
يقول الشاعر إن ما نفعله من إكرام الضيف والترحيب به قد ورثناه عن آبائنا وأجدادنا منذ القدم من عهد حاتم الطائي حتى وقتنا الحاضر وسنورثه لمن سيأتي من بعدنا من أبنائنا وأحفادنا إن كان الله قد وضع على قلوبهم السكينة ومنحهم الهداية للمحافظة على هذه السجية الكريمة. وقد استجاب الله دعوة هذا الكريم حيث بقيت هذه السجية في أبنائه وأحفاده، ومن يشاهد بيت حفيده مطلق بن عواد العبيكة وأخية عبيكة فإنه يشاهد الدلالة الواضحة لسجية الكرم النفسية والمادية بكامل صورها.

(٢٨٥) ليا: إذا، جبت: أحضرت، ضفة: الضفة ما تقبضه الكفان معاً، جثامير: جذوع، نار الحرابة: نار الحرب وكانت العادة منذ القدم إذا أراد القوم أن يقوموا بحرب أن يشعلوا ناراً كبيرة ليراها القاصي والداني.
يقول الشاعر إذا ضاق صدري أتيت بملء ما بين يدى من جذوع حطب الأرطى ووضعتها على النار ليرتفع لهبها، ويزداد أوراها فتصبح كأنها نار حرب يراها البعيد قبل القريب وجملة «إذا ضاق صدري فعلت كذا وكذا» كان يبتديء بها كثير من الشعراء قصائدهم فنجد أحدهم يقول:

لياضاق صدري قمت أحوف المعاميل   وازين الفنجال بكر ولا اثنيه

وآخر يقول:

لياضاق صدري قمت أحوف الحضيرة   وازين الدحمول ثم انحوي فيه

وهكذا كل له شان حسب همته.

(٢٨٦) جبت: أحضرت، هدف المناقير: يعني الدلال.
يقول الشاعر بعد أن تضطرم النار إحترفت إلى اليمين أو إلى اليسار، وأحضرت دلال القهوة، وبدأت بعملها بوضع تلك الدلال على جمر بعد أن خمد لهبه وبدأ يتلظى متوهجاً.

(٢٨٧) المسايير: الزائرين، اللي: الذي، لفتنا: جاءتنا وهي فصيحة.
يوصي الشاعر عامل القهوة بأن يحسن حمس القهوة على الوجه المطلوب بحيث لا تكون نيئة ولا محترقة، وذلك لتقديمها للزائرين لنا من مكان قريب أو القادمين لنا من مكان بعيد.

(٢٨٨) كبه: أفرغها، يا صهل: إذا صهل، وأساس الصهيل للحصان وهي فصيحة واستعار

الشاعر صوت صهيل الحصان للهاون، كنه: كأنه، الزير: من أسماء الأسد وهي فصيحة دار ابن عمرو: يعني الجوف، لفي جاه.
يأمر الشاعر عامله على القهوة بعد أن تستوي في المحماسة على الوجه المطلوب أن يفرغها في ذلك النجر الذي إذا صهل بصوته فإنه يشبه زئير الأسد، وهذا النجر قد أحضر من بلد الجوف، والجوف مشهورة بانتاج نوع من نجور حجر جيري طري يقطع من الحجر تحت الأرض على عمق بضعة أمتار فإذا أخرج من مكانه جف واكتسب الصلابة التي تميزه كحجر بعد أن اكتسب الشكل الجميل.

(٢٨٩) الزبيدي: نوع أبيض من الكمأة، ويعني بذلك فناجين القهوة، مغاتير: بيض، يا شافته: إذا رأته وشافته فصيحة، العذراء: الفتاة وهي فصيحة.
يأمر الشاعر عامله بعد أن يستكمل عمل القهوة بتلك الفناجين البيضاء، وأن تلك القهوة جيدة الصنع لورأتها تلك الفتاة لتمنت أن تأخذ منها ما تصبغ به كفيها ليكون لها بمثابة الخضاب.

(٢٩٠) توريدها: يقصد الدلة.
في هذا البيت يصف الشاعر طريقة صب القهوة، فهو حينا يوردها وحينا يرفعها بحيث تنقاد القهوة المنصبة منها في الفنجان وكأنها سلك الحرير الممتد من ثعبة الدلة إلى الفنجان.

(٢٩١) يا: إذا، شفه: إرتشفها، الطرقى: المسافر، بلج: انبسطت أسارير وجهه وهي فصيحة، بلجة الطير: يقصد إن وجه ذلك المسافر إذا شرب من تلك القهوة فإنه ستنبلج أسارير وجهه مثل ذلك الصقر الذي رفع عن رأسه البرقع ففتح عيناه ونفض رأسه واشرأب عنقه.
يقول الشاعر إن هذه القهوة التي سبقت طريقة صنعها إذا شرب منها المسافر الذي أنهكه السفر وأعياه التعب فإن تعبه ونصبه سينجلي عنه، كما يرتفع البرقع عن رأس الصقر، فسترى هذا المسافر قد تفتحت عيناه وأبش العرق على جبينه وعاد الرونق إلى وجنتيه وركنت نفسه إلى السكينة والإطمئنان.

(٢٩٢) يبرا لهن: الضمير يعود على الدلال، ويبرا يقدم إلى جانبهن، مير: ثمر وهي فصيحة، غيد: جمع غيداء والغيداء من النخل ما فوق الودية ودون العيدانه وجميع هذه الكلمات غيداء، ووديه، وعيدانة فصيحة، مباكير: قد حملن الطلع في وقت مبكر وهي فصيحة، نعقب: نقدمها لشخص بعد آخر أو مجموعة بعد أخرى، الفضلة: بقية الطعام وهي فصيحة، هذابة: أي فكر بها وهي فصيحة وكان بعض الفقراء في أيام المجاعات والمساغب كفانا الله شر حلولها يدنفون إلى بيوت الكرماء وذلك لينالوا من بقية ما يقدمه الكريم لضيوفه من الطعام وهذا معنى قوله: هذابه أي جاءو في ذهنه أن ينال من بقية ما يقدم.
يقول الشاعر إنه بالإضافة إلى دلال القهوة المليئة بالقهوة الممتازة فإنه يقدم بجانبها

الصحون المليئة بالتمر من ثمر تلك الغيد الريانة بحيث يأكل منها الضيف حسب رغبته ثم تقدم تلك الصحون لمن بعدهم حتى تصل إلى أولئك الفئة من الفقراء الذين جاءوا لغرض الشبع من تلك الصحون.

(٢٩٣) لعيون: من أجل عيونهم وهي فصيحة، ربعى: جماعتي وهي فصيحة المباهير: جمع مبهارة، وهي الدلة الوسطى التي يوضع فيها البهار، ودلال القهوة ثلاثة أحجام الكبرى وتسمى «المصفاة» وما دونها تسمى «المطباخة» وهي التي تغلى بها القهوة وما دونها تسمى «المبهارة» وهي التي تغلى بها القهوة مع البهار، وأحيانا يوجد «مبهارة» رابعة هي أصغرها حجماً يصب بها من سابقتها وتدار بها القهوة.

يقول الشاعر إن ما أعمله من أجل جماعتي أهل البذل والسخاء الذين يتعبون دلال القهوة بعملها وتقديمها للضيوف وقاصديها، أولئك الجماعة الذين تربط بينهم المودة والصفاء تجمعهم الألفة والمحبة، فإذا زار أحدهم صاحبه فإن كلمات الترحيب المتبادلة هي أول ما يطرق آذان كل منهم.

(٢٩٤) سانعت: تيسرت الأمور، نحط: نقدم أو نضع وهي فصيحة، الكبش: الخروف وهي فصيحة، المير: الطعام وهي فصيحة، عاضبت: تعسرت الأمور، يسد: يكفي حيث أن الشاعر مدرك لتقلبات الأيام وتغير السنين فقد إحتاط لنفسه في قضية الكرم وما يقدمه لضيوفه حيث قال إنه في الأوقات التي يستطيع أن يقدم لضيوفه أعز ما لديه فلن يبخل به، ولكن قد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن فتعسره الأمور، وفي هذه الحالة فإن ترحيبه بضيوفه مع تقديم ما تيسر له أن يقدمه يكفي عن تقديم الأفضل المتعذر تقديمه لظرف الحاجة والعوز، فالجود من الموجود.

(٢٩٥) يا جن: إذا جئن، الخل: الشق في النفود وهي فصيحة دعاثير: متعبات، نحنى: نخضب وهي فصيحة، وكان من العادات السائدة عند البعض إذا جاء إليه ضيف وأناخ مطيته وقام مضيفه بذبح الذبيحة له، فإنه يضع كفه في دمها، ويضعه كعلامة على فخذ مطية الضيف أو رقبتها وذلك ليعلم من يراه من جيرانه أن المضيف قد قام بواجبه نحو ضيفه، وإذا لم ير جاره هذه الإشارة فإنه يجزم أن جاره قد عسرته الأمور ويقوم هو بهذه المهمة نيابة عنه.

يقول الشاعر إنه إذا جاءت الركاب المتعبة وعليها الضيوف من الخل الشمالي الذي يفضي على بلد الشاعر فِنّا فإننا سنباشره بذبح الذبائح له ونضع تلك العلامة الفارقة على فخذ مطيته أو رقبتها كدليل على قيامنا بالواجب نحوه.

(٢٩٦) أبي: أريد، ليا: إذا، تقلطوا: ساروا يسبق بعضهم بعضا، من شاف: من رأى وهي فصيحة.

يقول الشاعر إنني أريد من هذا العمل أن أكتسب الثناء ممن يحلون ضيوفا عندي فاريد، إذا غادروا مكاني الضيوف سيذكرون ما رأوا بأعينهم وما لمسوه بأيديهم وذا قوه بأفواههم، ومن رأي شيئاً تحدث عنه.

(٢٩٧) شين: ضد زين وهي فصيحة، مصابيحه: بوادر مبيته في الصباح.

يقـول الشاعـر إن الضيف إذا أصبح الصبـاح عند مضيفـه وسـافـر من عنـده فسترى الإنطباعات المنعكسة عليه إزاء مضيفة فـإن كان عنـد مضيف كريم وقـام بواجبـه على ما يرام فسترى ذلك واضحا على شرته ونفسيتـه، وإن كان قـد قصر معه لا سمـح الله فسترى أثر ذلك باديا على محياه، وعلى نبرات صوته إذا حلت سيرة المضيف.

فهرس الموضوعات

قائمة المراجع للكلمات والأماكن

١ ـ لسان العرب لابن منظور
٢ ـ القاموس المحيط الفيروز أبادي
٣ ـ أدب الكاتب لابن قتبة
٤ ـ شمال المملكة العربية السعودية حمد الجاسر
٥ ـ عالية نجد سعد بن جنيدل
٦ ـ بلاد القصيم محمد العبودي
٧ ـ آل الجربا أبي عبدالرحمن بن عقيل

قائمة الرواة

١ - القصة (١) روى لي موجزها مع القصيدة الشيخ خفيج بن عبدالله الشمري.

٢ - القصة (٢) روى لي موجزها الشيخ عبداللطيف بن عقيل القشعم الشمري.

٣ - القصة (٣) روى لي موجزها الشيخ خفيج بن عبدالله الشمري.

٤ - قصة (٤) من معرفتي.

٥ - قصة (٥) روى لي موجزها الشيخ سعد بن عبدالله بن جنيدل.

٦ - قصة (٦) روى لي موجزها الأخ راجي بن رجا الشمري عمن سبقوه.

٧ - قصة (٧) روى لي موجزها الأخ ابراهيم بن دحيم الرديعان عمن سبقوه.

٨ - قصة (٨) من معرفتي.

٩ - قصة (٩) روى لي موجزها مع القصيدة الشاعر محشم الجهيلي الشمري عمن سبقوه.

١٠ - قصة (١٠) روى لي موجزها الأخ ابراهيم بن دحيم الرديعان عمن سبقوه.

١١ - قصة (١١) روى لي موجزها الشيخ سعد بن عبدالله بن جنيدل.

١٢ - قصة (١٢) من معرفتي ورواية الشيخ عبدالعزيز بن سعود الجلعود ابن الراويه.

١٣ - قصة (١٣) روى لي موجزها مع القصيدة الشيخ مفتاح بن عبدالعزيز التميمي.

١٤ - قصة (١٤) روى لي موجزها الشيخ العم عيسى بن سالم السويداء رحمه الله.
١٥ - قصة (١٥) روى لي موجزها الشيخ سعد بن عبدالله بن جنيدل.
١٦ - قصة (١٦) روى لي موجزها الشيخ العم/ عيسى بن سالم السويداء رحمه الله.
١٧ - قصة (١٧) روى لي موجزها الشيخ الوالد زيد بن عبدالرحمن السويداء أمد الله في عمره.
١٨ - قصة (١٨) روى لي موجزها الشيخ مطلق بن عواد العبيكة الشمرى.
١٩ - قصة (١٩) روى لي موجزها الشيخ صالح بن سليمان بن خنين رحمه الله.

مطابع الفرزدق التجارية الرياض المنذر ٤٨٢٤٩٨٣/٤٨٢٤٨٦٥